

كاظم الشیخ

الشیرازی

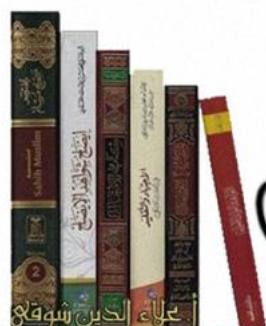
منسوبه لعلی بن ابی طالب

خالص كتاب في الأذن

تأليف

الأمير نجيب أرسلان
من أعضاء الجمعية العلمية العربية

مطبوعات دار مكتبة الحياة
برلين



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَارِيخُ الْأَذْرِقَةِ



صورة المؤلف أمام سجد قرطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد^٧

لا أقصد بهذا الكتاب استقصاء تاريخ الاندلس الاجمالي ، فقد كنت منذ نشأتي من لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال ، كأنما اعده تكراراً لسابق ، أو اعادة لصدى ؛ وخلواً من كل براءة . وأخبار الاندلس مستفيضة في التواريХ شرقاً وغرباً ، ومعروفة عند الادباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب ، وإنما يستحب الانشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعز البحث وطمست الاعلام ، فإذا قرأتها العامة بل الخاصة سقطت منه على جديد ذي طلاوة ، ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التي لا تغير .

فأشد الاقسام عوزاً إلى البحث من تاريخ هذه البلاد — التي لا نزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها - إنما هو القسم الأخير ، واحرج طائفة من أخبارها إلى التدوين ما تعلق بدور الجلاء وعصير الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة سنة ، لأن هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الاسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية ، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة عند عشر الناطقين بالضاد ، ولدي اقحاط البلاد بالادمعة المتقدة ، وعقم الامة عن الرؤوس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة ، فإنه لا عطر بعد عروس .

نعم لا أنكر أن (كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب) للعلامة المقرى هو من أوفي الكتب بأخبار الاندلس وآدابها : حقيقة أبناء ، وقطر حوادث وخزانة آداب ، وكشکول لطائف ديوان أشعار ، وقد كان عهد تصنيفه على إثر النازلة الكبرى بباقي الاندلس ، وامتصاص سؤر الكأس وعفاء الآخر الأخير من سلطان المسلمين فيها ، بحيث أمكن لصاحب ذكر سقوط مملكة غرناطة واستيلاء الأسبانيول على الجميع ، وختم الدولة الإسلامية في تلك الديار . ولكنه كثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء ، ولا يتبعون إلى قاعدة أن الحسن إنما هو تناسب الأعضاء ، فقد بحث في هذا الخطب الجلل والحادث العم بحثاً هو دون حقه بدركات ، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسطة البال من الواقع التي أشار إليها في بطن كتابه ، واستوعبه في أوراق بسيرة كانت لطافتها في كثافتها ، فان التناسب يقضي باعطاء كل مقام من المقال ما يكفيه ، ويقوم بحقه ، ويجيء على قدره . ولو فسح الفاضل المقرى - رحمه الله - لواقعه سقوط مملكة غرناطة وحدث انقراض أمر الإسلام بالأندلس ، ما فسحه في تاريخه للنشر الكثير الذي يغنى عن كله بعضه من المخاطبات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب ، أو وجهت إليه أو إلى غيره ، أو الشعر الغزير الذي كثير منه حقيق بالاسقاط من ذلك المجموع ، أو القصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول اناة غريب في الاستقصاء ، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم إلى السماء ، لكن ذلك أجزل فائدة وأنسن موقعًا ، وكانت الناس قد شفت غليلها من خبر هذه الطامة التي لكل الحوادث سلوان يسهلها وليس لها سلوان كما قال أبو البقاء الرندي ، ولكيفيامؤونة النقل عن كتب الأفرنج في ما يختص بالعرب ، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبد الله بن الأحمر وعمه الزغل ، وذهب تلك المملكة ، وما جرى في ضمته من الحروب ، وما حصر من المدن في مسافة من التاريخ استوعبت أطول منها رسالة واحدة صادرة عن ذلك السلطان إلى الشيخ الوطاسي صاحب فاس في موضوع ابرد ما فيه - مع طوله - انه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالأندلس على يده بأن الخطب غير نادر المثال ، وأن بغداد

دار خلافة بني العباس قد اصابها ما أصاب غرناطة . فانظروا هل هذا مما يؤثر على طوله ، او مما ترثى الانفس الى قوله ، على فرض صحة تمثيله ؟ وان كان العذر في ذلك ما يقال من ان صاحب النفح قد ألفه وهو نصو اسفار خال من الاسفار ، ليس لديه من العدة ما يستعين به على الاطالة والأخذ بالاطراف ؛ فسبحان الله كم يتلهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع ، عن تعليق ما ينفع ؛ وهذا الفاضل المقرى قد املى - عن ظهر قلبه - اربعة مجلدات كبيرة اودعها من التاريخ والجغرافية والقصص والنكات وحشاها من الشعر والنشر والتراجم والتتصوف غثا وسمينا ما لا أظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغين ، وتركنا في التاريخ المهم من تفصيل الواقع الشداد والمعارك التي سالت فيها انهر الدماء في ذر المتع الاخير عيالا على الافرنج مضطرين الى الاخذ عن مصنفاتهم ، فكنا وإياهم في أخذ تاريخنا عنهم كما كنا في اخذ لغتنا عن صالح الجوهرى^(١) .

ولا نشك ان في ديار المغرب من التواریخ عن کائنة الاندلس الاخيرة ما يستوفي شرحها ، ولكنه لم يشتهر عندنا في المشرق غير (نفح الطيب) . من مؤخر التأليف وهذه الحال معه ، فلا عجب ان ساقنا حب الاستقصاء واقتداء اثر أبناء الجلدة الى اخذ اخبارنا عن الاجانب وتلونا : ﴿ هذِهِ بضاعُتُنَا رُدْتُ إِلَيْنَا ﴾ .



(١) يعني أخذ العرب لغتهم عن الجوهرى وهو أعمى النسب ، ولكنه صار من العرب لغة وأدبا ودينا . وكتابه «الصحاب» أحد معاجم اللغة ، وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغني عنه ، وليس فيه شيء لا يوجد في غيره .

الفصل الأول

﴿في ذكر بنى سراج﴾

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الاندلسيين عند الافرنج وأبعدهم صيتا ، وقد يتوهونهم لعهد دولة بنى الاحدمر في غرناطة بمقام العشيرة الثانية للإسرة المالكة ، ويعزون اليهم الواقع وبينون عليهم القصص والحكايات ومن جملتها قصة الملكة التي من بنات ملوك غرناطة علقت بحب أحد شبان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال ، وضررت له موعداً للقاء في احدى خلوات القصر الشهير بالحمراء ، فاجتمعوا ساعة هي بالعمر اجمع - وقد كانت كذلك - يتاجيان ويتجاذلان ، ولكنهما بُغتا وهما على تلك الحالة ، ونمي امرهما الى السلطان ، فاستنشاط غضبا ، واستحضر لديه اكثرا رجال بنى سراج وأمر بضرب اعناقهم في المكان المسمى بقاعة الاسود من حمراء غرناطة فقتلوا جميعا ، ومن خرافات الإسبانيوں أنه لم يزل يسمع لرؤوسهم صدى عند خفوت الأصوات وانسدال حجب الظلام وهو صدى المقتولين بغيا وظلما^(۱) .

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى أن بنى سراج عشيرة نبيلة في غرناطة تروى لهم قضايا يطول شرحها في المناظرة مع بنى الزغربي من قبل الروايات ، والتاريخ لا يعرف بنى سراج سوى وزراء عند سلاطين بنى الاحدمر ، نصروا محمد الأعسر على ابن أخيه محمد الصغير فلما تولى هذا منذ سنة ۱۴۲۷

(۱) في دائرة المعارف الفرنسية الاسلامية يميل الى ان هذه الأسرة هي من قرطبة هاجرت الى غرناطة ونظمت ان واقعة هذا القتل حصلت في زمان أبي الحسن علي الذي تولى من سنة ۱۴۶۱ الى ۱۴۸۲ .

فتك بقسم منبني سراج ، فذهب رئيس العشيرة ملتجئاً الى ملك قشتالة . وقد أشارت الى واقعة قتلهم بعض الاغانى المتعلقة بفتح قلعة الحامة التي فت ذهابها في اعضاد المغاربة وبكونها طويلا . اهـ

وأما بنو الزغري هؤلاء فيظن انه تحريف عنبني الرغبي نسبة الى قبيلة زغبة ، وأن البنغاس في رواية شاتوبريان يريد بهم مكناسة لكونها من القبائل الكبار كما تنطبق عليه اشارة صاحب الرواية ، وفي التحريف المعتمد في اسماء الاندلس بين عربها وعجمها مالا يجعل هذا التحريف بعيداً .

واما الذي بأيدينا من كتب العرب فلا يشير الى شيء من هذه القصة ، ونظن انها لو كانت واقعية لم يسبق اليها أحدٌ صاحب (نفح الطيب) الذي ينبغي أن لا تفوته حكاية غرامية كهذه في كتاب استوفى امثالها . وهكذا قرر المرحوم ضيا باشا الاديب الشاعر المشهور من وزراء الدولة العثمانية في تاريخه للأندلس باللغة التركية ، فإنه أشار الى هذه الحكاية المتداولة عند مؤرخي الأفرنج ، وبين استحالة وقوعها بدون أن يعرفها كتاب العرب وتشهير عندهم ، ورجح أنها من اوهام الإسبانيو وخيالاتهم .

وأنا اذهب الى انها ان كانت ذات أصل ، فلا بد ان يكون ضعيفاً جداً نظراً لتعامي المؤرخين عنها ، وياليت شعرى ! ماذا كان يقول ابن خلدون - لواحياه الله في المائة التاسعة بدل الثامنة - اذا وقف على حكاية الفاهمة الاميرة في الحمراء مع الشاب السراجي ، وما أعقب ذلك من نكبة أبي عبد الله بن الاحدم لبني سراج ؟ أفلأ يخطر ذلك بياله قصة العباسة مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ونكبة الرشيد للبرامكة من أجل تلك القصة⁽¹⁾ ؟ لا جرم انه كان يتهم هذه المرة من الخطة في البرهان على عدم صحة الرواية ما انتهجه في تبرئة شرف العباسة ، وتزييه جانبها عن خرص القصاصين ووضع المؤلفين . على انه ان

(1) أي على القول بأنها سبب النكبة ، والصواب ان سببها سياسة البرامكة الفارسية المراد بها نزع الملك من العرب .

كانت قصة اخت هارون عديمة الصحة - مع اشتهاهها في كتب العرب ونقل الكثرين لها الدال على اقتناعهم بها - فما ظنك بهذه وهي غريبة ولم يعرفها العرب ، ولا حكاها غير الافرنج في ما نعلم ؟

وبالاجمال فكثير من هذه الاحاديث الغرامية - في الشرق وفي الغرب - هو من اوضاع أهل القصص ، خصوصاً الجانحين منهم لهذه المشارب لما هو مركوز في فطرة القراء - ولا سيما العشاق المستهترین - من الميل الى مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأسياً بها في ما هم عليه من التهتك والمحون ، واسترسالاً بعدها الى الشهوات . ولو لم تكن قصص العشق أعلق الكلام بالقلوب ، وأميل الاحاديث بالنفوس ، لما كان السود الاكبر يؤثرون مطالعة الاقاصيص الغرامية في هذه الايام ، حال كونهم يعرفونها من اوضاع القرائح وخیالات الاذهان ، والفرق بين هذه وبين تلك - في لذة المطالعة - فرق ما بين الواقع والموهوم .

واما ما نعرفه عنبني سراج من الكتب العربية فقد ورد في (النفح) - عند ذكر انساب الاندلس ، وأصول القبائل التي نزلت بها جالية عن المشرق - قوله : « قال ابن غالب (بنو سراج الاعيان من أهل قرطبة يتسبون الى مذبح) ولم يقل انهم من غرناطة فلعلهم انتقلوا الى غرناطة بعد انتقال قرطبة الى الاسپانيول » وذكر صاحب (مطعم الانفس) رجلاً يقال له ابن سراج في ترجمة الوزير أبي عامر احمد بن عبد الملك بن شهيد قال انه كان من البلاغة في مدى غایة البيان ، ومن الفصاححة في أعلى مراتب التبيان ، وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا يأس من ايرادها وهي « أنه كان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، فجلس فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه ، وهم يقتطفون من نخب آدابه ، واذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها ، وأمامها طفل كأنه غصن آس وهي متنقبة خائفة ترتاد موضعأً لمناجاة ربها ، وتبتغي مكاناً لاستغفار ذنبها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولت سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشتبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلم يغن عنها

تواريها شيئاً لأنه حال ما نظرها ، قال قوله فضحها وشهرها ، وهو :

دعاهما الى الله للخير داع
لوصل التبَّلُّ والانقطاع
فحلَّ الريبع بتلك البقاع
فحلت بوايِّد كثير السباع
فناديت يا هذه لا تُراعي
وتُنْصَاع منه كما المضاع
على الارض خطٌّ كظاهر الشُّجاع^(١)

وناظرة تحت طي القناع
سعت خفية تبتغي منزلا
وجالت بموضعنا جولة
أتتنا تبخرت في مشيتها
وريعت حذاراً على طفلها
غزالك تفرق منه الليوث
فولت وللمِسْكِ من ذيلها

وورد في (المطمح) أيضاً في ترجمة الاديب أبي بكر عبد المعطي « انه كان مرسماً في عسكر قرطبة ، وكان ابن سراج يتأتي له في كل ما يتغير خيفه من لسانه ، ومحافظة على احسانه ، فلما خرج الى اقليش خرج معه ، وجعل يسابر من شيعه ، فلما حصلوا بفحص سرادق ، وهو موضع توديع المفارق للمفارق ، قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه ، وانشده في تفرق الشمل وانصادعه :

فما أحدٌ منهم على أحدٍ حنا
كأنهم كانوا أحقر بها مينا
ظننا بكم ظنا فأخلفتم الظنا
وقلتم ولم أعتب وجرتُ وما جرنا
فقد وزمام الحب ختمن وما خنا
ويجمعنا دهرٌ نعود كما كنا؟

هم رحلوا عنا لأمرٍ لهم عنا
وما رحلوا حتى استفادوا نفوستنا
فيما ساكني نجد لتبعد داركم
غدرتم ولم أغدر وختتم ولم أخن
وأقسمت أن لا تخونوا أخي الهوى
ترى تجمع الأيام بيني وبينكم

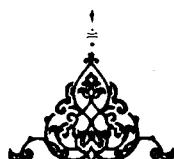
ومما ورد أيضاً في (الفتح) من ذكربني سراج عند ترجمة الوزير الرئيس العلامه ابن عاصم الغرناطي « انه من جملة من أخذ عنهم الامام القاضي أبو القاسم بن سراح » قوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضاً « ومما خاطب به

(١) الشجاع اسم نوع من الحيات .

شيخه قاضي الجماعة بغرناطة أبا القاسم بن سراج وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة
فظن انه يستخبره عن سر من أسرار السلطان وهو هذه الابيات :

فديتك لا تسأَل عن السرِّ كاتبًا فتلقاء في حال من الرشِّ عاطلٌ
وتضطُرُّ إما لحالةٍ خائِنٍ أمانُه أو حائضٍ في الإبطالِ
فلا فرق عندي بين قاضٍ وكاتبٍ وشى ذا بسْرٍ أو قضى ذا بياطِلِ
وورد أيضاً عند ذكر العلامة ابن مرزوق « ان من تاليفه العديدة (المعراب ،
في استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج) في كراسة ونصف أجاب به أبا القاسم بن
سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية » .

ويستدل من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين ان بنى سراج - الذين
تكثُر من التنويع بهم الكتب الافرنجية - هم قوم الاستاذ المذكور لكونه من أهالي
المائة التاسعة للهجرة زمن الجلاء الاخير الذي اشتهروا به عند الافرنج ، على
انني لم أعهد الا ما ندَّ عن محفوظي أثراً غير ما ذكرت لبني سراج الغرناطيين
المتأخرين ، وأنت ترى انهم هناك من حملة السيف وهنا من حملة القلم ، ولا
عجب فقد طالما اجتمعوا في البيوتات العريقة ، وتقارنا في العشائر النبيلة ، وبنوا
سراجاً من قربوا السيف الى القلم ، وجمعوا الحكم الى الحكم ، فاحرزوا
كغيرهم من هذه العشائر الشرف بطرفيه ، والتحفوا المجد بمطرفيه .



الفصل الثاني

﴿في ذكر مملكة غرناطة﴾

قال المقربي : « ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة - وقيل ان الصواب أغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانة - وكفاحا شرفاً ولادة لسان الدين بها » (هو لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وزيربني الأحمر أشهر من أن يعرف به) .

وقال الشقنقدي : « أما غرناطة فهي دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأ بصار ومطعم الأنفس ، ولم تخل من أشرف أمثل ، وعلماء أكابر وشعراء أفالضل ، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاحا » .

وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته : « وما لمصر تفخر بنيلها ، والفن منه في شنيلها » ولا يخفى أن الشين في جمل^(١) المغاربة عددها ألف .

وفي غرناطة قال الشاعر :

غرناطةُ ما لها نظيرٌ ما مصر ما الشام ما العراق
ما هيَ إِلَّا العروسُ تجلى وتلك من جملة الصداق

(١) الجمل (ويخفف) : حساب مبناه على حروف ابجد ، كل حرف يدل على رقم من الأعداد ، أحدها عشراتها ومئتها . والمقصود هنا ش = ١٠٠٠

وقال صاحب (منهاج الفكر) : « إن كورة البيرة التي منها غرناطة تسمى دمشق ، قيل لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل لشبهها بدمشق في غزارة الانهار ، وكثرة الأشجار » وقال : « لما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس ، انتقل أهلها إليها فصارت المصر المقصد ، والمعقل الذي تنضوي إليه العساكر والجنود » .

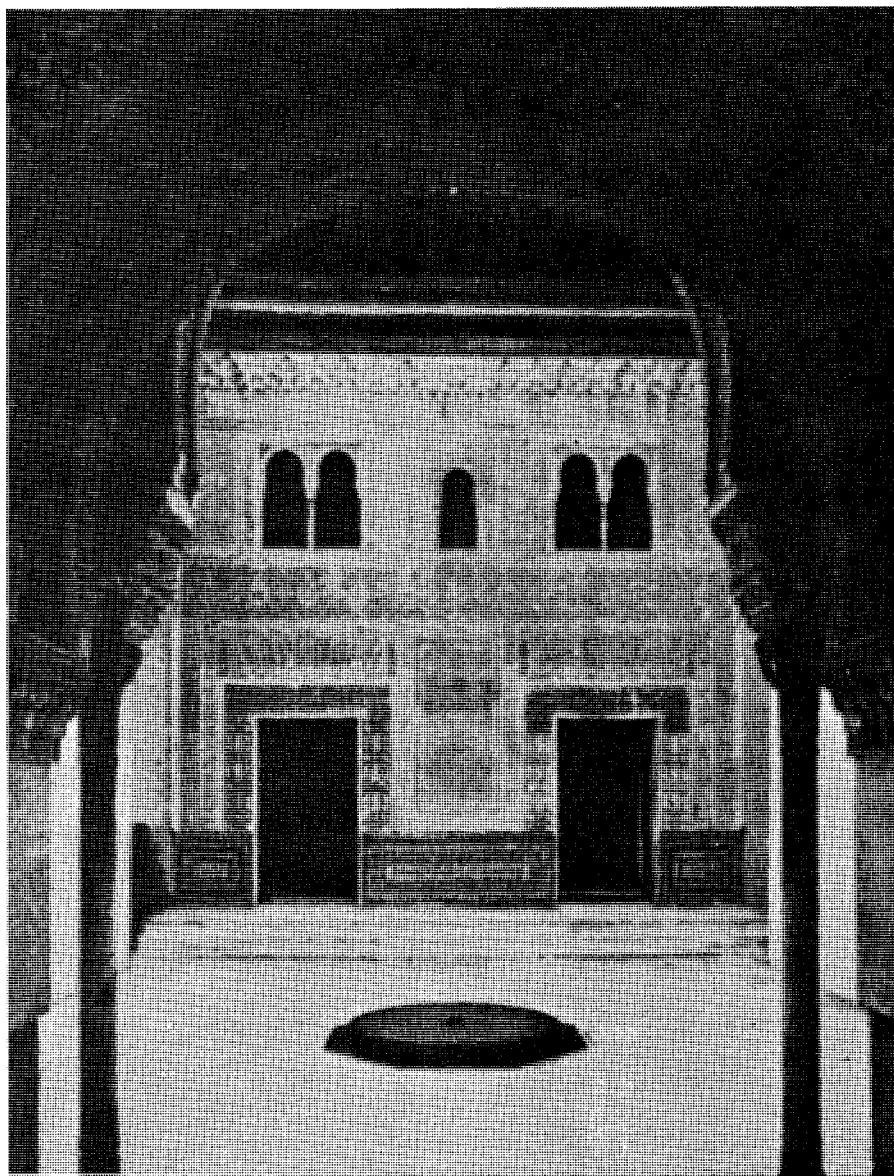
وقال ابن بطوطة وهو الأولي لكتبة ترحاله أن لا تزدهيه بلاد : « فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفر للساكن ، والثواب مذكور للمقيم والطاعن » إلى أن قال عند ذكره غرناطة ما نصه : « قاعدة بلاد الأندلس وعروض مدنهما ، وخارجها لا نظير له في الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور ، وسواء من الأنهر الكثيرة ، والبساتين الجليلة ؛ والجනات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . ومن عجيب مواضعها عن الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسوها » .

وقال ابن جزي مرتب رحلة ابن بطوطة : « لولا خشية أن أنساب إلى العصبية لأطلت القول في وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهرها لا معنى لاطالة القول فيه ، ولله در شيخنا أبي بكر بن محمد شربين السبتي نزيل غرناطة حيث يقول :

رعى الله من غرناطة متبوأَ يُسرُّ حزيناً أو يجبرُ طريداً
تبراً منها صاحبي عندما رأى مسارحها بالثلج عُدْنَ جليداً
هي الشُّغُرُ صانَ اللهُ من أهْلَتْ به وما خيرُ ثغرٍ لا يكون بروداً
كانت ثغراً في زمان شيخنا أبي بكر أما الآن فوسط من بلاد الإسبانيوْل ». .

وقال صاحب (منهاج الفكر) : « يشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها ، وفي قبليها جبل شلير ، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاء وفيه سائر النبات الهندي ، لكن ليس فيه خصائصه » .

وقال غيره : « يشقها نهر حدرة ويطل عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا



أحد قصور غرناطة

يزول عنه الثلج شتاء ولا صيفا ، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد ، وفي أعلى الأزهار الكثيرة ، وأجناس الأفاويم الرفيعة » .

وفي شلير يقول الشاعر وأصله من البلاد الحارة :

يَحْلُّ لَنَا تَرْكُ الْصَّلَاةِ بِأَرْضِهِمْ وَشَرْبُ الْحَمَىٰ وَهُوَ شَيْءٌ مُحْرَمٌ
فَرَارًا إِلَى نَارِ الْجَحِيمِ فَإِنَّهَا أَخْفَ عَلَيْنَا مِنْ شُلَّيْرٍ وَأَرْحَمٍ

وذكر بعض المتأخرین : أن قری غرناطة مائتان وسبعون قریة^(۱) ، ومن أعمالها قطر لوشة ، وهو قطر عظيم يحتوي على كثير من الحصون والقرى والمزارع ، وقاعدته لوشة ، وبينها وبين غرناطة مرحلة ، وهي مبنية على نهر الشنيل أيضا ، وتحف بها البساتين والرياض ، وإلى لوشة يتسبّب سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي يقول ابن خلدون فيه - وناهيك به من شاهد - : إنه كان الصدر المقدم في الشعر والكتابة في عصره .

ومن أعمال غرناطة باحة ، وعامة الاندلس يقولون بیغة ، وهي بلدة طيبة غزيرة المياه كثيرة الشمار ومنها وادي آش ، ويقال وادي الآشات ، وهي مدينة جليلة قد أحذقت بها البساتين وجرت فيها الانهار ، ولأهلها مزية في الأدب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار :

وَادِيُ الْآشَاتِ يَهِيجُ وَجْدِي كَلَمَا
أَذْكُرْتُ مَا أَفْضَلْتُ بِكَ النَّعْمَاءِ
لِلَّهِ ظَلَّكَ وَالْهَجِيرُ مَسْلَطٌ
قَدْ بَرَدْتُ لِفَحَّاتَهُ الْأَنْدَاءِ
وَالشَّمْسُ تَرْغُبُ أَنْ تَفُوزَ بِلَحْظَةِ
مِنْهُ فَتَطَرَّفُ طَرْفَهَا الْأَفِيَاءِ
وَالنَّهَرُ يَسْمُّ بِالْجُبَابِ كَائِنُهُ
سَلْغُ نَضَّتْهُ حَيَّةً رَقْشَاءِ
فَلَذَاكَ تَحْذِرُهُ الْغَصُونُ فَمِيلُهَا
أَبْدًا عَلَى جَنْبَاتِهِ إِيمَاءِ

(۱) من جملة قری غرناطة التي ورد ذكرها في الاحادية للسان الدين بن الخطيب قرية اسمها حارة عمروس وهي طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس وفي مصر بلدة اسمها عمروس ، وفي الشويفات بغرب لبنان مسقط رأس المؤلف حارة اسمها العمروسيّة ، فليتأمل القارئ إلى وحدة العربية شرقاً وغرباً مع تباعد الديار .

ومن أعمال وادي آش حصن جليانة ، وهو مدينة واليه ينسب التفاح الجلياني المشهور .

ذكر أجل قواعد الاندلس

إن علماء الجغرافية من العرب . قسموا تلك البلاد إلى موسطه وشرق وغرب . أما الموسطه فهي ذات القواعد المهمة التي كل منها مملكة مستقلة مثل قرطبة وطليطلة وجيان وغرنطة والمرية ومالقة ، فمن أعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة والبسانة والقصير وغيرها . ومن أعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمونكة وغيرها . ومن أعمال جيان بهذه وبيانة وقسطلة وغيرها ، ومن أعمال غرنطة وادي آش والمنكب ولوشة وباغة وغيرها . ومن أعمال المرية أندرش وغيرها ومن أعمال مالقة بلش والحامة وغيرها .

هذه أواسط الأندلس فأما الشرق ففيه من القواعد مرسيه ولدانية وبلنسيه والسهله والثغر الأعلى . فمن أعمال مرسيه أوريوله والقونت ولوحة وغيرها . ومن أعمال بلنسية شاطبة الذي يعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر . ومن أعمال الثغر الأعلى سرقسطة وكورة لاردة وكورة نطيلاه وكورة وشقة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أبيوب وكورة بريطانية وكورة باروشة . وفي كل من هذه الكور مدن وحصون وقرى لا تحصى ولدانية والسهله اعمال واسعة أيضاً .

وأما غرب الأندلس فهو اشبيلية وماردة واشبونه وشلب . فمن أعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبلة . ومن أعمال ماردة بطليوس وبابرة ومن أعمال اشبونه شترین . ومن أعمال شلب شتربيه ويلحق بعمل اشبيلية جزيرة قادس .

هذا وقد انطوى تحت كل عمل من الحصون والقرى والدساكر ما نترك وصفه لمؤرخي الأندلس ، ونجترىء عن تفصيله بما قررته من أن طول الأندلس نحو ثلاثة يومنا وعرضها تسعة أيام ، ويشقها أربعون نهرأً كباراً ، وبها من القواعد الكبار ثمانون ، ومن المدن المتوسطة أزيد من ثلاثة ، وفيها من الحصون

والأبراج والقرى ما لا يدخل تحت الحصر حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر
الشبيلية اثنا عشر ألف قرية .

وحيث قد ذكرنا هذا على وجه الاجمال نقول إن المدن التي كانت باقية في
يد الاسلام حين الجلاء أهمها بعد غزارة العريقة ووادي آش ولوشة ومالقة وبلاش
مالقة والحامة واندرش وشلوبانية ورندة والمنكب ما عدا الحصون والقلاع التي
تربو على المئين .

المارية

ولما كنا قد ذكرنا وصف غزارة كان لا بد من وصف المارية المدينة الثانية
لمملكة ابن الاحمر ، فهي على ساحل البحر وفيها دار الصناعة للمراكب ولها
القلعة العظيمة المنسوبة الى خيران مولى المنصور بن أبي عامر الذي كان قد
تولاها ، وفي كورتها معادن الحديد والرخام ، وطول واديها اربعون ميلا ، وكله
جذان وبساتين . ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالا ولا أوسع تجارة من أهل
المارية وقيل أنه كان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف ، وقيل كان بها لنسيج
طرز الحرير ثمانمائة نول ، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول ، وللنثياب
الجرجانية والاصفهانية وللمعاجر البديعة والستور المكللة الوف من الأنوال ،
وكان يصنع بها أنواع آلات الحديد والنحاس ويصنع بها الزجاج الأننيق ، وبحصن
شنش على مرحلة من المارية التوت الكبير وهناك الحرير والقرمز . وحصى المارية
كالدر في رونقه يحمل الى البلاد وكانوا يضعونه في كيزان الماء ولأبي جعفر بن
حاتمة تاريخ شامل سماه (مزية المارية) استوفى فيه اوصافها وخصائصها .

مالقة

ومن تلك البلاد مالقة وهي من أكبر الثغور واوسعها تجارة واحفلها عمارة
وقد ورد في رسالة ابي الوليد الشقنقدي في وصف مالقة ما يأتي :
« وأما مالقة فانها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالکروم المتصلة التي لا
تکاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التي شابهت نجوم السماء ، كثرة عدد
وبهجة ضياء ، وتدخل الوادي الزائر لها في فصلی الشتاء والربيع في سرر

بطحائهما ، وتوسيعه لخصوص أرجائهما ، ومما اختصت به من بين سائر البلادتين الرببي المنسوب إليها لأن اسمها في القديم ربة ولقد أخبرت أنه يماع في بغداد على جهة الاستطراف . وأما ما يسفر منه المسلمين والنصارى في المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما يحصره ، ولقد اجترت بها مدة وأخذت على طريق الساحل من سهيل^(١) إلى أن بلغت (بلش) قدر ثلاثة أيام متوجباً فيما حوت هذه المسافة من شجر التين وان بعضها ليجتنى جميعها الطفل الصغير من لزوقها بالارض وقد حوت ما يتبع الجماعة كثرة . وتين بلش هو الذي قيل فيه لبربرى : كيف رأيته ؟ فقال : لا تسلني عنه وصب في حلقي بالقفنة .

(قال) وقد خصت بطيب الشراب الحلال والحرام حتى سار المثل بالشراب المالقى وقيل لأحد الملوك وقد أشرف على الموت : أسأل رب المغفرة . فرفع يديه وقال : يا رب أسائلك من جميع ما في الجنة خمر مالقة وزبيب اشبيلية . وفيها تنسج الحلل الموسية التي تجاوز ثمانها الآلاف ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم وساحتها محظ تجارة لمراكب المسلمين والنصارى » .

وما زال تين مالقة مضربا للأمثال حتى قيل انه يجلب الى الهند والصين وحتى جعله أبو الحجاج يوسف البلوي المالقى حياته فقال :

مالقة حُيّت يا تينها السفن من أجلك يأتينها نهى طبىبي عنه في علّتي ما لطبيبي عن حياتي نهى وقال ابن بطوطة : « مالقة احدى قواعد الاندلس وببلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يماع في أسواقها بحسب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورمانها المرسي الياقوتى لا نظير له في الدنيا ، وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب . وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقصاصي البلاد .

(١) عمل بغربي مالقة كثير الضياع فيه جبل سهيل الذي لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه .

ومسجدها كثیر الساحة كثیر البركة شهيرها وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه
أشجار النارج البدیعة » .

وأما بـلـش مـالـقـة فـعـلـيـهـا مـسـحـةـ منـ مـالـقـةـ فـيـ طـيـبـهاـ ،ـ وـهـذـهـ أـمـهـاتـ مـدـنـ غـرـنـاطـةـ
وـدـرـرـ سـلـكـهاـ ،ـ وـلـوـ شـئـناـ اـسـتـقـصـاءـ أـعـمـالـهـاـ ،ـ وـتـقـرـيـ جـهـاتـهـاـ بـالـوـصـفـ وـالـتـنـوـيـهـ ،ـ
وـحاـولـنـاـ تـبـعـ كـوـرـ الصـقـعـ وـبـقـاعـهـ ،ـ وـالـدـخـولـ فـيـ ثـنـايـاـ حـصـونـهـ وـقـلاـعـهـ ،ـ لـضـاقـتـ
عـلـيـنـاـ الـكـتـبـ بـرـجـبـهاـ ،ـ كـيـفـ لـاـ وـالـأـنـدـلـسـ جـنـةـ الـعـرـبـ وـفـرـدـوـسـ نـعـيمـهـمـ وـمـرـمـىـ
غـایـاتـ خـیـالـهـمـ ،ـ وـقـدـ جـرـىـ فـيـ وـصـفـهـاـ مـنـ المـدـادـ ،ـ مـاـ لـوـ تـوـزـعـ لـوـسـعـ سـائـرـ الـبـلـادـ ،ـ
وـرـدـ مـنـ دـوـنـهـاـ اـرـمـ ذاتـ الـعـمـادـ ،ـ وـحـسـبـكـ أـنـ هـذـهـ الـمـدـنـ الـأـخـيـرـةـ كـانـ سـؤـرـ مـاـ فـيـ
الـكـأسـ ،ـ وـخـصـاصـةـ مـاـ فـيـ الـكـرـمـ ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـلـتـعـدـ أـسـبـابـ دـفـاعـهـاـ ؛ـ وـاسـتـحـکـامـ
حلـقـ أـقـنـاعـهـاـ وـغـازـارـةـ موـادـ أـجـلـابـهـاـ ،ـ لـمـ يـزـلـ أـمـلـ الـإـسـلـامـ فـيـهـاـ وـطـيـداـ ،ـ وـالـرـجـاءـ
بـشـبـاتـهـاـ مـعـقـودـاـ .ـ

قال ابن سعيد : « في حصنـهاـ ماـ يـقـىـ فيـ محـارـبةـ العـدـوـ ماـ يـنـيفـ عـلـىـ
عـشـرـينـ سـنـةـ لـاـمـتـنـاعـ مـعـاـقـلـهـاـ وـدـرـبـةـ أـهـلـهـاـ عـلـىـ الـحـرـبـ ،ـ وـاعـتـيـادـهـمـ لـمـجاـورـةـ العـدـوـ
بـالـطـعـنـ وـالـضـربـ ،ـ وـكـثـرـةـ مـاـ تـنـخـزـنـ الـغـلـةـ فـيـ مـطـاـمـيرـهـاـ فـمـنـهـاـ مـاـ يـطـوـلـ صـبـرـهـاـ عـلـيـهـاـ
نـحـواـ مـنـ مـائـةـ سـنـةـ وـلـذـلـكـ أـدـامـهـاـ اللـهـ تـعـالـىـ مـنـ وـقـتـ الفـتـحـ إـلـىـ الـآـنـ ،ـ وـاـنـ كـانـ
الـعـدـوـ قـدـ نـقـصـهـاـ مـنـ أـطـرـافـهـاـ ،ـ وـشـارـكـ فـيـ أـوـسـاطـهـاـ ،ـ فـقـيـ الـبـقـيـةـ مـنـعـةـ عـظـيـمةـ ،ـ
فـأـرـضـ بـقـىـ فـيـهـاـ مـثـلـ اـشـبـيلـيـةـ وـغـرـنـاطـةـ وـمـالـقـةـ وـالـمـرـيـةـ وـمـاـ يـنـضـافـ إـلـىـ هـذـهـ الـحـوـاضـ
الـعـظـيـمةـ الرـجـاءـ فـيـهـاـ قـوـيـ بـحـولـ اللـهـ وـقـوـتـهـ » .ـ

قال المقربي : « قـلتـ قـدـ خـابـ ذـلـكـ الرـجـاءـ وـصـارـتـ تـلـكـ الـأـرـجـاءـ لـلـعـدـوـ
مـعـرـجاـ ،ـ وـنـسـأـلـ اللـهـ الـذـيـ جـعـلـ لـلـهـمـ فـرـجاـ وـلـلـضـيقـ مـخـرـجاـ ،ـ أـنـ يـعـيدـ إـلـيـهـاـ كـلـمـةـ
الـإـسـلـامـ حـتـىـ يـسـتـشـقـ أـهـلـهـ مـنـهـ فـيـهـاـ أـرـجـاـ » .ـ

هـذـاـ كـانـ مـنـذـ نـحـوـ ثـلـاثـمـائـةـ سـنـةـ وـالـعـهـدـ بـالـخـرـوجـ حـدـيـثـ ،ـ وـالـدـمـ عـلـىـ أـسـوارـ
غـرـنـاطـةـ طـرـيـءـ ،ـ وـالـعـادـةـ الـمـسـتـمـرـةـ رـاسـخـةـ التـأـيـرـ ،ـ وـلـذـنـوـ زـمـنـ الـخـرـوجـ فـيـ أـمـلـ
الـرـجـوعـ حـقـ كـبـيرـ ،ـ فـأـمـاـ الـآنـ وـلـمـ يـكـتـفـ الـعـدـوـ بـاستـرـدـادـ أـرـضـهـ حـتـىـ هـمـ بـالـتـجـاـزوـ

إلى ما وراء البحر ، واعتراض من بلاد الإسلام ما بين السحر والنحر ، فلو نشر المقربي في هذا العصر ورأى ما رأى من التكالب المحيط لقنع بحفظ الموجود ، ولم تتمادأ به الاماني إلى استحياء ما في اللحود ؛ ولله الأمر من قبل وبعد^(١) .

ذكر فتح الاندلس

وأما تاريخ فتح غرناطة فيتهي إلى فتح سائر الاندلس على يد طارق بن زياد ، فإن طارقاً لما هزم لذرقي ، ومزق جموعه ، وحاز أمواله ، وتسامع الناس من بر العدوة بالفتح الذي تم على يده ، أقبلوا إليه من وراء البحر وتکافحوا حوله ، فارتفع الإسبانيول عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، ولحقوا بالجبال ، فطرق طارق حصونهم فاستنزلهم منها قسراً ، وأرهقهم ذلاً وعسراً ، وأوغل في البلاد فقذف الله الرعب في قلوب الإسبانيول ، فلم يتثنوا في موقف ، وصمد طارق إلى طليطلة قاعدة ملكهم ، وأرسل مغيثاً مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة ، وسرح جيشاً إلى مالقة وجيشاً آخر إلى غرناطة مدينة البيرة ، فافتتحوا مالقة ولاذ علوتها بجبالهم التي صارت في الدهور التالية ملجأً للمسلمين ، وتوجهوا إلى البيرة فحصروا مديتها غرناطة فافتتحوها عنوة وضموا اليهود إلى قصبتها ، وكان ذلك لهم سنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين استنامة إليهم من دون الإسبانيول لما بينهم من العداوة ، ثم إن العرب أخذوا بالرحيل إلى الاندلس والوفود على تلك البلاد من كل حدب ، ولا سيما عرب الشام ، فلما كانت ولاية أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة ابن صفوان عامل افريقية سنة خمس وعشرين بعد المائة كثروا عنده في قرطبة ، فلم يحملهم المصر ففرقهم في البلاد ، وكان سديد الرأي وافر الحزم فأنزل أهل

(١) إننا عندما حرجنا هذا التاريخ لم يكن المغرب الأقصى سقط في أيدي الفرنسيين والإسبانيول ، على أن الله تعالى بعث على هؤلاء جنده من بسلاء ريف مراكش بقيادة بطل الإسلام الأمير عبد الكريم فنكروا بهم وثاروا العرب الأندلس منهم ، ونسأله حسن العاقبة لهم .

دمشق البيرة لشبهها بها وسمها دمشق ، وأنزل أهل حمص أشبيلية وسمها حمص وأهل قنرين جيان وسمها قنرين ، وأهل الاردن رية ومقالة وسمها الاردن ، وأهل فلسطين شريش وسمها فلسطين ، وأهل مصر تدمير وسمها مصر ، وقيل ان بها نهرا له شأن كشأن النيل في الفيضان في فصل مخصوص .

عبد الرحمن الداخل وبنو امية

ولما أفلت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الاموي الملقب بالداخل سنة ثمان وثلاثين ومائة شريدا من المشرق ، واقتطع الاندلس عن المنصور العباسي ، نزل بساحل المنكب بادىء بدء ، وهناك وفاه أحزابه والقائمون بدعة الاموية من أشبيلية ورية بالبيعة ، وأخلصوا المناصحة وانضم اليه اليمانية فنهد الى قرطبة مقر الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازياً في الجالقة فأسرع الاوبة ، وزحف اليه عبد الرحمن فتلاقى الجماعان بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجاً الى غرناطة ، وتحصن بها ، ثم تصالحا على أن يبقى عبد الرحمن في قرطبة أميراً ثم نكث يوسف العهد واستؤنفت الحرب ، فانهزم الفهري واحتز رأسه وجيء به إلى عبد الرحمن واستوسق له الامر ، ودانت لطاعته البلاد ولمن بعده من أعقابه ، على تزايد في صولتهم ، وتأثر من سلطانهم .

المنصور بن أبي عامر

وكانت غرناطة كغيرها من الامصار يخنق فوقها اللواء الاموي حينما لم يكن غيره راية ، ولا دونه خلافة ، إلى أن اضطرب حبل المروانيين بالاندلس وانتزى عليهم المنصور بن أبي عامر كافل الخلافة^(١) . واعقابه وقاموا بالدولة العاميرية وعاقدوا صنهاجة من قبائل البربر واتخذوهم عضداً في مواقفهم من دون العرب .

(١) هو الملك الاعظم المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد

سقوط العامريين ومباهةبني امية

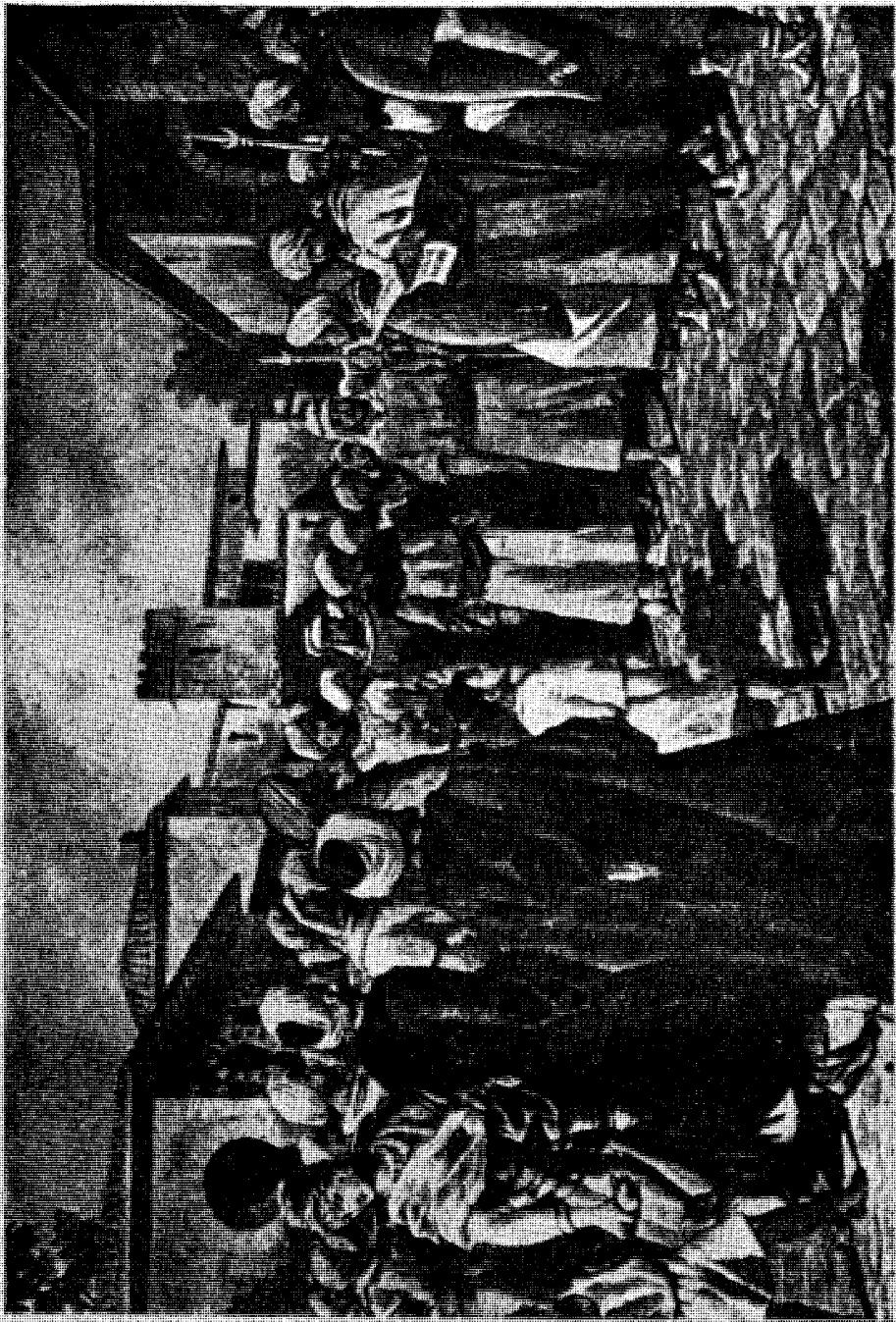
وكان عميد صنهاجة لوقته زاوي من بني حيوس ، فكان هو وقومه من صنهاجة وزناته مادة لاولاد المنصور بن أبي عامر إلى ان همت القرشية ومن اليهم

= الملك المعافري من أجل ملوك الاسلام ، وامضى سيف محمد عليه الصلاة والسلام ، لم يروعن أحد زيادة عما رُوي عنه من الهمة في الجهاد والاعمال في الغزو ، وتعدد السرايا الى العدو . ويقال انه غزا ستة وخمسين غزاة لم تنتكس له فيها راية ، ولا فل له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سرية . وقيل انه اعتنى بجمع ما على يوجهه من النبار في غزواته فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييرها في خوطه ، وكان يحملها معه في اسفاره وغزواته مع أكفانه تبqua لحلول الأجل . وقرأت ما يشبه ذلك عن سيف الدولة بن حمدان العدوى من انه اجتمع له من هذا النبار لبنة كبيرة عهد بوضعها تحت رأسه في قبره ، وجد المنصور هو عبد الملك المعافري الوارد على الاندلس بصحة طارق وأصله من قرية نركش ، رحل الى قرطبة وتأدب بها ، ثم اقتعد دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من خدام القصر ، الى ان احتاجت السيدة صبح ام المؤيد الاموي من يكتب لها ، فعرفها من يعرفه ، فكتب عنها وترقى في خدمتها ، الى ان رغبت الى الخليفة في توليه القضاء فولاه ، ظهرت منه نجابة فترقى الى ولاية الزكاة والمواريث باثبالية، وكانت مبدأ ظهوره. وناصح في خدمة المصحفي حاجب الخليفة وصار ذا شأن ، فلما توفي الحكم وتولى ابنه هشام المؤيد وهو حديث جاشت له الافرنج ، فرمأه المصحفي بابن ابي عامر فانتصر عليهم . وتمكن حبه من القلوب ، وأخذ يزداد جاحدها وعلوا حتى ناب له رأي بالاستبداد ، فمكر بأهل الدولة . وضرب بينهم وقتل بعضهم بعض ، فنكب الصقالة الخصييان بالقصر بالمصحفي . ونكب هذا بغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم . ونكب غالباً يجعفر بن حمدون قائد الشيعة ، وممدوح بن هاني وجعفرًا بعمالة ابن عبد الوهود وابن جهور وابن ذي التون ، ثم استعان على اولياء الدولة كلهم بالجند من زنانة والبربر واصطنههم ، وحجر على هشام المؤيد . ولم يبق له من الامر الا الاسم وامر بالدعاء باسمه على المنابر عقب اسم الخليفة ، وصار شأنه معه شأن ابن بوبه مع المطبع او الطائع العباسي ، بل اعظم من ذلك . واجاز الى العدوة ، وضرب بين رؤساء البربر ، فاستوثق له ملك المغرب وملك العذوتين وفهر جميع الاعداء . وله الغزا المشهورة في بلاد غاليسية الى شنت ياقب (سان جاك) التي وصل بها الى مال نطا رجل مسلم من بلاد الافرنج وتوفي سنة ٣٩٤ بمدينة سالم وهو منصرف من الغزو وحكي أنه مكتوب على قبره هذان البيان :

آثاره تنبيك عن اخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله كلا ولا يحمي الشغور سواه
وكان ملكه سبعاً وعشرين سنة .

واخباره ونواره تحمل مجلدات ، واكثرها مستفيض في التواریخ ، وكتب الأدب ، وقد افرد ابن حیان لأنثاره في الحزم والکید والجلد تأليفاً ، وخلفه ولده عبد الملك المظفر ابو مروان ، وكان مقتفياً اثر ابيه في الجهاد ، وملك سبع سنین وخلفه أخوه عبد الرحمن . وكل منهم حجر على هشام لكن هذا الاخير أحب أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلقة وأجبر هشاما على أن يولي عهده ولكنه قتل وانتهى به ملك العامريين كما أشرنا اليه .

رسام طبلطة عبد الرحمن الثاني سنة ١٤٨٨ م



من المضرية باعادة الملك إلى نصبه ، وتم خضت الحال بالفتنة ، وثار أهل قرطبة على أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ، وباعيوا محمداً بن هشام ابن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من اعقب الخلفاء ، ولقبوه بالمهدي بالله وكان عبد الرحمن بن المنصور بالثغر ، ففُقلَ إلى الحضرة وانقض عنه جمعه ، وخُذله حزبه حتى البربر انصار دعوتهما بما نقموا عليه من سوء تدبيره ، ثم وُثبَ عليه أحد الثائرين واحتزَ رأسه وحمله إلى المهدي وانقرضت دولة العامريين لأنَ لم تغُنِ بالامس .

وبعد أن اديل ثانية لبني امية تذكر اشياعهم من انتصار العامريين بالبربر وتسلحهم بهم ما اسخط على هؤلاء القلوب وأثار بهم الدهماء فنهبوا دورهم وانتقاموا منهم ، فشكروا ما أصحابهم إلى المهدي ، وكان واحداً في نفسه مثلما وجد الناس ، فغضِّ الطرف عن اساءتهم ، فتمشت رجالاتهم بالتحريك ، واسروا النجوى في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، ففسا الأمر وعوجلوا عن قصدهم ، وأحضر هشام وأخوه أبو بكر بين يدي المهدي فضرب اعنقهما ، وأزعج البربر عن قرطبة فلحق بهم سليمان بن الحكم بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر فباعيوا ولقبوه بالمستعين بالله ، واجتمعوا حوله بظاهر قرطبة . ثم نهضوا إلى طليطلة واستجاشوا بابن الاذفونش ، ونهضت البربرة والنصرانية إلَّا واحداً إلى قرطبة ، فبرز المهدي إلى لقائهم في جمهورها فانهزم ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة . ولحق المهدي بطليطلة واستجاش بابن الاذفونش أيضاً . وكانت القضية بالتناوب وكان هذا يمدّ منهم كل من استجاش به توسيعاً للنكأية فيما بينهم ، وكرّ المهدي على قرطبة فكشف عنها المستعين وحزبه وتفرقوا في البلاد للعبث والفساد ، فخرج المهدي في أثرهم ومعه ابن الاذفونش فاجتمعوا لهما وكروا عليهما فانهزمَا بمن معهما من الاسلام والنصرانية ، ودخل المهدي قرطبة مدحوراً ويسُس من الفوز ، فأخرج هشام المؤيد الخليفة كان قبل الفتنة ، وأقام في حجابته ، ظناً بأن ذلك يجمع الكلمة ويُفَلِّ من غرب الفتنة ، فلم يفت ذلك بعزم البربر والمستعين صاحبهم ، وأدَّاماً

الحصار ، فقام عامة قرطبة وقتلوا المهدى بحججه انه هو سبب الفتنة ، فلم يجدهم ذلك في التنفيس عن خناقهم وبقي المستعين يحصرهم حتى دخل قرطبة ومن معه ، وقتل هشام سرّاً ، وعاث البربر في الحضرة ونهبها ، انزلوا المعرة بذوي الصون والستر من بيوتها ، ثم ثب البربر بعد هذا الغلبة على المدن العظيمة فولوها ونزل زاوي المقدم الذكر بغرنطة من القواعد وهي محل الشاهد واتخذها داراً ومعتصما له ولقومه ، ثم خشي ثورة الاحقاد ووثوب أهل الاندلس على البربر ، ففضل الى المغرب ولحق بقومه في القيروان ، واستختلف على غرنطة ابنه فحدث بينه وبين الغرناطيين ما اوجب انتقامتهم عليه ، فبايعوا حيوس ابن عمّه ، فتأثر أمره وصار من اعظم ملوك الطوائف بالاندلس . وبعد وفاته سنة تسع وعشرين واربعمائةولي ابنه باديس ولقب بالمظفر، وزحف اليه العامري صاحب المرية فلقيه باديس بظاهر غرنطة فهزمه وقتلها ، وتمت شوكته وعظم سلطانه حتى خطب نصرته جميع ملوك عصره ، واستنجده محمد بن عبد الله البرزالي في دفاع ابن عباد ، واستمده القادر بن ذي النون في مناصبته أيضاً . وشاد باديس في غرنطة القصور ومرد الصروح . وسنة تسع وأربعين عند انعراضبني حمود أصحاب مالقة أضافها الى عمله ، وتوفي سنة سبع وستين وخلفه حافظه عبد الله ابن بلکین بن باديس ، وعقد لأخيه تميم على مالقة وكانت ظهرت دولة المرابطين ، وأجاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى الاندلس ، ونزل بغرنطة سنة ثلاثة وثمانين فقبض على عبد الله بن بلکین وأخيه تميم وتفاهموا الى بر العدوة وانزلهما السوس الاقصى فهلكا وانقرضت بهما تلك الامارة .

رجوع الى أخبار قرطبة :

بنو حمود الحسينيون

لما استقام الامر للمستعين بوساطة البربر خرج علي بن حمود الحسيني وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فاس من المغرب وأجازا الى الاندلس وادعوا

الخلافة ، واعصوا صوب حولهما البربر ونصر وهم على المستعين الاموي صاحبهم الاول فقتلوا ، وثلوا عرش بنى امية سبع سنين ، وجرى بينهم اثناء هذه المدة حروب ، ووقائع ليس هنا محل شرحها وتلقبوا بالقاب الخلفاء ، وتغلبوا على الامصار ، لكن لم تطل مدتهم فان آخرهم كان الواثق توفي سنة خمسين ، وكان أهل قرطبة أعادوا الخلافة الى نصابها وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار اخا المهدي ولقبوه بالمستظاهر وبعد شهرين من خلافته ثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر واتبعه العامة ففتكت بالمستظاهر واقام مكانه ولقب بالمستكفي وهو والد ولادة الادية الشهيرة صاحبة المطارحات مع الوزير ابن زيدون رحمهما الله . وبعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الامر الى المعتلي يحيى بن علي بن حمود وكان أهل قرطبة أكثر الناس تشغيليا وأقلهم ثباتا على الامور ، فخلعوا المعتلي وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد ابن جهور كبير قرطبة لهشام بن محمد الاموي أخي المرتضى وكان في (لاردة) عند ابن هود ، ولقب بالمعتمد بالله ولم يصبروا عليه فوق ثلاثة أعوام - قضى أكثرها متربداً في التغر - حتى خلعوه سنة ٤٢٢ وانطوى بساط الدولة الاموية ، وانتشر سلك الخلافة وصار الامر الى رؤسائه وزراء وقضاة ، استقل كل منهم بما أمكنته يده وصار يتباهي بعضهم على بعض بملوك الافرنج ، ويستجيرون بهم في الاحيain ويتمكنونهم من حضون المسلمين طعمة على الاستظهار وإيثاراً لهوى الانفس على مصلحة الامة .

بنو عباد اللخميون

ومن أشهر هؤلاء الملوك الذين تلقوها بملوك الطوائف بنو عباد من سلالة المنذر بن ماء السماء اللخمي ، كانوا ملوكاً بأشبيلية وغرب الاندلس وانتزعوا قرطبة من يد بنى جهور أصحاب الوزارة . وأشهرهم المعتمد بن المعتضد الشهير بالأدب والبراعة ، والموصوف بالكرم والشجاعة ، الذي نكبه في آخر أمره أمير

ال المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكان قد استفحَل أمره بالأندلس ، وعلت يده على بقية ملوك الطوائف ؛ وخطبوا نصره وغلوا في رضاه ، وما زال إقباله في ازدياد وجده في صعود ، حتى أسره ابن تاشفين في خبر سياتي ، ونكبه النكبة التي ضن بمثلها التاريخ بعد نكبة البرامكة ، وتوفي مسجوناً بأغمات سنة ٤٨٨ .

بنو ذي النون

ومن ملوك الطوائف بنو ذي النون أصحاب طليطلة ، وقد بلغت دولتهم غاية قصية من الاستفحال والترف ، وجاهدوا في الشغور جهاداً كان الصبر مقامه ، وغلبوا المعتمد بن عباد على قوطبة وقتلوا ولده أبا عمرو ، ونزعوا بلنسيمة من يد ابن أبي عامر إلى أن أدرك دولتهم الضعف لعهد القادر بن ذي النون ، واستسلم ابن الأذفونش منهم طليطلة مقر ملوكهم ، وشرط المظاورة على أهل بلنسيمة فأجابوه ، وتغلب الإسبانيون على الأرض واكتسحوا بسائطها ، وقادوا أبيها ، وأذلوا عتّيها ، وفي ذلك قول بعضهم يندب طليطلة :

سروراً بعد ما بئست شغور
ثبير الدين فاتصل الثبور
أمير الكاشحين له ظهور
مضى عنا لطيته السرور
يدور على الدوائر إذ تدور
وزال عتوها ومضى النفور
وسامح في الحرير فتى غيور
حاماها أنَّ ذا نبأ كبير
ولا منها الخورنق والسدير
تناولها ومطلبها عسير
فذللها كما شاء القدير

لشكلكِ كيف تبتسم الشغور
أما وابي مصاب هد منه
لقد قُصمتْ ظهور حين قالوا
ترى في الدهر مسرور بعيشِ
أليس بها أبُي النفس شهم
لقد خضعت رقاب كنْ غلباً
وهان على عزيز القوم ذل
طليطلة أباح الضُّد منها
فليس مثالها إيوان كسرى
محصنة محسنة بعيد
الم تك معقلأ للدين صعباً

وأخرج أهلها منها جميعاً
وكانت دار إيمان وعلم
مساجدها كنائس ! أي قلب
فيها أسفاه يا أسفاه حزناً
ويشر كل حسن ليس يطوى
أدبت قاصرات الطرف كانت
وادركتها فتور في انتظارِ
وكان بنا وبالقينات أولى
لقد سخن بحالتهن عين
لئن غبنا عن الاخوان إنما
نذور كان لليام فيهم
فإن قلنا العقوبة أدركتهم
فإنما مثلهم وأشدُّ منهم

ومنها

خذوا ثار الديانة وانصروها
ولا تهنو وسلوا كل عضٍ
وموتوا لكم فالموت أولى
أصبراً بعد سبي وامتحان
فأم الصبر مذكار ولود
ومنها

كفى حزناً بأن الناس قالوا :
أنترك دورنا ونفر عنها
ولا ثم الضياع تروق حسناً
وظل وارف وخرير ماء
ويؤكُل من فواكهها طري

فصاروا حيث شاء بهم مصر
معالمها التي طمست تنير
على هذا يقر ولا يطير
يكرر ما تكررت الذهور
الى يوم يكون به الشور
مصنونات مساكنها القصور
لسرب في لواحظه فتور
لو انضم على الكل القبور
وكيف يصح مغلوب قرير
بأحزان وأشجان حضور
بمهلكهم فقد وفت النذور
وجاءهم من الله النكير
نجور وكيف يسلُّم من يجور

فقد حامت على القتلى النسور
تها ، مضاربا عنْهُ النحور
بكُم من أن تجاروا أو تجوروا
يلام عليهما القلب الصبور ؟
وأم الصقر مقللة نزور

إلى أين التحوّل والمسير
وليس لنا وراء البحر دور
نباكُرها فيعجبنا البُكُور
فلا قَرْ هناك ولا حَرُور
ويُشَرُب من جداولها نمير

ويؤخذ كل صائفةٍ عشرُ
وغرَّ القوم بالله الغرورُ
رأوه وما أشار به مشيرُ
فما ينفي الجوى الدمع الغزيرُ
حيارى لا تحط ولا تسيرُ
عسى أن يُجبر العظم الكسيرُ
وما إن منهم الا بصيرُ
ولكن مالنا كرم وخيرُ
فليس بنافع عدد كثير

يؤدي مغرم في كل شهرٍ
لقد ذهب اليقين فلا يقينٌ
رضوا بالرق يا لله ماذا
مضى الاسلام فابك دمأ عليه
ونُح وآندب رفاقاً في فلة
ولا تجنج الى سلمٍ وحاربْ
أنعم عن مراسينا جمِيعاً
 ولو أنا ثبتنا كان خيراً
اذا ما لم يكن صبر جميل

بنو هود

ومن ملوك الطوائف بالandalus بنو هود أصحاب سرقسطة ، وأشهرهم المقترن بالله وابنه يوسف المؤمن ، وكان المؤمن قائما على العلوم الرياضية وله فيها تصانيف ، وابنه المستعين أحمد هو الذي هزم الإفرنج في واقعة (وشقة) ، وقتل من المسلمين يومئذ نحو عشرة آلاف واستشهد المستعين بظاهر سرقسطة سنة ٥٠٣ ، وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة وهو الذي اجلاه العدو عن سرقسطة سنة ٥١٢ ، وولي ولده سيف الدولة وله في الجهاد موقف الذي لا يخفى .

بنو الافطس

ومنهم بنو الافطس ملوك بطليوس الذين منهم المظفر صاحب التأليف المسمى بالمظفر في خمسين مجلداً وهم المرثيون برائية ابن عبدون المشهورة التي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاشر فما البكاء على الاشباح والصور
وذلك عند فتك البربر بالمتوكل البطليوسى .

بنو صمادح

ومنهم بنو صمادح بالمرية ومنهم مجاهد العامري بدانية والجزائر .

بنو حيوس

ومنهم بنو حيوس بغرناطة مكان الحاجة من الاستشهاد .

تمادي الاسبانيول ورفض ابن عباد وتهيؤه للقتال

هذا ولما تکالب الاسپانيول على بلاد المسلمين في الاندلس واهتبوا الغرة بما كان من افتراق الكلمة ، وتشعب السلطة ، وملکوا بلنسية وطليطلة وسرقسطة وغيرها وسار طاغيتهم حتى وقف بفرضه المجاز من طريف ، وضرب على ملوك الطوائف انواعالجزي ، فأدواها واعطوه المقادة ، وكان اضخمهم ملكا المعتمد ابن عباد اللخمي صاحب اشبيلية يؤديها وهو صاغر ، فلما تملك الاذفونش طليطلة ، أرسل اليه المعتمد السعاتد فلم يقبله هاتيك المرة . وارسل يطلب منه التزول عن جميع الحصون المنيعة ، وتبقى السهول للمسلمين وإلا فهو يزحف إلى قرطبة ، وكانت الرسالة مع جمع وافر نحو خمسمائة فارس ، فضاق المعتمد ذرعاً ، واعتنم القيام ففرق الجماعة على قواد عسكره ، وامرهم بأن يقتل كل من عنده ، وتولى هو بنفسه صفع عميدهم حتى خرجت عيناه ، وافتلت منهم ثلاثة نفر فعادوا إلى الاذفونش ، واخبروه بالخبر ، فرجع عن قرطبة إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويجلب بالقوة الكافية وهذه رواية ابن الاثير .

وروى صاحب (الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار) ما ملخصه : «أن المعتمد تأخر في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية ، فلما أرسلها استشاط الأذفونش غضبا ، وارسل يطلب منه بعض الحصون ، وامعن في التجني ، وسأل في دخول أمرأته الحامل جامع قرطبة لتلد فيه حسب اشارة القسيسين والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم ، وأن تنزل في قصر الزهاء غربي مدينة قرطبة والزهاء ، هذه هي التي بناها الناصر لدين الله وأمعن في بنائها وجلب إليها الرخام الملون والممرر الصافي والحواض المشهور الخ ذلك لتلد الأذفونشة بين طيب نسيم الزهاء وفضيلة الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان صاحب هذه السفاراة يهوديا هو وزير الأذفونش ، فأبى ابن عباد اجابة التماسه فراجعه وألح عليه حتى أيسه بما غلط له من القول ، فضربه المعتمد بمحبطة كانت بين يديه ، فأنزل دماغه في حلقه ، وأمر به فصل منكوسا بقرطبة ، واستفتى في جواز الفعلة الفقهاء فبادر محمد بن الطلاع الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لتعدي الرسالة ، واحتج بأنه إنما بادر بذلك خوفا من أن يكسل المعتمد عن منابدة العدو . وبلغ الخبر الأذفونش فاقسم بالله ليغزونه بأشبيلية ، وليحصنه في عقد داره ، وجرد له جيشين ، أحدهما زحف إلى كورة باجة فليلة فاشبيلية ، والثاني تولى قيادته بنفسه حتى التقى الجيشان تحت لوائه قبلة قصر ابن عباد على ضفة النهر الأعظم . وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زاريا : «كثربطل مقامي في مجلسي الذباب واشتدعلى الحر فاتحفي من قصرك بمروحة اروح بها على نفسي واطرد بها الذباب عن وجهي » فوقع له ابن عباد بخطه في ظهر الرقعة : «قرأت كتابك وفهمت خيلاك واعجابك وسانظر لك في مراوح من الجلود اللحمية^(١) ، تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى » وشاع توقيع ابن عباد ، وفشا في الناس عزمه على استئثار البربر لمجاهدة العدو ، فلما علم بذلك اقرانه ملوك الطوائف اهتموا وتشاوروا للأمر ، ومنهم من كاتبه ،

(١) اللحمية : نسبة إلى لحمة وهي أرض لقبيلة بالبربر ينسب إليها الدرك لأنهم ينبعون الجلود في الحليب سنة يتعلمونها فينبو عنها السيف القاطع .

ومنهم من شافهه ، قائلين إن الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » أي أن يكون مأكولاً ليوسف ابن تاشفين يرعى جماله في الصحراء ، خير من كونه ممزقاً للاذفونش أسيراً عنده يرعى خنازيره في قشتالة ، وقال لعذاله قولاً آخر : « يا قوم اني من أمري على حالين حالة يقين ، وحالة شك ولا بد لي من إحداهما ، أما حالة الشك فاني ان استندت الى الاذفونش أو الى ابن تاشفين فمن الممكن أن يفي لي ويمكن أن لا يفعل . وأما حالة اليقين فاني ان استندت الى ابن تاشفين ارضي الله ، وان استندت الى الاذفونش اسخطت الله وهذه حالة يقين فلماذا ادع ما يرضي الله الى ما يسخطه »

ولما عزم المعتمد على الاستجاشة أمر كلًا من الم وكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن حيوس صاحب غرناطة أن يوفدا قاضي الجماعة بحضوره ، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن ادhem وكان أعلم أهل زمانه فلما اجتمع عنده القضاة بأشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ، وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ ابن تاشفين وترغيبه في الجهاد ، وأسند الى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفاراة من ابرام العقود السلطانية (وقد وفى يوسف بالاولى ولم يف بالثانية) .

دعوة ابن تاشفين واستجابتة لداعي الجهاد

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الاندلس لم تزل تفدي عليه وفود المسلمين من وراء البحر مستعطفين مجهشين بالبكاء ، فما وفدت رسول ابن عباد حتى اسرع الاجابة ، وحشد العساكر وانزلها بالجزيرة الخضراء ، وأجاز على أثرها وامتلأت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوعة ، وعلى رواية ابن خلkan أنه أمر بعبور الجمال عبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملًا قط ، ولا خيل لهم ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها ، وكان ليوسف في عبور الجمالرأي مصيب فكان يتحقق بها

عسکره عند الحرب وكانت خيل الفرنج تجمع منها .

ولما نزل يوسف بحسوده في الجزيرة وبلغ الأذفونش تأب امراء المسلمين لمناهمته^(١) ، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها . وما وراءها ، ورفع القسيسون والأساقفة صلبانهم ، واجتمع له من الافرنجة والجلالقة ما لا يحصى عدده ، وبعث الأذفونش الى ابن عباد « ان صاحبكم يوسف تجشم المشقة وخاض البحار ، وأنا أكفيه العنا في ما بقي وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم » وكان مقصد هذه في الدلوف الى ديار المسلمين انه ان دارت عليه الدائرة كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم ، وان كانت عليهم كان أقدر على النكایة فيهم في عقرتهم . ومما قيل انه كتب الى يوسف كتاباً أنشأ له بعض غواة المسلمين يغاظ له في القول ، ويتوعده ، فأمر ابن تاشفين - ولم يكن اعلم بالعربية من الأذفونش - كاتبه أبو بكر بن القصيرة أن يجاويه وكان كتاباً مجيداً فكتب وأجاد ، فلما قرأه يوسف استطالة ، وأخذ كتاب الأذفونش وكتب على ظهره « الذي يكون ستراه » وأخذ المعتمد وامراء الاندلس يجلبون لجيوش المرابطين الاقوات والضيافات .

ولما قرب أمير المسلمين من أشبانيا ، خرج ابن عباد للقاءه في وجوه أصحابه ، وعندما تلقيا تصافحا وتعانقا ، ثم شكره الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وتوسلا الى الله أن يجعل سعيهما خالصا لوجهه . ووافت الجيوش كلها بطليوس وجاءهم الخبر بزحف الطاغية ، ولما تدانى الفريقان اذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفا عليهم من المكاييد لجهلهم المكان ، وكان يوسف قد كتب الى الأذفونش يدعوه الى احدى الثالث وهي الاسلام أو الجزية أو السيف ، كما هي السنة ، فامتلا الأذفونش غيظا وقامت الاساقفة ورفعوا صلبانهم وتبايعوا على الموت ، وقام الفقهاء من الجهة المقابلة ووعظوا وحضروا على الصبر والثبات ، وصدعوا بقوارع الكتاب ، واصبح يوم الخميس بعث الأذفونش الى ابن عباد يقول له: « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقاءنا بينهما

(١) ناهده في الحرب : ناهضه وخاصمه .

وهو يوم السبت » فأعلم ابن عباد السلطان يوسف بذلك ، وإنها خديعة ليفتك بال المسلمين الجمعة ، فانتبه الجيش الإسلامي طول ليلة الجمعة واستيقظ الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رمilla القرطبي فرحاً مسروراً يقول : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والشهادة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه بالطيب وانتهى ذلك إلى ابن عباد ببعث إلى يوسف يخبره .

واقعة الزلاقة الشهيرة

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفوا على محله الأذفونش ، وسمعاً ضوضاء الجيوش وصليل الأسنة ، وجاءت العيون من داخل محلتهم يقولون قد استرقنا السمع فسمينا الطاغية يقول لأصحابه « ابن عباد مسرع هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب ، فهم جاهلون البلاد ، فاقتدوا ابن عباد وأصدقوه الحملة ، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون » فأرسل ابن عباد يعرف أمير المسلمين . وقبل ورود الجواب غشته جنود الأذفونش من كل جهة ، وهاجت الحرب ، وحمي الوطيس ، وتتابع الناس على الموت ، وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ يوسف في النجدة ، وانكشف بعض أصحابه وأثخن جراحات وعقرت تحته ثلاثة أفراس .

وبينما هو على تلك الحال أقبل عليه من قواد المرابطين داود بن عائشة ، وكان من الأبطال فنفس عن خناقه ، وأقبل يوسف بجموعه وأصوات طبله قد ملأت الفضاء ، فنهد^(١) إليه الأذفونش ، بمعظم جيشه ، فقصدهم ابن تاشفين بجنده ، فردهم إلى مراكزهم ، وانظم بيوف شمل ابن عباد ، وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد فترزلت الأرض بحوارف خيلهم وأظلم الجو من العثير^(٢) ،

(١) نَهَدَ نَهَداً لِعُدوٍ : صمد له وشرع في قتاله . ونهد الرجل : شخص

(٢) العثير : التراب : العجاج الساطع . كل ما تليت من طين أو تراب أو مدر باصياع رجليك إذا مشيت .

وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عباد ، وتجددت الحملة فانكشف الأذفونش ، وقيل بل تصادم الجماعان وتناوبا الكروافر الى أن أمر يوسف حشمه من السودان فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق اللقط^(١) ، وسيوف الهند ومزاريق^(٢) الزان ، وأدرك الأذفونش اسود لصق به ، وقبض على عنانه ، وانتقض خنجرًا اثبته في فخذه ، فهتك حلقة درعه ، وهبت ريح النصر ، وأنزل الله السكينة على المسلمين ، وانكشف العدو من كل جانب وقد فشا فيه القتل والأسر واعتضم الأذفونش بخمسمائة فارس من قومه بربوة عالية ، انسابوا منها بعد تخيم الظلام ، وقد أباد القتل من الإسبانيول أمة وجعل المسلمين من روؤسهم ماذن يؤذنون عليها ، واستشهد في ذلك اليوم ابن رميلة كما بشره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصودي وغيرهما من الأعيان .

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم فتعطف عنها أمير المسلمين إيهاراً لأهل الاندلس ، وعادوا جميعاً إلى أشبيلية ، وحضرت الكتب من بر العدو إلى ابن تاشفين تقتضي عزمه بالرجوع ، فعبر البحر وودعه المعتمد . وهذه وقعة الزلاقة الشهيرة من أشهر ما حملته التواريخ من الواقع بين الإسلام والنصرانية ، وقد استوفينا خبرها بمكانتها من صدور الحوادث ، ووجدنا اختلافاً في تعين عامها ، فإن خلدون يقول سنة أحدى وثمانين (بعد الأربعين) وابن علقة يقول إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشرين خلون من المحرم سنة ٤٧٨ وكانت واقعة الزلاقة التي نشأت في السنة بعدها .

استيلاء المرابطين على الاندلس ونكبة المعتمد بن عباد

ولما قفل ابن تاشفين إلى المغرب خلف وراءه بالأندلس الأمير سيري بن

(١) الدرق : مفردتها الدرقة : ترس من جلد ليس فيها خشب ولا عقب .

(٢) مزاريق : مفردتها مزراق : رمح قصير .

أبي بكر أحد قواده الكبار ، ومعه جيش برسم الجهاد وابن خلدون يقول أنه خلف محمد المعروف بابن الحاج فرحت عساكر المرابطين صوب بلاد العدو فأثخت وبسبت وتغلبت في البلاد ، وكتب إلى يوسف قوله : ان الجيش مقيم على مراس العدو ، وهو في أضيق العيش وأنكده ، وأن ملوك الطوائف متلقون يجرون ذيول الترف والترف ، وقيل بل كان ابن تاشفين أنكر عليهم تراكم المغارم ، وتلاحق المكوس على رعيتهم فأمر برفع الكثير منها ، فانقضوا عنه الا ابن عباد في الأول فأمر ابن تاشفين بنقلهم إلى بر العدو وقتل من عصي منهم ، فابتداً ببني هود وأنزلهم من قلاعهم واستولى مكانهم ، وقتل ابن ذي النون صاحب بلنسية وملكيها ، ونازل بني ظاهر بشرق الأندلس فاجlahم وألحقهم بالمغرب ، وقصد بطليوس وفيها ابن الأفطس فانتزع منه جميع أعماله ، وأخذ غرناطة من يد عبد الله ابن بلкиن بن باديس ومالقة من يد أخيه تميم ، ولم يبق عليه الا المعتمد بن عباد في أشبيلية وكان الفقهاء قد أفتوا أمير المسلمين بخلع الجميع لما رأوا من فرقهم وسوء أحوالهم من تشعب أمور الملة وتكلب العدو ، ووردت الفتوى على يوسف من اعلام الشرق مثل الامام الغزالى والطرطوشى بوجوب ذلك .

وكان ابن تاشفين لما ورد على المعتمد حضرته أشبيلية بعد الزلاقة ، ورأى ما رأى من ترف المعتمد ، وسرفه في قصوره ، واسترساله إلى حظوظ نفسه مما كانت ترغب عنه نفس ابن تاشفين الناشيء في الصحراء ، أنكر ذلك الأمر وقال : « إن هذا الرجل مضيق لما بيده » وحكم بأن توفر هذه الأموال بين يديه لا بد أن يكون نتيجة المظالم والمغارم . والظلم وزيادة الرسوم عين الخراب على الرعية ، فأرسل سيري قائده يطالبه بالطاعة فلم يجده فنازله ، وحصر أشبيلية واستجاش المعتمد بالطاغية فلم ينفعه ، لما كان المرابطون قد فلوا من غربه ، فدافع المعتمد عند دخول المرابطين بلده دفاعاً مشهوراً ، وخرج حاسراً عن مقاضته والسيف في يده فرماه أحد الداخلين برمح فأخطأه ، فبادره بضربة أزهق بها روحه ولقي ثانياً فقسمه شطرين ، إلى أن وجد ابنه مالكا مقتولاً ويس من الثبات ، فطلب الأمان ، فأجيب إليه ، وحمل على السفين منفياً إلى بر العدو ، فأسكنه

يوسف اغمات وبها مات سنة ٤٧٠ ومن قوله عندما خلع :

مُلْكِي وَتَسْلِمْنِي الْجَمْوَعُ
لَمْ تَسْلِمْ الْقَلْبُ الْضَّلُوعُ
أَنْ لَا تُحَصِّنِي الدَّرَوْعُ
حَصَّ عَلَى الْحَشْنِ شَيْءٌ دَفَوْعُ
يَهْوَاهُ ذَلِّي وَالْخَضْرُوْعُ
وَكَانَ مِنْ أَمْلِي الرَّجُوْعُ
وَالاَصْلُ تَتَبَعَهُ الْفَرَوْعُ
إِنْ يَسْلِبِ الْقَوْمُ الْعَدِي
فَالْقَلْبُ بَيْنَ ضَلَوعِهِ
قَدْ رُمِّتْ يَوْمَ نَزَالِهِمْ
وَبِرَزَتْ لَيْسَ سَوْيَ الْقَمَيْ
أَجْلِي تَأْخِرَ لَمْ يَكُنْ
مَا سَرَّتْ قُطُّ إِلَى الْقَتَالِ
شَيْئُمُ الْأَلَى أَنَا مِنْهُمْ

والمعتمد بن عباد يتمنى الى المنذر بن ماء السماء اللخمي ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

مِنْ بَنِي مَنْذُرٍ وَذَاكَ اَنْتِسَابٌ
زَادَ فِي فَخْرِهِمْ بَنُو عَبَادٍ
فَتِيقَةً لَمْ تَلِدْ سَوَاهِيْ المَعَالِيٌّ
وَالْمَعَالِي قَلِيلٌ الْأَوَّلَادِ

ولم تعرفنا كتب الادب العربي بيت قيل فيه من الشعر ، ودار على أيام انسه ثم ادور نحسه من المحاضرات مثل هذا البيت اللخمي ، ولا بدولة راجت فيها بضاعة الادب والفصاحة ، وتناهت اليها غaiات الكرم والسمامة أكثر من دولة بني عباد ؛ حتى قال ابن اللبانة أن الدولة العبادية بالأندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد سعة مكارم ، وجمع فضائل ولذلك ألف فيها كتابا مستقلا سماه (الاعتماد في أخبار بني عباد) ولا يلتفت لكلب عقور نبح بقوله :

مَا يُزْهَدُنِي فِي اَرْضِ اَنْدَلُسِيْ
الْقَابُ مَعْتَمِدٌ فِيهَا وَمَعْتَضِدٌ
اسْمَاءُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا
كَالْهَرَّ يَحْكِي اِنْتِفَاحًا صُورَةَ اَسْدِ

(١) والى هذه الشجرة ايضا يتسب محرر هذا الكتاب ومن بني لخم اقوام كثيرون في الغرب والشرق ولا سيما بتصعيد مصر .

لان هذه مقالة متعرّف كافر للنعم ، ومثل ذلك في حقهم لا يقدح ، وما زالت الاشراف تهجي وتمدح انتهى .

وأخبار المعتمد واسعاته وامداده الشعراه فيه ، وفریدات القصائد في مراثيه ، ملء كتب المحاضرات ، وهي غرر قصص المسامرات .

غزا يوسف بن تاشفين الاندلس أربع مرات اخرهن سنة ٣٩٧ ، وانتظمت جميع ديار الاسلام فيها بملكه ، وانقرضت ملوك الطوائف .

واسع سلطانه بالعدوتين ، وورد له التقليد من الخليفة المستنصر العباسي ، وتوفي على رأس المائة الخامسة . وقام بالأمر بعده ابنه علي بن يوسف ، وسلك سنن أبيه في الغزو والجهاد ، وأجاز إلى الاندلس سنة ثلاث ، ونازل طليطلة واثخن في ديار العدو ، وعقد لولده تاشفين على غرب الاندلس وأجاز معه الزبير بن عمر في جيش ، وعقد لابي بكر بن ابراهيم المسوقي على شرق الاندلس ، وهو ممدوح ابن خفاجة أرق شعراه الاندلس شرعاً ، ومخدوم الحكيم المعروف بابن الصائغ .

ظهور الموحدين

ولي ابن غانية الجزائر الشرقية ميورقة ودانية ، ولأربع عشرة سنة من ملكه ظهر المهدي بن تومرت القائم بدعة الموحدين ، أمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر ، والتفت عليه المصادمة وتوفي سنة ٢٤ . وقام بالأمر بعده عبد المؤمن بن علي كبير اصحابه ، وانتسبت الدولة إليه فقيل دولة بني عبد المؤمن ، فلم يزل يسعى في تقويض خيام لمتونة ومحو آثار المرابطين حتى ملك أكثر المغرب منهم . وكان علي بن يوسف قد مات وخلفه ابنه تاشفين فصمد إلى الموحدين بكهف الضحاك بين الصخريتين من جبل تيطري ، فانهزم صنهاجة وفر تاشفين إلى وهران لاجئا بلب ابن ميمون قائد البحر ، ومات سنة ٤١ وبويغ في حضرتهم

مراكش لابنه ابراهيم ، وكان ضعيفا عن حمل الامر ، فأديل منه لعمه اسحق بن علي بن يوسف . وعلى تفية ذلك نازل الموحدون مراكش وملكوها وقطعوا دابر المرابطين ، وانعطفوا نحو الاندلس سنة ٥٥١ فانتزعوها من أيدي عمالهم : مدينة مدينة وحصنا حصنا بعد حروب تساجلت بها فئة المرابطين والموحدين وانتهت بالفتح لهؤلاء .

وطلب الشوار الامان من عبد المؤمن وتلاحقوا به ، فصفح عنهم ، ونهض الى سلا سنة ٤٥ ، واستدعى أهل الاندلس فباعوه جميعا ، وكان ميمون بن بدر اللمنتوني في غرناطة ، فنزل عنها له ولحق بمراكش ، ونازل السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن المرية - وكانت يومئذ في يد الاسپانيول - فاستنزلهم منها ، وتولى ابنه الآخر السيد أبو يعقوب اشبيلية بطلب اشياخها ، وزحف صاحب طليطلة الاسپانيولي بجميع الاكفاء لها الى قرطبة ، فسرح جيوش الموحدين الى مقابلته فارتاحل عنها .

وكان الامير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش قد ثار عليه شرق الاندلس ، فكتب الى عماله بالاندلس بما يتيسر له من فتح افريقيا ، وأنه عابر اليهم ، وكان ولده أبو سعيد وأبو يعقوب في الحضرة زائرين ، فانتهز الفرصة ابن همشك من اشياخ اللمنتونيين واستولى على غرناطة ، وانحصر من فيها من الموحدين بالقصبة ، فنهض عبد المؤمن الى سلا ، وارسل ابنه سعيداً وضم اليه ابن أبي حفص عامل اشبيلية من قبله لاجل استنقاذ غرناطة ، فهزمهما ابن همشك ، ورجع أبو سعيد الى مالقة فأعادهما الى غرناطة ، وعززهما بثالث هو ابنه الآخر السيد أبو يعقوب في سواد من الموحدين ، فوصلوا الى غرناطة وقد وافاها ابن مردنيش مددًا لابن همشك ، وظاهرهما النصارى فازدلف الفريقان بعضهم الى بعض بفحص غرناطة فدارت الدائرة على ابن همشك وأحلافه ، ففر ابن مردنيش الى الشرق مكانه ولحق ابن همشك بجيان ، ودخل السيدان ولدا عبد المؤمن قرطبة .

وسنة ٥٨٥ توفي عبد المؤمن بن علي رأس الموحدين ، وقام بالأمر بعده ولده أبو يعقوب وباييعوه كافة ، وفي أيامه قصد الحاج ابن مردنيش قرطبة ومعه جموع من زغبة وغيرها ، فارسل السيد أبا سعيد صاحب غرناطة والسيد أبا حفص أخاه في عساكر الموحدين لمنازلته ، ، فالتقوا بفحص مرسية فانهزم ابن مردنيش وأولئك من الاسباريول ، وأقر أبو يعقوب أخاه أبا سعيد على غرناطة ، وجعل أخيه السيد أبا اسحق على قرطبة ، وزحف الاسباريول على مدن المسلمين ، فخرج أبو حفص من مراكش سنة ٦٥ ومعه جموع الموحدين وأخوه أبو سعيد فوصل إلى اشبيلية ، وأرسل أخاه أبا سعيد إلى بطليوس ، وكان موحدوها قد دفعوا العدو فانعقد الصلح مع الاسباريول ، ونهض الموحدون إلى مرسية لتأديب ابن مردنيش التاجر ، ورافقهم ابن همشك حليفه بالامس لوحشة وقعت بينهما حملت هذا على أن يبعث إلى أبي حفص بطاعته وتوحيده ، فحوصر ابن مردنيش في مرسية ، وأطاع أهل لورقة ، وخضع ابن عميه صاحب المرية ، فحص^(١) ذلك جناحه ، وتواتفت عند الخليفة بمراكش جموع العرب فنهض بها إلى الاندلس ، واحتل قرطبة سنة ٥٧ ، ثم اشبيلية ، وكان ابن مردنيش قد هلكثناء الحصار ، فاذعن أولاده للخليفة وقربهم إليه ، وصهر لهلال بن محمد بن مردنيش في ابنته ، وأقر أخاه أبا سعيد على غرناطة ، وخرج القومس الاحدب بجموع الاسباريول ، فنهض إليهم ، وأوقع بهم في قلعة رباح ، ورجع إلى اشبيلية فانتقض العدو ثانية ، فكر عليه ، وتوغل في بلاده ، وفرق جموعه ، ووقف إلى الحضرة عام ٧١ لخمس سنين من إجازته إلى الاندلس ، وتوفي السيد أبو سعيد أخيه بالطاعون ، فعقد لابي زيد بن أبي حفص على غرناطة ، ولاخيه أبي محمد عبد الله على مالقة . وسنة ٧٥ عقد لقائم بن محمد بن مردنيش الاسطول وأغاره اشبوه ، فغنم ورجع وانتقض الاسباريول ثلاثة ، ونالزوا قرطبة ، وشنوا الغارات على جهات غرناطة ومالقة ، وصدتهم الموحدون من الاندلس وعليهم السيد أبو اسحق أخو الخليفة ،

(١) حص جناحه : قطعه .

فكفهم ، وأجاز الخليفة ثانية للجهاد ومعه حشود العرب وذلك سنة ٨٠ ، فغزا سنترين ، واثناء حصارها أو منصرفه عنها توفي ، قيل من سهم أصحابه من جهة العدو ، وقيل من مرض فجائي ، فخلفه ابنه يعقوب ، فلم يزل في الجهاد ، واثنخن في العدو ، وأجاز الى مراكش .

وقعة الارك

وبعد مدة بلغه خروج العدو وإيقاعه بال المسلمين وتغلبه على شلب ، فاعمل في التفير ، وزحف الى قصر مصودة ، ومنها أجاز الى طريف ، وحصر شلب وطرش وغيرهما من الحصون ، فافتتحها ، ودانت له البلاد ، فقفل الى المغرب خصوصا لما بلغه من ثورة ابن غانية الذي كان والياً في ميورقة ، لم تكد قدمه تستقر هناك حتى بلغه من أمر الأندلس ، وكرة العدو ما أقض مضجعه ، فاستأنف الاجازة سنة ٩١ . وتلاحت به حشود الموحدين من كل جهة ، فنزل بالأرك من نواحي بطليوس ، وقصدته الإسبانيول وعليهم ابن الأذفونش وملكان آخران في جيوش وافرة ، فكانت واقعة الارك التي هي اخت واقعة الزلاقة ، وقيل أجل منها قدرأ ، يُروى انه قتل فيها من الأفرنج ثلاثة ألفاً ، وحصل في بيت المال من الدروع ستون ألفاً ونجا فل الأفرنج وهم خمسة آلاف فاعتاصموا بحصن الارك ، فحضرهم واستنزلهم وفدى بهم عددهم من المسلمين .

وفي السنة التالية خرج الى الجهاد أيضاً ، فافتتح عدة حصون ، وتوغل حتى أشرف على طليطلة ، فاكتسح بسائطها ، وغنم وسبى وأبعد النكبة في العدو ، وقف الى اشبيلية ، وهناك اعتقل القاضي أبي الوليد بن رشد طائر الصيت في الاصقاع الاوربية ، والمنسوب اليه مذهب الاشراق في الفلسفة ، والذي ألف عليه وباسمه الفيلسوف رنان الفرنسي كتاباً مستقلاً ، وذلك لمقالات رفت الى السلطان يعقوب المذكور يستدل بها على رقة دينه وسلامة اعتقاده .

وعام ٩٣ عاود الجهاد واثنخن في ديار طليطلة ، واعيت بالافرنج الحيلة

فهادنوه ، وخطبوا علمه ، فأجابهم لذلك لما كان بلغه من ثورة ابن غانية وقرقوش مملوك بنى أيوب ، وأجاز الى الحضرة وتوفي بذلك عام ٥٩٥ .

السلطان يعقوب بن المنصور وخلفاؤه

وهذا السلطان يعقوب المنصور هو الذي استجاش به صلاح الدين يوسف ابن أيوب^(١) ليمنع بأساطيله ورود الأفرنج على الشام ، وأرسل اليه في هذه المهمة ابن مقدذ ، واصحبه بهدية ، فقيل انه رده لتجافي سلطانه عن خطابه بلقب أمير المؤمنين ، وتقصيده من حقوقه . وقيل بل جهز له بعد ذلك اسطولا عظيما وقطع طريق البحر على الأفرنج ، وهو السلطان الذي يروى انه زهد في آخر حياته ، وترك الملك وساح في الارض حتى وصل الى الشام ، ومات ودفن في البقاع ، والآن في الشرقي قرية اسمها السلطان يعقوب ، واتفق المحققون على أن هذه الحكاية لا اصل لها ، وجزم ببطلانها الشريف الغرناطي ، وقال انها من اوضاع العامة لولوعهم بالسلطان المذكور .

وقدمة العقاب

وتولى الامر بعد المنصور ابنه محمد ولقب بالناصر ، وفي أيامه خرج الاذفونش وعثا في بلاد الاسلام ؛ فجمع الناصر جموعا لا قبل بها لاجل الجهاد ، قيل نحو ستمائة الف مقاتل ، والتلقى بالأفرنج فيهم ابن اذفونش وصاحب برشلونة ، فكانت الواقعة المسماة بالعقاب التي لم يقم بعدها للمسلمين في تلك البلاد قائمة تحمد ، وهلك فيها اكثر المجاهدين وبالغ بعض المؤرخين فقيل لم ينج منهم غير الالف وهو بعيد عن التصديق ، وكان وقوعها في اواخر صفر سنة ٦٠٩ . وقد روى ابن خلدون هذه الواقعة فلم يبالغ في مصيبيتها ما بالغه

(١) صلاح الدين يوسف بن ايوب هو صلاح الدين الايوبي .

غيرة ، وزعم أن الافرنج بعد الكائنة أغروا على بلاد المسلمين فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فهزمهم وانتعش الاسلام .

وتوفي الناصر وخلفه ابنه يوسف ولقب بالمستنصر ، وكان حديث السن ، فانصرف عن تدبير الامور الى العبث واللهو ، وفي أيامه تولى أبو محمد العادل عم المستنصر مرسية بدل غرناطة .

وتوفي المستنصر فبويع عبد الواحد أخو المنصور ، ولم يكن يحسن التدبير ، فانتزى عليه العادل المذكور وبايده اخوته الذين كانوا على مدن الاندلس ، وتم له الامر ولكن زحفت اليه الافرنج وأطلقوا الغارة في البلاد فتصادف معهم فانهزم ، وأصيب المسلمين فأجاز الى المغرب وخلف على الاندلس أخيه أبو العلاء ادريس .

ثم خنق العادل بمراكبش . وبوييع يحيى بن الناصر وهو صغير فادعى الخلافة السيد أبو العلاء المذكور ، وبوييع بالاندلس ثم في المغرب ، لكن انتقض عليه المتوكيل محمد بن يوسف الجذامي ودعا لبني العباس ، فمال اليه أهل الاندلس وأجاز أبو العلاء الى المغرب ينazu يحيى بن الناصر ، وتعاظمت الفتنة بينهما ، واستبد ابن هود بما وراء البحر ، ودخل الوهن دولة الموحدين .

ومات أبو العلاء وكان يلقب بالمؤمن سنة ٦٣٠ . وتولى بعده ابنه الرشيد ، وفي مدته ظهر ابن الاحمر صاحب غرناطة . وأرسل اليه باليبيعة وتوفي سنة ٤٠ . وقام بالامر أخيه السعيد فقتله بنو عبد الواد بقرب تلمسان عام ٤٦ .

دولة بنى مرین

وبفي أيام الرشيد والسعيد خرج بنو مرین من بني واسین من زناتة ، واعصوصب حولهم البربر ، واجتمع العرب على بيعة عمر بن ابراهيم بن يوسف ابن عبد المؤمن ولقبوه بالمرتضي ، ولم تمض مدة من خلافته حتى انتقض عليه

ابن عمه السيد أبو العلى ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لخلاف تمكّن بينهما . وصحابه ابن عمه السيد أبو موسى عمران ، ولحقاً بيعقوب بن عبد الحق المريني التائز على دولتهم ، وما زال التزاع قائماً حتى غلب أبو العلى المذكور - وكان يكنى بأبي دبوس - على مراكش . وقع المرتضى في يده فعفا عنه أولاً ثم قتله ، واستقل بالأمر وتلقب بالواشق ، ونهض إليه يعقوب ابن عبد الحق بنبي مرين وحزبهم ، فخرج أبو دبوس من مراكش لدفاعه فاصطلت الحرب في وادي أعفر ، وانهزم الموحدون وقتل أبو دبوس ، ودخل بنو مرين مراكش ، وانقض ملك بنبي عبد المؤمن وكان ملكاً كبيراً وذلك عام ٦٦٨ والبقاء لله .

أما يعقوب هذا فهو ابن عبد الحق بن محيو بن محمد بن حمامه بن حمد بن وزير بن فكوس بن كرماط بن مرين من بنى واسين . كان جده محيوزعياً لبني مرين وحضر وقعة الارك مع الموحدين ، وأصابته فيها جراحة توفي منها ، فقام بالرئاسة بعده ابنه عبد الحق فوافق ظهوره دخول الضعف على دولة بنى عبد المؤمن ، فسمت نفسه إلى انتزاع ملكهم وتاذن الله بنصره في جملة مواطن إلى أن هلك في إحدى وقائعه معهم . وأمره لما يستقم ، وخلفه ابنه يحيى فملك فاس في خبر ليس هنا شرحه ، ومهد لاعقابه القواعد ، وخلفه أخوه يعقوب المذكور فدخل مراكش حضرة الموحدين واستأصلهم ومن هناك استقل بالأمر بنو مرين .

وأما الاندلس فعندما الثالث^(١) أمر الموحدين بالمغرب ، تمثّلت فيها رجاليات العرب باخراج السادات الموحدين ، واستبدل بالأمور ابن هود وابن مردنيش ، وخرج على ابن هود رجل يقال له محمد بن يوسف من بنى نصر ويعرف بابن الأحمر فجاذبه الجبل ، وكانت لكل منهما دولة أورثها أعقابه ، ولكن آل الأمر أخيراً إلى انحسار ترات الأسلام بالأندلس في ذرية ابن الأحمر على ما سيأتي .

(١) الثالث عليه الأمور : اجتمعت واختلطت .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

في دولة بنى الاحمر اصحاب غرناطة

قال ابن سعيد : « الضابط في ما يقال في شأن أهل الاندلس في السلطان أنهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان ، أو جواداً يبرع الاجواد ، تهافتوا في نصرته ، ونصبوا ملكا من غير تدبير في عاقبة الامر الى يوم يموج . وبعد أن يكون الملك في مملكة قد تورثت وتداولت ، يكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو ، وظهر منه كرم نفس للاجناد ، ومراعاة ، قدموه ملكا في حصن من الحصون ، ورفضوا عيالهم وأولادهم ان كان لهم ذلك بكرسي الملك ، ولم يزالوا فيجهاد وتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبها ، وأهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لثلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع » .

« ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الاخيرة بالأندلس تم خضت عن رجل من حصن يقال له (أرجونة) ، ويعرف الرجل بابن الاحمر كان يكثر معاورة العدو من حصنه ، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة الى أن طار اسمه في الاندلس ، وآل ذلك الى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ، ثم نهض فملك قرطبة العظمى وملك أشبىلية وقتل ملكها الباقي ، وملك جيان أحصن بلد بالأندلس وأجله قدرها في الامتناع ، وملك غرناطة ومالقة وسموه بأمير المسلمين فهو الان المشار اليه بالأندلس والمعتمد عليه » .

(أرجونة) حصن من حصون قرطبة ، كان فيه قوم يعرفون ببني نصر ،

ينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنهم ، وكان عميدهم لآخر دولة بني عبد المؤمن محمد بن يوسف بن نصر ويكنى بأبي دبوس ، ويقال له الشيخ وغلب عليه لقب ابن الاحمر ، وكان له اخ اسمه اسماعيل ، وكانت لهم وجاهة وكلمة عالية في تلك الجهة ، فما زال يتقدم من حالة الى حالة حتى احس من نفسه الكفاءة للاستقلال فثار على ابن هود سنة ٦٢٩ ، وأطاعته جيان وشريش واستفح امره ثم اصهر الى الرؤساء بني اشقيولة فتعزز بهم ، ثم لما خرج ابن هود من اشبيلية الى مرسية ثار بأشبيلية ابو مروان الباقي ، فدخله محمد بن الاحمر ، على ان يزوجه ابنته فأطاعه ، ودخل ابن الاحمر اشبيلية ، فلما تمكن فتك بابن الباقي واستولى مكانه ، غير ان اهل اشبيلية رجعوا الى طاعة ابن هود واخرجوه منها ، فتغلب على غرناطة ، اذ كان فيها ابي خالد الذي ثار بدعوته وارسل اليه بيعلمه ، فقدم عليها اولا ابن اشقيولة ، وجاء على اثره فنزلها بها ، وابتلى لنزوله حصن الحمراء التي لم يبن مثلها في البلاد ، وكان غلبه على غرناطة عام ٦٣٥ وغلب بعدها على مالقة ، وبايده اهل لورقة ، وتناول المريية من يد ابن الرميسي عامل ابن هود ، واخذ يضم الاطراف ويكتب الكتايب ويحصل الشغور ويؤوي المشردين . واتخذ لقب الغالب بالله وضرب على سكته وكتب على رايته (لا غالب الا الله) وصار ذلك علما لدولته فيما بعد .

بدء تقلص ظل الاسلام عن الاندلس

وفي ذلك الدهر وهو القرن السابع للهجرة كان الاسلام اخذ يتقلص ظله عن الاندلس ، واصبح المغرب بما ادرك اموره من الاحتلال ، وما اصاب اهله من اليأس من نصرة اندلس ، خصوصاً بعد وقعة العقاب عاجزا عن امدادها بالبعوث الوفيرة التي كانت تجتمع تحت رايات المرابطين والموحدين ، هاتيك الدول الكبار. فتقسم الاسپانيوو من كل جهة وملكوا القواعد مثل طليطلة وقرطبة وبلنسية واشبيلية وجيان وغيرها ، وصاروا يقطنون كل يوم كورة ، ويحذفون من مملكة



الاسلام حصننا الى ان الجاؤا المسلمين الى سيف البحر من رندة من الغرب الى الشرق ، نحو عشر مراحل فقط ، وتكلم الناس في ذهاب هذه البقية وقال شاعرهم :

حُشوا رواجِلَكُمْ يا أهْلَ أندلسٍ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْعَلَطِ
السِّلْكُ يُشَرُّ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى سِلْكُ الْجَزِيرَةِ مُشَوِّرًا مِنَ الْوَسْطِ
مِنْ جَاهِزَ الشَّرَّ لَا يَأْمُنْ عَوَاقِبَهُ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطِ^(۱)

والذى يلحظه القارئ - من كلام ابن خلدون الذى عاش قبل الخروج الاخير بنحو القرن ، وكان يشير الى مآلته بمشاهدة مقدماته ، وابن الخطيب الذى من جملة وصيته لاولاده عدم الاكتثار من تملك الارض واعتقاد العقار في بلد مثل الاندلس دار قلعة ومنزل غربة - ان عقلاء المسلمين كانوا مستشعرين هذا الخطيب من قبل وقوعه بأزمان لتكالب الاسپانيول على البلاد من كل جهة ، وظهور الفرقه بين امراء الاسلام ، وانقطاع مدد المغرب شيئاً فشيئاً ، كما سيتضح من مجرى الحوادث .

المدجنون

وكان بقية السيف من المسلمين والذين قد غالب على ديارهم العدو صائرين الى احدى ثلاث خصال : اما أن يلبشو في ديارهم خانعين لسلطانه على شروط قررها مع بعضهم في البداية ، وقيل لهؤلاء «المدجنون» من التدرجين أي التأليف والتأنيس - واما أن يجيزوا الى بر العدو فينزلوا بفاس أو وهران أو تونس حيث شاؤوا - واما أن ينحاشوا الى مملكة غرناطة ، لكونها أندلسية . ومجاورة لمساقط رؤوسهم ، ومنابت أسلفهم ، حيث لم تزل آمالهم بالكرة منوطه ، وعزائمهم على

(۱) السقط : الذي يعني فيه الطيب وما اشبهه من ادوات النساء قال ابن سيده : كالجواليق او كالقففة .

ادراك الاوتار مشدودة ، وحب الوطن من الایمان . وقد كان في انحياش^(١) المنهزمين الى أعمال ابن الاحمر منعة لسلطانه وشد لأزرره وبساطة لملكه ، فأمكنته الكرة المنصورة على العدو ، والاتخان في بلاده . كما يقول صاحب (فتح الطيب) من انه لما أخذت القواعد الاندلسية ، مثل قرطبة وشبيلية وطليطلة ومرسية انحاز أهل الاسلام الى مالقة وغرناطة والمرية ونحوها ، وملك هذا النزير ملوك بني الاحمر فلم يزالوا في تعب وممارسة مع العدو كما ذكره ابن عاصم قريباً ، وربما أثخنوا في العدو كما علم من أخبارهم ، وانتصروا بملوك فاس في بعض الاحيain وقال : « لما قصد ملوك الافرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها ، اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مرين يستنجدونه ، وعيتوا للرسالة الشيخ أبي اسحق بن أبي العاصي ، والشيخ أبي عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي ، ثم بعد سفرهم نازل الافرنج غرناطة بخمسة وثلاثين الف فارس ومائة الف راجل ، ولم يواففهم سلطان المغرب فقضى الله بركة المشايخ الثلاثة أن كسر الافرنج في الساعة التي كسر فيها خواطرهم سلطان المغرب ، وكانت بذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي ».

انتهى

أسباب الفشل

وزعم بعض المؤرخين أن سبب فشل الريح بالاندلس ، تقاطع المسلمين من أهلها ، واقبالمهم على اللذات ، واهمالهم أمور الجهاد في كثير من الاماكن ، حتى يقال إن الافرنج لما قصدوا بلنسية سنة ٤٥٦ خرج للقائهم أهلها بشباب الرزينة ، فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر لقومه :

(١) انحاش اليه : انحاز اليه

لِيُسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَغْرِي وَلِبْسُهُمْ حُلَّالٌ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمُ الْوَانَا
 مَا كَانَ أَقْبَحُهُمْ وَأَحْسَنُكُمْ بِهَا لَوْلَمْ يَكُنْ يَبْطُرْنَةً مَا كَانَا
 وَقَالُوا إِنَّمَا تَعْلَمُ الْعُدُوُّ عَلَى طَلِيلَتِهِ كَانَ مِنْ جَمْلَةِ مَا غَنَمْهُ الْفَرْنَجُ مِنْ
 الْجَيْشِ الَّذِي حَارَبُوهُمْ الْفَغَارَةُ نَفِيسَةٌ خَارِجًا عَمَّا سَوَاهَا مِنَ الْحَلَلِ . وَلَمَّا ذُكِرَ
 ابْنُ حَيَانَ تَعْلَمَ الْعُدُوُّ عَلَى بَرْبَشْتِ الرَّقِيبَةِ مِنْ سُرْقَسْطَةِ الْشَّغْرِ الْأَعْلَى سَنَةُ ٤٥٦ وَمَا
 جَرِيَ فِيهَا مِنْ فَطَائِعِ الْقَتْلِ وَالسَّبِيِّ وَالْأَسْبَاحَةِ الَّتِي تَقْطَرُ لَهَا الْقُلُوبُ دَمًا وَتَنْبُو
 الْعَيْنَيْنِ عَنْ مَطَالِعِهَا فِي التَّوَارِيخِ ، قَالَ : « قَدْ أَشْفَيْنَا بَشْرَحِ هَذِهِ الْحَالَةِ الْفَادِحَةِ
 مَصَابِيْنَ جَلِيلَةَ مَؤْذِنَةَ بُوشَكَ الْقَلْعَةِ » وَقَالَ : « مِنْ جَمْلَةِ تَغْفِلَ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ إِنَّ
 الْعُدُوُّ أَطْلَلَ عَلَيْهِمْ يَجُوسَ خَلَالَ الدِّيَارِ ، وَيَكْتَسِحُ الْبَسَاطَةَ ، وَيَقْطَعُ كُلَّ يَوْمٍ
 طَرْفًا ، وَيَسِّدُ أَمَّةً ، وَالْباقُونَ مِنْهُمْ صَمُوتُونَ عَنْ ذِكْرِ أَخْوَانِهِمْ ، لَهَا عَنْ بَشَّهُمْ ، مَا
 يَسْمَعُ بِمَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِهِمْ مَذْكُورٌ لَهُمْ أَوْ دَاعٌ ، فَضْلًا عَنْ نَافِرِهِمْ أَوْ مَاشٍ ». .
 قَالَ : « حَتَّى كَانُهُمْ لِيُسُوا مَنَا أَوْ كَانَ بِثَقَهُمْ لَيْسَ بِمَفْضِلِ الْيَنَا » اَنْتَهَى .

« بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ أَفْضَى بِثَقَهُمْ إِلَى الْجَمِيعِ » وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ حَيَانَ فِي الْقَرْنِ
 الْخَامِسِ ، وَمَا مَضَى عَلَى ذَلِكَ قَرْنَ حَتَّى أَفْضَى الْبَقِّ إِلَى قَرْطَبَةِ وَطَنِهِ وَلَهُ الْأَمْرُ
 أَجْمَعُ . وَأَخَذَ الإِسْبَانِيُّوْلُ تَطْلِيَةً وَاخْتَهَا طَرْشُونَةَ سَنَةُ ٥٢٤ . وَمَكَنَّهُمُ الْمُسْلِمُونَ
 أَنْفُسَهُمْ بِسَبِبِ اختِلَافِ مُلُوكِ الطَّوَافِ مِنْ بَلْنِسِيَّةِ . الْمَرَّةُ الْأَوْلَى سَنَةُ ٤٨٨ إِلَى أَنَّ
 اسْتَرْدَهَا يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ بَعْدَ سِعْ سِنِينَ مِنْ اخْذِهَا ، وَقَدِمَ عَلَيْهَا يَحْيَى بْنُ غَانِيَةَ
 الْمُلْثَمَ ، وَفِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ صَارَتِ إِلَيْهِ يَدُ ابْنِ مَرْدَنِيَّشَ ابْنِي عَبْدِ اللَّهِ مَلِكَ شَرْقِ
 الْأَنْدَلُسِ فَقَدِمَ عَلَيْهَا أَخَاهُ أَبَا الْحَجَاجِ يُوسُفُ بْنُ سَعْدِ بْنِ مَرْدَنِيَّشَ .

قصائد الاستغاثة

وَلَمَّا تَكَالَبَ الْعُدُوُّ عَلَى الْأَنْدَلُسِ فِي أَوْلَى دُولَتِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، كَانَ
 المَدَافِعُ عَنْ بَلْنِسِيَّةِ الْأَمْرِيْرِ زَيَانَ بْنَ ابْنِ الْحَمَلَاتِ بْنَ ابْنِ الْحَجَاجِ بْنِ مَرْدَنِيَّشَ ،
 فَاضْطُرَّ إِلَى الاستِغَاثَةِ بِصَاحِبِ افْرِيقِيَّةِ ابْنِ زَكْرِيَا بْنِ ابْنِ حَفْصٍ مِنْ دُولَةِ

الموحدين ، واوفد عليه بالرسالة ابا عبد الله بن الانبار القضايى الحافظ الكاتب الشهير ، فقام بين يدي السلطان بتونس وانشده قصيده السينية الفريدة .

سينية ابن الانبار القضايى

ان الطريق الى منجاتها درسا
فلم يزل منك عز النصر ملتئما
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
للحادثات وأمسى جدتها تعسا
يعود مأتمها عند العدى عرسا
ثنى الامان حذاراً والسرور أسى
الا عقائلها المحجوبة الأنسا
ما يذهب النفس او ما يتزلف النفسا
جدلان وازتحل الايمان مبتسعا
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
وللنداء يرى اثناءها جرسا
مدارساً للمثاني أصبحت درسا
ماشت من حلٍ موشية وكسا
فصوح النضر من ادواجها وعسا
يستوقف الركب او يستركب الجلسا
عيث الدبى في معانها التي كبسا
تحيف الأسد الضاري لما افترسا
وأين غصن حنيناه بها سلسما
ما نام عن هضيمها حيناً وما نعسا
مغادر الشم من أعلامها خنسا

أدرك بخليك خيل الله أندلسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
وحاش ما تعانه حشاستها
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً
في كل شارقة إمام بارقة
وكل غاربة اجحاف نائية
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
وفي بلنسية منها وقرطبة
مدائن حلها الاشراف مبتسما
وصيرتها العوادي العائشات بها
يا للمساجد عادت للعدى بيعاً
لهفي عليها الى استرجاع فائتها
واربعاً نمت أيدي الربيع بها
كانت حدائق للاحداقي مونقة
وحال ما حولها من منظر عجب
سرعان ما عاث جيش الضد واحربا
وابتز بزتها مما تحيفها
فأين عيش جنيناه بها نضراً
محا محاسنها طاغ أتيح لها
ورج أرجاءها لما أحاط بها

خلا له الجوُ وامتدتْ يداه الى
 صلْ حبلها أيها المولى الرحيم فما
 وأخيِّر ما طمسَتْ منها العدَاةُ كما
 أيامَ صرْتَ لنصرِ الحقِّ مستبقاً
 وقمتْ فيها بأمرِ الله متصراً
 تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم
 وتقتضي الملكُ الجبار مهجّته
 هذى رسائلها تدعوك منْ كثبٍ
 واقتُلَ جاريةً بالنجاح راجيةً
 خاضتْ حضارةً يعليها ويُخضها
 وربما سبحتْ والريح عاتيةً
 تؤمُّ يحيى بن عبدِ الواحدِ بن أبي
 ملكٍ تقلدت الايام طاعته
 من كلِّ غاد على يمناه مستلماً
 مؤيداً لورمي نجماً لأثيرته
 إمارةً يحملُ المقدار رايتها
 ييدي النهار لها من ضوئه شيئاً
 كأنه البدر والعلاء هالته
 تدبّره وسع الدنيا وما وسعت
 قامت على العدل والاحسان دولته
 مبارك هديه باد سكينته
 يرى العصاة وراثن الطائعين فقل
 الى الملائكة ينمّي والملوك معاً
 في نبعة أثمرت للمسجد ما غرسا
 من ساطع النور صاغ الله جوهره
 له الشري والشريا خطنان فلا
 اعز من خطنيه ماسماً ورسا

اليه محياه أن البيع ما وكسا
آماله ومن العذب المعين حسا
من البحار طريقا نحوه ييسا
من صفحة فاض منها النور وانعكسا
من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
علياء توسع أعداء الهدى تعسا
يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسيا
حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا
عيونهم ادمعا تبكي زكا وحسا
داءا متى لم تباشر جسمه انتكسا
جردا سلاهب أو خطية دعوا
لعل يوم الاعدادي قد أتى وعسى

حسب الذي باع في الاخطار يركبها
بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه
فاستقبل السعد وضاحا اسرته
وقبل الجود طفاحا غواربه
يا أيها الملك المنصور أنت لها
وقد تواترت الانباء إنك من
فأوطى الفيلق الجرار أرضهم
وانصر عيادا باقصى شرقها شرقت
هم شيعة الامر وهي الدار قد نهكت
فاملا هنيئا لك التمكين ساحتها
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه

سقوط بلنسية وقرطبة في يد الاسپانيول

فهزت هذه القصيدة من الامير أبي زكرياء عطف ارتياح وبادر للاصراخ
بالاسطول الثقيل ، والسلاح والمال الجزييل ، ولكن حالت أساطيل العدو بينه
 وبين بلنسية ، فبقي في مرسى دانية واشتد الحصار على أهل بلنسية وهلك الناس
جوعا ، فسلموا بلدتهم صلحًا سنة ٦٣٦ وتسليمها جقوم ملك أрагون ، على
شروط وضرب لأهل بلنسية أجلا مسمى لنقل امتعتهم ثم نكث العهد معهم ،
وتجمشموا من الذل والهون مالا يوصف ، وعصفت ريح الاسپانيول في أقطار
الاندلس وتتوافقوا على غزو بلاد المسلمين من كل جهة ، واسفوا الى القواعد
فكان لهم سنة ٦٣٣ سبع محلات لحصار المسلمين محلتان على بلنسية وجزيرة
شقر وشاطبة ، ومحللة على جيان ومحللة بلطيرية ومحللة بمرسية ، ومحللة بلبلة ،
وكان أهل جنوة محاصرين ستة ، وألح صاحب قشتالة على مملكة ابن هود فافتتح
ثلاثين حصنا ، وزحف الى قرطبة فلم يجد أهلها في أنفسهم الكفاءة لمدافعته

إمارة قرقشة

في فوج ٢٠٠٣ هجرية





فسلموه مديتها ، وهي بالأندلس قبة الاسلام ، والمناظرة في الشرق دار السلام ، وخرجوا لا يحملون شيئاً سوى ثيابهم التي على أيديانهم وحلاً معهم أهل القرى والمحصون المجاورة بعد أن أفسد الطاغية زروعهم ، ودمر بيوتهم ، فعادت بقاع الخير قاعاً صفصفاً ، وبذلك تلقي البلاد بالعمارة الخراب ، وتغيرت الهزار نعاب الغراب ، ومن الغرائب أنها بعد أن كانت تكفي الملايين من سكانها ، وتفيض عن ميرتهم خيراتها ، صار الأسبانيون يجلبون إليها الميرة والذخيرة من نفس قشتالة والى الله تصارييف الأمور .

سقوط لوشة والمرية واستردادهما

وأخذ العدو لوشة سنة ٦٢٢ ، ثم استردها المسلمون وبقيت في يدهم إلى أن استردها الأسبانيون ثانية في الكائنة الأخيرة ، وكان العدو أيضاً استولى على المرية سنة ٥٤٢ في وقعة شديدة استشهد فيها الإمام الرشاطي المحدث الكبير وكان لخميماً في النسب ، ثم استرجعوا الموحدون وبقيت في يد المسلمين إلى أن ذهبت في ما ذهب لآخر المدة .

سقوط ماردة وبطليوس وفتنة مرسيية وسقوطها

وملك العدو ماردة وبطليوس نحو سنة ٦٢٦ ، وملك جزيرة ميورقة سنة ٢٧ ، وزحف إلى شاطبة سنة ٣٥ ، وحصل هنالك وقائع قتل فيها شيخ المحدثين أبو الريبع الكلاعي ثم في السنة التالية كان تسليم بلنسية ، وخرج ابن مردنيش عنها إلى جزيرة شقر ، فتعقبه العدو إليها فاخترجه منها ، فلحق بدانية ، وأخذ هناك البيعة للحفصي صاحب أفريقيا ، ثم دخل أهل مرسيية وقتل وإليها أباً بكر بن خطاب ، وبعث بييعتها إلى الحفصي أيضاً ، ولم يزل في مرسيية إلى أن غلبه عليها ابن هود ، فخرج عنها إلى لمنت المحصون سنة ٣٨ ، وبقي فيها عاملاً لابي زكريا الحفصي أمير أفريقيا حتى انتزعها منه ملك برشلونة ، فلحق بمولاه في تونس وانقرض أمره بشرق الأندلس والله وارث الأرض ومن عليها .

قصائد استغاثة أخرى

وفي هاتيك الايام كما لا يخفى كثرت القصائد في استهانة الهم واستجاشة الحفائظ لتلافي أمر الاسلام بالاندلس ، وسارت أوابد الشعر في العدويين بالاستنفار الى الجهاد والاجابة لداعي الله وتسمى الجنة .

دالية ابي جعفر الوقشي البلنسي

فمن ذلك قول أبي جعفر الوقشي البلنسي نزيل مالقة من قصيدة :

فأبصر شمل الكاشحين طريدا
تغادرهم للمرهفات حصيدا
يعيد عميد الخارجين عميدا
فيتركمهم فوق الصعيد هجودا
ركوعا على وجه الفلا وسجودا
تبذلن من نظم الحجول قيودا
سحبن من الوشى الرقيق بروداً
وخدّد منهن الهجير خدوداً
تملكها دفع المدامع سوداً^(١)
تجاور بالقِد الاليم نهوداً^(٢)
على شمل أعياد أعيد بدیداً
خلو ديار لو يكون مفيداً

ألا ليت شعري هل يُمْدُلَي المدى
وهل بعد يقضي في العدو بنصرة
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب
ويلقى على افرنجهم عبل كلكل
يغادرهم قتلى وجراحى مبرحا
ويقتَلُ من أيدي الطغاة نواعما
وأقبلن في خشن المسوح وطالما
وغير منهن التراب ترائبَا
فحق لدمعي أن يفيض لازرق
ويالهف نفسي من معاصم طفلة
ويا أسفى ما إن يزال مردداً
واها بمد الصوت متighbا على

(١) قوله لازرق اي لعلج أزرق العينين وتنكى العرب به عن العدو .

(٢) الطفلة بفتح الطاء الغادة الناعمة والقد بكسر القاف السير من الجلد يربط به الاسير .

قصيدة «نادتك اندلس»

ومن ذلك القصيدة الطويلة التي خطب بها أبو زكريا بن أبي حفص صاحب تونس عند أخذ بلنسية ومطلعها :

«نادتك اندلس فلب نداءها»

ومنها :

صرخت بدعويتك العلية فاحبها
هي دارك القصوى أوت لإياله
وبها عيدهك لبقاء لهم سوى
دفعوا لابكار الخطوب وعُونها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت
تلك الجزيرة لبقاء لها اذا
رشّ إليها المولى الرحيم جناحها
أشفى على طرف الحياة ذمائها
حاشاك أن تفني حشائتها وقد
طافت بطائقه الهدى آمالها
واستشرفت أمصارها لامارة
يا حسرتي لعقالٍ معقولٍ
إيه بلنسية وفي ذكرائك ما
كيف السبيل إلى احتلال معاهد
والى ربي وأباطح لم تعر منْ
طاب المعرس والمقيبل خلالها
بأبي مدارس كالطلول دوارسا

من عاطفاتك ما يقي حواءها
ضمنت لها مع نصرها إيواءها
سبل الضراعة يسلكون سوءها
فهم الغداة يصابرون عناءها
سراءها وقضتهم ضرائهما
لم يضمن الفتح القريب بقاءها
واعقد بأرشية النجاة رشاءها
فاستيق للدين الحنيف ذماءها
قصرت عليك نداءها ورجاءها
ترجو بيعيني المرتجى احياءها
عقدت لصر المستضام لواءها
سئم الهدى نحو الضلال هداءها
يمري الشؤون دماءها لا ماءها
شب الاعاجم دونها هي جاءها
حلل الربيع مصيفها وشتاءها
وتطلعت غرز المنى اثناءها
نسخت نوافي الصليب نداءها

ومنها :

مولاي هاك معادة أبناءها
جرد ظباك لمحو آثار العدى
واستدع طائفة الإمام لغزوها
لا غرو أن يعزى الظهور لملة
ان الاعاجم للاعارات نهبة
تالله لو دبت لها أدبأها
ولو استقبلت عوفها لقتالها
أرسل جوارحها تجثك بصيدها
هُبوا لها يا معشر التوحيد قد
هي نكتة المحييا فحيهلا بها
حاشاكم أن تضمروا إلغاءها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة
هذى رسائلها تنادي بالتي
وفدت على الدار العزيزة تجتني
مستسقيات من غيوث غياثها
وبحسبها أن الأمير المرتضى
بشرى لاندلس تحب لقاءه
صدق الرواية المخبرون بأنه
ان دوخ العرب الصعب مقاده
فكأن بفيقه العرمرم فالقا
لا يعدم الزمان انتصار مؤيد
ملك أمد النيرين بنوره
حضرت جباررة الملوك لعزه

لتنيل منك معادة ابناءها
تقتل ضراغمها وتسب ظباءها
تبقى الى أمثالها استدعاءها
لم يرحا دون الورى ظهاءها
مهما أمرت بغزوها احياءها
لطوت عليها أرضها وسماءها
لاستقبلت بالمقربات عفاءها
صيداً ونادي لطعنها أرحاءها
آن الهبوب وأحرزوا علياءها
تجدوا سناها في غد وسناءها
في أزمة أو تضمروا إقصاءها
رهواً وجوبوا نحوها بيداءها
ساوت بها أحياها شهداءها
وقفت عليها ريهما ونجاءها
آلاءها أو تجتلي آراءها
ما وقعه يتقدم استسقاءها
متربقب بفتحوها آناءها
ويحب في ذات الله لقاءها
يشفي ضناها أو يعيد رؤاءها
وأبى عليها أن تطيع إباءها
هام الاعاجم ناسفا أرجاءها
تسوغ الدنيا به سراءها
وأفاده لألاؤها للاءها
ونضت بکف صغارها خيلاها

فَسَمَا إِلَيْهَا حَامِلاً أَعْبَاءَهَا
قَادَتْ لَهُ فِي قِدْمَهُ اُمَّرَاءَهَا
لَهَدَاهُ شَرْفٌ وَسَمَّهُ اسْمَاءَهَا
فَيَزُورُ زَانِخُرُ مَوْجَهًا زُورَاءَهَا

أَبْقَى أَبُو حَفْصِ أَمَارَتَهُ لَهُ
قَبَضَتْ يَدَاهُ عَلَى الْبَسِيْطَةِ قَبْضَةً
فَعَلَى الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مَيْسُمٌ
تَطْمُو بِتُونْسَهَا بِحَارُ جِيُوشِهِ

وَمِنْهَا :

فِيهَا يَوْقُوعُ لِلسَّعُودِ جَلَاءَهَا
لَارْهُواهَا يَخْشِيُّ وَلَا هُوجَاءَهَا
تَقْعُدُ الْجَلَائِلُ وَهُوَ رَاسِ رَاسِخُ
كَالْطُّوْدِ فِي عَصْفِ الرِّيَاحِ وَقَصْفِهَا

نونية أبي البقاء الرندي في نكبة الأندلس

وَمِنْ مَشْهُورِ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ نُونِيَّةِ أَبِي الْبَقاءِ الرَّنْدِيِّ مِنْ أَشْهَرِ شُعُرَاءِ
الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ مَتَدَالِّةٌ بَيْنَ النَّاسِ ، تَعُدُّ مِنْ حَفْظِ الْعَوَامِ فَضْلًا عَنِ الْخَوَاصِ ،
وَقَدْ أثْرَنَاها هُنَا لِكِيلًا يَخْلُو مِنْهَا كِتَابُ جَرْنَاهُ عَلَى الْأَنْدَلُسِ :

فَلَا يُغْرِي بَطِيبِ الْعِيشِ اِنْسَانٌ
مِنْ سَرَّةِ زَمْنٍ سَاعَتِهِ أَزْمَانٌ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانٌ
إِذَا نَبَتْ مَشْرِيفَاتٍ وَخَرَصَانٍ
كَانَ ابْنَ ذِي يَزْنِ وَالْغَمَدِ غَمَانٌ
وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانٌ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادُ فِي إِرْمٍ^(٣)

لَكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانٌ
هِيَ الْأَمْوَارُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دُولٌ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ^(١)
يَمْزُقُ الدَّهْرَ حَتَّمًا كُلَّ سَابِقَة^(٢)
وَيَنْتَضِي كُلُّ سَيْفٍ لِلْفَنَاءِ وَلَوْ
أَيْنَ الْمُلُوكُ ذُوو التِّيجَانِ مِنْ يَمِنٍ

وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادُ فِي إِرْمٍ^(٣)

(١) وَفِي رَوَايَةٍ : وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تَبْقَى مَحَاسِنَهَا .

(٢) وَفِي رَوَايَةٍ : يَمْزُقُ الدَّهْرَ مَنَا كُلَّ سَابِقَة .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ : مِنْ إِرْمٍ .

وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
كما حكى عن خيال الطيفِ وَسْنَانُ
وأمَّ كسرى فما آواه ايوانُ
يوماً ولا ملِك (١) الدنيا سليمانُ
ولازمان مسرات وأحزانُ
وما لاما حل بالاسلام سلوانُ

وأين ما حازه قارون من ذهب
أتى على الكل أمر لا مرد له
وصار ما كان من ملك ومن ملك
دار الزمان على دارا وقاتله
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
فجائعة الدهر انواع منوعة
وللحوادث (٢) سلوان يسهلها

هوى له أحد وانهد نهلاً
حتى خلت منه اقطارٌ وبلدانٌ
واين شاطبة أمَّ أين جيَانُ
من عالمٍ قد سما فيها له شأنٌ
ونهرُها العذب فياض وملاآنُ
عسى البقاء اذا لم تبق اركانٌ
كما بكى لفراقِ الالف هيمانُ
قد اقفرت ولها بالكفرِ عمرانُ
فيهنَ الا نوائقِنْ وصلبانُ
حتى المنابرُ ترثى وهي عيدانُ

دھی الجزیرة امُرٌ لا عزاء له
أصابها العینُ في الاسلام فارتزأتْ
فاسئل بنلسیة ما شأنُ مرسیةٍ
واين قربطة دارُ العلومِ فكُمْ
واين حمضٌ وما تحويه من نزءٍ
قواعدٌ كنَّ اركانَ البلادِ فما
تبكي الحنيفة البيضاء من اسفٍ
على ديار من الاسلام خاليةٌ
حيث المساجدُ قد اضحتْ كنائسَ ما
حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ

ان كنت في سنة فالدهر يقظان
أيعد حمص تغُّرَ المرأة اوطان

يا غافلاً وله في الدهر موعظة
وماشياً مرحًا يلهي موطنه

(١) وفي نسخة « ولم يملك »

(٢) وفي نسخة . وللمصائب .

وَمَا لَهَا مَعَ طُولِ الدَّهْرِ نَسِيَانٌ
كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبِقِ عَقْبَانٌ
كَأَنَّهَا فِي ظَلَامِ النَّقْعِ نَيْرَانٌ
لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عَزٌّ وَسُلْطَانٌ
فَقَدْ سَرِيَ بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رَكْبَانٌ
قُتْلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَزِ انسَانٌ
وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ أَخْوَانٌ
إِمَّا عَلَى الْخَيْرِ انْصَارٌ وَأَعْوَانٌ

تَلْكَ الْمَصِيَّةُ اَنْسَتْ مَا تَقْدَمَهَا
يَا رَاكِبِينَ عَنَقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً
وَحَامِلِينَ سِيَوفَ الْهَنْدِ مَرْهَفَةً
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دُعَةٍ
أَعْنَدُكُمْ نَبَأً مِنْ اهْلِ اِنْدَلُسٍ
كَمْ يَسْتَغِيثُ بَنَا الْمُسْتَضْعِفُونَ وَهُمْ
مَاذَا التَّقَاطِعُ فِي الْاسْلَامِ بَيْنَكُمْ
إِلَّا نُفُوسُ أَيَّاتٍ لَهَا هَمُّ

اَحَالَ حَالَهُمْ جُورٌ وَطَغْيَانٌ
وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بَلَادِ الضَّدِّ عَبْدَانٌ
عَلَيْهِمُ مِنْ ثِيَابِ الذُّلِّ الْوَانٌ
لَهَاكُوكَ الْأَمْرُ وَاسْتَهْوَتَكَ اَحْزَانٌ
كَمَا تَفَرَّقَ اَرْوَاحُ وَابْدَانٌ
كَائِنًا هِيَ يَا قَوْتُ وَمَرْجَانٌ
وَالْعَيْنُ بَاكِيَةُ وَالْقَلْبُ حِيرَانٌ
اَنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ اسْلَامٌ وَايْمَانٌ

يَا مِنْ لَذْلَةِ قَوْمٍ بَعْدَ عَزَّهُمْ
بِالْأَمْسِ كَانُوا مَلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حِيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ
وَلَوْ رَأَيْتَ بِكَاهُمْ عَنْدَ بَيْعِهِمْ
يَا رَبَّ أُمٍّ وَطَفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا
وَطَفْلَةٌ مِثْلُ حَسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ
يَقْسُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً
لِمَثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمِدٍ

سقوط شرق الاندلس في يد الاسپانيووں

وكان استخلاص الاسپانيووں لشروع الاندلس قاطبة شاطية وغيروها
واجلاؤهم من يشارکهم من المسلمين في ما تغلبوا عليه هناك في شهر رمضان سنة
٦٤٥، وتملك الاسپانيووں مرسيية صلحًا عن يد ابن هود ، وأقام صاحب قشتالة
بحاصر اشبيلية حولاً كاملاً وخمسة أشهر ، حتى ملكها صلحًا سنة ٦٤٥ ، وتوفي
بين يدي منازلتها الشيخ أبو علي الشلوبين امام النحاة ، فكانت المصيبة بهما على

ال المسلمين واحدة ، وعلى النهاة اثنين ، وافرغ الاسپانيول في حصار اشبيلية من الجهد مالا يوصف ووافقهم التجدات من اوربا الى أن افتحوها ، وخرج أهلها القليل ، فأجاز بعضهم الى بر العدو وانحاز الاكثر من غرناطة .

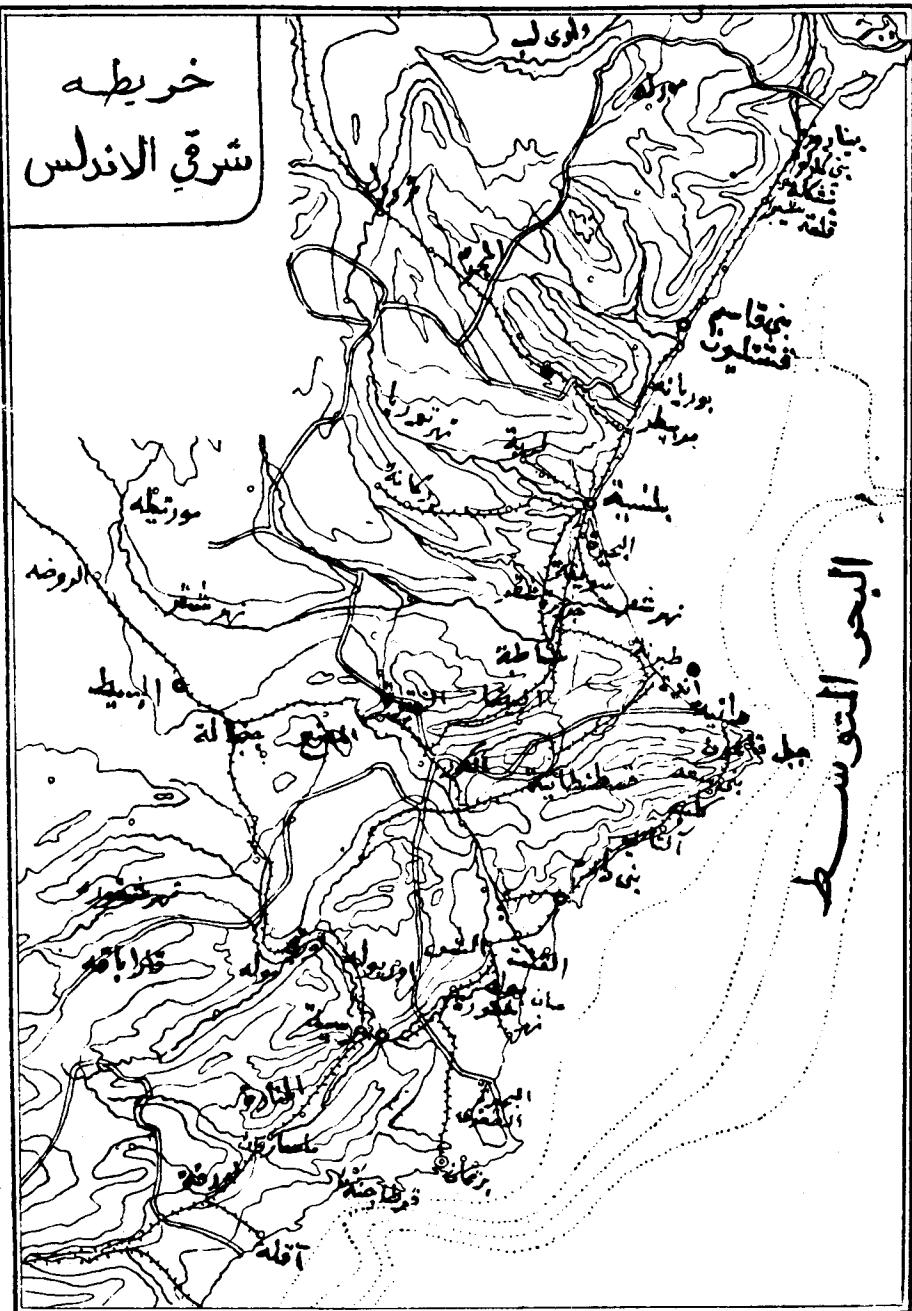
وكان ملك البرتغال قد ضبط بعض الحصون اثناء منازلة اشبيلية ، فخاف فرديناند صاحب قشتالة غائلته ، فأخذ يسامم بعض جيشه من قواد المسلمين ، مثل صاحب شريش وصاحب لبلة ورضي منهم بالاتواة ، واتخذ كثيراً من جهات الاسلام تحت حمايته ، حتى صفا له الوقت ، واطمأن بالله من جهة قومه ، فأعمل في فتح المغرب ، وبينما هو يستعد لذلك اذ وفاه أجله فخلفه^(١) ابنه الاذفنش الملقب بالفونس العاشر المعروف بالصابي أو السابيو ، لاشتغاله بالتنجيم .

صمود غرناطة

ولما لم يبق للإسلام في تلك المدة بالأندلس سوى غرناطة وجوارها ، وانحصر فيها ، كثفت هناك جموعهم ، وعز حمامهم ، وكان جلهم بل كلهم قوماً موتورين ، تتأجج الاحقاد في صدورهم ، ولا يريدون الا فرصة لأخذ الثأر ، فطالما أعظموا النكبة في العدو وهم تحت راياتبني الاحمر ، وكانوا جميعاً أهل فلاحه وتجارة وصناعة ، فعمرت بهم تلك الجهات عمراناً حافلاً تحدثت به الركبان ، وكان محمد بن يوسف بن الاحمر الذي أسس الدولة النصرية على انقضاض دول الطوائف وركبها من بقايا أملاك المسلمين بالأندلس رجالاً داهية منجدًا خبيئاً بالسياسة صالحًا للرئاسة ، وكان قرماً ثباتاً في العروب كما يقول ابن خلدون « فضم شمل قومه ، واحسن ادارة أمرهم ، وسدد الاحكام فيهم واتخذ غرناطة حاضرة ملكه وحصنتها ، وناهيك انه ابتنى فيها حمراءها الشهيرة - التي لم يبق للعرب في تلك الديار ولا في غير تلك الديار - اثر أجل منها » .

(١) كذا ولعل الاصل فخلفه .

خریطہ شرقی الاندلس





ما قاله ضياباشا عن الاندلس

قال ضياباشا في تاريخه للاندلس تحت عنوان (مموريا غرناطة) ما معناه : « ان محمد بن الاحمر الذي غرس دوحة تلك الامارة التزم لاجل تمكين سلطنه قاعدة : لا ملك الا بالرجال ، ولا رجال الا بالمال ، ولا مال الا بالعمارة ، ولا عمارة الا بالعدل والسياسة ، فاخذ رعيته بحسن السياسة ، وأقامهم على العدل ، واحتفل بتشييد المصانع والمعاقف ، واستغل بتوطين المسلمين المنهزمين من جور الاسپانيول ، حاملا ايامهم على الفلاحه والتجارة والصناعة ، واحياء موات الارض واستثمارها ، وتربية الحيوانات وتكثيرها ، فلم تمض سنون قلائل الا وقد اشتبتت عمارة بلاده ، وقد التفت نحو علماء الطبيعة والكيمياء فاستخرج بمعونتهم المعادن واستفتح ارصاد الكنوز الطبيعية ، ولم يهمل أمر الصحة العمومية ، فبني جملة مستشفيات ومنازل للعجزة وشاد كذلك كثيراً من المدارس لطلب العلم ، وبنى قصر الحمراء الشهير ، الذي أنسى ذكر الخورق والسدير ، وهو من القصور المعدودة في الدنيا رونقاً ومتانة واتساعاً وإحكام بناء . وكانت غرناطة في أيامه من أشهر مواقع المعمور عمارة وسعادة وسعة تجارة وبساطة في العلم والجسم ، وكانت منسوجاتها فائقة منسوجات غيرها من جميع الأقطار » .

وقال هذا الاديب الراسخ والوزير الجليل في محل آخر من كتابه ما معناه : « انه بحسن ادارة محمد الخامس (من سلالة محمد الشيخ) وجنوحه الى السلم او بالخدمات الداخلية والخارجية التي توالت يومئذ على مملكة قشتالة واراغون ، قد مضت لذلك التاريخ عشرون سنة متتابعة على غرناطة كانت فيها أسعد الممالك حالاً ، وأنعمها بالا ، وهي غدر أيام ابن الاحمر وحجلها ، بل أيام الاندلس كلها منذ غابت شموس الناصر والحكم ، فكانت وقتئذ الزراعة في نماء ، والصناعة في ارتقاء ، ولأهل غرناطة علاقات تجارية مع ايطاليا وفرنسا ومصر وبر الشام ، وكان يتوارد اليها التجار والسياح من جميع الانحاء ويسكنونها بكمال الطمأنينة ، وفي بعض التواريخ انه كان لاهل جنة انبار عظيمة مخصوصة بهم في غرناطة ، وقد

كانت المرية ميناء غرناطة محط رجال التجارة من جميع الأفاق وفيها من الحركة ما ليس في ميناء غيرها ، لذلك كان أهالي تلك المملكة في ذلك الدور من سعة العيش وصفاء الوقت وتتوفر أسباب الرفاهة وايام الولائم بالمكان المحسود والحال المغبوطة ، وانتشرت بينهم الفضائل التي يقتضيها العلم والتهدب من الحمية وحب الوطن والامانة والصدق والرأفة واكرام الغريب . وأخذ كرام الناس وابناء البيوتات يفدون الى غرناطة أفواجا حتى انه عند الاحتفال بنقل كريمة صاحب فاس الى الأمير يوسف ابن السلطان محمد الخامس وفد لاجل التزهه وبرسم حضور الزينة الشائقة عدد لا يحصى من الامراء والنبلاء والفرسان من اسبانيا ويطاليا وفرنسا ، ويقول بعضهم ان غرناطة كانت وقتيذ وطنا مشتركا لجميع الاقوام».

محمد بن الاحمر وثورات المجنون

ولنعد الى ذكر محمد بن الاحمر فنقول : لم يزل المجنون ينكشرون عن شرق الاندلس وغربها الى مملكة غرناطة وهي تعزز بهم ، وبعد استيلاء الاسبانيول على شاطبة ، وتمهيدهم تلك البلاد شرعوا يهتضمون المسلمين الباقيين فيها فشرع هؤلاء - من شدة الظلم والأخذ بالمخنق واستضعاف أعدائهم لهم بعد أن كانوا هم الاعلون - يرفعون لواء الخروج فاشتعلت الفتنة وكثير سواد الثوار الى أن قتل بعض رؤسائهم ، فانطفأت الثائرة في تلك البقعة ، ولكن قام بعدها مجنون بلنسيمة واستولوا على جملة حصون وذلك في نواحي سنة ٦٥٢ وكان جقوم صاحب أراغون غائباً ، فبادر بالرجوع الى مقره وعقد ندوة حضرها أركان مملكته للمذاكرة في قضية حسم الفتنة ، وذهب في رأيه الخاص الى وجوب تحصين قلاع شاطبة وطرد المجنونين كافة من مملكته ، واستبدلهم ، زراع النصارى بهم فوافق على ذلك القسوس والخالون من الاراضي ، ولكن أصحاب المزارع أبدوا له تعذر وجود مزارعين مسيحيين وانه على فرض وجودهم فلا يقومون مقام المسلمين فلم يصنع لكلامهم وأمر بطرد المجنونين كافة ، فخرعوا تاركين جميع أملاكهم ، وأشيائهم ، وقصدوا غرناطة ألوفا مؤلفة وكان مجنون

مرسية وجوارها قد خرجنوا بمكانتهم على صاحب قشتالة الفونس العاشر الملقب بالصابي ، واستولوا على عدة حصون وقدموا عليهم قائداً وطالت مدة انتقادهم الى أن أحال الفونس أمرهم الى حميء جقوم ملك أراغون .

ثم تزايد الجور على مجنني بلنسية الباقين كانوا منهم ببلادها وسيموا من الخسف والاهانة ما يكل عنه الوصف وفقدوا الامان على أرواحهم ، وعولموا بخلاف الشروط التي بينهم وبين المستولي ، فاستأنفوا الثورة ومدوا يدهم الى منجاورهم من المسلمين لاجل مظاهرتهم ، واصطلموا الاسبانيوں وتقديموا نحو بلنسية حتى كادوا يسترجعونها فوق الرعب في قلب جقوم ومات على اثر ذلك ، وتولى بعده ولده بترو أو بطره فعقد مع الثوار هدنة وأمهلهم ريثما تفرقت جموعهم ، فنكث معهم وصمد اليهم على غرة فانحازوا الى (مونتنه) في عيالهم وكانوا زهاء ثلاثين ألفا ، فأقام يحاصرهم طويلا ، وأخذن منهم بالمحق حتى استأمنوا ، فدخل الاسپانيوں الحصن وانتهبو المآل والمتعة وأخذنوا المسلمين أسرى وفرقوهم في داخل البلاد بعيداً عن الشغور .

وكان تخاذل المسلمين وتعدد أعقاب ابن هود وابن مردنيش لملوك النصارى قد دعا محمد بن الأحمر إلى مهاقتهم ، ونزل لهم عن بلاد (الغرنية) وكانت هذه المدة بحسب قول ابن خلدون فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب ، ووضيعة ومداراة في السلم ، والتزم ابن الأحمر بما ضايقه من تكالب العدو على بلاد المسلمين ، ومظاهرة بعض أمرائهم له على الاستيلاء ، أن يلتجأ بالمسلمين إلى جوار غرناطة وسيف البحر معتصمين بالجبال وراكنين إلى أوغارها ، في أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر ووفود الاندلس تتولى منه إلى حضرة بنى مرين أصحاب المغارب ، تستنصرهم على العدو وتستجيرهم في استباحة الحرم والولدان ، وبنو مرين وإن كانوا يؤثرون الجهاد ، ويسابقون في مضمار الجنة مسابقة الجياد ، فقد كان لهم من مناسبة دولة الموحدين ، وشغلهم بتدوين المغرب كله وتمهيد قاعدة ملكهم ما يعترض دون اجابة داعي الجهاد . ولكنه لما انقضت الوحشة بين

أبناء ادريس بن عبد الحق وبين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني ، انتدب السلطان الكثير منهم لنجدية الاندلس ، ولم تزل هذه البلاد منذ اوائل الفتح ثغر الاسلام ، وموطن الجهاد ، ومدرج الشهادة ، وغاية من قصد من الآخرة السعادة ، فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف مرابط عليهم عامر بن ادريس وقبلهم ابن الاحمر ، ودفع بهم في صدر عدوه وتوفي الشيخ ابن الاحمر لسنة ٦٧١ ، وقد عهد الى ولده والقائم بالامر بعده محمد الشهير بالفقية لانتحالة العلم في أيام أبيه أن يجعل معوله علىبني مرین في الاستصراخ اذا اشتد به الامر ، ويدرأ بهم ، وكان محمد الثاني بعد جلوسه بقليل وهو على مهادنة صاحب قشتالة ، سار الى اشبيلية لزيارته وتأكد سلمه فلقي من الاعزاز والادنان ما لم يسبق له مثيل ، غير أن زوجة الملك خاطبته مرة أثناء اقامته عندهم في شأنبني أشبيلية القائمين كانوا على أبيه وعليه من بعده ، فاستوحش محمد من هذه التوصية واستثنى من ورائها رائحة المفسدة والميل الى القاء الفتنة ، والفرقة في مملكة الاسلام الباقية ، فعند رجوعه تأمل فيما يفعل لاجل التخلص من فتنةبني أشبيلية ، ومما كان عليه من الخضوع المعنوي لصاحب قشتالة فلم يجد بدا من اتخاذ وصية أبيه ومد اليه الىبني مرین خطاباً نصراهم ومستجيشاً بهم في الدفاع عن الملة .

وكان بنو اشبيلية كما لا يخفى انصار ابن الاحمر على أمره ، وأبواهم أبو الحسن هو الذي تولى كبر الثورة على ابن هود ، وداخل أهل اشبيلية في الفتاك بابن الباقي ، حتى استوسق الملك لابن الاحمر ، وكان هذا من قبيل المكافأة قد أصهر اليهم ، وأشركهم في أمره ، ووسمهم من مياسم التعظيم ، وأشعارهم من شعار التجلة بما لم يختص به أحداً من سواهم ، وولى أبا محمد على مالقة وأبا اسحق ابراهيم صهره على وادي آش ، وكانت في يدهم قمارش فيقال أن قد أبطرتهم النعمة فسموا الى مشاركة السلطان في ملك غرناطة ، واستثار الرئيس أبو محمد بمالقة وقيل انهم اتفقوا مع الطاغية وأباحوه حمى الاسلام . وضيا باشا ينقل أنهم جاءوا بعساكره يكتسحون البسائط ويعيشون في البلاد وكانوا سبباً لخروج كثير من المدن والحضر مثلاً شريش وابريحة وسجونة من يد المسلمين .

استصراخ بنى الاحمر السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني واستجابتة

فأوفد ابن الاحمر مشيخة بلاده على السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني فلقوه منصراً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالبلاد المغربية فنبهوا عزائمه واستنفروا حميته ، وكان من نفسه الى ذلك ارتياح ، فجهز خمسة آلاف عقد عليهم لابنه منديل ، وأعطاه الراية واستدعى الاسطول فأجازوا نازلين بطريف ، وبعد أن أراحوا ثلاثة دخلوا الحرب فاكتسحوا بسائطها ، واثخنوا فيها بالقتل والاسر والتخييب ، ونزلوا بساحة شريش فخامت^(١) حاميتها عن اللقاء ، وانقلبوا إلى الجزيرة الخضراء ، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم . ولما بلغ الخبر أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ، أجاز بنفسه على أثر ولده . وحيث كان يخشى عادية (يغمراسن) بن زيان أمير تلمسان بعث اليه في السلم تفرغاً للجهاد وتوفراً على عدو الملة ، فأوفد عليه (يغمراسن) شيخةبني عبد الواد بالاجابة ، وأنسني الهدية ، وطابت بذلك نفس يعقوب ، فاستنصر قبائل المغرب من العرب والموحدين ومصمودة وصنهاجة ومكناسة ، وانضم اليه جمع من المطوعة والمرتزقة ، فأجاز بهم لصفر من سنة ٦٧٤ ، وكان نزل له ابن الاحمر عن رندة وطريف ، فاحتل ساحة طريف ، وملأت كتائبه الجزيرة الخضراء ، وأقبل عليه الفقيه أبو محمد بن الاحمر والرئيس أبو محمد بن اشقيقولة صاحب مالقة والغربية ، وزال ما بينهما من النفرة وصارا مع أمير المسلمين يداً واحدة على الاذنش .

(١) خام يخيم عن القتال : نكس وجبن .

مواقف السلطان يعقوب

في الجهاد

ثم عقد أبو يوسف يعقوب لولده أبي يعقوب على خمسة آلاف ، وسرحهم في بلاد العدو ، فجاسوا خلال دياره ونسفوا البناء ، وحطموا الزرع ، وانتهبو المال والمتأع ، وبالغوا في الاختان والسبى ، واقتحم السلطان حصن المدور وبادة وتالسة وبلمة ، وغادرها قاعا صفصفاً ، وعاد بالغنائم والسبى فنزل باستجة ، وكان الاسپانيوں قد أعدوا عدتهم ، وأكملوا احتشادهم ، فرحف الدون (نونو) أو (ذنه) بحسب املاء العرب، وكان محافظا لاشبيلية ومقدماً عندهم ، فاصطدم الفريقان ، واحتم بينهما الضرب والطعن ، وكانت وقعة من أعظم ما يرويه تاريخ اسبانية ، فأنزل الله سكتنته على المسلمين وانهزمت جموع (ذنه) وقتل هو في المصاف ، وتأثير^(۱) المسلمين قومه بالقتل والاسر ، فبلغ عدد قتلامهم بحسب رواية ابن خلدون ستة آلاف ، وخذل العدو ، ووهنت شوكته وبعث أمير المسلمين برأس ذنه الى ابن الاحمر ، فقيل انه رده الى أهله سراً مداراة لهم ، وقيل انحرافا عن يعقوب لامور وجدها في نفسه ، وظهرت شواهدها فيما بعد . وقد أصاب المسلمين في هذه الغزارة من الغنائم ملا يحصيه الا الله ، وبيعت الشاة بدرهم واحد ، وأخذ سبعة آلاف وثمانمائة أسير ، ولم يكمل هذه الغزوة حتى رجع الى بلاد العدو ، فاكتسح نواحي اشبيلية وأوغل في جهاتها ، ونزل بأرض شريش فجاس خلالها ، واستقصى بالدمار أعمالها ، وقفل الى الجزيرة الخضراء لشهرين من غزاته ، وعول على اختطاط مدينة بفرضه المجاز من العدوة لنزل أجناده متباذاً عن الرعية ، لما يلحقهم عادة من ضرر الجندي فابتلى المدينة المعروفة بالبنية ، وأجاز البحر الى المغرب بعد غيبة ستة أشهر في الجهاد أعز بها الاسلام ، وأدال له بعد طموس الاعلام ، حتى لقد قال بعضهم : « ما نصر

(۱) تأثر القوم : تتبع انحرافهم

المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المريني » .

وأما ابن الأحمر فساق عساكره إلى جهة جيان ، واثخن فيها ، فجمع له الدون (صانشو) بن (جقوم) ملك أراغون ، وكان مطراناً على طليطلة وبادر إلى لقائه ، فانكشف الإسبانيول واسر الدون صانشو - أو شانجه على رأي العرب - وحصل بسببه خلاف إذ مال بعضهم إلى ارساله إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق ، والآخرون إلى ابقاءه عند ابن الأحمر فوثب عليه أحد الجندي فاحتز رأسه وحسم الخلاف . وثاني يوم هزيمة الدون شانجه واسره وصل الدون (لوب) بالمدد الوافر ، وتوافق مع المسلمين وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ، فتأمل أن يشتغلوا بها عن القتال واصلاهم ناراً حامية من مطلع الشمس إلى أن توارت بالحجاب ، فلم يفز منهم بطائل ، فراسلهم في رأس شانجه والخاتم الذي بيده ووقع الفداء بهما على جملة من أسرى المسلمين ، ونقل الرأس مع الجثة ودفن في كنيسة طليطلة .

قصيدة ابن الأحمر في الاستغاثة

وكان لما اعتزم أمير المسلمين يعقوب على الاجازة إلى المغرب خاطبه ابن الأحمر بقصيدة استغاثة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط قال فيها :

من متهم في الأرض أو من منجد
بإجابة وانابة أو مسعد
بالعدوتين من أمرىء مُسترشدٍ
يخشى المصير إلى الجحيم الموقدٍ
أجب الهدى ، تسعذ به وتؤيد
أذْيَك علم أن تعيش إلى غدٍ
ان لم يحن لك نقدر ، فكأن قدِ
زاد لـكـل مسافـرـ فـتـزوـدـ
خـذـ مـنـهـ زـادـكـ لـأـرـتـحالـكـ تـسعـدـ

هل من معينٍ في الهوى أو منجدٍ
هذا الهوى داعٍ ، فهل من مسعفٍ
هذا سبيل الرشد قد وضحت ، فهل
يرجو النجاة بجنة الفردوس ، أو
يا آمل النصر العزيز على العدى ،
يا من يقول غداً أتوب ولا غدّ ،
لا تغتررْ بنسيئَةِ الْأَجْلِ الذي
أو ما علمتَ بـأـنـهـ لا بـدـ مـنـ
هذا الجهاد رئيسُ أعمالِ الثُّقَى

منه لما يُرضي إلهك واغتنِ
وجهاً للقى الله غير مسوَدٍ
محٰ الدموع خطيئة المتعمدٰ
أو يقتدي بنبئه أو يهتدي
مشحودة في نصر دين محمدٰ

فما هلك عليه اسى ولا تتجلى
من قانتين وراكعين سُجّد
فكلاهما يبغى الفداء فما فدي
فيهم تؤدّ لوانها في ملحدٰ
ولدها ودأ أنه لم يولدٰ
ييكي لآخر في الكبول مقيدٰ
ما بين حدي ذابلٰ ومهنـدٰ
وبكى لهم من قلبه كالجلـدٰ
ما دهانا من ردٰ أو من ردٰ
من حرمة ومحبة وتوددٰ
وسiovكم للثـار لم تُتقـلـدٰ
هل يقطع الهـدي غير مجرـدٰ
وأحقـ من في صرخـ بهـم آبـتـي
جريـلـ حقـاـ في الصـحـيـحـ المسـنـدـ⁽¹⁾
في المـغـرـبـ الـادـنـيـ لـناـ والأـبـعـدـ
منـهـ إـلـىـ الـفـرـضـ الأـحـقـ الأـوـكـدـ
حسـنـاـ تـفـوزـواـ بـالـحـسـانـ الـخـرـدـ

هذا الرباط بأرض أندلسٰ فـرـحـ
سودـ وجهـكـ بالـمعـاصـيـ فالـتـمـسـ
وامـحـ الخطـاياـ بالـدـمـوعـ فـرـبـماـ
منـ ذـاـ يـتـوبـ لـرـبـهـ مـنـ ذـنـبـهـ
منـ ذـاـ يـطـهـرـ نـفـسـةـ بـعـزـيمـةـ
وـمـنـهاـ :

كم جامـ فيهاـ ، أـعـيـدـ كـنـيـسـةـ
أـسـفـاـ عـلـيـهـاـ اـقـفـرـتـ صـلـوـاتـهـاـ ،
كم من أـسـيرـ عـنـدـهـمـ وأـسـيـرـةـ ،
كم من عـقـيـلـةـ مـعـشـرـ مـعـقـولـةـ
كم من ولـدـ بـيـنـهـمـ قـدـ وـدـ مـنـ
كم من تقـيـ بالـسـلـاسـلـ موـقـعـ
وـشـهـيدـ مـعـتـرـكـ توـزـعـهـ الرـدـىـ
ضـجـتـ مـلـائـكـةـ السـمـاءـ لـحـالـهـمـ
أـفـلاـ تـذـوبـ قـلـوـكـمـ إـخـوـانـاـ
أـفـلاـ تـرـاعـونـ الأـرـمـةـ بـيـنـاـ ،
أـكـذاـ يـعـيـثـ الرـوـمـ فـيـ اـخـوـانـكـمـ
أـيـنـ العـزـائـمـ مـالـهـاـ لـاـ تـقـضـيـ ،
أـبـنـيـ مـرـيـنـ اـنـتـمـ جـيـرـانـاـ
فـالـجـارـ كـانـ بـهـ يـوـصـيـ المصـطـفـيـ
أـبـنـيـ مـرـيـنـ وـالـقـبـائـلـ كـلـهـاـ
كـتـبـ الـجـهـادـ عـلـيـكـمـ فـتـبـادـرـواـ
وارـضـواـ بـاـحـدـىـ الـحـسـنـيـنـ⁽²⁾ـ وـأـقـرـضـواـ

(1) اشارة الى الحديث الشريف « ظل جبريل يوصي بالجار حتى ظنت انه سبوره » .

(2) احدى الحسينين : النصر او الشهادة .

والحورُ قاعدةٌ لكم بالمرصدِ
صدق فثروا لانتِجازِ الموعَدِ
شكوى العديم الى الغني الأوجَدِ
فيها وشَملُ الضَّدُّ غَيْرُ مبَدِّدٍ
تأسون للدينِ الغريبِ المفردِ
وطريق هذا العذر غير ممهَدٍ
وتركتمومهم للعدُوِّ المعتمدي
لكفى الحيا من وجه ذاك السَّيِّدِ
وسلوا الشفاعة منه يوم المشهدِ
من حوضِه في الحشرِ أعزب مورِدِ

هذا الجنان تفتحت أبوابها
الله في نصر الخليفة موعد
هذا التغور بكم اليكم تشتكى
ما بال شمال المسلمين مبددٌ
أنت جوش الله ملء فضائه
ماذا اعتذارُكم غداً لنبيكم
إن قال لم فرطتم في أمتي
تالله لو أن العقوبة لم تخف
إخواننا صلوا عليه وسلموا
واسعوا لنصرة دينه يسقيكم

فأجابه السلطان يعقوب بن عبد الحق بقصيدة من نظم عبد العزيز شاعر
الحضره « ليك لا تخش اعتداء المعتمدي » الخ وأجاب عنها أيضاً مالك بن
المرحل بقوله « شهد الاله وأنت يا أرض اشهدي » الخ فأجابهما أبو عمرو بن
المرابط بقوله « قل للبغة وللعداوة الحسد ». .

الجهاد الثاني لامير المسلمين

وبعد الجهاد الاول بنحو سنتين ثقف فيها امير المسلمين اطراف المغرب ،
اعترضه العداء ، فاجاز الى طريف لسرار المحرم ، ثم نهض الى الجزيرة
الخضراء فرندة ، حيث وفاه بنو أشبيلولة ونهضوا جميعاً الى اشبيلية وكان بها ابن
الأذفنش الملقب بالصابي فخام عن اللقاء ، واعتصم بساحة البلد ، فاكتسح
السلطان جوارها ، ودك حصونها ، وسبى أهلها ، ودخل حصن جليانه وقطيابة
وحصن القليعة عنوة ، وعاد بالغنائم والاثقال الى الجزيرة ثم نهض ثانية فنزل
بساحة شريش ، وأذاقها نكال الحرب والحرَب^(١) ، وبعث ولده أبا يعقوب في

(١) الحرب : القتال - الحرب : السلب .

جيش الى اشبيلية وحصون الواد ، فبالغ في الاختان ، واجتاز حصن روطة وشلقة وغليانة والقناطير ، ثم اعتزم العزوف الى قرطبة فاستفرز به ابن الاحمر فأجابه ، وتوفيا على الطريق ودخل حصن بنى بشير عنوة ودمراه ، وأثخنا في أهلة وتقىدا بالاكتساح والتدمير والاسر والقتل الى ان نزلنا بساحة قرطبة قبة الاسلام في الماضي ، وشددنا عليها الحصار ، وبعثنا السرايا في الجوار ، فعاثت دمرت ، ودخلت الحصون ، واقتصرت القلاع ، واشتد الامر بالطاغية فخطب السلم من أمير المسلمين ، فأحاله على ابن الاحمر تكرمةً لمشهده ، فأجابه محمد الفقيه بعد استئذان أمير المسلمين إراحة لاجناد الاندلس والمرابطين فيها ، وانعقد الصلح وقفوا ، فخرج أبو يوسف يعقوب على غرناطة نزيلا على ابن الاحمر ، وترك للاندلسيين الغنائم ، ووقف الى الجزيرة ، وفي تلك الاثناء توفي الرئيس أبو محمد بن اشقيقولة صاحب مالقة ، فنزل ابنه محمد عن البلد للسلطان يعقوب ، فعقد عليها لابنه أبي زيان منديل فسار اليه في بمحث ، وكان الفقيه ابن الاحمر لما بلغه وفاة صهره طمع في الاستيلاء على مالقة ، وظن ابن أخته مشائعا له ، فأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني ، فوجد الامير أبي زيان قد احتل البلد ، فقتل خائبا ، ثم قدم اليها السلطان نفسه من الجزيرة فبرز اليه أهلها في احتفال شهير ، وعقد عليه لعم بن يحيى بن محلى من أركان دولة بنى مرین ، ووقف الى الجزيرة ومنها الى المغرب سنة ٩٧ ، وقد أعاد بهجة الايام الاولى في الجهاد وحسن البلاء ، وحاز الاسلام لعهده الغاية من العلاء .

خوف ابن الاحمر والفتنة

ولما بلغ السلطان يعقوب ما بلغه من الظهور ، ومالت اليه القلوب ، واشرأبت الى ولايته الاعناق ، واكتسب له محمود مقامه بالاندلس محاب الأمة ، تذكر ابن الاحمر - وكان فقيها مطلعا - قصة المعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين ، فخاف الغيبة ، وبرم للعقاب ، وعول على ايصال يده بيد الطاغية خشية على سلطانه من أبي يوسف ، فنهض الأذفنش لأنخذ الثأر وأغزى أساطيله مسالح بن مرین بالجزيرة الخضراء وانقطع مدد المسلمين من وراء البحر ، وانتبذ عمر بن

يحيى بن محلى عن قومه بمكانه مالقة وذلك أنه كان بين أخيه طلحة وبين السلطان نفور بعث طلحة على ممالة ابن الأحمر ، وبمدخلته نزل له عمر عن مالقة وجهة قصده ، واقطعه شلوبانية والمنتكب فانتقل إليها ممالئاً لابن الأحمر ومن ثم للاذفنش ، ولخوفهم من إجازة السلطان راسلوا يغمراسن بن زيان أمير تلمسان في الانتقام عليه ، وتثبيط حركته ، فأجابهم إلى ذلك وتهادوا وتحابوا ، وتخاذل المسلمين .

ندم ابن الأحمر وعودته إلى الحلف

واشتد بأهل الجزيرة المحنق ، وبلغ الخبر السلطان بمراش وهو يطفئ فتنةبني جشم من العرب ، فلما تمكن من حسمها نهض قاصداً طنجة بقصد الإجازة ، فبلغه استئناف جشم الثورة ، فكر اليهم وتأثرهم في الفلوات وترك ابنه أبا زيان لتدوين السوس الاقصى وعقد لولده ولـي عهده الأمير أبي يعقوب على الأساطيل التي جمعها من طنجة وسبتة وسلا حتى بلغت أربعين سفينة ، وأغارها الجزيرة ، وكان أهلها قد بلغوا من الضيق أن قتلوا صغارهم خوفاً عليهم من السيـيـ والنـشوـ على غير الإسلام ، فأثر ذلك في قلب ابن الأحـمر ، وندم على ما فرط منه من ممـالـةـ العـدوـ ، وجـهزـ أـسـاطـيلـهـ من مـالـقـةـ والمـرـيةـ بـدارـاـ لـنصرـةـ اـخـوانـهـ فـيـ الدـيـنـ ، وـغـلـبـ عـلـيـهـ حـفـيـظـةـ الـمـلـةـ ، وـاجـتـمـعـتـ أـسـاطـيلـ الـمـسـلـمـينـ بـمـرـفـأـ جـبـلـ طـارـقـ وـتـبـارـزـواـ مـعـ الـعـدـوـ ، وـصـدـقـوـهـ الـعـرـمـةـ فـكـشـفـوـهـ ، وـذـعـرـ الـإـسـبـانـيـوـلـ وـغـشـيـهـمـ مـاـ غـشـيـهـمـ ، وـمـلـكـ الـمـسـلـمـونـ مـرـفـأـ الـجـزـيرـةـ ، وـهـزـموـهـمـ مـنـ كـلـ نـاحـيـةـ ، لـكـنـ الـأـمـيرـ أـبـاـ يـعـقوـبـ تـلـكـأـ عـنـ الغـزوـ ، خـوفـاـ مـنـ ابنـ الأـحـمرـ ، وـحـدـثـهـ نـفـسـهـ أـنـ يـصـالـحـ الـأـذـفـنـشـ ، وـبـرـحـفـاـ مـعـاـ إـلـىـ غـرـنـاطـةـ اـنـتـقـاماـ مـنـ صـاحـبـهـ ، فـأـجـابـهـ هـذـاـ إـلـىـ ذـلـكـ توـسـلاـ إـلـىـ موـادـعـتـهـ ، وـلـمـ كـانـ فـيـ نـفـسـهـ عـلـىـ ابنـ الأـحـمرـ مـدـدـهـ أـهـلـ الـجـزـيرـةـ ، فـبـعـثـ أـسـاقـفـتـهـ إـلـىـ أـبـيـ يـعـقوـبـ فـأـجـازـهـمـ إـلـىـ أـبـيـهـ ، فـأـنـكـرـ ذـلـكـ السـلـطـانـ وـغـضـبـ مـنـ فـعـلـةـ اـبـنـهـ ، وـلـمـ يـشـأـ أـنـ يـوـاطـئـ عـلـىـ إـلـاسـلامـ أحدـاـ ، وـأـجـازـ أـبـوـ يـعـقوـبـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ بـوـفـدـ أـهـلـ الـجـزـيرـةـ ، وـلـيـ اـبـنـ الـأـخـرـ أـبـاـ زـيـانـ عـلـيـهـ ، فـأـحـكـمـ الـصلـحـ مـعـ صـاحـبـ قـشـتـالـةـ ، وـتـرـفـعـ لـمـنـازـلـةـ ابنـ الأـحـمرـ فـيـ

غرناطة معبني اشقيولة وابن الدليل ، ثم رجع ابن الاحمر الى سلمبني مرين وخطبها من أبي زيان ، واجتمعا ، ثم في سنة ٧٨ أطل السلطان يعقوب على الاندلس لما اختل من أحوالها ، وكان ابن أشقيولة قد نازل غرناطة سنة ٧٩ وظاهره الاذفش ، فلم يفزوا بطايل وقتل جماعة من الاسپانيوں ، ولما أيقن ابن مرين بما وقع بين يغمراسن وملوك اسبانية المسلمين والنصارى من الاتصال والتعاهد تعويقاً لحركاته ، عمد الى غزو يغمراسن ، وجرت بينهما حرب دارت فيها الدائرة على يغمراسن ، وقفل يعقوب الى مراكش . وأنباء مقامه بها وافاه صريح الاذفش على ولده سانشو أو شانجه ، وذلك أنه لما تم ماتم من العلو والظهور لكلمة الاسلام على يد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ، قام أمراء اسبانية وأركان مملكة قشتالة وخصوصاً رجال الدين ناقمين على الاذفش عدم الكفاءة وسوء التدبير ونحس الطالع على قومهم ، فكادوا له وأخرجوه عن ملكه ، ونادوا باسم شانجه وذلك سنة ٨١ ، وخرج الوالد طريداً مخذولاً قد غدر به أهله وخلانه ، وخانه زوجته وأولاده ، فأخذ يستغيث ملوك النصرانية من أراغون والبرتغال وفرنسا فلم يجب أحد صريخه ، فرفع أمره الى البابا فلم ينجد له بغير النصيحة والتوصية بالصبر والتحمل ، فلما يئس من شبكته وإيامه أواصر الرحيم والديانة أو الجوار حول نظره جهة المغرب ، فاستجار بسلطانه يعقوب بن عبد الحق بن مرين فأجاره في الحال ، ذهاباً مع هو الشيمة الابية ومقتضى الفتوة ، ووافاه الى مراكش أساسفة الاذفش فصرفهم واعداً بالاغذاذ . وسار الى قصر المجاز وركب منها الى الجزيرة الخضراء ، وقد وافته الجنود وسار الى صخرة عباد ، حيث وفاه ملك قشتالة فأكرم نزله^(١) وأمد له لنفقاته بمائة الف استرهن عليها التاج الملكي ، وبقي عند ملوكبني مرين فخراً للعقاب ، وزحف السلطان الى جهة قرطبة وبها شانجه ، فاكتسح نواحيها وامتنعت عليه ، فانتقل

(١) قيل انه بعد أن سلم عليه الدون الفونس طلب يعقوب بلسان زناته الماء ليغسل يده من قبله ملك قشتالة وقيل من مصافحته فانظر الى ما كان من عز الاسلام بازاء الافرنج .

الى طليطلة فخرب جهاتها ، وعاد الى الجزيرة ، وقد ثقلت أوقار مطاياه الغنائم .

ورأى ابن الاحمر ذلك فبدأ له أن يوالى شانجه الخارج على أبيه ، وتعاهدا
فلم يغنهما ذلك . ولما رجع السلطان من غزاته غزا مالقة من أملاك ابن الاحمر ،
فلم يجد هذا بدا من طلب السلم ، والتجأ في ذلك الى ابنته فأسعفه ، وأجاز الى
أبيه رغبة في الثواب وجمع كلمة المسلمين فأسعفه فيما رغب فيه اليه ، وأقلع عن
مالكه ، وتأكد السلم مع ابن الاحمر ، وابسط رجاء المسلمين . وأعاد
السلطان الغزو في دار الحرب واستأنف الاٰثخان ، وخرج الى نواحي طليطلة في
غرة ربيع الثاني سنة ٨٢ فلم يصادف بناء الا هدمه ، ولا زرعاً الا حطمها ، ولا
سرحا الا اقتلعته ، ولا جمعا الا صدعته ، وعاق جيشه عن زيادة الإيغال كثرة
الغنائم ، فرجع وقسم السلب بين أجناده ونقل من الخمس وأجاز الى المغرب ،
وبلغه وفاة أذفنش ملك قشتالة ، واجتماع النصرانية على ولده شانجه الخارج كان
عليه ، فتحرك للجهاد ، وأرسل ولده أبا يعقوب في اثر العرب الخارجين ، فاتبع
أثرهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس ونهض السلطان مستنيرا
للجهاد ، فأجاز بجنوده الى الجزيرة ، ومنها دخل دار الحرب ، فخرج واشترى
ونزل على شريش فضايقها ؛ وأخذ بمحنتها ، وأغزى ابنة الامير أبا يعقوب اشبيلية
فسف ديارها ، وعاث في نواحيها ، ومر في منصرفه بقرونها فشدد عليها وطأته ،
وأعظم فيها نكايته وسرح الوزير محمد بن عطوا ومحمد بن عبلة جواسيس في
أرض العدو اليه فعادا بنباً ضعف الحامية فأغزى حافده عمر بن عبد الواحد جهة
وادرلوك وحصن اركش فأبادوا عمرانها ، وغادروها كجوف العير ، وسرح ابنة أبا
المعروف لغزو اشبيلية ثانية ، فأتم ما كان باقيا دون خراب ، وقصد حصنا بقرب
معسکره فسرح الجنود والناشبة بالآلات فاقتحموه ، وسبوا أهله ، وقتلوا حاميته ،
وركب الى حصن آخر ، فأصابه ما أصاب الاول ، وواهافه ولی عهده أبو يعقوب
بمراقبة المغرب ومطوعته ومرتزقته في واحد وعشرين ألفا كلهم قد باعوا أنفسهم
من الآخرة ، فعقد له أبوه على جيش كثيف وأغزاه نواحي اشبيلية ، فاقتتحوا
الحصون ، ودكوا القلاع ، وسبوا الذاري ودمروا قرى الشرف والغاية الكثيرة

ال عمران ، وعادوا بالغائهم فأغراه ثانية قرمونة والوادي الكبير ، فبرز حامية قرمونة للدفاع فانكشفوا وأحجزهم في الحصن ، وكر على اشبيلية ثانية ، واقتتحم منها برجا كان هناك عينا للعدو فأحرقه وقفل . ثم أغراه والده جزيرة كيوثر ، فاقتتحمها وأباد أهلها ، بالسيف وأغزى طلحة بن محلی اشبيلية رابعة ، فأثخن فيها ، حتى صفرت تلك البقاع من العمران ، وأصبحت بسائط الفرنтирه واسطبلية ولبلة وقرمونة واستجة منعها للبوم بعد أن كانت ملأی بالعمارة والتضارة ، وهو أثناء هذه الغارات كلها يغادي شريش ويراحها قتالا ونكلا ، وبيث السرايا في أرض العدو ليلا ونهاراً ، حتى لم يخل يوم منه من غزو أو غارة .

وقد أصابت جموع الاسلام في هذا الرباط الطويل العريض من الغائم ، وأحرزت من المال الصامت والناطق ، مala يخصيه الا خالقه ولم يرتد امير المسلمين عن الغزو إلا بقدوم فصل الشتاء ، وبلغه ان العدو اوعز الى اساطيله بالاعتراض في الزقاق ، فأوزع السلطان الى اساطيله بالاجتماع من ثغور العدوتين ، فأحجمت اساطيل الافرنج ورأى ابن اذفنش شانجه او صانشو ما نزل ببلاده من بأس المسلمين ، وضرع اليه كبار دولته في خطبة السلم من يعقوب بن عبد الحق ، لشدة ما بلغ بهم البلاء ، ونالهم من النكال ، ورأوا من شمول الخراب أو طانهم ، فعول على مخاطبة أمير المسلمين في السلم ضارعا صاغراً ، وأوفد اليه الملا من أسايقته وأعيان مملكته ، فردهم يعقوب اعتزاً عليهم فردهم شانجه وكروروا الاستعطاف فأجابهم الى السلم بشرط أن يقبلوا ما شاء من عزّ قومه ، وأن يساموا جميع المسلمين من قومه وغيرهم ، وأن يرفعوا الضريبة عن تجار المسلمين في دار الحرب ويتجنبوا الفتنة بين امراء الاسلام ، الى غير ذلك ، فأجابوا الى كل ما اشترط .

وفد شانجه على السلطان بمكانه من شريش فالتقاه برأً وترحيبا ، واحتفل للقاء اظهاراً لعز الملة وقدم له ملك الاسپانيول هدية سنية ، وخضع له وانقلب قرير العين بمسالمته ، وسأله يعقوب أن يبعث اليه بكتب العلم التي حازها

النصارى من مدن الاسلام ، فأرسل اليه منها ثلاثة عشر حملة فوقها في المدرسة التي أسسها بفاس .

وفاة السلطان ومباهلة ولی عهده ابی یعقوب

ووقف السلطان من هذا الجهاد بعد أن وفر للإسلام من العزم ما لم يعهد له من أيام ابن تاشفين ، وازدحمت في حضرته الشعراة للتهنئة ، واعتل بعد ذلك وتوفي بالجزيرة قبل وصول ولی عهده ابی یعقوب ، فأخذ البيعة على الناس وزراء أبيه ، وأجاز لهم من المغرب فجددوا البيعة غرة صفر سنة ٦٨٥ ، وفرق العطاء وأجزل ومحا بعض الرسوم ورفع المكوس ، وقبض أيدي العمال عن الظلم واصلح السابلة ، وبعث الى ابن الاحمر بالحضور ، فوافاه فاحتفى به ، ونزل له عن جميع الاندلس الا الجزيرة وطريف ، واتفقا على اخراج ابی الحسن بن اشقيقولة من وادي آش ، ففصل الى المغرب وأقطعه ابن مرین فيه ، وانفرد ابن الاحمر برئاسة الاندلس .

السلطان ابو یعقوب یقتفي اثر ابیه وسقوط طریف

وسنة تسعين بلغ ابا یعقوب انتقام صاحب قشتالة وتعطيله ثغور المسلمين ، فسرح قائد المسالح علي بن يوسف بن يرناسن ، فغزا شريش واثخن في أرض العدو وأجاز السلطان بنفسه فالتقته أساطيل الاسپانيول في الزقاق حجراً دون النزول ، فانكشفت سفن المسلمين ، فكر السلطان ، فأحجمت أساطيل الاسپانيول ، وأنزل عساکره بطریف ، وشرع منها بالغزو فأذاق شريش واشبیلية وبال الحرب ولم یرجع عنها إلا عند قدوم الشتاء . وقف الى المغرب سنة ٦٩١ وقد تم له من الظهور ما تم لابيه ، وعاد الوسواس الى مخيلة ابن الاحمر ، وتذكر مرة ثانية قصة المعتمد بن عباد ، ووصل حبله بحبل القشتالي ، واجمعا على افتتاح طریف ام الثغور وذات المسالح ، فنازلها الاسپانيول ،

واعتربت أساطيلهم ببحر الزقاق دون مدد المغرب وارسل ابن الاحمر النجدات الى حليفه ، وتمادي الحصار بأهل طريف أربعة أشهر والمدد منقطع عنهم ، فسلموا بلدتهم للاسبانيول ، وطالبهم ابن الاحمر بالخروج عنها له ، فأبوا ونكثوا فندم على اتصاله بهم وراسل ابن مرین تائبا مستعطفا داعيا الى اجتماع الكلمة وأوفد بذلك ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف وزيره أبا سلطان عزيز الداني فأحكموا الصلح ، وعقد ابن مرین على مصالحة بالاندلس لابنه ولی العهد الامیر أبی عامر ، ولما رجعت رسائل ابن الاحمر بقبول الصلح أجاز بنفسه نزيلا على ابن مرین معتذراً ، فأعرض عن عذله واكرم وفادته ، وقدم له ابن الاحمر المصحف الكبير أحد مصاحف عثمان (رضي الله عنه) الاربعة المبعوث بها الى الآفاق اتصل الى صاحب غرناطة من قرطبة حيث كان في خزانة بنی امية ، ونزل ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغريبة وعشرين حصنا لابي يعقوب ، وأرسل هذا وزيره عمر بن السعواد الجشمي لمنازلة طريف ، فامتنعت عليه ، وقف ابن الاحمر الى حاضرة حمرائه عام ٦٩٢ ، وقد تأكّدت المصافحة بينه وبين ابن مرین .

وتوفي محمد الثاني المعروف بالفقیه ابن محمد الاول المعروف بالشيخ سنة ٧٠١ فقام بالأمر بعده ابنه محمد الثالث ويقال له المخلوع والاعمش لضعف بصره ، وكان مع ضعف البصر ضعيف البصيرة فتغلب عليه كاتبه أبو عبدالله بن الحکیم ، ولم يطل الامر حتى بدا له الانتقاد على ابن مرین لامور نقمها ولا جرم لها ، فوصل يده بيد ملك الاسبانيول فردیناند الرابع ابن شانجه وهو (هرانده) عند العرب وداخل ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل في الاستيلاء على سبتة ، فأجاز اليها على غفلة من أهلها واشتغال ابن مرین بحصار تلمسان الكبير بعد التضبيب بين أعيان البلدة فاستولى عليها وأرسل عمالها بنو العزفي الى غرناطة وقامت بها دعوة ابن الاحمر على يد ابن عمه ، وأخذ أبو سعيد في التفریق بين بنی مرین والدعوة لعثمان بن أبي العلاء المرینی رئيس الغزاة المجاهدين بالاندلس ، واستقدمه لاجل تمكين الفتنة بينه وبين أولاد عمه ، فخرج ودعا

لنفسه ، وأجابه كثير من الناقمين وباييعوه على الموت ، وفاز أبو سعيد بن الأحر
بامنيته وانتشتبت الحرب بين رجال بني مرين .

وفاة السلطان ابى يعقوب

وتوفي السلطان أبو يعقوب في اثنائها خلفه السلطان أبو ثابت بن أبي عامر
ولي عهد أبي يعقوب لكون والده توفي قبل جده ولم يستقم له الامر إلا بعد نزاع
هاض جناح الدولة مع عمه أبي سالم ، فشرع في محاربة عثمان بن أبي العلاء
وحضره أخيراً بسبته ، وتوفي قبل أن يتمكن منه وخلفه السلطان أبو الربيع فضايق
عثمان الخارج عليهم حتى فرّ من سبته إلى الاندلس لاحقاً بغرناطة وبعدها أرسل
أبو الربيع تاشفين بن يعقوب الوطاسي بعسكر فاستولى على سبته ، وقبض على
قائد قصبتها وقائد البحر وقائد الحرب من قبل ابن الأحمر ، وعادت إلى ملوكه ثم
توفي أبو الربيع لسنة عشر بعد السبعمائة وخلفه السلطان أبو سعيد ، فأنشأ
الاساطيل للجهاد وولي أخيه أبي البقاء ثغور الاندلس .

وأما محمد الثالث سلطان غرناطة فسأله أثره في الملك ، واستبد مع وزيره ابن الحكيم ، فانتزى عليه أبو الجيوش نصر أخيه وقتلته وزيره لستة ثمان بعد السبعمائة وفي تلك المدة نازل ملك الإسبانيول الجزيرة الخضراء وجبل الفتح فاستولى على الجبل ، ولم يقلع عن الجزيرة إلا صلحًا بعد أن أذاقها مرّ الحصار ، فقلق ابن الأحمر لأخذ الجبل ورحب إلى أبي الريبع في الصلح ؛ فأسعفه ونزل له عن الجزيرة ورندة وبعض الحصون ، فقبل ذلك منه ثم اصهر إليه في اخته ، وأمدده بالأموال والخيول جنائب مع عثمان بن عيسى من رجاله وبقي نصر في الملك إلى أن انتزى عليه اسماعيل أبوالوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر فحاصره في الحمراء وأآل الأمر أن نزل له عن الملك سنة ٧١٤ واعتزل ومات في نواحي سنة ٧٢٢ .

وكان فرديناند ملك قشتالة عند نزال جبل الفتح والجزيرة قد استصرخ

صاحب برشلونة فحاصر المريية بـً وبـً وذلك في مدة أبي الجيوش نصر ، ونصب عليها الآلات واحتفر الإسبانيول مسارب تحت الأرض مقدار ما يسير عشرون راكبا في الواحد منها ، وفطن المسلمون فحفروا قبلتهم ، والتقوا تحت الأرض واقتتلوا وهذا كما حصل في حصار مالقة في العهد الأخير كما سيأتي وسارع عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاوة بالأندلس من بنى مرين لنجد أهل المريية فالتحقى بجيش صاحب قشتالة فهزمه ، ثم صمد إلى عسكنه باسطيونة فأوقع به فسرح إليه جيواً كثيرة فظفر بهم وقتلهم أربع قتل وقتل بالغائم وتوفي فرديناند على أثر ذلك عام ٧١٢ ، وولي بعده ابنه المعروف عند العرب بالهندسة طفلا رضيعا ، فجعلوه لنظر عمه الدون بترو أو بطره والدون جوان .

وفي أيام كفالتهما شغل أبو سعيد المريني سلطان المغرب بفتنته ابنه فانتهز الإسبانيول الفرصة ، واعتمدوا استئصال المسلمين من الأندلس ، وتداعوا للحرب ، واستنفروا الأقطار وأناخ الدون بطره على غرناطة بجموع لاكفاء لها ، وقيل كان معه خمسة وعشرون ملكاً وذلك لسنة ٧١٩ فخرج إليهم شيخ الغزاوة عثمان بن أبي العلاء يوم الخميس ٢٠ ربيع الأول فاقتطع منهم سرية واستأصلها ، ويوم الأحد ركب أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء في خمسة آلاف من أبطال المسلمين فقيض الله لهم نصراً غريباً ، وعندما شاهدتهم الأفرنج وقد ألهاهم تكاثرهم ، اخذ منهم العجب لقلتهم وهجومهم ، فلم يشعروا إلا وقد أزاحوهم عن مراكزهم ، فانهزموا مذعورين وأهاب الله ريح النصر للغرنطيين ، فتبعوهم يأسرون ويقتلون ثلاثة أيام وغنموا من الذهب ثلاثة وأربعين قنطاراً ومن الفضة مائة وأربعين قنطاراً وسي سبعة آلاف نفس ، وكانت خسائر المسلمين من القلة بحيث لو ذكرت لدفع ذلك العقل . وسلخ الدون بطره ، وحشى جلده قطناً ، وعلق على باب غرناطة ، وبقي معلقاً سنوات وقال ابن خلدون أن رأسه نصب بسور البلدة وأنه كان باقياً لعهده ، وهذه الواقعة من أشهر وقائع الأندلس ، وفيها استنصر الغرنطيون السلطان أبي سعيد المريني فاعتذر لهم بمكان ابن أبي العلاء شيخ الغزاوة ، وعدوه من دولتهم واشترط عليهم دفعه إليه ووعدهم باعادته فلم يمكنهم

ذلك لمكان عثمان ومنعه من عصابته وأغناهم الله عن نصرة أبي سعيد بنصرته
تعالى .

مواقف السلطان أبي الحسن المريني في الجهاد

وفي سنة ٧٣١ توفي أبو سعيد المريني ، وقام بالأمر بعده ولي عهده الأمير أبو الحسن ، وكان من أجل سلاطين الإسلام ، فاشتغل مدة باطفاء فتن مملكته ، ولما خلص له المغرب وجه عنايته إلى الجهاد ، وسمت نفسه إلى حال جده أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وكان الإسبانيوں بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال ، وشجر بين المسلمين دون التوافي لنصرة بعضهم بعضاً ، وقد تغلبوا على كثير من حصونهم ونازلوهم في عقر دارهم غرناطة وضربوا الجزية على أبي الوليد فأدأها عن يد الذل ، فاعتزم أبو الحسن الجهاد وجهز الاساطيل وسرح بالجيش ابنه الأمير أبا مالك ، فغزوا أرض العدو ، واتخن وغنم ، وجمع له العدو ، فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصاماً بأباؤه ، وأقام بأرضه ، فأدركوه وعسكره وهم في مضاجعهم ، وقتل أبو مالك قبل أن يستوي على جواهه واستلم الإسبانيوں أكثر قومه وغنموا ما معهم .

ظهور اساطيل الاسلام على اساطيل الافرنج

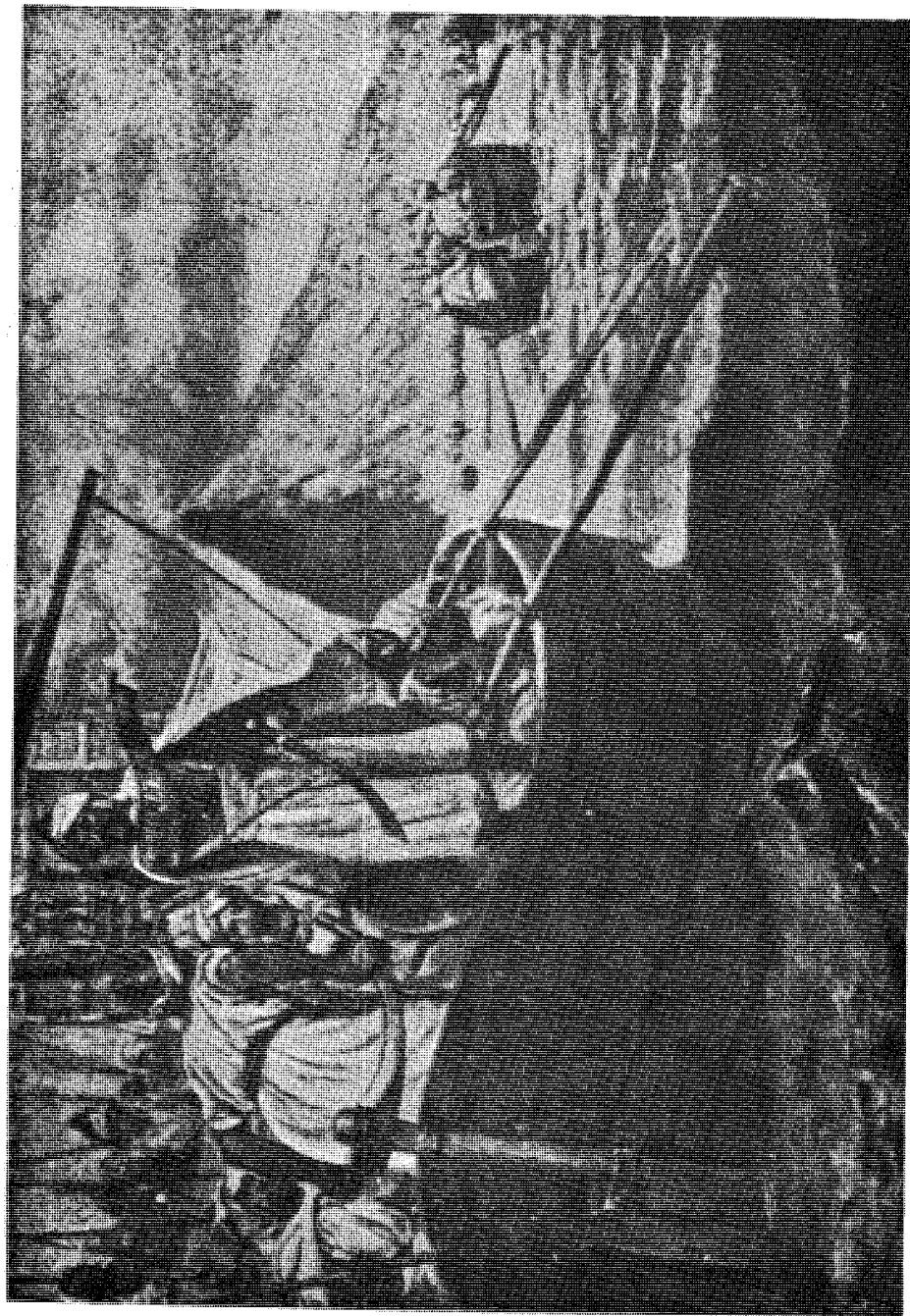
ووصل النعي أبا الحسن والده ففت في عضده وتفجع واعمل في التفير للجهاد ، والأخذ بالثأر ، واستدعي اساطيل من مراسي العدو ، وانجده الموحدون من تونس بأسطول بجاية عليه زيد بن فرحون قائد البحر ، ووافاه أسطل طرابلس وقابس وجربة واجتمعت كلها بسبعة معقوداً عليها لمحمد بن العزفي ، وزحفت إلى اساطيل الافرنج فتحاجرت وتناجزت وأهبت الله ريح النصر من جهة بنى مرین فخالطوا سفن الافرنج واستلهموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم

(الملنند) وعادوا بالسفائن مجنوبة الى مرفا سبتة ، وطيف بالرؤوس وجلس السلطان للتهنئة وكان يوما مشهوداً .

أسباب سقوط طريف من جديد

ثم أخذ يجيز العساكر الى الاندلس وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠ وخيم بساحة طريف ، ووافاه سلطان غرناطة بغزارة زناته وجنود الاندلس ، وشددوا الحصار على طريف ، وجاء الاسبانيول بأسطول عظيم حالوا به بين العدوتين ، وامتنعت البلد ففتحت الاوقات واحتلت أحوال المعسكر وتکاثرت جموع الاسبانيول وأصرخهم صاحب أشبونة البرتغال فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلا على حين غفلة ، وكموا في مكان وفي الغد تراوح الجمuan فبرز الجيش الكمين من البلد وخالفوا الى معسكر السلطان ، وعمدوا الى فسطاطه فدافعهم الحراس فقتلواهم ، وفتوكوا بحظايا السلطان عائشة بنت عمده وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب افريقيه وغيرهما وسلبوا الفساطط واحرقوا المعسكر ، فلما رأى المسلمون ما حل وراءهم بالمعسكر اختل مصافهم ، واخذ ابن السلطان أسيراً لمخالطته العدو في تقدمه وانحاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله دفاعه ونجا ووصل الطاغية الى محلة السلطان فانكر على قومه قتل النساء والآولاد ، وانهزم ابن الاحمر الى حمرائه وخلص أبو الحسن الى الجزيرة فجبل طارق ومنها الى سبتة وكانت وقعة مشهورة على المسلمين عظم فيها البلاء وفتحت الرزية وجل الخطيب ، وقد بالغ بعض مؤرخي الافرنج في تقدير خسائر المسلمين ، فزعم بعضهم أنه قتل مائتا ألف وان خسائر الاسبانيول كانت نحو ٢٠ قتيلا فقط ، وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الاسلام ان خسائر الافرنج في وقعة الدون بطره بلغت خمسين ألفا ولم يستشهد من المسلمين إلا ثلاثة عشر فارساً وقيل عشرة فقط ، مما يدل على تأخر فن النقد في تلك الاعصار وقبول الاخبار على علاتها بدون عرضها على العقل ولا سيرها بمعايير الحكم والنظر . على أن هاتين الوقعتين تتشابهان في قضية أسر نساء الملوك ففي الاولى أسرت امرأة الطاغية بحسب قول العرب

صور العرب لأول مرة من المغرب إلى الأندلس سنة ١٧٠ م





وفي الثانية أسرت بعض نساء السلطان أبي الحسن عدا من قتل منها .

هزيمة الاسطول الاسلامي في بحر الزقاق

وبعد هذه الواقعة اشتدت وطأة الاسپانيوو على المسلمين وطعموا في التهام بقية الاندلس ، ونازلوا قلعةبني سعيد وأخذوها بعد حصار شديد فأعاد أبو الحسن ابن مرين الكرة وجهاز الاساطيل ، وسراب البعوث الى الجزيرة الخضراء وتلاقت الاساطيل الاسلامية والنصرانية فقضى بهزيمة المسلمين وملك اسطول الطاغية بحر الزقاق ، وسما له شوق الى استخلاص الاندلس فبعث بالفيفر ووافته النجدات وحضرت الاوامر من البابا بوجوب القيام يداً واحدة لطرد مسلمي الاندلس ، وانضم الى الفونس ملك قشتالة كثير من الملوك ووافاه من أنسباء ملك انكلترة الكونت دربي والكونت سالسبيري وغاستون وكانت دوفوا وكانت دوبيارن وغيرهم وزحف الجميع ، فنازلوا الجزيرة الخضراء ليحلقوها ببطريف ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين ، وحشروا اليها الفعلة والصناع للنقب والحرف وأطالوا حصارها واتخذوا للمعسكر بيوتا من الخشب بقصد المطاولة كما اتخذوا لمعسكرهم في القرن التالي بيوتامن الحجر وهم على غرناطة وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة فنزل بظاهر جبل طارق ، وطال الحصر وأصاب أهل الجزيرة الجهد فسألوا الامان فبذلوه لهم ، وخرجوا الى المغرب وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلتهم أبو الحسن خير نزل .

والى هذه الواقعة يشير كتاب شهير بعث به السلطان أبو الحسن بن مرين الى الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر يقول فيه عند ذكر الصلح : « إلا أن المطاولة بحصراها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف ، أدى الى فناء الاقوات في البلد ، حتى لم يبق لاهله قوت شهر ، مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد ، فكتب اليها سلطان الاندلس يرغب في الاذن

له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجع » الخ .

ورد الجواب من السلطان ابن قلاوون وفيه عند ذكر الواقعة قوله : « ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسمومة ، وسالت على عدوكم اباطحهم بقسيينا المغوجة وسهامنا المقومة ، وكحلنا عيون التحوم بمراود الرماح ، وجعلنا ليل العجاج ممزقاً ببروق الصفاح ، واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات ، وفرجنا مضائق الحرب بتواли الكرات ، وعطفنا عليهم الاوعنة ، وخضنا جداول السيوف ودنسنا شوك الاسنة ، وفلقنا الصخرات بالصرخات ، وأسلنا العبرات بالرعبات ، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول ، وأين الثريا من يد المتناول » الخ .

ليت شعري ما كان أغناه عن حرب الكلام ، والاعتياض عن السيوف بالأقلام ، إن كانت الغاية بعيدة عليه إلى هذا الحد ، والظاهر أن كاتبه صلاح الدين الصفدي المشهور بحب التجنیس عز عليه أن لا يفلت الصخرات بالصرخات حرمة لهذا الجناس ولو كان في فضلة القول عن العمل ما فيها من الهجنة .

ولنعد إلى الكلام علىبني الاحمر أصحاب هذا المقام فنقول : لما توفي أبوالوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على مملكة غرناطة من يد ابن عمه أبي الجيوش بويح ولده محمد الرابع طفلاً صغيراً لکفالة الوزير محمد بن المحروق ، فاستبد هذا بالأمر وأمعن في الظلم ، فلما بلغ محمد الرابع سن الحلم اغتاله ، وشمر لتأييد الملك وجihad العدو ، ووفد على أبي الحسن ابن مرين في فاس ، فأعظم قدومه ، وتفاوضاً في شأن المسلمين وراء البحر ، واعتزموا الجهاد ، ويومئذ أرسل أبوالحسن ابنه الشهيد فيما بعد الامير أبي مالك في خمسةآلف مثاغر من آل مرين ، وانضموا إلى محمد بن اسماعيل بن الاحمر المذكور ، ونازلوا جبل الفتح ، وزحف إليهم الإسبانيوں ، فوقيعت بين الفتنين حروب ومناجرات لم يظفر

فيها الاسپانيوں بطائل ، ودخل المسلمين الجبل عنوة ، وبقي أمر العجزة
 الخضراء لنظر أبي مالك الى أن قتل كما سبق به الخبر ، وتواتت الهزائم على
 المسلمين ، وكان صاحب قشتالة قد حاول استرداد الجبل ، ونزل عليه قبل المرة
 الأخيرة ، فأسرع محمد الرابع الى انقاذه ، فرحل ملك النصارى ، وعاد محمد
 الى غرناطة ظافراً . ونقم على جند افريقيه فيما قيل قعودهم ، وهزىء بهم
 فعتبوه ، وربما ذلك في قلوبهم فقتلواه . وقيل ان ذرية عثمان بن أبي العلاء شيخ
 الغزا من زناتة والبربر وابن سلطان المغرب كانوا قد خلفوا شيخهم في الجهاد ببر
 الاندلس ، وكانوا يرجعون في رئاستهم الى الامير أبي ثابت عامر ، وقويت
 عصابتهم ، وعلت كلمتهم ، حتى استبدوا على السلطان ، وكان ذلك قبل
 اجازته نحو أبي الحسن بن مرين ، فلما أجاز اليه ظنوا فيه الظنون ، وأضمروا
 السوء لما بينهم وبين أولاد عمهم من المنافسة والعداوة ، فعند أوبيه التقوه بقرب
 حصن اصطبونة ، وأغلظوا له القول وقتلو عاصما صاحب ديوان العطاء من
 مواليه ، فلما أنكرها السلطان تناولوه عصا بالرماح الى أن قتلواه ، وانقلبوا فجأوا
 بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد فأجلسوه مكانه ، واستبدوا عليه ، وخشي
 غائتهم وأسر لهم ، فلما اتفق مع ابن مرين قبض عليهم واعتقلهم جميعا ،
 وأجازهم الى تونس وكان أبو الحجاج يوسف من أفضل الملوك في عدله ونزاهته
 وحبه للعلم والعلماء ، عقد مع النصارى المهدانات إراحة لرعيته وتفرغا للاعداد
 والاهبة ، ولم يهمل وقته ، ولا ضيع الفرصة ، وأنشأ المساجد والمدارس ، وجر
 المياه ومهد السوابل ، الى أن توفي عام ٧٥٥ وسبب وفاته أن بعض الرعanford وقيل
 ان رجلا به مس قد طعنه يوم الفطر وهو ساجد في الصلاة فقضى عليه لحيته .

أيام محمد الخامس من بنى الأحرmer ونكبته والتجاؤه الى السلطان أبي سالم المريني

فقام بالامر بعده محمد الخامس ، وكان بعضهم رشح ابنه الاصغر
 اسماعيل ، فلما عدلوا عنه حجروه ببعض القصور ، وكان له صهر من ابن عمه

محمد بن اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد ، فكان يغريه سرا باللوثوب الى أن أمكنته الفرصة ، وذلك ان محمداً خرج مرة الى التتره ، فدخل محمد بن اسماعيل في زمرة من الاوشاب لفهم حواليه ، واقتحم دار الحاجب رضوان فقتله بين حرمته وبناته ، وقربوا الى اسماعيل فرسه فركب ، ودخل القصر وقرعت الطبول بسور الحمراء ، وفر محمد الى وادي آش بباعيه أهلها على الموت ، واتصل خبر هذه الواقعة بالسلطان أبي سالم المريني خلف أبي الحسن ، فأرسل لحينه أبي القاسم الشريف لجازة محمد المغضوب ملكه الى المغرب ، لما بينهما من العهد وعقد مع السلطان المغضوب تسرع الوزير الكاتب أبي عبد الله بن الخطيب المشهور بلسان الدين لمكانه من دولة محمد فأجيزوا جميعاً ، واحتفل أبو سالم لتقديمه بفاس دار ملكه ، وغض المجلس بالمشيخة والاعيان وقام ابن الخطيب فأنشد بين يدي السلطان قصيدة الرائية يستعطفه لسلطانه ويستنجد له لعادته حتى أبكى الحاضرين ومطلعها :

سلا هلْ لدِيْها من مخبرة ذكرُ
وهلْ أعشبَ الوادي ونمَّ به الزهرُ

ومنها :

بلادِي التي عاطيتُ مشمولة الهوى
وجوي الذي ربى جناحي وكروءُ
نفت بي لاعن جفوةٍ وملالةٍ
ولكنها الدنيا قليلٌ متاعها
 فمن لي بنيلِ القرٍب منها ودوننا
ولله عينا من رأنا وللأسى
بكينا على النهرِ السرورَ عشيَّةً

ومنها :

فلما رأينا وجهَه صدقَ الزجرُ
زجرنا بابراهيمَ ملءَ همومنا
دوا الخطُّ لم يكذبْ لعزمته فجرُ
بمنتخب من آلِ يعقوبَ كلما

أطاعتهُ حتى العُصْمُ في قنن الربى وهَشَتْ إِلَى تَأْمِيلِهِ الْانْجُمُ الزَّهْرُ

ومنها :

لتنصفنا مما جنى عبُدُك الدهرُ
وأنْتَ الَّذِي تُرجِي إِذَا أَخْلَفَ الْقَطْرُ
كَسِيرٌ وَمَنْ عَلَيْكَ يُلْتَمِسُ النَّصْرُ
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْفَخْرَ قَدْ جَاءَكَ الْفَخْرُ
مُوْتَقِّةٌ قَدْ حَلَّ عَقْدَتَهَا الْعَدْرُ
وَقَلْدَهُ نُعْمَاكَ الَّتِي مَا لَهَا حَصْرُ
فَقَدْ صَدَّهُمْ مِنْكَ التَّغْلُبُ وَالْقَهْرُ
تَحَاوُلُهَا يَمْنَاكَ مَا بَعْدَهَا خُسْرُ

قصـدـنـاكـ يا مـولـيـ المـلـوكـ عـلـىـ النـوىـ
وـأـنـتـ الـذـيـ تـدـعـىـ إـذـاـ دـهـمـ الرـدـىـ
وـهـذـاـ إـبـنـ نـصـرـ قـدـ أـتـىـ وـجـنـاحـهـ
غـرـبـيـ يـرـجـيـ مـنـكـ مـاـ أـنـتـ أـهـلـهـ
فـعـدـ يـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ لـبـيـعـةـ
أـعـدـهـ إـلـىـ أـوـطـانـهـ عـنـكـ ثـانـيـاـ
وـعـاجـلـ قـلـوبـ النـاسـ فـيـهـ بـجـرـهـاـ
وـهـمـ يـرـقـبـونـ الـفـعـلـ مـنـكـ وـصـفـقـةـ

وـبـقـيـ اـبـنـ الـاحـمـرـ مـحـمـدـ وـوزـيـرـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ عـلـىـ الرـحـبـ وـالـسـعـةـ
وـالـاجـالـ وـالـكـرـامـةـ فـيـ حـاضـرـةـ اـبـنـ مـرـينـ اـلـىـ أـنـ كـانـ اـرـتـجـاعـ مـحـمـدـ مـلـكـهـ لـسـنـةـ

. ٧٦٣

خبر لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة

ولنذكر هنا قول الوزير ابن الخطيب عن هذه الحادثة في تأليفه المسمى
(باللحمة البدرية بالدول النصرية) وهو « انه كان السلطان أبو عبد الله عند تصوير
الامر اليه ، قد ألزم أخاه اسماعيل قصراً من قصور أبيه بجوار داره ، مرفها عليه ،
متتممة وظائفه ، وأسكن معه امه وأخواته منها ، وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال
جم ، فوجدت به السبيل الى السعي لولدها ، فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي
عقد لها الوالد مع ابن عمها الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد ابن الرئيس
أبي عبد الله المبague له باندرش ابن الرئيس أبي سعيد جدهم الذي تجمعهم
جرثومته ، وشمر الصهر المذكور عن ساعد عزمه وهو على ما هو عليه من الاقدام ،
ومداخلة ذئبان الرجال ، واستعان بمن أسفته الدولة ، وهفت به الاطماع ،

فتآلف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسلمين شفأً صعب المرتقى ، واتخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بنية كانت به عن التمام ، وكسوا حرسياً بأعلاه بما اقتضى صماته ، ونزلوا الى القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة ، فاستظهروا بالمشاعل والصراخ ، وعالجوه دار الحاجب رضوان ففضوا اغلاقها ، ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده ، وانتبهوا ما اشتغلت عليه ، واسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الامير المعتقل اسماعيل ، وقرعت الطبول ونودي بدعوته .

وقد كان أخوه السلطان متحولاً الى سكنى الجنة المنسوبة للعريف لصق داره ، فما راوه الا النداء والعجيج وقرع الطبول ، وهب الى الدخول الى القلعة فألفاها قد أخذت دونه شعابها ، ورشقته السهام فرجع وسدده الله في محل الحيرة ، ودس له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس كان مرتبطاً عنه ، وصبح مدينة وادي آش ، وقد أعيا متبوعه ، فلم يشعر حافظ قصبتها الا وهو فيها ، فأعطاه أهلها صفتهم ، وتجهزت الحشود لمنازلته ، وجدد أخوه المتغلب عقد السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه الى سلم المسلمين لجراء فتنه بينه وبين البرجلونيين .

واغتبط به أهل المدينة فذبوا عنه ، ورضوا بهلاك نعمتهم دونه ، واستمرت الحال الى يوم عيد النحر من عام التاريخ ، ووصله رسول صاحب المغرب مستنزلها عنها ، ومستدعيها الى حضرته لما عجز عن امساكها ، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من معول ، فانصرف ثانى النحر وتبعه جمع وافر الى مريلة من ساحل اجازته ، وكان وصوله الى مدينة فاس مصحوباً من البر والكرامة بما لا مزيد عليه في السادس من المحرم فاتح عام ٧٦١ ، وركب السلطان للقاءه ونزل اليه عندما سلم عليه ، وكنت قد لحقت به مفلتاً من شرك النكبة التي استأصلت المال ، وأوهمت سوء الحال بشفاعة السلطان أبي سالم ، فقمت بين يديه منشداً في المحفل المذكور (وذكر القصيدة الرائية حتى أتى على آخرها ثم قال) : وفي

صبيحة يوم السبت السابع عشر من شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه الى الاندلس وقد ألح صاحب قشتالة في طلبه ، فعقد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة ويرز الناس ، واستحضرت البند والطبول والآلية وألبس خلعة الملك وقידت له مراكبه ، فاستقل وقد التف عليه كل من جلا عن الاندلس من لدن الكائنة ، ورأى من رقة الناس واجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، اذ كان مظنة ذلك سكوناً وعفافاً وقرباً قد ظللله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائع المحبة الى كونه مظلوم العقد ، منتزع الحق ، فتبعته الخواطر ، وحميت عليه الانفس ، وانصرف لوجهته ، وهو الآن برندة مستقل بها وبجهاتها ، ومقتنع برسم سلطنتها ، وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد علي بن يوسف بن كماعة الحضرمي وبكتابه الفقيه أبو عبد الله بن زمرك (تلميذ ابن الخطيب صاحب هذا القول) وقد استفاض عنـه من الحزم والتدريب والتيقظ والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر » انتهى بعض تصرف .

ثم استرجع السلطان المذكور حاضرة ملكه حمراء غرناطة ، وقتل له ملك قشتالة المنترى على ملكه من أبناء عمه ، وقد استوفى القصة كتاب من انشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سلطانه الغني بالله محمد المذكور الى الملك المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون نقتطف منه بعض ما يناسب المقام ، لصدره عن شاهد للحوادث بجملتها ، وواقف على دخيلتها ، وشريك في أسبابها ، ويحر في معرفة أنسابها وهو قوله : « ان بعضـاً من ينسب اليـنا بـوشـائـج الـاعـراقـ ، لا بـمـكارـمـ الـاخـلاقـ ، ويـمـتـ اليـناـ بـالـقـرـابةـ الـبعـيدةـ ، لاـ بـالـنـصـبةـ السـعـيدةـ ، منـ كـفـلـنـاـ يـتـيـماـ ، وـصـنـاهـ ذـمـيـماـ ، وـبـوـأـنـاهـ مـبـوـأـ كـرـيـماـ ، بـعـدـ أـنـ نـشـأـ حـرـفـوـشاـ دـمـيـماـ ، وـمـلـعـونـاـ لـئـيـماـ ، وـنـوـهـنـاهـ مـنـ خـمـولـهـ بـالـلـوـلـاـيـةـ ، وـنـسـخـنـاـ حـكـمـ نـسـجـهـ بـاـيـةـ العـنـاـيـةـ ، دـاـخـلـ أـخـاـنـاـ كـنـاـ الرـمـنـاـهـ الـاـقـتـصـارـ عـلـىـ قـصـرـهـ ، وـلـمـ نـجـعـلـ أـدـاـةـ تـدـلـ عـلـىـ حـصـرـهـ ، وـسـاـمـحـنـاهـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ أـمـرـهـ ، وـلـمـ نـرـتـبـ نـزـيـدـهـ وـلـاـ عـمـرـهـ ، وـاـغـتـرـرـنـاـ بـرـمـادـ عـلـىـ جـمـرـهـ ، فـاسـتـدـعـىـ لـهـ مـنـ الصـعـالـيـكـ شـيـعـةـ مـنـ كـلـ درـبـ بـفـكـ الـاـغـلـاقـ ، وـتـسـرـبـ اـنـفـاقـ النـفـاقـ ، وـخـارـقـ لـلـاجـمـاعـ وـالـاصـفـاقـ ، وـخـيـرـ بـمـكـانـ الـخـرابـ

ومذاهب الفساق ، وتسور بهم القلعة من ثم شرع في سده ، بعد هذه ولم تكمله القدر المميزة في ليلة آثينا بيتنا بعض البساتين خارج قصورنا ، واستتبنا من يضلع بأمورنا ، فاستتم الحيلة التي شرعها ، واقتتحم القلعة وافترعها ، وجدل حرس التوبة وصرعها ، وكبس محل النائب عنا وجده ، ولم ينشب أن جدله ، واستخرج الاخ البائس فنصبه ، وشد به تاج الولاية وعصبه ، وابتز امرنا وغضبه ، وتوهم الناس أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ، والدائرة بنادق ألمت ، ولقد همت ، فخذل الناصر ، وانقطعت الاواصر ، واقدم المتلاصر ، واقتتحمت الابهاء والملاصر ، وتفرق الاجزاء وتحللت العناصر ، وفقد من عين الاعيان النور البادر ، فاعطوه طاعة معروفة ، واصبحت الوجوه اليه مصروفة ، وركضنا وسرعان الخيل تقفو أثر منجاتنا والظلم يخفيها ، وتكفي علينا السماء والله يكفيها ، الى أن خلصنا الى مدينة وادي آش خلوص القمر من السرار ، لا تملك الا نفسها مسلمة لحكم القدر .

الى أن يقول : « ولم ينشب الشقي الخزي ان قتل البائس الذي موه بزيفه ، وطوقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه اذ أمن المضuffed من كيده وجعل ضر غامه بازيا لصيده ، واستقل على اريكته استقلال الظليم على تريكته ، حاسر الهمامة ، متنقا بالشجاعة والشهامة » .

الى أن يقول : « وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت علينا الساعة . وركبنا البحر تقاد جهتها تتقارب تيسيرا ، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيرا ، وأخذت الخائن الصيحة فاختبل ، وظهر تهوره الذي عليه جبل ، فجمع أوباشه السفلة وأوشابه ، وبهرجه الذي غش به المحسن وشابه ، وعمد الى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحرية ، والمعامل العزيزة ، فملأ بها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق ، والوشح القراطق ، واحتمل عدد الحرب والزينة ، وخرج ليلا عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعماته الشائلة ، ودولة بغيه الزائلة ، ان يقصد طاغية الروم من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، الا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الامة المسلمة فلم

يُكَلِّفُ إِنْ تَحْصِلُ فِي قَبْضِهِ ، وَدَنَا مِنْ مَضْجُعِ رَبِّسْتَهُ ، وَاسْتِشَارُ نَصْحَاءِ فِي
أَمْرِهِ ، وَحُكْمُ الْحِيلَةِ فِي جَنَاحِيَّةِ غَدْرِهِ ، وَشَهَرُهُ بِبَلْدَهُ ، وَتَولَّ قَتْلَهُ بِيَدِهِ ، وَالْحَقُّ بِهِ
جَمِيعُهُ مِنْ أَمْدَهُ فِي غَيْهِ ، وَظَاهِرُهُ عَلَى سُوءِ سَعِيهِ ، وَبَعْثَتِ الْيَنَى بِرَؤُوسِهِ فَنَصَبَتِ
بِمَسْوِرِ غَدْرِهَا ، وَقَلَدَتِ لَبَّةَ تَلْكَ الْبَنِيَّةِ بِشَدَرِهَا» إِلَى آخِرِ مَا قَالَ .

وَفِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ نَظَمَ لِسَانُ الدِّينِ قَصِيدَتَهُ الْلَّامِيَّةَ الْمُشَهُورَةَ ، وَوَجَهَ بِهَا إِلَى
سَلْطَانِهِ الْمَذْكُورِ ، فَيَقَالُ أَنَّهُ لِشَدَّةِ اعْجَابِهِ بِهَا أَمْرَ بِكِتَابَتِهَا عَلَى جَدْرَانِ الْحُمَرَاءِ
وَمَطْلَعِهَا :

الْحَقُّ يَعْلُو وَالْبَاطِلُ تَسْفَلُ
وَإِذَا اسْتَحَالَتْ حَالَةٌ وَتَبَدَّلَتْ
وَالْيُسْرُ بَعْدَ الْعُسْرِ مَوْعِدُّ بِهِ
أَمْحَمَّدٌ وَالْحَمْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ
أَمَا سَعْدُوكَ فَهِيَ دُونَ مَنَازِعٍ

وَالْحَقُّ عَنْ أَحْكَامِهِ لَا يَسْأَلُ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَبَدَّلُ
وَالصَّبْرُ بِالْفَرْجِ الْقَرِيبُ مُوَكَّلٌ
بِحَلَّيْهَا دُونَ الْوَرَى تَجْمَلُ
عَقْدُ بِأَحْكَامِ الْقَضَاءِ مُسَجَّلٌ

قد تَنْقُصُ الْأَشْيَاءُ مَا تَكُُمُ
وَاللَّهُ يَأْمُرُ بِالْمَتَابِ وَيَقْبَلُ
بِإِسَاعَةٍ قَدْ سَرَّكَ الْمُسْتَقْبَلُ
أَرْضَاكَ فِي مَا قَدْ جَنَاهُ الْأُولُ
لَمَّا أَرْتَضَكَ لَوْلَيَّةً لَا تُعَزِّلُ
وَقَضَى لَكَ الْحُسْنَى فَمَنْ ذَا يَخْذُلُ
مَنْ تَنَاهَى عَنِ الْعُبَابِ فَأَيُّ صَبَرٍ يَجْمُلُ
وَالرِّيحُ تَقْطَعُ لِلْزَفِيرِ وَتَرْسِلُ
تَخْتَالٌ فِي بَرِّ الشَّبَابِ وَتَرْفُلُ
مَنْ يَعْلَمُ الْأَنْشَى وَمَاذا تَحْمِلُ

وَمِنْهَا
عُوذُ كَمَالَكَ مَا اسْتَطَعْتُ فِيَّ
تَابَ الرِّزْمَانُ إِلَيْكَ مَا قَدْ جَنَى
إِنْ كَانَ ماضٌ مِنْ زَمَانِكَ قَدْ مَضَى
هَذَا بِذَاكَ فَشَفَعَ الْجَانِيُّ الَّذِي
وَاللَّهُ قَدْ وَلَّكَ أَمْرَ عَبَادِهِ
وَإِذَا تَغْمَدَكَ الْأَلَهُ بِنَصِرِهِ
وَظَعَنَتْ عَنِ أُوْطَانِ مُلْكِكَ رَاكِبًا
وَالْبَحْرُ قَدْ حَنِيتْ عَلَيْكَ ضَلَوْعَهُ
وَلَكَ الْجَوَارِيَّ الْمَنْشَاتِ وَقَدْ غَدَتْ
جَوْفَاءِ يَحْمِلُهَا وَمَنْ حَمَلَتْ بِهِ

ومنها

سَدَ الثَّنِيَّةَ عَارِضُ مُتَهَلِّلٍ
يَرْمِي الْجَلَادَ بِهِ أَغْرِيَ مُحَجَّلٌ
وَإِذَا تَغْنَىَ لِلصَّهْيلِ فَبُلْبُلٌ

صَبَحْتُهُمْ غُرَرُ الْجِيَادِ كَائِنُوا
مِنْ كُلِّ مَنْجَرٍ أَغْرِيَ مُحَجَّلٌ
رَجْلُ الْجَنَاحِ إِذَا أَجَدَ لِعَايَةً
وَمِنْهَا

مَرَهَ^(۱) الْعَيْنُ فِي الْعُجَاجَةِ يَكْحُلُ
مَا يَعْلُ^(۲) مِنَ الدَّمَاءِ وَيَنْهَلُ
رَمَدٌ وَلَا يَخْفِي عَلَيْهِ مَقْتُلٌ

وَبِكُلِّ أَزْرَقِ اَنْ شَكَّتِ الْحَاظَةُ
مَتَأْوِيْدِ أَعْطَافُهُ فِي نَشَوَةِ
عَجَباً لِهِ إِنَّ النَّجِيْعَ بِطَرْفِهِ
وَمِنْهَا

وَثِبَاتُهُ مُثَلٌ بِهِ يُتَمَّثِّلُ
وَالسَّمَرُ تَنْقِطُ وَالْأَسِنَةُ تُشَكِّلُ
وَعُوَامَلُ الْأَسْلِ^(۳) الْمُثَقَّفِ تَعْمَلُ
إِذْ ثَوَّبَ الدَّاعِي^(۴) الْمَهِيبُ وَأَقْبَلُوا
حُجَّبُوا بِرَايَاتِ الْجَهَادِ وَظَلَلُوا

لِلَّهِ مَوْقُوفُكَ الَّذِي وَثِبَاتُهُ
وَالْخَيْلُ خَطُّ وَالْمَجَالُ صَحِيفَةُ
وَالْبَيْضُ قَدْ كَسَرَتْ حَرْفُ جَفُونَهَا
لِلَّهِ قَوْمُكَ عَنَّدَ مَشْتَجَرِ الْقَنَا
قَوْمٌ إِذَا لَفَّحَ الْهَجَيرُ وَجْوهُهُمْ

وقد كافأ محمد الخامس ملك الخامس على غدره بخصمه ابن عميه بمضافته
إياه على أخيه المتزري عليه أيضا ، ولكن دارت الدائرة أخيراً على الملك ،
وتتمكن أخوه من قتلها ، وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم مما يلي أرض
المسلمين عورة ، وتشوف المسلمون الى ارجاع الجزيرة ، وكان صاحب
المغرب في شغل عن ذلك بانتقاد ابن أخيه وعامر بن محمد ، فراسل صاحب
الاندلس على أن يزحف بعساكره على أن عليه الامداد بالمال والاساطيل ، فزحف

(۱) مَرَهَ - مَرَهَا عينه : فسدت وايضاً بوطن ألقانه لترك الكحل .

(۲) عَلَى يَعْلُ وَيَعْلُ : شرب ثانية أو تباعاً .

(۳) الأسل : الرماح .

(۴) ثَوَّبَ الدَّاعِي : لَوْحٌ يُثْبَهُ لِيُرَى .

ابن الاحمر بعساكره المسلمين وأقلعت أساطيل صاحب المغرب من مرسى سبتة ، واحيط بالجزيرة ، وضيق على حاميتها ، ويسوا من المدد فنزلوا عنها بالأمان ، ودخلها المسلمون وذلك سنة ٧٧٠ . وبعد ذلك رأى المسلمون هدمها خشية ارجاع الانسانيو لها كما هدم صلاح الدين الايوبي عسقلان لمثل هذه الغاية فهدمت في سنة ٧٨٠ واصبحت خاوية على عروشها .

واستمرت أحوال غرناطة في مدة الغني بالله محمد الخامس على ما كانت عليه من الغبطة والسعادة ، وأوضحت تلك الدول إيماض الخمود ، إذ لم تقم لها بعد هذا السلطان قائمة تشكر ، الى أن قبض في عام ٧٩٨ . وقام بالأمر بعده ابنه أبو عبد الله يوسف ، والسلطان محمد هذا هو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب أشهر وزراء الاندلس على الاطلاق ، بل من أشهر رجال الادب والسياسة في الآفاق ، الذي بنى المقرى أكثر (فتح الطيب) على سيرته وأخباره ونشره ونظمه وأشياخه وتلامذته بما لا أظنه جمع عن أحد مثله ، وحيث كان المقام تاريخ غرناطة في هذا الكتاب ، وكان الوزير المذكور مفخر ذلك البلد وواسطة عقد ذلك الصقع ، فلا بأس في إيراد زبدة خبره ، بما أمكن من الإيجاز :

زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب

ترجمه سليل السلطان الامير العلامة أبوالوليد اسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الاحمر نزيل فاس في كتابه المسمى (فرائد الجمان فيمن نظمني وإياد الزمان) فقال : « ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المتزمي ببلدة لوشة عبد الله بن الفقيه الكاتب سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولی الله الخطيب سعيد السلماني اللوشی المعروف بابن الخطيب » .

وقال في منشأه : « نشأ على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه ، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا ، ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي ، وقرأ

عليه العربية ، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي ، ولازم قراءة العربية والفقه على الشيخ الامام ابن الفخار البيري ، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر ، وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجیاب « إلى آخر من ذكر من أشیاخ الرجل الاعلام . ثم ذكر أخذه الطب وصناعة التعديل عن الامام يحيى بن هذيل حكيم وقته .

وقال ابن خلدون بنسقه المعروف في شأن لسان الدين وكان معاصره
وصاحبه^(١) :

ترجمة ابن خلدون :

(١) كما ترجم ابن خلدون لسان الدين ترجمة لسان الدين في (الاحاطة بأخبار غربناطة) بما نصه « عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نهاية ثوار الاندلس ، وينسب سلفهم الى وائل بن حجر ، وحاله في القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معروفة انتقل سلفه من مدينة اشبيلية عن نهاية وتعيين وشهرة عند الحادثة بها أو قبلها ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثانى المحمددين محمد بن الحسن وتناسلاوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرف جد المترجم به في القيادة ، وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق جم الفضائل ، باهر الخصال رفيع القدر ، ظاهر الحياة أصيل المجد ، وقرر المجلس خاصي الزي عالي الهمة ، عزوف عن القصيم صعب المقادمة ، قوي الجأش طامح لقدن الرئاسة خاطب للحظ ، بارع الخط مغري بالتجلة ، جواد حسن العشرة ، مبذول المشاركة مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعي خلال الاصالة ، مفسخ من مفاخر التخوم المغربية . قرأ القرآن بيده على المكتب ابن برال ، والعربية على المقرى الزواوي وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله بن جابر الوادي آثي ، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله بن عبد السلام ، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطفي ، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، ولازم العالم الشهير أبي عبد الله الابلي وانتفع به .

انصرف من افريقية منشأه بعد ان تعلق بالخدمة السلطانية على الحادثة واقامته لرسم العلامه بحكم الاستثناء عام ثلاثة وخمسين وسبعين وسبعين ، وعرف فضله وخطبه السلطان منفق سوق العلم والادب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان ، واستحضره بمجلس المذاكرة ، عرف حقه ، وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين . ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن الثاني . وشفقه بثقوب الفهم وجود الادراك . فأغروا به السلطان اغراء عضده ما جبل عليه عهده من اغفال التحفظ مما يربب لديه فأصابته شدة» .

الى ان يقول : «ووادلت الدولة الى السلطان أبي سالم ، وكان له بالاتصال قبل توسيع المحنة بما أكد حظوظه ، فقلده ديوان الانشاء مطلق الجرایات محمر السهام نبیه الربة الى آخر أيامه ، ولما أقتلت الدولة مقادها بعده الى الوزیر عمر بن عبدالله مدبر الامر ، وله اليه وسيلة ، وفي حلیه شركة ، وعنه حق ، رابه تقصیره عما ارتمنى اليه أمله ، فسأله ما بينهما بما أآل انفصالة عن الباب المريني . وورد على الاندلس في أول ربيع الاول عام =

«أصل هذا الرجل من لوشة ، على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج ، على وادي سنجل ويدل شنيل المنحرف فيه ذلك البسيط من الجنوب الى الشمال ، كان له بها سلف معروفون بوزارتها ، وانتقل أبو عبد الله الى غرناطة واستخدم لملوك بني الاحمر ، واستعمل على مخازن الطعام . ونشأ ابنه محمد هذا بغرنطة وقرأ وتآدب على مشيختها . واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، ويرز في الطب ، وانتحل الادب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلا حوض السلطان من نظمه ونشره مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ في الشعر والترسليل حيث لا يجارى فيما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الاحمر ، وملا الدولة بمدائحه ، وانتشرت في الآفاق . فرقاه السلطان الى خدمته ، وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدويين في النظم والشعر وسائر العلوم الادبية ، الى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فولى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رئاسة

=أربعة وستين وسبعمائة ، واهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وآخر وفاته ، وخلع عليه ، وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخل عنده برأ ومواكلة ومراكبة ومطابقة وفكامة (قال) وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظيرة ، قد استعمل في السفارة الى ملك قشتالة ، فراقه وعرف حقه ، مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة » .

ووصفه في الكتابة فقال : « واما ثراه وسلطانياته السجعية فخلج بلاغة ورياض فنون ومعادن ابداع ، يفرع منها يراعه الجري ، شبّهه النداءات بالخواتم في نداوة الحروف ، وقرب المهد بحرية المداد ، ونفذ أمر القريبة واسترسال الطبع . واما نظمه فهو لهذا العهد قدمما في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوّه وهان عليه صعبه ». الخ ..

وانما قال لهذا العهد لان ابن خلدون في البداية كان يستصعب النظم ، وينسب ذلك لكثره ما يحفظ من المتون وكتب الاصول . وقد ذكر في مقدمته انه ذاكر في ذلك صاحبه الوزير ابن الخطيب ، وشكاله ضعف ملكه في النظم ، بما ظن من السبب ، فأجابه و : « لله انت وهل يقول هذا الا مثلك » ..

هذا وقد ذكر ابن خلدون في تعريفه بنفسه آخر التاريخ انه في آخر مقامه بغرنطة اشتم من الوزير ابن الخطيب رائحة الانقضاض مع استبداده بالدولة . فاستاذن السلطان ابن الاحمر في الارتحال ، وعمى عليه ذلك الشأن ببقاء للمودة ، وارتحل مكرما ، ولقد صح بذلك ما قاله ابن الخطيب في حقه من انه صعب المقادنة عزوف عن الضمير .
الخ رحم الله الاثنين فقد كان كل خيرا بصاحب .

الكتاب ببابه ، وثناء بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتب جيرانهم من ملوك العدوة ، ثم دخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشاركات ، فجمع بها أموالاً وبلغ به المخالصة الى حيث لم يبلغ بأحد من قبله » (الى أن قال) :

« ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين عدا عليه بعض الزعاف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلوة وطعنه ، فأثواه لوقته ، وتعاونت سيف الموالي المعلوجي^(١) هذا القاتل ، فمزقوه أشلاء ، وبوبيع ابنه محمد بالأمر لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم ، وكفالة الأصغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته ، كما كان لاييه ، واتخذ لكتابته غيره ، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره ، وتشارك في الاستبداد معاً ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير بن الخطيب سفيراً الى السلطان أبي عنان مستمددين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ، ومثل بين يديه ، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس وفقهائها واستأنده في إنشاد شيء من الشعر ، يقدمه بين يدي نجواه ، فأذن له وأنشد وهو قائم :

عُلَّاكَ مَا لَاحَ فِي الدُّجْنِيْ قَمَرُ
مَا لَيْسَ يَسْطِيعُ دَفْعَهُ الْبَشَرُ
لَنَا وَفِي الْمَحْلِ كَفُكَ الْمَطْرُ
لَوْلَاكَ مَا أَوْطَنُوا وَلَا عَمَرُوا
مَا جَحَدُوا نِعْمَةً وَلَا كَفَرُوا
فَوَجَهُوْنِيَ الِيْكَ وَأَنْتَظَرُوا
خَلِيفَةَ اللَّهِ سَاعِدَ الْقَدَرِ
وَدَافَعْتُ عَنْهُ كَفُ قَدْرِتِهِ
وَجَهْكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دَجَى
وَالنَّاسُ طَرَا بِأَرْضِ اَنْدَلُسِ
وَمَنْ بِهِ مَذْ وَصَلَتْ حَبَلَهُمْ
وَقَدْ أَهَمَّتُهُمْ نَفْوُسُهُمْ

فاهتز السلطان لهذه الآيات ، وأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن

(١) يجمع علوج واعلاج ومعلوجي والظاهر ان الاخير مختار اهل المغرب لتناوله في كتاباتهم .

يجلس : « ما ترجع اليهم الا بجميع عطائهم » ثم أثقل كاهمهم بالاحسان ، وردهم بجميع ما طلبوه ، ومكنت دولتهم هذه بالاندلس خمس سنين ، ثم نازلهم محمد الرئيس ابن عم عم السلطان ». وذكر القصة السالفة من اجازة ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب الى المغرب الى أن قال : « واستاذن اي ابن الخطيب في التحول الى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها ، فأذن له وكتب الى العمال باتخافه ، فتباردوا في ذلك ، وحصل منه على حظ ، وعندما مر بسلا عند قفوله من سفره ، دخل مقبرة الملوك بشالة ، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن ، وأنسد قصيده على روي الراء الموصولة يرثيه ، ويستثير به الى استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها :

ان بـان منزلـه وـشـطـتـ دـارـه قـامـتـ مـقـامـه عـيـانـه أـخـبـارـه
قـسـمـ زـمانـكـ عـبـرـهـ أوـ عـبـرـهـ هـذـاـ ثـرـاهـ وـهـذـهـ آـثـارـهـ
الـىـ آخرـ ماـ ذـكـرـ مـنـ تـرـجـمـتـهـ .

ولا بأس في نقل شيء مما ترجم به ابن الخطيب نفسه ، نرويه ببعض تصرف حبا بالاختصار قال : « محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني قرطيبي الاصل ثم طليطليه ، ثم لوشيه ، ثم غرناطيه ، يكنى أبا عبدالله ويلقب من اللقب المشرقية لسان الدين ، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثي في واقعة الربيض^(١) الشهيرة الى طليطلة ، ثم تسربوا محمومين الى وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه ، فاستقر منهم بالموسطة الاندلسية جملة من النبهاء ، كعبد الرحمن قاضي كورة باحة وسعيد المستوطن بلوشه ، وكان سعيد هذا من أهل العلم والدين ، وخلفه ولده عبد الله سالكا مسلك أبيه في

(١) ملخص هذه الواقعة ان اهل ربيض قرطبة ثاروا على الحكم الاموي ، وفيهم علماء اكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي وغيرهم فهزهم الحكم ، وقتل من قتلهم ، وأجلى الباقين الى الاسكندرية ، فلم يطل الامر ان حصلت فتنة أجلتهم الى اقريطش - او كرييد - في الايام فعمروها ، واحتطوا بها مدينة قنديا التي يقال ان اسمها بالعربي الخندق لكونهم أداروا عليها خندقا ، وكانت لهم بها امرة استمرت نحو سبعين سنة . ثم رجعت الجزيرة للروم في ذلك الوقت .

التزيي بالانقباض والتحلي بالتزاهة ، وخلفه ولده سعيد جدنا الاقرب ، وكان صدرأً خيراً مستوليا على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب ، تحول الى غرناطة عند ثورة جيرته بنى الطنجالي الهاشميين ، وصاهر بها الاعيان منبني اضحي بن عبد اللطيف الهمذاني أشراف جند حمص الداخلين الى الجزيرة في طلعة بلج بن بشر القشيري ، توفي سنة ثلاثة وثمانين وستمائة . وتخلف والدي نابتاً في الترف ، نبت العليق ، يكتفه رعي أم تجر ذيل نعمة ، وتحنون منه على واحد تحذر عليه النسيم اذا سرى ، ففاته لترفة حظٌ كبير من الاجتهد ، وعلى ذلك فقرأ على بعض الجلة ، وانتقل الى لوحة بلد سلفه مخصوصاً بلقب الوزارة ، الى أن قصدها أبوالوليد متخطيا الى الحضرة ، فغضض أمره وأدخله بلدنه الدواع يطول استقصاؤها . ولما تم له الامر صحب ركابه الى دار ملكه مستأثراً بشخص عريض من دنياه ، وكان من رجال الكمال طلق الوجه ، وتضمن كتاب المثلى والاحاطة رائقاً من شعره ، فقد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الاولى سنة واحد وأربعين وسبعمائة ثابت الجأش غير جزوع ولا هيبة .

حدثني الخطيب أبو عبد الله بن اللوسي قال : « كبا بأخيك الطرف ، وقد غشي العدو ، وجنحت الى أردافه ، فانحدر اليه والدك وصرفني وقال : (أنا أولى به فكان آخر العهد بهما) » قال : « وخلفني - أي عبد الله عالي الدرجة - ، شهير الخطة ، مشمولاً بالقبول ، فقلدني السلطان سره ولما يستكمل الشباب ، معززة بالقيادة رسوم الوزارة ، واستعملني في السفاراة الى الملوك ، واستتبني بدار ملكه ، ورمى الى يدي بخاتمه وسيفه ، واثمنني على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمته ، ومعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوطي ، وقصر المشورة على نصحي ، الى أن كانت عليه الكائنة ، فاقتدى في أخيه المتغلب على الامر به فسجل الاختصاص وعقد القلادة .

ثم حمله أهل الشحناء من أعون ثورته على القبض علي فتقبض علي ،

ونكث ما أبْرَمَ منْ أَمْانِي ، واعتقلت بحال ترفيه . وبعد أن كَبَسَتِ المنازلُ والدورُ ، واستكثَرَ منْ الحرس ، وختم على الأَغْلَاق ، واستؤصلت نعْمَة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر في تَبَرُّ الغلة وفراحة الحيوان وغبطة العقار واستجادَة العدة ووفر الكتب ، الخ . فأخذ ذلك البيع ، وتناهيتها الأسواق ، وصاحبها النحس وشمل الخاصة والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسيبها المال حسبما قلت :

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقداني المنصور من آل عامر (يشير إلى نكبة المصحفي أيام المنصور بن أبي عامر) ووصلت الشفاعة في مكتبة بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصي شرطا في حل العقدة ، ومسالمة الدولة ، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب ، ويبلغ ملكه في بري ، متزلا رحيبا ، وعيشا خفضا ، واقتاعا جما ، وجرأة ما وراءها مرامي ، ثم اسعف قصدي في تهيؤ الخلوة ، بمدينة سلا : منه الصكوك ، منها القرار ، متقدداً بالله ، موفر الحاشية ، مخلي بيني وبين اصلاح معادي ، إلى أن رد الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله (محمد الخامس) ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه ، فطالبني بوعد ضربته ؛ ولم يوسعني عذرًا ، ولا فسح في الترك مجالا . فقدمت عليه بولده على حال من التقشف والزهد فيما بيده ، فرمى الي بمقاييس رأيه ، وغضى من جفاء لي بحلمه ، وحثا في وجوه شهواته تراب زجري ، وصرف هواي في التحول ثانيا ، فاستعنت الله تعالى وعاملت وجهه فيه من غير تلبس بجرأة ، ولا تشبت بولاه ، مقتصرًا على الكفاية ، خامل المركب ، هاجر الزخرف ، صادعا بالحق في أسواق الباطل ، كافا عن السخال برائين السباع الخ » انتهى .

ويقي ابن الخطيب في وزارة أبي عبد الله محمد إلى أن غصت بأمره حاشية السلطان ، فدبَتْ في حقه عقارب السعاية ، وتوهم ابن الخطيب ميل سلطانه إلى

قبولها ، فأجمع التحول عن الاندلس الى المغرب ، واستأذن مولاه في تفقد
الشغور الغربية وسار اليها في لمة من فرسانه ومعه ابنه علي ، فلما حاذى جبل طارق
مال اليه ومنه أجاز الى سبتة ومنها قصد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي
الحسن المريني وكان مكينا لديه لسابق عهد فأنزله خير نزل ؛ وبعث كاتبه أبي يحيى
ابن أبي مدين سفيرا الى الاندلس في طلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل
الحالات . فلما خلا الجو لاعدائه أخذوا تتبع سقطاته وإغراء سلطانه محمد به ؛
ورموه بالزنقة ونسبوا اليه في ذلك كلمات رفعت الى قاضي غرناطة أبي الحسن
ابن الحسن فسجلها عليه ويعشه ابن الاحمر الى سلطان المغرب يطلب الانتقام منه
بتلك الكلمات . فأبى ذلك عبد العزيز أتفة لذمه أن تخفر ، ونزله أن يهان وقال :
« هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأتتم عالمون بما كان عليه ؟ ! » .

ولبث في جوار عبد العزيز الى أن توفي سنة ٧٧٤ . ورجع بنو مرين من
تلمسان الى فاس فصاحب لسان الدين الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة
يومئذ ، فأرسل ابن الاحمر يطلب من ابن غازي إسلام ابن الخطيب فأبى
واستنكشف ، وكان ابن الاحمر قد أعاد احمد بن سالم المريني على سلطنته
المغرب وأمده . وبوبيع هذا وجرت بينه وبين ابن غازي حروب انتهت بانهزام ابن
غازي وخضوعه ، واستلم ابن الاحمر طعمة على ذلك جبل الفتح ، والى ذلك
يشير الامير الفاضل الرئيس أبوالوليد بن الاحمر بقوله : « حتى خيم مولانا جدنا
بظاهر جبل الفتح وكان إذ ذاك راجعا الى إیالة المغرب فأناخ عليه كلكل الجيش ،
وأهمهم ثقل الوطأة ، ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار
من شأبيب الانفاظ ، ولم يبق بغرنطة من له خلوص ولا من تترامي به همة إلا
وأعمل السير الحيث ، ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب » الخ .

وقال ابن خلدون : « إن ابن الاحمر يومئذ محا دولةبني مرين من وراء
البحر ، وكان من جملة شروط ابن الاحمر على السلطان أبي العباس احمد بن
أبي سالم عدا جبل الفتح تسليم لسان الدين بن الخطيب لما كان موغرأً صدره منه

ولا سيما بعد أن بلغه انه كان يغرى عبد العزيز بافتتاح الاندلس . فلما استولى السلطان ابو العباس احمد قبض على ابن الخطيب وكان سليمان بن داود شديد العداوة للسان الدين لمنعه ابن الاحمر ايام وزارته من تقليله مشيخة الغزا بالاندلس . فلما قبض عليه طار الخبر الى سلطان غرناطة فأرسل وزيره بعد ابن الخطيب ابا عبد الله ابن زمرك ، وهو تلميذ لسان الدين وخريجه فأحضر ابن الخطيب في مجلس الخاصة . وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة ، فعظم فيها النكير وبخ وعزز بمشهد الملأ ، ثم نقل الى محبسه حيث دس عليه سليمان بن داود من قتله ، واخراج شلوه من الغد فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أخرج من قبره ، وأحرق ثم أعيد الى الحفرة . وعزي ذلك الى سليمان » . ولهذا سمي لسان الدين بذى القبرين ، كما كان يلقب بذى الوزارتين ، وكما جاء في كثير من الامور على اثنين .

وكان صدر زمانه في الكتابة والشعر بحيث أن المغرب ليفتخر بخائي ابن الخطيب وابن خلدون ، كما يفتخر الشرق بصادي الصابي والصاحب .

ولابن الخطيب تاليف جمة أشهرها . كتاب (التعريف بالحب الشريف) ، و (الاحاطة بتاريخ غرناطة) في مجلدات ستة ، و (الاشارة الى آداب الوزارة) ، و (التاج المحكي) ، و (الكتبية الكامنة في أدباء المائة الثامنة) ، و (الاكليل الظاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجوادر) و (رقم الحل في نظم الدول) ، و (طرف العصر في دولة بنى نصر) ، و (بستان الدول) ، قسمه الى شجرات أشبه بالنظارات في هذه الايام ، فقال مثلا : شجرة السلطان ، وشجرة الوزارة ، وشجرة الكتابة ، وشجرة الجهاد ، وقسم هذه فرعين خيول وأسطول ، كل ذلك على وضع غريب لم يسبق اليه . وكتاب (تخلص الذهب) ، و (جيش التوشيح) ، و (عائد الصلة) ، و (نفاضة الجراب) ، و (الزبدة الممحوضة) ، و (كنasse الدكان ، بعد انتقال السكان) ، و (الدرر الفاخرة) ، و (سد الذريعة) ، و (أعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلال ، من ملوك الاسلام) ، وبضعة تاليف في الطب ، وعدة رسائل منها : (خلع الرسن ، في

أمر القاضي أبي الحسن) ، ترجم بها القاضي أبا الحسن بن الحسن عدوه ، و (ديوان كبير) ، وقد استوفى صاحب الفتح في شأنه ما لم يبق في القوس منزعا .

ولنعد إلى ذكر بني الأحمر أصحاب غرناطة فنقول : بعد وفاة أبي عبد الله محمد الخامس الذي كان واسطة عقد هذا البيت ، تولى الامر ابنه أبو الحجاج يوسف ، فجدد عقد السلم مع ملوك قشتالة ، وهادن الإسبانيوں طمعا في راحة رعيته ، واعتنى باصلاح شؤون قومه ، الا أن ابنه الثاني محمدا قام عليه ، وحدثه نفسه بالأماراة ، وقضى مدتة في مدافعة ابنه الى أن توفاه الله في سنة ٧٩٩ . وكانت القاعدة أن يخلفه ولده البكر يوسف لكن حيث كان أخوه محمد^(١) هو المتنزي على الملك ، وقد التف حوله جماعة من رجال الدولة ، فقد أجلسوه على كرسي الامارة وهو السادس باسم محمد من سلاطين غرناطة ، وفي مدتة لم تفتر المناوشات مع الإسبانيوں على حدود المملكة ، وفي عام ٨١١ أتى أنفاسه ، وجيء بأخيه البكر يوسف الثالث من اعتقاله ، فبُويع بالملك وهادن العدو ما استطاع ، الا انه اضطر اخيراً إلى ركوب الاسنة ، ولم ينعقد الصلح الا في نحو سنة ٨١٣ .

اضطهاد إسبانية ل الإسلامي الاندلس ويهدوها

وفي تلك المدة كلها كانت دولتا قشتالة وأragون تتسابقان في تعذيب المدججين الذين ذكرنا أنهم المسلمين الخاضعون لحكومة الإسبانيوں ، وملوك الدولتين يتبارون في الانتقام منهم والنکال بهم استزادة للمثوية واستعلاء في درجات الآخرة ، حسبما كانت عليه حالة ذلك العصر من التحمس الديني والتأخر المدني .

(١) أما ما يفهم من قول الامير الفاضل المؤلف اسماعيل بن يوسف بن محمد الغني بالله بن الأحمر في ترجمة الوزير الكاتب أبي عبد الله بن زمرك خلف ابن الخطيب في وزارة دولتهم فهو ان وفاة يوسف وقعت قبل هذا التاريخ لقوله « الى ان من الله بسراحه واعاده الى الحضرة في اول شهر رمضان المعظم من عام اربعة وتسعين وسبعيناً فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى وقيام اخينا محمد مقامه بالأمر » .

ففي قشتالة كان هنري أخوبطه قد جعل للمدجنين والإسرائيليين علامة فارقة اسمها (المشيرة) ، وأمر بمنع احتلاطهم وأخذهم وعطائهم مع الإسبانيوں ، وان لا يقبل أحد منهم في خدمة الدولة .

وفي أيام جان الأول ملك قشتالة صدرت الاوامر بأن كل مسيحي يربى في بيته مدجناً أو إسرائيلياً فله الحق كل الحق أن يؤدب بالسياط ، وانه لا يجوز لمدجن ولا ليهودي ان يستخدم عنده مسيحيًا ، وان من خالف ذلك يضرب وتضبط أملاكه ، كما انه لا يجوز دخول مسلم ولا يهودي بيت احد من الإسبانيوں الا اذا كان طيباً ، وثبت لزومه ، ومن خالف ذلك يغرم بدفع ستة آلف مراوید (نوع من السكة) .

خبر المدجنين

وسنة ٨١١ هجرية جدد جان الثاني أمر سلفه في رفض المدجنين واليهود في خدمة الدولة ، وضم اليه أن جزاء المخالفه دفع ثلاثة آلف مراوید ، وان كل من يسافر من المسلمين أو اليهود مع أحد الإسبانيوں او يؤاكله او يستخدمه في عمل له يجلد مائة ، واذا تكرر الفعل يؤخذ منه ألف مراوید ويكون ثلثاه للمخبر ، واذا وجد احد من هؤلاء في وليمة إسبانيولي يغرم بدفع ثلاثة آلف ، وان عاد صاحباً له من الإسبانيوں اثناء مرض يدفع ثلاثة مائة ، وان عاملهم بأخذ أو عطاء فيدفع الثلاثمائة ويضرب ويعزر .

وكانت في بادئ الأمر محاكم مخصوصة بالمدجنين ، فألغيت في التالي وأحيلت دعاويمهم الى محاكم الإسبانيوں ، وصدرت الاوامر ايضاً بأن كل من يخرج مدجناً من مزارعه ، ويستخدم لحرثه مدجناً بدلاً عنه يغرم بخمسة الاف مراوید ، وان تكرر فعله بمائة الف ، وان تكرر ايضاً فتضطر الدولة يدها على جميع عقاراته ، واذا فر مدجن الى غرناطة ووقع اثناء فراره في يد الإسبانيوں عذّ اسير حرب ، وضبّطت جميع أمواله ، وصار ملكاً لمن يمسكه .

وسنة ٨٢٦ أضيف الى هذا الشرط أن من منع من المجنين ابنه من التنصر عذب شديدا ، ومن اسر من مسلمي غرناطة احداً كان له ملكا خالصاً .

وسنة ٨٣٠ صدرت الاوامر بعدم اعتبار امضاء الاسپانيول فيما عليهم للمجنين واليهود ، وباعتبار امضاء هؤلاء فيما عليهم للاسپانيول .

وسنة ٨٣٣ صدرت الاوامر ان المسلم او الاسرائيلي المدعى عليه بدين لاحد الاسپانيول اذا انكره لا يقبل منه اليمين ، ولكن حيث كان بعض المجنين واليهود يضمون الاراضي الاميرية ففي هذه الحالة يقبل منهم اليمين عند الانكار لعدم إلحاق الضرر بخزينة الدولة .

وسنة ٨٨٠ صدقت الملكة ايزابلا جميع عهود جان الصغير وأضافت عليها حظر لباس الحرير وحلية الذهب والفضة على المسلمين واليهود (عاملت المسلمين في ذلك بحكم شريعتهم لكن في الرجال فقط) ووضعت لهم علامات فارقة في الملبس ، من جملتها رقعة زرقاء عرضها أربع أصابع لتمييز المسلمات والاسرائيليات .

وما كفى كل هذا حتى نشرت حكومة قشتالة امراً لجميع عمال النواحي بأنه بلغ الملكة وفوع إهمال في اتخاذ بعض الشروط بتمامها في حق المجنين واليهود ، وانه ان حصل فيما بعد اقل تقاус من احد في تنفيذها بحروفها يعزل من منصبه ويحرم معاشه .

واما في مملكة اragون فكان بطره الثالث قد اعلن في نحو سنة ٦٨٠ هجرية أن كل شخص مسيحيا كان أو مسلما او اسرائيليا يمكنه استيطان مملكته والإقامة بها حيث شاء ، لكن ينفي المسلمين واليهود من الخدمة العسكرية والمالية في الحكومة ، ويحظر عليهم ان يديروا الاسپانيول مala بأكثر من فائدة عشرين في المائة ، وان دعوا بهم تنظر عند الحكم ويقبل فيها اليمين ، على انه ان كان لمسلم او يهودي دين عند احد الاسپانيول بدون سند او بينة خطية فيقبل قوله من تاريخ الدين الى خمسة عشر يوما ، ومن ثمة لا يعود مقبولا ، والسدن الذي للمسلم او

الاسرائيلي على الاسپانيولي ان لم يسجل عند حكام الاسپانيول وبعد مضي ست سنوات يسقط اعتباره ويلغى كل حكم له .

وسنة ٧٧٠ أصدر الدون جان امراً بأن من تنصر من ابناء المدجنين ومات أبوه فله نصيه من الارث كما لو بقي مسلماً .

وسنة ٧٨٠ صدرت الاوامر بان كل مدجن يفر الى ارض غرناطة ويقع في اليد يعتبر اسير حرب ، وتضييق املاكه وتقسم الى ثلاثة اقسام الاول للملك والثاني لمن يكون قد قبض عليه والثالث مناصفة بين صاحب الارض التي أبق منها وصاحب الارض التي تهياً وقوعه فيها .

ثم منع المدجنيون من الجهر بالشهادتين واستعمال النفير لما فيه من تحريك الجامعة وجوزي من يجاهر بشيء من ذلك بالقتل .

وسنة ٨٩٠ أصدر الملك فرديناند صاحب اragون امراً بمنع المدجنيين من الخروج من مملكته ، وانه اذا استصبح احد الاسپانيول احداً منهم في خدمته لضرورة قضت ، فيؤذن بشرط ان لا يكون مع المدجن ولد دون الاربع عشرة من عمره ذلك خوفاً من الفرار الى بلاد الاسلام . الى غير ذلك من آيات العدل (!) التي توالت في كتب الافرنج ، فلخصنا منها ما قرأت ، ولا عجب فلولا هذه الغرائب ولو لا الامعان في الظلم الى هذه الدرجة لما تأخرت اسبانية الى الحد الذي وصلت اليه بعد ان كان لها من مركزها في اوروبا وافتتاح اميركا على يدها وانبساط أيديها في مستعمرات الخافقين ما يضمن لها المقام الاول بين الدول .

عود الى ابن الاحمر

ومن اخبار يوسف الثالث انه لما كان في محبسه من شلوبيانية ، واشتتدت علة أخيه محمد السادس ، وقطع حبال الرجاء من هذه الحياة ، طمع في تحويل الملك الى ابنه فكتب الى قائد القلعة التي كان أخوه معتقلًا فيها يأمره بضرب عنقه

عند وصول كتابه لكيلا ينazuء ابنته في الملك ، واتفق عند وصول الكتاب ان يوسف كان يلعب بالشطرنج مع القائد ، فلما دفع الرسول اليه مرسوم السلطان استأذن الامير يوسف في قراءته وما عتم ان امتنع لونه ، فاستشف يوسف الامر وسائل القائد هل فيه أمر بضرب عنقي ؟ فتحير في الجواب فأخذ يوسف الكتاب وقرأه بدون أن يعلو وجهه اقل تغير ، ولما أتى على آخره تبسم قائلا للقائد : « لنكمل لعبنا » فلم يدر القائد كيف يلعب بعد ما شاهد من ربط جأش الامير وسكتيته ، ويقال انهما كانا لم يزالا في اللعب حينما اقبل فارس يعني محمد السادس وبشره بانتظار الناس حضوره لتبوء تحت الملك ، وكانت أيام يوسف هذا موسمة بالخير لاهل غرناطة وكان مما بلا من حلو الدنيا ومرها ، وحلب من شطري عرفاها ونكرها ، قد أصبح على جانب من الحنان في قومه والرأفة برعيته ، فساس أمرهم سياسة الأب الشقيق الى ان وفاه اجله لخمس عشرة سنة من ملكه .

فقام بالأمر بعده ابنه محمد اليساري او الايسير فأكد عهود المصادفة مع من جاوره من الملوك ، لكنه لم يحسن الاضطلاع بالاعباء ، فثار عليه اهل غرناطة وبايعوا محمد الصغير من ابناء عمه ، وانسلّ محمد الايسير او الاعسر خفية من غرناطة في هيبة⁽¹⁾ ذلك ، فلتحق بساحل البحر ومنه تزيا بثياب بحري ، وأجاز في فلك صغير الى تونس نزيلا عند محمد الناصر ملكها مستغينا به ، فأكرم نزله ووعده خيراً .

واما محمد الصغير فأخذ يتقمم ممن شايعوا ابن عمه ، وقد ورد في تواريخ الانفرنج انه حاول لاجل ذلك نكبة يوسف بن سراج من رؤساء غرناطة ، ففر ابن سراج بأربعين فارسا من أهله وصحبه الى ملك قشتالة ، ودخله في أمر إعادة محمد الاعسر . فكتب صاحب قشتالة الى صاحب تونس يسأله إرسال نزيله الاعسر وهو يظاهره على أمره ، فأنفذه بآلف وخمسمائة من رجاله ، ولما وطأ

(1) الهيبة : كل ما افزعك .

أرض الاندلس انحاز اليه الاكثرون ، وأخرج محمد الصغير عسكراً للقائه ، فانضم اكثراً اليه ودخل غرناطة ، فاعتضم محمد الصغير بالحرماء ، وبقي محصوراً الى أن اسلمه حاميته بعد ان نال منهم جهد الحصار فقتل ، وكانت مدة امارته ستين وبضعة أشهر .

واستقر الاعسر في ملكه وعضده في ذلك ملك قشتالة ، املاً بohen عزيمته وسوء تدبيره ، لكنه رمى بآماله ابعد ما يمكن للاعسر قبوله ، وطمح الى ادخال سلطنة غرناطة تحت جناح حمايته ، فنشأ عن ذلك خلاف انتهى بالحرب ، وماجت الثغور بالبعوث . وفي أثناء ذلك فري يوسف بن الاحمر الذي يقال انه حفيد أبي سعيد المتنزي على الغني بالله الى صاحب قشتالة ، ووعده ان اعاته على ملك غرناطة بقبول الطاعة له واداء الجزية . فسرح معه جيشاً ، وانضم اليه أحزاب يوسف فأجلسوه مكان الاعسر ، وفر هذا واستقر بمالقة ، لكن لم يمض على ذلك ستة أشهر حتى توفي يوسف هذا واعيد محمد الاعسر الى مكانه ثانية وذلك في سنة ٨٣٥ .

وكانت بين ملوك الاسپانيول لذلك العهد محاربات شغلتهم عن غرناطة زمنا ، الا ان الايسر لم يعرف الاستفادة من هذه الفرصة واحتلت أمور الدولة في أيامه ، فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقادات مصر ، واتسع الشر ، وانحاز محمد بن اسماعيل من انسباء السلطان وقيل ابن أخيه بلمة من فرسانه الى ملك قشتالة ، وانتزى محمد بن عثمان الاحنف من ذوي القرابة أيضاً وكان قائداً بالمرية وجاء بجماعة من خاصته فدخل الحمراء ، وتباو الملك عنوة وقصر الايسر في قلعة ، وذلك في أوائل جمادى الاولى سنة ٨٤٩ .

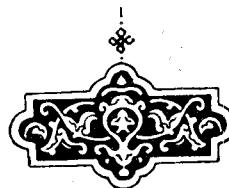
ولما كان ملك قشتالة ذا هوى مع نزيله محمد بن اسماعيل ، زحف ابن الاحنف الى بلاده ، واكتسح البسائط ، واثخن وغنم وهزم الاسپانيول مراراً ، الا ان سرية له انهزمت في ١٨ المحرم سنة ٨٥٦ ، وفي الشهر التالي انهزمت له سرية ثانية يقودها ابن عبد البار ، وكان هذا منفصلاً عن أبيه حليف محمد الاعسر

للاتصال بخدمة الاحنف وله امامه مواقف محمودة فمع هذا قتله جزاء هزيمته ، وكان مولعاً بسفك الدم فانتقض عليه الاعيان لكثره مويقاته ، وانسل الرؤساء من غرناطة طالبين رجوع الاسعر ، لكنهم خافوا ان تكون الوسيلة الى قتله فولوا وجوههم شطر إمارة محمد بن اسماعيل نزيل صاحب قشتالة ، وأمدده هذا بجيشه فانهزم الاحنف ودخل غرناطة ليجمع فل قومه فوجد الاغلب متقطسين عليه ، فعندها ، وقد أبى بن بظفر ابن اسماعيل - قصد قبل انقضاء أمره الانتقام من أعيان البلد الذين دخلوا خصمه وشاييعوه ، فاستدعاهم الى الحمراء ووضع فيهم السيف . . ثم فر الاحنف من الحمراء قبل وصول ابن اسماعيل ، ولحق بعض الجبال مع بعض خواصه . من شركاء رأيه القائل وعمله المويق ، ودخل خصمه قصور الحمراء سنة ٨٥٩ .

ولما كان استيلاء ابن اسماعيل قد تم بمظاهرة ملك قشتالة لم يأل جهداً في التنوع بشروط اذلاله وادخاله في طاعته ، حتى عاد كأنه قائد من قواده . وفي تلك الاثناء وصل الى الاندلس خبر الفتح الاكبر الذي تضاءلت من دونه الفتوح ، وتفتحت أبواب السماء فأطلت منها الملائكة والروح ، ألا وهو استيلاء السلطان محمد الفاتح قدس الله روحه على القسطنطينية العظمى ، فاشتد بهذه البشرى ازر الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ونال سكان الاطراف منها أضعاف ما نال سكان الاوساط ، ومنهم أهل الاندلس المنقطعين وراء البحر ، ووجودهم من العدو بين الناب والظفر ، فقد استبشرت بذلك نفوسهم ، وتجددت عزائمهم ، وافق هذا الفتح العظيم بالشرق وفاة الطاغية جان الثاني عندهم ، فلما قام بعده ابنه هنريك نزع محمد بن اسماعيل الى طلب الاستقلال ، فتجدد القتال وشنّت الغارات وزحف صاحب قشتالة بجيوش جراره فطلب المسلمين الصلح فأجابهم اليه على شرط جزية يؤدونها واطلاق ستمائة أسير اسبانيولي ، وانعقدت المهدنة .

وفي خلال هذه الهدنة عادة العلائق التجارية بين غرناطة وجيرتها الى ما كانت عليه ، وكانت هذه البلدة ملجاً لكثير من فرسان الاسپانيول الذين قضت

عليهم الفتن الداخلية بالفرار من أوطانهم حتى يروى ان من هؤلاء رئيساً يقال له دياغو دخل في ذمة ملك غرناطة وخدمه ، وعظمت ثقة هذا فيه حتى رمى أهل مالقة به في عسكر عندما اتقضوا مرة عليه . على أنه قيل إن من جملة غرائب تلك الهدنة أن تضع الحرب أوزارها عن جميع البلاد إلا ثغر جيان بين الفريقين فانه يبقى ميداناً للغارات ، ولم تنشب المواجهة ان بطلت من الجهتين وأغار مولاي أبو الحسن على بكر أولاد السلطان بحسب أقوال مؤرخي الأفونحة على أطراف شاطبة فانتقم الإسبانيون بالاستيلاء على جبل الفتح ، وأعجب الدون هنريك جداً بهذا الفتح ، حتى أضاف إلى ألقاب ملكه لقب ملك جبل طارق ، وجمع جيوشه ونهد إلى ناحية غرناطة فاستكفى المسلمين شره بالهدايا وضرور التحف ، ورجع عنهم بعقد الصلح ، واستمرت دعوة البلاد إلى أن ودع محمد بن إسماعيل هذه الدنيا الفانية في ١٠ شعبان سنة ٨٦٩ وذلك في مدينة المرية وخلفه مولاي علي أبو الحسن كما سيأتي .



الفَصْلُ الرَّابعُ

في دول اسبانية المعاصرة لدولة بنى الاحمر

قد تكلمنا عن غرناطة لكونها آخر مدن الاسلام بالاندلس ، وعن دولة بنى نصر فيها لكونها ذماء المسلمين وآخر أنفاس حياتهم بتلك الديار . ونتكلم الآن مجملًا عن تاريخ الدول الاسبانية المعاصرة لدولة بنى الاحمر لما بين التاريختين من المداخلات والمناسبات بحيث يستعين القارئ بفهم هذا على فهم ذاك وتكون الفائدة أعم وأوسع .

فاسانية كانت لعهد القرن الثالث عشر للمسيح منقسمة الى خمس ممالك : نافار واراغون وقشتالة وغرناطة والبرتغال .

مملكة نافار

اما في الشمال فمملكة نافار الصغيرة على منحدري جبال البيرانه ، وكان ملوكها من آل ازيز ، فلما انقرضت سلالتهم عام ١٢٣٤ م ورثهم بسبب زواج بيت كونت شمبانيه ، وذلك أن اخت الدون شانجه آخر ملوكهم كانت متزوجة بالكونت تيبيولت دوشمبانيه ، فلما توفي الدون بلا عقب كان الحق في ارثه لابن اخته من كونت شمبانيه .

إلا أنه لما كان ابن اخته هذا قد لج في طلب الملك قبل وفاة حاله وأثار عليه لاجل تنزيله مما أحفظه واحقده ، عهد بملكه بعد الوفاة لصاحب أراغون ، فلما

توفي كاد يقع الخلاف بين جقوم وبين تيولت ، لكن أهل نافار طلبوا من جقوم النزول لتيولت عن الملك حبا بالسلام فآل الامر اليه .

وبعد أن استوى على كرسي الامارة بمدة انتظم في سلك الصليبية وانزعج الى المشرق يحارب مسلمي الشام وال المسلمين منه بالاندلس بالمكان الادنى ، ويقال انه كان محبا للعلوم والفنون ، وانه كان يقول الشعر ويلحنه على القيثار ، ويعرض اشعاره في قصره مستهدفا لانتقادها ، وقد تزوج ثلاث مرات الاولى بابنة كونت لوران ، فلم يولد له منها أحد ، والثانية بابنة كونت فلاندره ، فولد له منها ابنته بلانش ، والثالثة بابنة كونت فواكس ، فولد له منها ولدان تيولت وهنري وابنة اسمها ليونوره ، وماتت في ٨ تموز سنة ١٢٥٣ م تاركا ارثه لولده تيولت الثاني وهو الذي تزوج بايزابلا ابنة مارلويس او لويس التاسع ، وكان من جملة هدايا الزفاف التي أهداه ايها الملك المذكور شوكة يقال انها من اكليل الشوك الذي كلل به السيد المسيح ، وقد صحب حماته الى الاراضي المقدسة حتى اذا مات مارلويس في غزوة تونس في ٢٥ اغسطس (آب) سنة ١٢٧٠ . انقلب تيولت الى صقلية وبها توفي في ٥ كانون الاول من السنة المذكورة . واذ لم يكن له ولد قام بالأمر بعده أخوه هنري ، وتزوج هنري ببلانش ابنة روبرت كونت ارتوا ، وتوفي في ٢٧ اغسطس (آب) سنة ١٢٧٤ عن بنت واحدة اسمها الدونة جويانه وهي التي ورثت ملك نافار، وحيث كانت عندها والدها في الثالثة من عمرها تولت المملكة والدتها بالكفاله الى أن ترشد الصغيرة . وفي تلك الاثناء أخذ الملوك من الجوار يتسابقون في مرضاة كافلة الملك ، طامحا كل منهم الى التزوج بالفتاة او تزويج أحد أولاده بها ، وانقسم أهالي نافار الى شطرين منهم من يميل الى ملك قشتالي ، ومنهم الى ملك أراغوني ، ولم تثبت الفتنة أن اتقدت بين الفترين فعمت البلاد ، واضطررت بلانش أن تلتجمئ الى ملك فرنسا فيليب الملقب بالجريء ، فانحازت الى قصره بابتها . وأرسل الملك من خواصه (أوستاش دو بومارش) والياً على بلاد (نافار) فلم تمض مدة حتى قامت الفئة القشتالية هناك على العامل الفرنسي فحصروه في القلعة من (بمبلونة) حاضرة الملك ، ووصل الصريح الى الملك

فيليپ فسرح جيشاً الى بمبلونة اقتضى من رؤساء الثورة بعد أن أفرج عن العامل .
 هذا ولما بلغت الملكة (جويانة) النافارية سن البلوغ تزوجت (بفيليپ لوبل)
 ملك فرنسا ، وولد لجويانة (لويس هوتن) ملك فرنسا ، وعند وفاة هذا الملك
 بويعت ابنته ملكة على نافار ، كما بويع أخوه فيليب الطويل ملكاً على فرنسا ،
 وتزوجت ابنته هذه وكان اسمها جويانة أيضاً بفيليپ كونت افرو من آل كابت ،
 وتناسلا في ملك نافار ، وكان منهم شارل الرديء الذي احترق في فراشه من
 شمعة أوقدت بجانبه ، واتصل لهبها بالفراش ، وابنه شارل النبيل الذي مات عن
 ابنته واحدة اتصل الملك منها الى آل اragون ، فوق النزاع عليه بين أب وابنه
 وذلك نحو السنة ١٤٥١ .

مملكة اراغون

ثم مملكة اراغون حذاء جبال البرانه اعتمدت في أوائل أمرها على تصوicie
 البحر ، وشتهر بين أمرائها (جقوم) وهو الذي استولى على جزائر الباليلار :
 ميورقة ، ومينورقة ، ويباسة ، وقيل ان السبب في الاستيلاء عليها تعرض اهل
 ميورقة لمراكب الاسپانيول ، وفيهم من قول المخزومي في تاريخ ميورقة ان سبب
 اخذها من المسلمين « ان أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى احتاج
 الى الخشب ، فأنفق طريدة بحرية وقطعة حربية الى يباسة باخذها ، فعلم بذلك
 والي طرطوشة فجهز اليها من أخذها ، فترصد محمد بعض مراكبهم وأخذها ،
 فأجمع الروم على قتاله في عشرين الفا ، وجهزوا ستة عشر ألفا في البحر ، وكان
 لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب شرطته ان يأتيه باربعة من كراء المصر
 فضرب أعناقهم ، فاجتمعت الرعية الى أبي حفص بن سيري واخبروه بما نزل ،
 وعزوه فيمن قتل ، وقالوا له هذا امر لا يطاق . وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف
 شوال ، والناس من خوفه في أهوال ، ومن أمر العدو في إهمال ، فأمر صاحب
 شرطته باحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمـة فأحضرهم ، وإذا بفارس على
 هيئة النذير دخل الى الوالي وأخبره بأن الروم قد أقبلت وانه عـد فوق الأربعين من

القلوع . وما فرغ من اعلامه ، حتى ورد آخر وقال إن اسطول العدو قد تظاهر ، وانه عدّ سبعين شراعا ، فصح الأمر عند الوالي وأطلقهم ، واستنفرهم ، ثم ورد الخبر بان العدو قرب من البلد فانهم عدوا مائة وخمسين قلعا ، فأخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول . وفي الثامن عشر من شوال وقع المصاف وانهزم المسلمون ، وارتحل النصارى الى المدينة ، ونزلوا منها على الحرية الحزنية من جهة باب الكحل ، ولما رأى ابن سيري ان العدو قد استولى على البلد ، خرج الى الباذية . ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً ، ولما كان يوم الاحد أخذ البلد ، وقتل فيه أربعة وعشرون ألفاً وأخذ الوالي وعدّب ، وعاش خمسة واربعين يوماً تحت العذاب ومات ، وأما ابن سيري فتحصن بالجبال وجمع حوله ستة عشر ألفاً وما زال يقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة وجده من آل جبلة بن الايهم الغساني ، وأما الحصون فأخذت في آخر رجب من تلك السنة وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الاسلام » انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزوبي ملخصا .

ثورة مينورقة

وبعد استيلاء القوم على مينورقة ، ثار بمينورقة الجواد العادل العالم الذي الفت باسمه التأليف الشهير ابو عثمان سعيد بن حكم القرشي ، ثم تصالح مع النصارى على ضرورة معلومة وضبط الجزيرة احسن ضبط ، وبقيت مينورقة مدة في يد المغاربة بعد اختها مينورقة .

وفي مدة جقوم هذا أخذت بلنسية من المسلمين وقد سبق ذكرها ، وبعد ذلك بمدة اجتمع مسلمو مملكة اрагون وثاروا واثخنوا في عدوهم الا ان جقوم طردهم أخيراً ، فانحاز اكثراهم الى مملكة ابن الاحمر ، وأجاز بعضهم الى افريقية ، وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا والتلهك في المنكر ، وبينما كان مطران جيرونه يوبخه على استهتاره مرة استشاط منه غضباً

وأمر بقطع لسانه . واغتصب مرة امرأة أحد رعيته وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦ . وخلفه الدون بطره . وفي مدة انضمت مملكة صقلية الى مملكة أراغون وطرد بطره منها شارل دانجو أخي مارلويس ملك فرنسا بالرغم من ارادة البابا ، وقصدوا استعادتها فانهزموا فأصدر البابا حرم على بطره ، واخيراً اقطع البابا مملكته شارل دوفالوا بن فيليب الجريء ملك فرنسا . فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون وكان له من جقوم أخي بطره نفسه عضد لإحنته كانت مستحکمة بين الأخوين ، فانهزم جند بطره واستولى الفرنسيس على جيرونه الا ان العلة تفشت فيهم من رائحة جث القتلى فهلك منهم خلق كثير وأصيب فيليب الملك نفسه وحمل ومات في الطريق ، وبعد انصراف الفرنسيس استعاد بطره جيرونه ، وحول نظره صوب أخيه جقوم الذي ضافر عليه الغريب ، فأرسل ولده الفونس الى ميورقة باسطول ليأخذها من يده ، وتوفي بطره وابنه في حصارها فلم يقلع حتى دخلت في حوزته وقام بأمر أراغون بعد أبيه .

ومات هذا وخلفه أخوه جقوم ملك صقلية ، فترك أمورها لوالدته وجاء إلى أراغون مستلما زمامها ، وأعاد ميورقة على عميه جقوم ، ثم تولى صقلية أخوه فريديريك ، وتزوج بابنته شارل دو نابل ، وولد له منها خمسة ذكور جقوم والفونس وجويان وبطره ورامون ، وخطب لابنه البكر جقوم الدونة ليونوره القشتالية ، وبينما كانوا يعقدون له عليها اذ عدل عن الزواج زعما أن أباه أجبره عليه وأنه يريد الترهل والتبتل ، واسقط حقه من وراثة الملك ودخل في سلك الرهبان ، وقضى الناس من ذلك العجب لما كان عليه من الانغمس في اللذات والاسترسال إلى الشهوات ، فولي العهد أخوه الفونس ، وصار جويان أخوهما مطرانا على طليطلة ، وأخذ كل من الأخوين الباقيين اقطاعا باسمه .

الحرب بين قشتالة وأراغون

ثم مات جقوم الثاني في برشلونة في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٣٢٧ ، وخلفه ولی عهده الفونس الرابع ، وتزوج هذا مرتين ، وولد له من

احدى امرأتهي الدون بطرهولي عهده ، فلما مات الفونس سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين بطره وبين خالته اخت ملك قشتالة ، وادعت انه يريد انتزاع أملاك اخته اولادها ، فكان الخلاف يتسع بين قشتالة وأراغون لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد السلطان أبي الحسن ابن مرين صاحب المغرب . وبعد وقعة طريف وانتقام بطرا من عوارض تلك الحرب ، أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره جقوم . قيل ان السبب في ذلك أن الدون بطره كان متوجها الى افينيون لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكبا بجانبه ، فلما صارا على مقربة من البلدة وقد حفت بهما حاشيتهم ، رأى سائس حصان الدون جقوم أن سائس حصان الدون بطره يبحث مسيرا حصان مولاه ، فلطممه ليتهد ويمكنه اللحاق به ، فأبصر ذلك الملك واغتاظ من ابن عمه لسكته واغضائه على حركة سائسه ، فوافت في صدره وانتهز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة ، وذلك انه وقع خلف بين صاحب جزر الباليار وبين ملك فرنسا من أجل مونبليه ، وزحفت عساكر فرنسا لاخذها ، فبعث جقوم الى ابن عمه بالصريح فلم يجده ، ثم نقم عليه اموراً منها إنه يحاول الاستقلال وانه ضرب السكة باسمه ، وأعلن خلعه من ولاية الجزر ، فاستغاث هذا بالبابا فارسله البابا الى برشلونة نزيلا عند بطره ، ومستميكا عفوه فعندما حصل عنده ضبط عليه امرأته ، التي هي اخته وسرحه فلحق جقوم بميورقة ، وقد نادى بحرب بطره ، والانفصال عنه ، فاسترجع بطره اسطوله من الجزيرة حيث كان في رباط المسلمين ، ونزل به على ميورقة ففر جقوم الى فرنسا وبقي في نزاع مع ابن عمه حتى باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسا ، وجهز بشمنها ثلاثة آلاف ماش وثلاثمائة فارس وركب بها البحر طاماها في الاستيلاء على جزيرته ميورقة ، فقابلها واليها بجيوش أوفر مراراً من قوته ، وغلبه فهلك في القتال ولم تنته مسألة بطره مع جقوم ابن عمه حتى ثارت مسألة اخرى مع أخيه جقوم ، بسبب انتقال الملك لأن بطره كان يريد العهد لابنته لأنه لم يولد له ذكور ، ولأن أخيه كان يطالب بهذا الحق ، فانشققت المملكة بهذا السبب الى قسمين ، وانتشرت الحرب بينهما ، وقام جمهور من الرؤساء على الملك ، وفي اثنائهما

توفي أخوه فاتهم بكونه سمه فازدادت الثورة ، وزحف الملك الى الرعية الثائرة ، فجرت عدة مواقع وسالت الدماء الغزيرة وغدر بطرة بالرؤساء الذين استسلموا اليه ، وارهق مدن مملكته حسراً وعسراً ، الى أن تمت له الغلبة ، ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده رغم اراده بطرة ملك قشتالة انشبت الحرب بينهما ، وانضم الى أراغون جميع الامراء والرؤساء الذين كان بطره القشتالي قد آسفهم ، وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلت الثانية ثم الثالثة .

وهلك بطره الاراغوني سنة ١٣٨٧ وملك نيفا وخمسين سنة . وكان سفاكا للدماء ، غدر بأهله واخوته ، وأهرق سيلولا من الدم ، حتى لقب بالخنجري وتزوج باربع نساء الاولى ابنه ملك نافار دونه مارييه ماتت سنة ١٣٤٦ ، والثانية دونه ليونوره ابنة ملك البرتغال وماتت هذه سنة ١٣٤٨ ، بالطاعون الذي عم جنوبي اوربا ، وهو الذي يشير اليه ابن خلدون ويسمونه بالطاعون الجارف ، خرب كثيراً من ديار الشرق والغرب . ثم اقترن الدون بطره بليونوره اخت ملك صقلية وماتت سنة ١٣٧٤ ، وقد ولدت منه ثلاثة ذكور وابنة واحدة . فاقتربن بامرأته الرابعة سيبيلا فورسيا أرملا شهيرة بالجمال ، وكان أوائلها قد بلغ الحادية والستين فملكت قلبه واعطاها قياده واقطعها من املاك التاج الملكي ، فاعتراض ولی عهده جويان من امرأته الثالثة ووقع النزاع وانتهى بتحكيم أحد القضاة .

وفي أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا اوربان السادس والبابا كليمان السابع ، وأخذ كل منهما يحرم الآخر ! وانقسمت ممالك اوربا في شأنهما الى شطرين : فإن فرنسا وقشتالة ونافار ونابولي قامت بدعاوة كليمان وانكلترة والبرتغال وأراغون قامت بدعاوة اوربان إلا أن اراغون مالت فيما بعد الى كليمان .

وبعد وفاة بطره قام ابنه جويان الاول ، وفي الحال تقبض على امرأة أبيه سيبيلا ، وعلى أخيها وأعوانها ، وابتزها املاك التي كان أبوه وهبها ايها ، وسلمها الى امرأته دونة فيولانته ، واعتنى بتزويج ابن أخيه دون مارتين بابنته عمه

فريدريك ملك صقلية التي كان آل إليها ارث تلك الامارة بعد وفاة والدها ، وكان جويان مولعا بالشعر والموسيقى والصيد مهملًا الجد من الامور ، حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ومجتمع مغنين لا يسمع فيه الا ايقاع أو انشاد ، فقام اعيان البلاد وطلبوها منه اقصاء حظيه دونه كاروزه لاتهامهم ايها بترغيبه فيما هو فيه من العبث ، فانقاد الى ارادتهم خوف الانتقام .

وتوفي في الصيد بكببة جواد تردى به في غابة ، وهو يطلب ذئبا ، فخلفه أخوه الدون مرتين اذ لم يعش له غلام من صلبه ، فنازعه في الملك آل فواكس ، فغلبهم عليه ، واستوثق له الامر ، وتزوج هذا بالدونة ماريه ، كما تقدم فولد له منها أربعة أولاد توقي منهم ثلاثة دون البلوغ ، وبقي الواحد وهو الدون مارتين متوج صقلية ، فمات هذا في غزة بسردانية عام ١٤٠٩ ، ولم يعش له ولد على كونه تزوج مرتين ، بل كان له أولاد من حظاياه فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور من صلب البيت المالك وتنازع حقوق الوارثة خمسة امراء : الدون فادويك ولد مارتين من احدى حظاياه ، وكانت اورجل ابن عم مارتين في الدرجة الخامسة أيضاً ، ودوق كالابره ابن الدونة فيولانته بنت جويان الاول ، ثم فرديناند القشتالي الملقب عندهم بالرشيد ، كان ابن جويان الاول القشتالي والدونة ليونوره اخت الدون مارتين ملك صقلية الذي انقطعت به السلالة ، وبذلك فهو ابن اخته وكان أقرب المتنازعين الى بلوغ الغاية فرديناند المذكور وكانت اورجل ، وربما كان لهذا في مملكة أراغون الشيعة الكبرى الا انه لم يحسن طلب حقه وجمع العساكر يعيشون في البلاد ، مما امال عنه القلوب الى فرديناند فانتخبوه ملكا في ٣ ايلول سنة ١٤١٢ ، وتقبض على كونت اورجل وسجنه واستتب له الامر الا انه مات في سنة ١٤١٦ ، وخلفه بكر اولاده الفونس الخامس الذي افتح نابولي ثم مات هذا (١٤٥٨) عن غير ولد . فانتقل الملك الى اخيه جويان الذي كان تزوج بابنته شارل النبيل ، وب بواسطتها ملك بلاد نافار وولد لها فرديناند الملقب بالكاثوليكي ، فملك اراغون ونافار وتزوج بايزابلا مملكة قشتالة فصارت الممالك الثلاث واحدة وعادت في حالة من اجتماع الكلمة ووفرة العديد والمادة بحيث

قضت على الملك الاخير الباقي كان بالاندلس للمسلمين .

مملكة قشتالة

أما مملكة قشتالة أجل ممالك النصرانية في الاندلس فان رافع منارها فرديناند الاول الملقب بالكبير الذي انتزع كثيراً من أملاك المسلمين ، وكان معاصرأً لابن عباد ، وقسم ممالكه بين أولاده الثلاثة فاعطى شانجه مملكة قشتالة ، والفونس او اذفنش مملكة ليوق ، وغارسيا الصغير مملكة غاليسيا او جيلقية ، الا أن الفونس تمكّن في الآخر من ضم الجميع الى ملكه وصار خلفاً لابيه ، وهو الذي استولى على طليطلة قلب اسبانيا ، وجعلها مقر سلطانه .

خبر السيد Le CID

وفي أيامه ظهر السيد^(١) بطل الاسپانيول الذي تسبب الى ذريته عروس رواية شاتوبيريان وقد رأينا أن نلمح الى شيء من أخبار السيد حسبما ذكر المحققون فنقول : هو السيد لذريل ديابن دياغو بن لاين نوناز بن لاين كالفون من كبار قضاة قشتالة ، تزوج السيد بشيمانة ، وولد دياغو لذريل الذي مات في حياة والده وابتنين احداهما تزوجت بابن ملك نافار والآخرى بابن ملك أрагون .

وشيمانة هذه هي ابنة الكونت لوزانو دوغورماز من فحول قواد الملك فرديناند ، وسبب اقتران السيد بها أن والدها كان قد صفع دياغو والد السيد ، وهو بالغ من الكبر عتيا ، فلم يمكنه أخذ ثاره بيده ، لكن ولده لذريل أخذ السيف ودعا غورماز الى البراز فقتله ، ولما لم يكن في قتل البراز جناح جاءت ابنته شيمانة تشكوا الى الملك فرديناند كون لذريل يأتي كل يوم وبازه على يده فيطلقه في بيت حمامها فيفتلك بالحمام ، وينذيق فراخها كؤوس الحمام ، وقد بعثت تقول له في ذلك فجاؤها بالوعيد فالملك الذي يسمح بقهر اليتيم ولا يقتضي من اعتدى عليه لا يليق أن يسمى ملكا . فتحير فرديناند في أمره لأن لذريل كان أقوى عضد له في

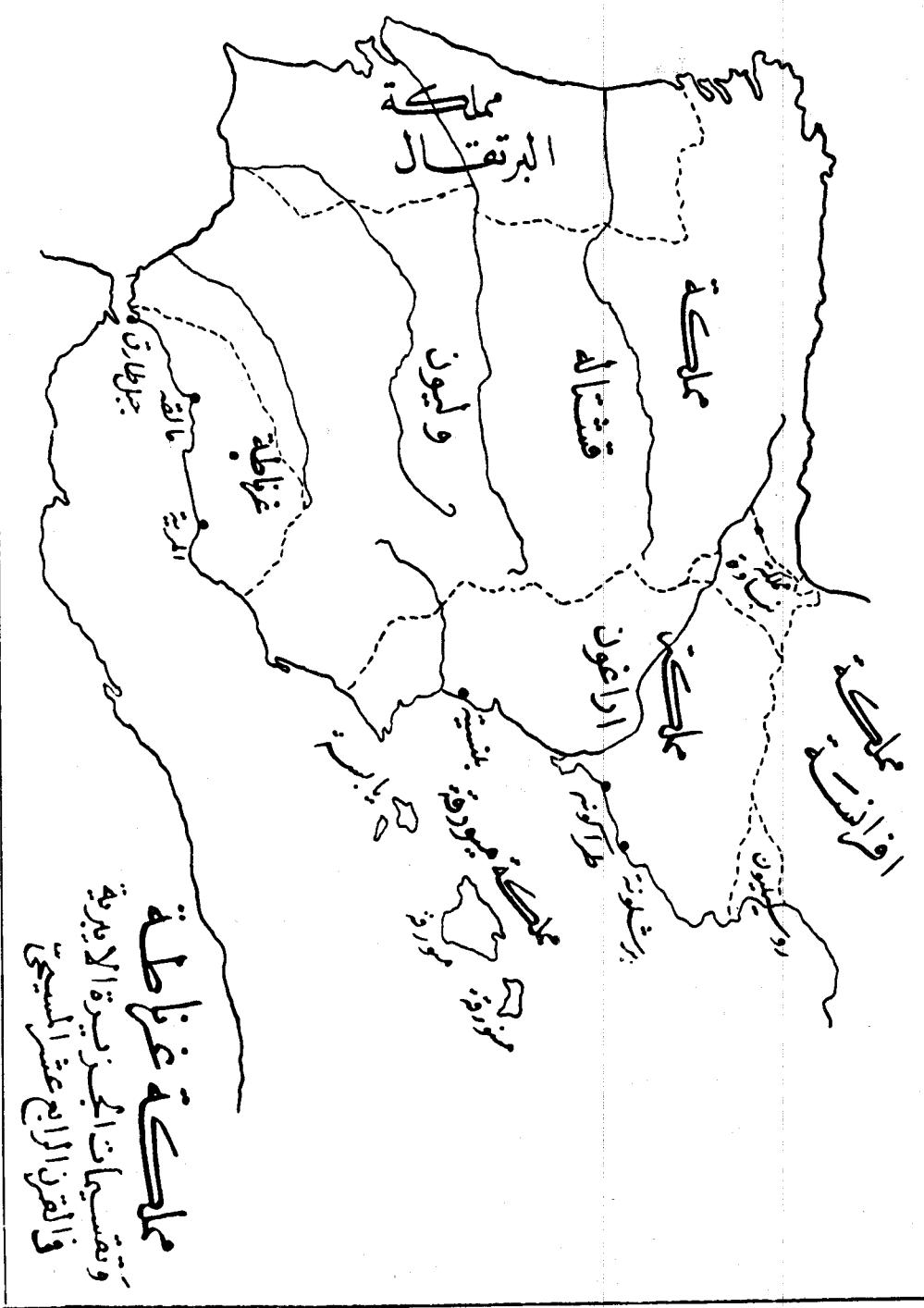
(١) السيد (LE CID) رواية للشاعر الفرنسي كورنيل

مواقفه مع المسلمين ، والاسبانيول يزعمون أن السيد أسر خمسة من ملوك الاسلام وبعد أن قادهم بخزائم الاستكانة من عليهم باطلاق سبileم ودعوه سيدهم ، فلم يجد فرديناند مخرجا من الامر الا بتزويع السيد بشيمانة .

وأما نسبة السيد الى بيفار فلولادته في ذلك القصر ، وهي كما لا يخفى عادة الافرنج في ألقاب الشرف . ومن شهير أفعال السيد انه لما اصطلت الحرب بين قشتالة وأragون لعهد فرديناند ، وقع الاتفاق بين هذا الملك وبين أخيه على تحكيم السيف وابراز قرنين بالنيابة عنهمَا من ابطالهما واعطاء الحق لمن منهما حقت له الغلبة فكان السيد نائباً عن ملك قشتالة ، وكان مارتين غوماز نائباً عن صاحب أragون أخيه ، فعند اللقاء فتك السيد بخصمه وبرد الحق لفرديناند دون أخيه ، وفي هاتيك الايام كان هنري الثاني امبراطوراً للمانيا ، فسمت نفسه الى ادخال اسبانية في طاعته لكونها من ولايات سلطنة المغرب ، ويقال أن البابا فيكتور الثاني مالأه على مقصدِه ، فلما أبلغ ذلك الامبراطور والبابا الى فرديناند مال الى الخضوع خوفاً منهما ، لكن السيد عارض في الامر وجمع عسكراً وتحف به الى طلوزة قاصداً لقاء العدو ، فلما علم البابا به خاف العواقب وصرف امبراطور المانيا عن دعواه .

وفاة فرديناند

ولما مات فرديناند لم يكن لشانجه ولده ساعد أشد من السيد ، وهو الذي نصره في وقعة غوليبيجاره ، وكان بجانبه عندما قتل في زامورة ، وفي مدة الفونس أخيه انصرف السيد الى مراقبة المغاربة ، ووالى عليهم الهزائم حتى لقب بالكمبيادر ومعناه بلغتهم قائد المعسكر ، الا أن ما حازه من الشهرة أثار عليه حسد الاقران وضيقان الانظار ، فانقبض بنفسه عن الحضرة ، وسكن الbadية ، وبلغه اثناء ذلك أن مسلمي سرقسطة والثغر الاعلى اجتاحوا أراضي قشتالة واثخنوا في الاسپانيول ، فنهد اليهم وساق منهم سبعة آلاف أسير واكتسح بسائط طليطلة ، وكانت في يد المأمون صاحبها فشكوا الى الاذفونش خرق الصلح بدون موجب ، فاستشار الملك خاصته ، واجمعوا على نفي السيد ، وضربوا له أمداً تسعه أيام





لاجل الخروج ، فأطاع ولكنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لمعيرة الثلاثمائة فارس التي هي في صحبته ، فاعمل في الحيلة وارسل صندوقين مفعمين رملا الى بعض اليهود مؤكداً لهم أنهم مملوآن حليا . وأخذ عليهمما مبلغا من الذهب ثم وفي دينه بعد ذلك بما حازه من الغنائم اثناء غزوته في بلاد الاسلام ، وبقي مدة بعيداً عن الحضرة ، الى أن رضي عنه الملك وأعاده وأذن له في الغزو وحده ، فابتلى لنفسه قصراً بقرب أراغون لم يزل معروفا باسم (صخرة السيد) الى الآن ، وجعلها لنفسه وكراً يأوي اليه وينطلق منه للغزو . وكان أكثر ما يغزو مملكة ابن عباد تكونه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين الى الاندلس ، على أنه لما أراد ابن تاشفين استخلاص ملك اشبيلية من يد ابن عباد واستنجد الطاغية أرسل اليه عشرين ألفاً قيل أنه عقد عليهم للسيد ، لكن لم ينالوا له وطراً اذ كان في المرابطين سادات بدل السيد ، ثم زحف السيد بعساكره نحو بلنسية وضيق عليها الحصار وكان فيها القاضي أحمد بن جعفر المعافري بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنج ومنهم لفاله ، والذي في كتب العرب أن الذي كان فيها هو القاضي أبو أحمد بن حجاف ، واتفقت روايات العرب والافرنج أن لذریق دخلها صلحًا وعاهد القاضي ، لكنه لم ينشب أن أحرقه بالنار بعد الاستيلاء قيل لكون السيد طلب منه ان يدلله على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون ، فاقسم انها ليست عنده فاحرقه وعاش في بلنسية . وفي ذلك يقول : ابن خفاجة الشاعر المشهور :

عاثت بساحتكِ الظُّبَا يَا دَارْ
 وَمَحَا مَحَاسِنَكَ الْبَلَا وَالنَّارْ
 فَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جِنَابَكَ نَاظِرْ
 طَالَ اعْتِبَارُ فِيَكَ وَاسْتَعْبَارُ
 أَرْضٌ تَقَادِفُ الْخَطُوبَ بِأَهْلِهَا
 وَتَمْخَضَتْ بِخَرَابِهَا الْأَقْدَارُ
 كَتَبَتْ يَدَ الْحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا
 لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الْدِيَارِ دِيَارُ

وورد في (نفح الطيب) ما نصه بالحرف « وكان استيلاء القنبيطور (تحرير القمبدورا والكمبدور لقب السيد) سنة ثمان وثمانين وأربعين ، وقيل في التي قبلها ، وبه جزم ابن البار ، قائلا ، فتم حصار القنبيطور ايها عشرين شهراً ،

وذكر انه دخلها صلحا ، وقال غيره انه دخلها وحرقها وعاث فيها ، وممن أحرق فيها الاديب أبو جعفر بن البناء الشاعر المشهور رحمة الله تعالى ، وعفا عنه ، فوجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الامير أبا محمد مرزلي ففتحها الله على يديه سنة خمس وستعين واربعمائة ، وتولى عليها امراء الملثمين » انتهى .

وفي حرق قاضي بلنسية قد أتى لافاله بجميع أصناف المعاذير تغطية لعمل القنبلة ، واتهم القاضي بالخيانة ، وأنكر أن يكون السيد فعل ذلك بسبب الذخيرة ، بل لمكيدة لا بد ان يكون اطلع عليها ورمى مؤرخي العرب بتشنيع سيرة السيد تعصبا منهم وكراهة لاسمها لما كان عليه من الغيرة على النصرانية .

وذهب غير واحد من المؤرخين الاوربيين الى غير ذلك ، ومنهم ستانلي لانبول الانكليزي ، وزعموا ان مسألة فضائل السيد من وضع قصاصي الاسپانيول ، وهناك بعض ما يقوله المؤرخ المذكور مما يرتبط بهذا المقام وهو :

« ان من الغلط البين ، والخطأ المتعين ان يظن ان مقاتلة قشتالة وليون كانوا على ما يرام تخيله من الشهامة والشرف وأداب الفروسية ، وان يتصور كونهم على شيء من دماثة الاخلاق والتهدیب ، وال الصحيح ان مسيحيي الجهة الشمالية كانوا على نقىض ما كان عليه اقرانهم المغاربة ، فإن العرب الاجلاف لاول نزولهم باسبانيا قد تهذبوا وتمدنوا بالاندلس ، فيما بعد ، وباستعدادهم الفطري مالوا الى التائق والرفاهية والتحقق بالحضارة العالية ، وعكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الادب ، فكانت أدواتهم في أسمى مكانات السلامة ، وإحساساتهم في أقصى مظان الرقة كما هو شأن من تحقق بالمدنية وذاق حسن المعيشة وغلب عليهم التأمل والشعر ، فكانوا يؤدون من الجوائز على منظومة واحدة ما يكفي لميرة كتبية كاملة ، ولم يكن الامير الظالم منهم والملك الغاشم السفاح يأنف من الآداب والمعارف ، فالفصاحة والموسيقى وسائر فروع العلم والادب من الامور الطبيعية عند هذه الامة ، وأتوا ملكة الانتقاد والتميز ولطف الذوق في نقد اجزاء الكلام وتفاصيل القول مما نعرفه في زماننا لأمة الفرنسيس .

وأما نصارى الشمال فعلى خلاف ذلك كله فإنهم وإن كانوا سلائل أمة قديمة فحالتهم حالة أمة حادثة ، اجلال جفاة أجانب عن العلم منقطعون السبب في العرفان ، نعم كان عند بعض أمرائهم مسكة من التربية لكنهم في هذا الامر مساكين في جانب أمراء العرب ، وإنما كان المسيحيون هناك أنجادات حرب واحلاس نزال ، يحبون الهيجة مثل أقرانهم المسلمين لكنهم أقوم منهم عليها وأصبر على تحمل مشاقها ، ولم يكن عندهم ما تصوره لنا هذه الخيالات الشعرية من أخلاق الفروسية ، بل إنما كانوا ضرابي سيف » انتهى الحديث ، وقد يحملهم فقرهم على المحاربة بالاجرة ، وتقديم من يزيد لهم على غيره في الخدمة ، وقد رأينا كيف ان الوزير المنصور استخدم جمّاً منهم في حرب ليون وفتح صانتياغو . وتاريخ شمالي إسبانية مملوء بشواهد ذلك من استخدام أمراء المسلمين لفرسان النصارى في الجيش .

ومما يؤيد قول هذا المؤرخ الانكليزي ما ورد في تاريخ المنصور بن أبي عامر من انه « في انكفاءه عن باب شنت ياقب بتلك الغزوة التي لم يبلغ مثلها أحد ، وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالكف عنها ، ومرّ مجتازاً حتى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على اقدارهم » انتهى . ويظهر انهم لم يقتصروا في الخدمة على ملوك الاندلس ، بل ربما أجازوا الى المغرب اجناداً عند ملوكه ، وابن خلدون يروي انه كان يغمر اسن بن زيان صاحب تلمسان قد استخدم طائفة منهم مستكراً بهم معتقداً بمكانتهم مباهايا بهم في المواقف والمشاهد .

ولنعد الى كلام ستانلي الانبول قال : « لكن لم يوجد من هؤلاء من بلغ شهرة السيد بطل إسبانيا ، وإسمه لذرقي دياز البيفاري ولقب بالسيد لكون ذلك هو اللقب الذي كان يدعوه به المغاربة وهو مخفف عن سيد بالتشديد »^(١) الى أن

(١) بل هو على أصله فالسيد بكسر السين وسكون الياء الذئب والتشبيه به عند العرب ذم لانه مفترس غادر حقير بخلاف التشبيه بالأسد فإنه منح .

قال : « وهو محارب شهير كان يتقدم الصفوف مثل جلياد أمام جيوشبني اسرائيل ، ولم يعرف أحد طار له من الشهرة في الغزو أكثر من « سيدى القمبدور » ، كما كانوا يدعونه كما أنه ليس من السهل أن يقرر الانسان الحقيقة ويمحض الواقع مما يحيط به اسم السيد من الواقع ، لأن مؤرخي النصارى يقولون أنه يستحيل الاحاطة بوصفه ، وان الاناشيد الاسبانية تتوج السيد بالفضائل والكمالات ، وتنسى أن تلك الفضائل كانت مجهولة أو غير معترفة عند نفس السيد ومعاصريه ، وكتاب العرب الذين هم غالبا أحسن انصافا للحقوق تجدهم شددوا الحكم على ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بلنسية ما أذاقهم من الوبال » قلت وأي تشديد فانك ترى كيف جاء اسم القبطور مردوفا باللعنـة في (نفح الطيب) وبأي شعر نظم ابن خفاجة نثر عمران تلك البلـدة .

قال ستانلي لان بول : « ونحن في عصر انتقاد مضطرون الى طرح المفرح من أقاصيص مؤرخينا التي تلقي بالاحداث ، والسيد لم يستثن من الانتقاد ، بل ان أحد المستشرقين الراسخين ألف عنه كتابا مستقلا ، قرر فيه أن السيد لم يكن ذلك البطل الذي قدر أنه كان ، بل رجلاً غداراً سفاكا نهايا فتاكا ناكث العهد ناقض الزمام . كذلك الاستاذ دوزي (مؤرخ اسبانية الجليل) ذهب الى أن قصة السيد هذه اختراعية ، وكتب عن السيد الحقيقي نقيس ، ما ورد في تلك الاقاصيص » الى أن قال : « وغير صحيح أنه كان حامي الدين ، فإنه قاتل في مصاف المسلمين كما قاتل في مصاف النصارى ». وذكر أنه استولى على بلنسية بسبب التحرير والفرقـة باعـة مـلك سرقـطة ودخلـها صـلحا . وهذا طبق ما ذكر مؤرخـو العرب من أن الذي أنهـضـه هو يوسف بن احمد بن هود صـاحـب سرقـطة .

وأما لافاله فيقول في شأنه : « أنه هو بطل الاسبانيـل المـقدم حـبيبـ الشعبـ الذي يـحلـونـه بـجمـيعـ فـضـائـلـ الـابـطالـ وـيـتـغـنـونـ بـوقـائـعـهـ فيـ الاـشعـارـ وـالـازـجالـ ، فـاـذاـ شـاءـ المؤـرـخـ مـعـرـفـةـ الـحـقـيقـةـ مـنـ الـوـهـمـ أـشـكـلـ عـلـيـهـ الـاـمـرـ بـمـاـ يـعـرـضـ لـهـ مـنـ الـاخـتـلاـطـ ، فـقـدـ يـقـعـ أـنـ المؤـرـخـ لـاجـلـ الخـروـجـ مـنـ حـيـرـتـهـ يـتـهـيـ إلىـ إـنـكـارـ وـجـودـ المؤـرـخـ

عنه أصلاً ، كما أنكر ما سدوا وجود السيد قمبدور ، ولم يبلغ الشك من غيره درجة انكار وجوده ، بل أنكروا عليه المؤثر من الفضائل وتخيلوه زعيم أشقياء ورئيس عصابة شر ، بعد أن جعلته القصاص مثلاً تاماً للفضل والشهامة والنبل » .

فأثبتت تجد أن السيد ككثير من الرجال الذين ولعت بذكرهم العامة منهم من جعله سيداً غطرياً بالتشديد ، ومنهم من جعله سيداً عملياً بالتحريف ، ومات السيد سنة ١٠٩٩ وهي التي فتح الصليبية فيها بيت المقدس وبعد موته عادت بلنسية إلى الإسلام ، وبقيت زماناً حتى استولى عليها جقوم كما ذكرنا سابقاً ، وحملت جثة السيد محطة على جواده المشهور وبيده أحد سيفيه المسمى تيزونة ، وقدم نعشة في الجمع كما كان هو مقدماً في الحروب ، ودفن في كنيسة مار بطرس دو كردن وماتت شيمانة امرأته بعده بستين ، وبقيت رايته وسيوفه في ذلك الدبر يحملها ملوك قشتالة في حروبهم تيمناً بالنصر ، ورواية كورنيل المسماة بالسيد أشهر من قفا نبك .

الحرب الثانية بين قشتالة واراغون

ولنعد إلى ذكر مملكة قشتالة فنقول : إن الاذفنش أو الفونس السادس استفحلاً أمره إلى أن لقب بأمبراطور إسبانية ، لكن المرابطين هزموه مراراً وفي المرة الأخيرة انهزمت جيشه ، في وقعة اقليش وقتل ولده فمات من الغم ، وترك الملك لابنته أوراك ، فتزوجت بالفونس الأول ملك أراغون ونافار ، وكادت تتحد الممالك الثلاث إلا أن أوراك أرادت الاستقلال بملك قشتالة وأساعات معاملة زوجها ، ووقع الشقاق بينهما فحبسها في قصر قسطلار ، فأفلتت وجمعت عساكرها ووقعت الحرب بين أراغون وقشتالة ، ودخل البابا في الصلح فلم ينته الخلاف إلا بفسخ الزواج بين الفونس وامرأته بعد أن أهرج خصامهما البلاد ، ولكن لم يستوثق الامر لأوراك في مملكتها بما كانت العامة نقمت عليها من مجاهرتها بالخلاعة ، وتجrirها أذيال العهر ، وقد اشتهر بين عشاقها الدون غونزالو دولاوه والدون غوميز دو كانديسيينا ، وحكي أن لها من هذا الأخير ولدا

اسمه فرناندو ولقبه هرتادو ، ويقال أن آل هرتادو الاعيان يتسبون اليه ، وكانت قد تزوجت في الأول بالكونت ريموند الجيليقى ، فولد له منها الفونس السابع ، فلما بلغ أشده وشاهد أحوال أمه ثار عليها ، وشاطرها الملك ، وانحازت اليه كثير من البلاد ولما ماتت في سنة ١١٢٦ استقل بملك قشتالة ، واستفعحل أمره وأخذ قلعة رباح من المسلمين ، وهو الذي تناول منهم المرية وبقيت في حوزة الاسبانيول مدة ثم استرجعها المسلمون الى أن انطوت مع ما انطوى من بساط الاندلس ، وتلقب هذا الملك أيضا بأمبراطور اسبانيا ، الا أن دولة بنى عبد المؤمن ظهرت في أيامه فأصابه من الموحدين ما أصاب جده من المرابطين ، ومات غما ، وقسم مملكته بين ولديه الواحد على ليون ، والثاني على قشتالة ، فبقيت هذه القسمة ثلاثة وستين سنة ، فتولى شانجه البكر قشتالة وفرديناند الثاني ليون وجليقية . وخلف شانجه ابنه الفونس الثامن وهو في الرابعة من عمره ، فكفله الدون دوغاسترو الى أن بلغ سن الرشد ، وخلف فرديناند ابنه الفونس التاسع ، وفي تلك المدة زحف الموحدون الى اسبانيا ، وهزموا الفونس الثامن وجيوش الاسبانيول في وقعة الارك الشهيرة التي روى مؤرخو الافرنج أنه هلك فيها ثلاثون ألفا من المسيحيين أكثرهم من فرسان نظام قلعة رباح ومار يعقوب ومار يليان ، وبعد النصرة جيء بالwolf من الاسارى الى يعقوب المنصور فمن باطلاقهم وترتب على هذه الواقعة استرجاع المسلمين كثيراً من المواقع والمدن ، ثم انعقدت المواجهة لعشرين سنتين في أثناءها تقاتل الفونس الثامن مع ابن عمّه ملك ليون ، فأجمع رأي الاساقفة على تزويج ملك ليون بابنة ملك قشتالة تأييداً للصلح على ما بينهما من درجة القرابة الحائلة دون ذلك ومع كون ملك ليون تزوج بابنة ملك برغلان ففسخت الكنيسة الزواج لمثل تلك العلة ، إلا ان الزواج الثاني امضى في سبيله بالرغم من حرم الدين ، وجاء عنه الملك فرديناند المعدود في القديسين ، ومن غريب الاتفاق ان البنت الثانية للفونس الثامن ولدت قديسا ايضا هو مار لويس ، فيكون الاذفونش المذكور جداً لقديسين من جهة الدم .

وفي أيام الفونس ايضا حصلت هزيمة العقاب على المسلمين ، وقتل منهم

اما مائتا الف ، وفر الناصر محمد امير الموحدين شريداً ، وقد بالغ بعض مؤرخي العرب في عدد قتلى تلك المعركة فقالوا : « انه لم ينج من الستمائة الف التي جمعها الناصر إلا الف فقط » ونسبوا ذلك الى سوء تدبير الناصر ، وقتل الرجال العارفين بقتال الافرنج ، وجعل بعض محققي الافرنج السبب في هذه الهزيمة بعيدة عن التصديق التفاوت العظيم في السلاح بين الفريقين ، لأن اكثر المسلمين كانوا كأنهم بدون سلاح ، والجلالقة كان معظمهم تحت المغافر والدروع . وقيل في كتاب الفونس الى البابا ان عدد المسيحيين الذين جراحاتهم تنذر بالخطر على اثر الواقعه هم مائتان وخمسة وعشرون فقط ، وقد انتقد كثير من المدققين هذا القول ونسبوه الى ضعف ملكة النقد في ذلك العصر ، ووافق يوم العقاب الرابع عشر من صفر سنة ٦٠٩ وفق ١٦ تموز سنة ١٢١٢ ، واشترك فيه جميع ملوك اسبانياول ، لذلك تقاسموا اسلاب المسلمين ووسع كل منهم بسطة امارته في املائهم .

وحدة تاجي ليون وقشتالة

ولما مات ملك ليون قام بالأمر بعده ابنه فرديناند القدس ، ولما كانت امه
ابنة ملك قشتالة ، وكان أخوها الدون انريك قد مات يافعا ، انحصر ارث التاجين
في فرديناند ، على أنه في حياة أبيه كان قد وقع النزاع بينهما فلم يخل له الجو إلا
بعد موته . وفي أيامه أخذت قرطبة من يد الاسلام وانتشر سلك الجزيرة من
الوسط ، وتلا أخذ قرطبة ذهب اشبيلية بعد حصار ستين وجلاء ثلاثة الف من
أهلها الى غرناطة ، وفي أيامه استفحى أمر محمد بن الاحمر وحالفه ، وأدى له
الجزية وعصفت ريح قشتالة في اسبانيا ، وعلت كلمة الصليب في تلك الارض ،
لذلك جعل فرديناند في صف القديسين وعد من أعاظم الملوك ، إلا أنه مع
تسميته قديسا روى عنه بعض مؤرخي الافرنجة أنه في سنة ١٢٣٦ بينما كان يحرق
أحد الخوارج في الدين أخذ يؤثر النار بيده ، ويوضع الحطب لعل ذلك من زيادة
الحماسة والله اعلم .

وخلف فرديناند ابنه الفونس الفلكي الملقب بالصابي ، وكان فريد وقته في الملوك في طلب العلم ، وألف في الفلك التاليف ، وكانت له فيها آراء نازعة الى مذاهب الاعصر التي بعده ، فقيل انهم بينما كانوا يتذكرون امامه في الهيئة على المذهب الذي كان لعهده قال لهم : « ان كان ما تقولون حقا فباليت الله استشارني قبل ترتيب الافلاك » فانكروها عليه وعدوها كفراً ، وانما كان يريد بها التهكم بآراء العلماء في ذلك العصر ، على أن مكانه في السياسة لم يكن في درجة مكانته في العلم ، فان مؤرخي الافرنج ينسبون اليه الاشتغال بالافلاك عن الاملاك ومعرفة ما في السماء مع جهل ما تحت قدميه .

وفي أيامه استصرخ المسلمين يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب منبني مرين فأجاز الى الاندلس ونصر الاسلام نصراً عزيزاً واشخر في بلاد العدو بما أعاد ذكر الايام الاول ، وخيل رجوع الاموية والملثمين وتلك الدول ، وهذا الملك الفونس هو الذي عقه ولده شانجه وطرده بمساعدة الرؤساء والاعيان فاستغاث بالمسلمين ونصروه وعززوه . وعند وفاته كتب وصية حرمه فيها من ولاية عهده وعهد لالفونس حفيده ابن فرديناند بكره المتوفى ، وذلك لكونه عقه ونشر عليه ، وأثار الرؤساء والدون فيليب أخيه الذي ذهب مع جماعة من الامراء الى غرناطة وأقاموا عند سلطانها ، لكن وصية الصابي لم تغنم عن الملك شيئاً ، فإنه ما اغضض عينيه حتى قام شانجه بالامر ونزعه أخوه جويان قليلاً لكنه اضطر الى الإذعان ، وفي مدة شانجه أخذت طريف من يد ابن مرين ، فاعمل في الجهاد وسرّب البعوث لاسترجاعها ، وأجاز اليه الدون جويان أخو شانجه بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنجة ، وحضر حصار طريف مع المسلمين . ومما يحكى في هذا الحصار والعهدة فيه على الرواي أن جويان جاء بأحد أولاد دوغوزمان قائد طريف من قبل شانجه ووقف به على شفير الخندق ، ونادي القائد قائلاً له أن سلم البلد أو لا يدفن بالولد ، فلم يحابيه دوغوزمان بنت شفة بل شهر سيفه ورمى به نحوه فرمى المحاصرون الولد في الحفرة . وهذه من حكايات الاسپانيول التي يطألون بها الجميع في المفاخرة ، وعلى بقائهما مثلاً نادراً في الامانة والوفاء لو

صحت فهـي دون رواية السموآل الذي لم يسلم الدروع ولم يخفر ذمته ولو بهلاك ولده ، فـان كان عند الاسـبانيـوـل شيء من هذه الاخـلاق العـظـيمـة فـهيـ من رـشـحـ التـرـبيـة العـرـبـيـة فيـ تـلـكـ الـبـلـادـ كـماـ يـقـرـرـ ذـلـكـ أـرـبـابـ التـحـقـيقـ منـ مؤـرـخـيـ اـورـبـاـ انـفـسـهـمـ .

ومات شانجه في ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٩ تاركا الملك لولده فـرـدـيـنـانـدـ وهوـ شـابـ غـضـنـ الاـهـابـ فـاسـتـلـمـ الزـمامـ وـالـمـلـكـ جـمـرـةـ تـضـطـرـمـ ،ـ وـالـفـتـنـةـ منـ كـلـ نـاحـيـةـ تـحـتـدـمـ .ـ وـفـيـ أـيـامـهـ أـلـغـيـ نـظـامـ الفـرـسـانـ الـهـيـكـلـيـنـ وـسـبـبـهـ أـنـ هـؤـلـاءـ الفـرـسـانـ كـانـوـاـ قـدـ بـلـغـواـ دـرـجـةـ مـنـ القـوـةـ وـالـثـرـوـةـ اـعـيـتـ عـلـىـ سـواـهـمـ ،ـ وـوـقـفـتـ بـالـأـمـانـيـ مـنـ دـوـنـ مـبـلـغـهـمـ فـنـفـسـوـاـ عـلـيـهـمـ اـمـرـهـمـ ،ـ وـأـغـرـبـوـاـ بـهـمـ الـمـلـكـ وـزـيـنـوـاـ لـهـ مـاـشـأـوـاـ وـاـمـنـ خـبـرـهـمـ ،ـ حـمـلـهـ عـلـىـ الـايـقـاعـ بـهـمـ ،ـ وـتـذـرـعـوـاـ إـلـىـ ذـلـكـ بـمـقـالـاتـ لـفـقـوـهـاـ عـنـهـمـ وـرـمـوـهـمـ بـالـاحـادـ وـالـتـعـطـيلـ ،ـ وـالـنـاسـ فـيـ اـمـرـهـمـ بـيـنـ مـصـدـقـ وـمـكـذـبـ فـصـدـرـتـ اـلـاوـامـرـ بـاستـئـصالـهـمـ ،ـ فـأـحـرـقـ مـنـهـمـ جـمـاعـةـ وـمـاتـ فـرـدـيـنـانـدـ هـذـاـ السـبـعـ عـشـرـةـ سـنـةـ مـنـ لـاـيـتـهـ .ـ وـقـيلـ فـيـ كـيـفـيـةـ مـوـتـهـ إـنـ اـمـيـرـيـنـ مـنـ جـهـةـ مـارـتوـسـ اـتـهـمـاـ ظـلـمـاـ بـقـتـلـ جـوـيـانـ الـوـنـزوـ دـوـ بـوـنـافـيدـزـ وـهـوـ مـنـصـرـ فـيـ قـصـرـ الـمـلـكـ ،ـ فـقـبـضـ عـلـيـهـمـاـ وـاـمـرـ بـقـتـلـهـمـ بـدـوـنـ اـنـ يـسـمـعـ لـهـمـ دـفـاعـ ،ـ فـقـيلـ اـنـهـمـاـ لـمـ كـانـاـ يـسـاقـانـ إـلـىـ الـمـوـتـ اـنـظـرـاـ الـمـلـكـ ثـلـاثـيـنـ يـوـمـاـ لـكـيـ يـحـضـرـ فـيـ مـحـكـمـةـ الـدـيـانـ تـعـالـىـ فـلـمـ يـمـضـ ثـلـاثـيـنـ يـوـمـاـ إـلـاـ وـوـجـدـ فـرـدـيـنـانـدـ مـيـتاـ فـيـ فـرـاـشـهـ بـدـوـنـ سـابـقـ عـلـةـ وـلـاـ سـبـبـ سـوـىـ الـاـجـلـ .

وـخـلـفـ فـرـدـيـنـانـدـ اـبـنـهـ الـفـونـسـ الـحـادـيـ عـشـرـ ،ـ وـكـانـ طـفـلاـ فـقـامـتـ بـكـفـالـتـهـ اـمـهـ ثـمـ عـمـاهـ دـوـنـ بـطـرـهـ وـجـوـيـانـ إـلـىـ اـنـ قـتـلـاـ فـيـ مـرـجـ غـرـنـاطـةـ لـعـهـدـ اـسـمـاعـيـلـ بـنـ الـاحـمـرـ .ـ وـفـيـ مـدـتـهـ اـجـازـ اـبـوـ الـحـسـنـ الـمـرـيـنـيـ اـبـنـ اـبـاـ مـالـكـ بـرـسـمـ الـجـهـادـ فـيـ الـاـنـدـلـسـ ،ـ فـقـتـلـ فـيـ اـحـدـيـ الـوـقـعـاتـ وـاـسـتـلـحـمـ مـنـ مـعـهـ مـلـمـسـيـنـ ،ـ وـاـسـتـنـفـرـ اـبـوـ السـلـطـانـ اـبـوـ الـحـسـنـ قـبـائـلـ الـمـغـرـبـ لـلـاجـازـةـ ،ـ وـكـانـ الـمـعرـكـةـ الـبـحـرـيـةـ بـيـنـ اـسـاطـيلـ الـمـسـلـمـيـنـ وـالـنـصـارـىـ فـيـ بـحـرـ الـزـقـاقـ فـتـكـسـرـتـ اـسـاطـيلـ الـاـسـبـانـيـوـلـ ،ـ وـقـتـلـ اـمـيـرـ الـبـحـرـ جـوـفـرـ تـنـوـرـيـوـ وـاـسـتـلـحـمـ اـكـثـرـ مـقـاتـلـتـهـ وـذـلـكـ فـيـ ٣ـ اـغـسـطـسـ (ـآـبـ)ـ سـنـةـ ١٣١٠ـ ،ـ فـالـتـزـمـ الـفـونـسـ اـنـ يـهـادـنـ جـمـيعـ مـلـوـكـ اـسـبـانـيـةـ ،ـ وـيـؤـكـدـ مـعـهـمـ السـلـمـ جـمـعاـ

لكلمة النصرانية ، ومحصن موقعه وشحذها بالمقاتلة ، واجاز ابن مرين بجيشه
 وغنم كثيراً من اسطول الاسپانيویل ، الى ان كانت الواقعة المشؤومة على
 المسلمين في حصار طريف . وقد بالغ الافرنج في تقدير قتلهم ذلك اليوم ،
 فقالوا مائتا الف ، وليس هذا من الغرابة بمكان تقدير قتلى الاسپانيویل فيه بعشرين
 رجلا ، ووقدت قلعة ابن زيد وروطة وغيرها من المواقع في ايدي الاسپانيویل ،
 وانتصروا في بعض المواقع البحريّة ، فجمع الفونس حشوده ونازل الجزيرة ،
 وسرب اليها ابن مرين المدد ، ويقال ان العرب استعملوا في الدفاع عنها الآلات
 الناريه لأول مرة عرفها الاوربيون . وقد مضى بعض وصف هذا الحصار الطويل
 في الشق المتعلق باخبار المغاربة من هذا الكتاب وأفاضت كتب الافرنج في ذكر
 المعارك التي وقعت على أسوار الجزيرة ، والدفاع والهجوم مما استمر نحو عامين
 حتى بني الفونس لجيشه معسكراً ثابتا ، جعل فيه الاسواق والدكاكين وقفل كثير
 من الملوك والامراء الذين معه الى بلادهم ، مثل كونت بيارون وقسطيليون وكانت
 دربي وساليسبري من أمراء الانكليز . ومات ملك نافار وآل الامر الى الصلح عن
 يد ابن الاحمر بتسلیم الجزيرة وخروج أهلها بالامان . وتسلیمها الافرنج في ٢٧
 آذار سنة ١٣٤٤ وانعقدت الهدنة لمدة عشر سنین غير انه لما رأى الفونس اشتغال
 أبي الحسن بن مرين ببعض الفتنه في المغرب ، اهتب هذه الغرة ونازل جبل
 الفتح لكنه مات في هذا الحصار لستة وعشرين من آذار سنة ١٣٥٠ وفق
 المحرم سنة ٧٥١ .

ملوك اسبانيا الجائزون

وقام بالأمر بعده الدون بطره الملقب بالعاتي ، ومن غريب الاتفاق ان
 اسبانيا كان يليها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أربعة ملوك جائزین لکل
 منهم سيرة فريدة في بابها : فكان الدون بطره الملقب بالخجري في أراغون ،
 وشارل الملقب بالرديء في نافار ، والدون بطره الملقب بالقاسط في البرتغال ،
 والدون بطره هذا المعروف بالعاتي أو الجاسي بقشتالة . وكان عند ارتقاءه كرسى

الملك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فعهد بتهذيبه الى دون جويان الونزو دو البوكرك الذي يقال انه كان تزلفا الى مرضاته يزين له شهواته ، ويسوغ له أفعاله ، وكانت فاتحة أعماله قتله الدونية ليونوره دوغوزمان امرأة أبيه ، ثم قتل غارسيلازو من أمراء بورغوس لتهمته اياه بالانحياز الىبني لاره اعدائه ، وأمر بطرح جثته في الاسواق ، وعقب ذلك ضربه مالا معلوما على أهل بورغوس ، فعارض في دفعه بعض أعيانها فشنق منهم ثلاثة ، ثم غضب على الدون الونزو فرناندز كورونل لكونه زوج ابنته جويان دو لاسردا من اعداء الملك ، ولما نسب اليه أثناء مرض الفونس من القيام بدعاوة جويان نونز دولاره ، فزحف اليه في مدنه اغيلار وبور غيليروس ومونتلavan وعاد فيها ، وتقبض على الدون الونزو وقتلها ، ثم اتخذ الملك الدونية مارييه دوباد اليه حظيّة له ، وكان ذلك بتشويق كافله البوكرك الذي كان يرجو أن تكون عضداً له ، ويستولي بها على قلب الملك ، فخاب ظنه وناصبه العداوة ، فأراد ان يجعل لها ضرة ، وصار يسعى في تزويج الملك ، فخطب له بلانشة ابنة دوق دو بوربون من فرنسا ، وزفت اليه وكانت بارعة الجمال متقدمة الذهن في السادسة عشرة من السن ، وبعد يومين من دخوله بها تركها ورجع الى حظيّته . فخاف البوكرك ان يبطش به ، وفر الى البرتغال واجتهدت والدة الملك ان تحول ميله فلم تفلح في سعيها وأمر أحيراً باعتقال امرأته بلانشة في قصر اريفالو بدون ان يأذن لأحد أن يراها . ثم اقتربن بالدونية جويانة دوكاسترو وكانت على جانب من الحسن والذكاء ، واستفتقى في فسخ نكاحه الأول الاساقفة فأفتوه على الرغم منهم ، لكنه لم تطل مده أيضاً مع هذه العروس الجديدة وهجرها ، فارتاحت الى دويناس وولدت ابنها جويان وانضم أهليها بنو كاسترو الى الفئة الناقمة ، وعمت حركة الانتفاض مملكة قشتالة ، وثارت طليطلة ، وفي أثناء ذلك أغري الملك طبيباً ايطاليا فسم البوكرك مهذبه ، فازدادت الحركة وتقوت العصبة وحاول القبض على امرأته الأولى بلانشة ، فنصرها الشعب وانضم والدته الى الثوار فقبضوا عليه أحيراً وحجروه ، وأبعدوا عن داره من كانوا مماليئه على مقاصده ، لكن لم تطل المدة ان انقسم رؤساء الثورة وفر الملك من معتقله ،

واستنفر أشياعه وقاتل بهم أعداءه ، فظفر بهم واستمال جماعة منهم وأمر بضرب
أعنق رؤساء طليطلة ، فقيل انه كان منهم رجل صائغ قد ذرف على الثمانين ،
وكان له ولد في سن الثمانية عشرة جاشت به الحمية على أبيه فالتمس ان يقتل
مكان أبيه فلم تأخذ الملك رأفة بشبابه ولا بشيخوخة أبيه ، فقبل البدل وقتل الولد
محل الوالد .

الحرب من جديد بين قشتالة واراغون

وبعد ان استراح بطره من ثوار الداخل ، وشردهم الى فرنسا وغيرها ،
نشب في حرب مع أراغون بسببها ان فرنسيس بيرلوس قائد البحر عند بطره ملك
أراغون كان ذاهباً ببعض اسطوله يساعد فرنسا على انكلترة في حرب ببحر
المانش ، فلما وصل الى ثغر سان لوكاردو براميدا في فم الوادي الكبير صادف
مراكب جنوية فضبطها ، لوقوع الحرب يومئذ بين أراغون وجنوبي بسبب سردانية ،
فسأله بطره الجاسي الافراج عن تلك المراكب وكان هناك يتنهى فأبى ، فامتنع
منه وأرسل الى رصيفه في الرتبة والخصال بطره الملقب بالخنجرى يسأله تسليم
فرنسيس المذكور فأجابه ان فرنسيس لم ينزل غائباً ، وعند رجوعه تجري محاكمة
بما يرضي ملك قشتالة ، لكن لا يمكن تسليميه ، فشهر بطره الحرب على جاره
وسمييه وانضم الى ملك أراغون جميع الناقمين من إخوة ملك قشتالة وأعيان
ملكته ، وخف الدون انريك من فرنسا الى أراغون ، وكما كان في جانب بطره
الاراغوني كثير من أمراء قشتالة كان في جانب بطره القشتالي كثير من أمراء أراغون
مثل الدون جويان والدون فرناند ، ولكن شراسة أخلاق مولاهم وسوء عشرته آلا
بكثير منهم الى الانحياز عنه ، فابتدا بذلك الدون فرناندو وفارقه ، وقيل ان منهم
الدون الفار بيريز دو غوزمان كانت له امرأة حسناء اسمها الدونة الدونزة أعجبت
الملك فحدثه نفسه باغتصابها من زوجها ففر الى أراغون وانحاز ابن عمه الدون
جويان دولا سردا الى الاندلس ، فجمع عسكراً من مقاطعاته واجتاح البلاد ، لكنه
لم يساعده القدر إذ وقع أسيراً في أيدي جند الملك ، وسيق الى اشبيلية فأرسل

بظره في الحال من بطانته لذريق دو كاسترو لقتله ، وبلغ امرأته الدونة مارية ما حل بزوجها فجاءت الى الملك تبكي وتلطم خدها وضرعت اليه جاثية على رجلها أن يغفو عن بعلها ، فأعطتهاه أمراً بالغفو على يقينه بأن الامر قد قضي فلما وصلت الى اشبيلية وجدت أن قد سبق السيف العذل .

ثم وفدت عليه الدونة الدونزه كورونل بعد انعقاد الهدنة بينه وبين أراغون ، واستسمحت منه العفو عن الدون الفار بيريز دو غوزمان ، وكان الملك قد حاول سابقاً اغتصابها فامتنعت منه ، فسبحان مقلب القلوب إذ مالت اليه هذه المرة وحظيت عنده ، فأسكنها في برج الذهب على ضفة الوادي الكبير ، وتمتعت زمنا بالأمر الى أن ملها وعاد الى حظيته الاولى مارييه دو باديليه كأنه لا حب الا للحبيب الأول ، ثم لسبب ضعيف او لغير سبب قتل بطره أخاه الدون فادريلك رئيس نظام مار يعقوب ، وارتكتها فيه شناء ، إذ أجرى ذلك بحضوره ، واسترجع فيه الحرس مراراً حتى تناولوه ضرباً بالدبابيس ، فأثووه لوقته ، وذهب الملك يسأل عن رفاق أخيه في القصر فلم يعثر إلا على رجل يقال له سانشو فقتله بيده وهو ماسك بأذياle ابنة الملك طلباً للنجاة . وعاد فتناول الغداء في القاعة التي كانت مطروحة فيها جثة أخيه وبعد أن فتك بفادريلك دعا أخيه الثاني جويان ووعده بولاية بيسكاي ، واستصحبه اليها لقتل متوليها أخيه الدون تلو وقاطعه ايها ففر تلو الى فرنسا واستنجر الدون جويان وعد أخيه ، فبعث اليه بالحضور فقدم ومعه ثلاثة بقوا خارجاً ودخل جويان ليس معه سوى خنجر صغير فجاء بعض حاشية الملك وألهوه وعلى غفلة منه سلبوه الخنجر ، مما حصل في قبضتهم حتى صرعنوه وانثالوا عليه بالدبابيس على أم رأسه فمات لحيته ، وقدف به الملك من غرفته الى الساحة وبعد ذلك تقبض على خالته الملكة ليونوره وايزابلا دو لاره امرأة الدون جويان ، ولما طالت الحرب بينه وبين أراغون وأبي ملك أراغون قبول مطالب بطره نسب هذا رفضه الى دسائس الدون اتيريك دو تراستamar والدون تلو والدون فرناند مركيز طرطوشة فانتقم منهم ، بقتل أحدهم خالته ثم اعتقل امرأة الدون تلو الباقية كانت في البلاد ، ثم قتلها ثم قتل أخيه الصغيرين الدون جويان الذي كان في التاسعة

عشرة من العمر والدون بطره الذي كان في الرابعة عشرة ، بدون ذنب اقترفاه ، وكانت الحرب لا تزال قائمة على قدم وساق بين أراغون وقشتالة ، فحضر لدى الملك مرة كاهن من سان دومينيك دو لاشوسه ، وطلب أن يقابل الملك فمكنته من ذلك فقال له مولاي ، رأيت في النوم مار دومينيك الكبير فامرني أن أجيء إليك ، وأنذرك لكي تأخذ حذرك لأنك ستموت مقتولا بيد الكونت أنريك أخيك ، فراجعه الملك ان كان بعثه أحد ليقول له هذا القول فأصر على أن هذه هي رسالة سان دومينيك ، فاستعاد حديثه بملأ من الناس فاعاده فأمر بحرقه حياً ولم يبال بمرسله ، ثم قتل أمين صندوقه صموئيل لاوي اليهودي الذي كان ملاً خزائنه ذهبا ، واستصفى جميع أمواله ثم بعد عقد الصلح مع أراغون قتل أمراته الملكة بلانشه التي كانت قد قضت معظم حياتها باسبانية رهن الاعتقال ، وكانت كاسمها نقية البياض بدعة الحسن جذابة الملامع فسقيت كأس حتفها في الخامسة والعشرين من سنها ، ومضت طاهرة الازار حتى قيل على لسانها في أغاني العامة ما معناه : « أموت بدون أن يعرفني الملك وأذهب بين العذاري » مع هذا لم تنج هذه الملكة من أوهام القصاصين الذين رموها بمعاشقة الدون فادريلك أخي الملك ، ودفع عنها كثير من المؤرخين بكون زواجهما وقع أثناء غياب فادريلك ، وانها بعد ذلك لم تجتمع به فأين تمكن من رؤيتها ؟ وهذا الملك هو الذي التجأ إليه أبو سعيد بن الاحمر المتزوج على محمد الخامس فقتله قيل مع سبعة وثلاثين فارسا من بطانته ، وتولى قتهلي بيده قائلًا له : « هذا من أجل المعاهدة المذمومة التي اضطررتني أن أعقدها مع أراغون » فعنده ابن الاحمر وسبه ولكنه بادله كلما بكلم ولما قتل مع جماعته أرسل برق وسهم الى سلطان الاندلس ، وتصافيا ولما أمن من جهة المسلمين خاف أن ينافسه ملك فرنسا الحساب على قتل الملكة بلانشه ، فأكمل العهد مع صاحب انكلترة ومد يده الى ملك البرتغال وملك نافار ، وزحف معه نحو ملك أراغون فانهزمت جيوشه ، وآل الامر الى الصلح على شرط أن يتزوج دون بطره ملك قشتالة ابنة دون بطره ملك أراغون ، وان ولد عهد أراغون يقترب بابنة ملك قشتالة من حظيته مارييه دو باديليه ، وان ملك أراغون

يسلم اليه الدون انريك دو تر استمار والدون فرناند مركيز طرطوشة ، فقبل بذلك رصيفه ، وقتل فرناند وحاول اغتيال الثاني ففر واعصوصب حوله القشتاليون .

الخلاف في قشتالة

وذهب انريك الى فرنسا واستجاشها على أخيه ، وكان لهم ثار في قتل بلانش فراسلوا ثلاثة الف مقاتل معقوداً عليهم لبرتران دو غوكلين ، فدخل مع انريك مملكة قشتالة ونودي بهذا ملكاً في كثير من مدائنه التي كان أهلها يتظرون الفرصة لخلع طاعة الظالم ، ففر بطره الى البرتغال فأبى ملكها قبوله فعاد وافت الى جليقية حيث لقي فرناند دو كاسترو ومطران سان جاك فوعده بالنصرة ، وجهز له المطران كتيبة مؤلفة من ١٢٠٠ مقاتل ، لكنه جوزي جزاء سنمار وغدر به بطره واستصفى امواله وذهب بها بحراً الى بيون ، وكانت في يد الانكليز واستتب الامر لاخيه الدون انريك في قشتالة ، الا ان الانكليز اجازوا بطره واصحبوه بجحفل جرار لافتتاح مملكته ، وكان انريك قد اعاد اكثر الفرنسيين الذين معه الى بلادهم ، فضعف قوته ، وانهزم امام البرنس دو غال في واقعه نافاريت ، فلحق بفرنسا ودخل بطره الجاسي مع البرنس دو غال الى البلاد ، وحاول قتل الاساري الذين أخذوا في الوعقة فوبخه البرنس ومنعه ، ثم طالبه بنفقات الحرب فأخذ يطوف في البلاد ويقتل اعيانها ليأخذ اموالهم واهلك في تلك الجولة خلقاً كثيراً حتى فر كثير منهم الى أخيه المنهزم وشدوا ازره ، واقلع البرنس دو غال غير راض عن أعماله ، وعاد الدون انريك الى البلاد ومعه جماعة من الفرنسيين فقامت أكثر المدن بدعته ، وحصر طليطلة فدافعه عنها الدون فرناند الفارز أو الفارس من قواد الملك بطره ، وجاء هذا مع حليفه ابن الاحمر يحاصر قرطبة التي كانت تقبّلت دعوة أخيه ، فضيقاً عليها وهجم المسلمين على الاسوار فاحتلوا منها برجاً ، لكن القرطبيين كروا على المحاصرين فكشفوهم فازوا العودة ، واهتب محمد سلطان غرناطة هذه الغرة فعاد في بلادهم واسترجع بعض الحصون ، واكتسح جيان وابدة وغيرهما من المدن المحالفه للدون انريك .

وفي ١٤ آذار سنة ١٣٦٩ انتشت بين الاخوين معركة بقرب مونتيل ، وانكشف الدون بطره واعتصم بقصر مونتيل فبني أخوه انريك جداراً بحجارة يابسة أجعل بناءه حول القصر ليقطع رجاء بطره في الخروج ، فلما شاهد ذلك أخوه واعوانه وفدهم معرفة لبرتران دو غوكلين فداخله في غض الطرف عن فرار الدون بطره لقاء جائزة سنية ، فرفض برتران ، واحب بذلك الدون انريك ، فأشار اليه بأن يقبل هذه المداخله ويسمح للدون بطره بالحضور عنده ، وفي ليلة ٢٣ آذار المذكور انسن الملك قاصداً خيمة القائد دو غوكلين فلما استقر بها دخل عليه أخيه الدون انريك بالشكة الكاملة ولأول وهلة لم يعرف أخيه لطول لطول عهده به ، فقال له أحد فرسان الفرنسيس هاهوذا خصيمك - وأشار الى الدون بطره - فأجابه نعم ها أناذا فوثب عليه انريك ونفعه بشفرة قصيرة في وجهه فتلقاء بطره بذراعيه ، وتصارعاً فسقط الاثنان على الارض فوجاه^(١) انريك بخجره جملة طعنات حتى أثواه ، وقيل بل عندما سقط المكان على الارض جاء بطره فوق انريك ، لكن القائد دو غوكلين قلب الثاني فوق الاول ، حتى مكنه من قتله ، وكان عمره يومئذ أربعاءً وثلاثين سنة وسبعة أشهر ، وخلفه الدون انريك قاتله .

وقد أطلنا قليلاً في قصة هذا الملك الجاسي لغراية أحواله وشذوذ مبادئه وهاك ما لخصه ابن خلدون من خبره قال :

« قد تقدم ذكر تغلب الطاغية ابن الهنثة على الجزيرة سنة ثلاثة واربعين ، وانه نازل بعدها جبل الفتح سنة احدى وخمسين ، ومات بالطاعون وهو محاصر له ، عندما استفحلا أمره ، واشتدت شوكته ، وكفي الله شأنه ، وولي أمر الخلافة بعده ابنه بطره ، وعدا على سائر اخوته ، وفر أخوه القمط ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم أرريق بهمزة الى قمط برشلونة ، فأجاره ، وانزله خير نزل ، ولحق به من الزعماء المريكس ابن خالته ، وغيره من اقماطهم ، وبعث اليه بطره ملك قشتالة

(١) وجاه : ضربه ، لکزه

في إسلام أخيه ،^(١) فأبى من اخفار جواره ، وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتح فيها بطره كثيراً من معاقل صاحب برشلونة ، وأوطأ عساكره نواحي أرضه ، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الاندلس مراراً ، وأوجف عليها بعساكره ، وملاً البحر إليها بأساطيله إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته ، وساقت فيها ملكته ، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه ، فزحف إلى قرطبة ، وثار على بطره أهل اشبيلية وتقن صاغية النصارى إليه ففر عن ممالكه ، ولحق بملك الأفرنج ، وراء جيليقية في الجوف عنها ، وهو صاحب انكلترة ، واسمها الفلس غالس ، ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين ، فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه ، ورجع ملك الأفرنج فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطره ، وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز بطره إلى ثغوره ، مما يلي بلاد المسلمين ونادي صريخاً بابن الأحمر ، فانتهز الفرصة ودخل بعساكر المسلمين فائخن في أرض النصرانية ، وخرب معاقلهم ومدنهم ، مثل ابنة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم ، ثم رجع إلى غرناطة ولم تزل الفتنة قائمة بين بطره وأخيه القمط إلى أن غالب عليه القمط وقتلـه « انتهى .

وقال ابن خلدون في سفارته عن السلطان ابن الأحمر إلى اشبيلية مانصه : « وسفرت عنه سنة خمس وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ بطره بن الهنـشـة بن اذـفـونـش لـاتـمام عـقـد الـصـلـح بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـلـوـكـ العـدوـةـ بـهـدـيـةـ فـاخـرـةـ منـ ثـيـابـ الـحرـيرـ والـجيـادـ الـمـقـرـبـاتـ بـمـرـاكـبـ الـذـهـبـ الثـقـيـلـةـ ، فـلـقـيـتـ الطـاغـيـةـ باـشـبـيلـيـةـ ، وـعـاـيـنـتـ آـثـارـ سـلـفـيـ بـهـ ، وـعـاـمـلـيـ مـنـ الـكـرـامـةـ بـمـاـ لـمـ زـيـدـ عـلـيـهـ ، وـأـظـهـرـ الـاغـتـياـطـ بـمـكـانـيـ وـعـلـمـ اـولـيـةـ سـلـفـنـاـ باـشـبـيلـيـةـ وـاثـنـىـ عـلـيـهـ طـبـيـهـ اـبـرـاهـيمـ بـنـ زـرـورـ الـيهـودـيـ الـمـقـدـمـ فـيـ الـطـبـ وـالـنـجـامـةـ ، وـكـانـ لـقـيـنـيـ بـمـجـلـسـ السـلـطـانـ أـبـيـ عـنـانـ ، وـقـدـ اـسـتـدـعـاهـ يـسـتـطـيـهـ ، وـهـوـ يـوـمـئـذـ بـدـارـ اـبـنـ الـأـحـمـرـ بـالـانـدـلـسـ ، ثـمـ نـزـعـ بـعـدـ مـهـلـكـ رـضـوانـ الـقـائـمـ

(١) أي إسلامه إليه

بدولتهم الى الطاغية فأقام عنده ، ونظمه في أطبائه ، فلما قدمت أنا عليه اثنى
علي عنده ، فطلب الطاغية حيئذ المقام عنده ، وان يرد علي تراث سلفي
باшибيلية ، وكان بيد زعماء دولته فتفاديت من ذلك بما قبله ، ولم يزل على اغتاباته
الى أن انصرفت عنه فزودني واحملني واختصني ببغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام
ذهبين اهديتها الى السلطان فاقطعني قرية البيرة من اراضي السقى بمرج
غرنطة » انتهى .

وبعد ان ادبل الدون انريك ؛ قام ملك البرتغال يطالب بالخلافة ، بحجة
انه هو الوارث الشرعي الوحيد لتحت قشتالة ، لأن والده بطره القاسط هو ابن بنت
شانجه الرابع ملك قشتالة ، لأن الدون انريك ابن الحظية فقد نشب الحرب ،
واستولى انريك على كثير من معاقل البرتغال وحاصر اشبونة عاصمتهم ، ثم
انعقد السلم بتوسط وكيل البابا وكان أولاد الدون بطره الملك السابق مع خزائنه
في قرمونة ، فحاصرها الدون انريك ودافعه قائدتها مرتين لويز دو فرطبة الى أن
نفذت الاقوات ، واضطرب مع حاميته الى التسليم على شرط الأمان فأمنهم رئيس
مار يعقوب من قواد انريك لكن هذا أبي تصدق عهد القائد وقتل مرتين صبراً
واستولى على الخزائن وارسل أولاد أخيه الى طليطلة حيث اودعهم السجن .

وسنة ١٣٧٢ وقعت الحرب بين الانكليز والفرنسيين ، فأرسل الدون انريك
قائد بحره أمبروسيو بو كانغره لمساعدة الفرنسيين ؛ فهزم اسطول الانكليز ، ثم
تحارب مع ملك أراغون من أجل مرسية ، وانتهت الفتنة بتزويع جوبيانولي عهده
بابنة صاحب اراغون ، وكان الدوق دولنكاستر رابع اولاد أدوار ملك انكلتره قد
تزوج في بيون بالدونة قسطنطسه ابنة بطمة الجاسي ، وكان والدها قد عهد لها
بالملك فحال هذا الدوق انه صار صاحب الحق في خلافته ، فجمع عسكراً جراراً
وزحف صوب اسبانيا فناوشة الفرنسيين القتال في طريقه ، ومات اكثر جيشه ،
فعاد بخفي حنين ثم لعهد وقع بين شارل الرديء ملك نافار والانكليز ، زحف اليه

الفرنسيين من جهة والقشتاليون من اخرى فاللزم ان يصرم ذلك الجبل ، ومات
الدون انريك في ٢٩ أيار ١٣٧٩

وجلس على كرسي الامارة ابنه جويان ، وولد له في اوائل ملكه ولد سماه
انريك ، وكان فرديناند صاحب البرتغال لم يرزق غلاما ، وانما ولد ابنة يخشى
بعد موته ضياع حقها فخطر له ان يجعلها حلية لابن الدون جويان ، فيتمكن من
حفظ حقها ؛ فخاف الانكليز عاقبة هذا الزواج وكان الدوق دولنكاستر لم ينزل عن
دعوه ، فدخلوا البرتغال في فسخ ذلك العقد ، وحملوهم على الحرب فاصطلت
بين المملكتين عواناً ، وطالت زماناً ووفد الانكليز بالمدح على اشبونة وفي تلك
المدة توفيت ليونورا امرأة الدون جويان ، فرأى صاحب البرتغال أن يزوجه ابنته
التي كان يريد اعطاءها لابنه ، وهي المسمة بالدونة بياتريزة ويختتم بذلك
الحرب ، فانصاع عنه الانكليز وعقد للدون جويان على ابنته المذكورة وبعد زفافها
عليه باربعة أشهر مات الدون فرديناند ونودي بكريمه ملكة على البرتغال فأسف
رعية هذه المملكة ان يروا عليهم أجنيباً ، ولم يقبلوا بالدون جويان فزحف الى
عاصمتهم اشبونة وحاصرها برأ وبحراً حتى هلك كثير من أهلها ومن عساكره ،
فانكفاً عنها وطبع فيه البرتغال فقاتلوا من أطاعه منهم ، واجتمعوا وقرروا تحت
رئاسة قائد اشبونة أن بياتريزة ليست ولداً شرعياً لفرديناند لأن امها كانت متزوجة
بالدون جوان لورانسو دوا كونها حينما نقلت الى الملك فرديناند ، فبائع البرتغال
الدون جويان بن بطره القاسط وانضموا اليه وكان متولى الدفاع عن اشبونة ،
فزحف ملك قشتالة لقتاله فالتقى في ١٤ آب سنة ٨٤ بعد الثلاثمائة والالف بقرب
قرية الجبروته فانهزم ملك قشتالة وهلك من جيشه عشرة آلاف ، ومن البرتغال الف
وهي وقعة مذكورة في التاريخ بقي البرتغال يحتفلون بتذكرها أزماناً ، فتوطد
 بذلك أمر الدون جوان البرتغالي وجاء الدوق دولنكاستر الانكليزي فدخل قشتالة
 بجيش واستولى على بعض البلاد ومدّ يده الى يد ملك البرتغال وهيأ قسمة بلاد
 عدوهما لكن هذا استجاش بالفرنسيين فأمدوه بالمال والرجال ولم يفز اعداؤه
 بطائل فانتهت الفتنة كغيرها من الفتن التي تضمنها هذا التاريخ بزواج انريك ابن

ملك قشتالة بكاتالانه بنت الدوق دولنكاستر من امرأته ابنة بطره الجاسي ، وفي ٩
اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٣٩٠ بعد الالف بينما كان الملك يجري فرسه في
ميدان مع بعض فرسان النصارى الجالين من افريقيه ، وكانوا موصوفين
بالفروسية ، اذ كبا به جواده فخر صريعا وحمل بدون حراك فخلفه ابن الدون
انريك في الثانية عشرة من العمر ، وكفله مجلس مؤلف من الدون فادريلك ابن
الدون انريك جد الملك من خطبته ، ومن الدون بطره حفيد فادريلك رئيس نظام
مار يعقوب الذي قتله أخوه بطره ، ومن أساقفة طليطلة وسان جاك وغيرهم من
القادات فانتشرت السلطة وتم خضوع الحال بالفتنة ، وصارت الناس فوضى وفي
هيبة ذلك هجمت العامة في قرطبة على اليهود فقتلوا منهم خلقا ، وانتهوا اموالهم
وفي مدته قام محمد ثانى أولاد يوسف بن الاحمر على أبيه ورماه بالضعف عن
الجهاد ، وأثار عليه العامة ، فاللتزم يوسف أن يخرج بعساكره ويحتاج بلاد
النصارى لينفي تهمة ابنه الذي اتخذها حجة للخروج ، إلا أنه لما كان ميلا بطبعه
إلى السلم لم يلبث أن هادنهم وقبل .

وفي تلك المدة ظهر رجل عند الاسبانيون يدعى سيو معروف بالنسك
والزهدادة وقبول الدعاء وصار لعامتهم فيه اعتقاد كبير فانيا رئيس فرسان القنطرة بأنه
يفتح غرناطة ، كما فتح السيد بلنسية فصدقه ، وأرسل اثنين من اعوانه إلى سلطان
غرناطة بر رسالة تضمنت قدفا وطعنا في دينه ، وتهديداً وانذاراً من بطشه ، وهو
يدعوه إلى التزال ، ويعده ان احجم من الانذال ، ويقاتلته بفتة قليلة له أن يجمع
بازائها اضعافها ، فلم يكتثر صاحب الاندلس بكلامه إلا كما يكتثر بهذيان
الممسوسيين ، وطرد الرسل من حضرته مذمومين مذهورين ، فلما بلغ ذلك
مارتين يانس استاذ القنطرة جهز خمسة آلاف مقاتل وسار بهم نحو غرناطة وقيل
أن الدون انريك انهى عن المسير لما فيه من النكث بالمعاهدات فلم ينته قائلا
انها مسألة دينية لا سياسية يلزم فيها الخضوع للملك ، ولما مر بجيشه بقرطبة
حاول بعضهم أن يمنعه من جواز الجسر فثارت العامة واعتبرت على تلك
الممانعة فأذن له وفي ٢٦ نيسان سنة ٣٩٤ بعد الالف وصل الى ثبور غرناطة

وحاصر برجا اسمه برج ايجة وبعث الى الحامية يعرض عليهم التسليم والنصرانية والا فالسيف فهرئوا به وجاوبوه بالنشاب والحجارة ، فجرح الاستاذ وقتل معه ثلاثة من أبطاله ، فدعا الناسك سيو وقال له أكدت لنا انه لا يهلك منا أحد وهو ذا ثلاثة قد سقطوا صرعى فقال له الناسك نعم قلت ولا أزال أقول لكن انما أردت بذلك الحرب في السهل لا الحصار امام الحصون ، فأخذ يجمع اكداسا من الحطب بقصد احراق البرج واذا بعساكر المسلمين قد اقبلت ، فذعر أصحاب يانس من كثرتها وصاروا ينسلون هاربين فوضع رايته والصلب في الوسط وأحاط بهما في نخبة رجاله إلا ان العدو أحاط بالجميع ، فلم ينج من الخمسة آلاف سوى الف وخمسمائة وأما معلم القنطرة فسقط مع جميع الرجال الذين انتخبهم ليكونوا في موطنهم ، وانتشر خبر هذه الهزيمة في اسبانيا ، فخاف النصارى أن يستأسد المسلمون ويوقعوا بهم ، لكن السلطان يوسف حصر القتال في مكانه مع هذا الرجل المتهمس ، ولم ينكث بعهده معهم الا انه لما مات وخلفه ولده محمد استؤنفت الحرب ، وأخذ كل من الفريقين ينحي باللائمة على الآخر في اخفار الذمة .

وعام أربعة بعد الأربعين والالف خرج محمد بن يوسف غازيا في جيش كثيف ، فاكتسح البسائق وعاد في بلاد الاسبانيول ، وفي السنة التالية غزا جيان وأذاقها من القتال ، وقفل بالغنائم فأخذ الدون أتيريك يحصن ثغوره دفعاً لعادية المغاربة .

وسنة ١٤٠٦ قضى نحبه تاركا من الولد طفلا وابتين فأوصى بتربية أولاده أخاه الدون فرناند الملقب بالرشيد وامرأته الملكة كاترينه ، وكان من فواتح أعمالها التجهيز لحرب غرناطة فشتت الغارات وعطلت الثغور ، ومات أثناءها محمد بن يوسف ، وخليه أخوه البكر يوسف فتجدد القتال في مده ، وتزاحف الفريقان في سنة عشر بعد الأربعين والالف وحاصر الاسبانيول النقيرة وأخذوها واستفحلا بذلك شأن فرناند .

وفي هاتيك الآونة مات صاحب اراغون عن غير ولد شرعي كما قدمنا في أخبار أراغون ، فأجمع رأي نواب تلك الامة على انتخاب فرناند الرشيد ملكا عليهم لمكانه من القرابة وما عرف من ذمته وأمانته وعفته عن اعتصاب ملك ابن أخيه الذي استودعه طفلاً رضيعاً فتوج فرناند ملكاً على أراغون ، وبقي كافلاً لابن أخيه في قشتالة وبينما كان سائراً لغزو المسلمين سنة ١٤١٦ وفاه أجله فاستقل بكفالة ملك قشتالة أمه كاترينة بنت دوق لنكاستر الانكليزي ، وكانت ممدودة السيرة إلا أنها كانت مغفرمة بالخمرة ، ونقم عليها الإسبانيون عدم كراهيتها الشديدة للإسلام فماتت ختف أنها في غرة حزيران سنة ١٨ ، فتسلم ابنها ملك جويان أزمة الملك وهو في نحو الثالثة عشرة من العمر ، فتنازع الرئاسة الامراء والقواعد ، وانتشرت الفتنة ، وتواترت المحن ، إلى أن تمكن من رأب الصدع .

وفي تلك الأيام حدثت في غرناطة حوادث جمة من وفاة يوسف بن الأحرmer وقيام ولده محمد الأعسر مقامه ، وخلع هذا ، وقيام محمد الصغير ، وخلعه ، ورجوع الأعسر ، وانتزاء يوسف ابن عميه عليه ، وجلوسه على تخت الامارة ، وموته ورجوع الأعسر ثالثة ، مما استوفيناه في أخبار غرناطة . وامتدت لجويان في قضايا المسلمين بعضهم مع بعض يد طولى ، واستفاد من انقسامهم ، فهزهم وأثخن في بلادهم . ومما سود صحيحته نكتبه لأمير الجيوش الدون الفارو دولونة ، الذي حضره ورباه ونصره على أعدائه وأخلص في مناصحته مدة ثلاثين سنة ، فجزاه شر الجزاء بسبب اختياره ابنة ملك البرتغال لزواجه بعد وفاة زوجته الدونية مارية ، حال كون جويان يهوي رادغوند ابنة شارل السابع ملك فرنسا والصحيح ان الدون الفارو كان في دولة قشتالة لعهد جويان أشبه بيحى ابن خالد البرمكي في دولة الرشيد ، لا يقطع أمر بدونه ولا تمضي قضية إلا على مقتضى ارادته ، حتى انصرفت اليه الناس من دون الملك ؛ وازدحمت في بابه القدام ، وثقل على جويان احتمال هذا الامر أكثر مما احتمله ، إلا أنه لم يعمر زماناً بعد وفاة الفارو ومضى لسيله في ٢١ تموز سنة ١٤٥٤ وكان ملكه مشوباً

بالفتن ورأيه نسيأً للعجز ، إلا أنه كان من يحب العلم خصوصاً التاريخ والأدب .

وخلفه ابنه الدون انريك الرابع فأول ما فكر فيه عند استواه على الكرسي أن ينسن ولدا يورثه الملك . فاقتربن بالدونة جوبانة البرتغالية لكن لم يلبث أن اتخذ من دونها الحظايا ، فاختار كاتالينه دو صندوفال مدة ، ثم تركها ولما علم أنها علقت بفارس غيره أمر بضرب عنقه ، ثم بلغه ان دير راهبات ماز بطرس دولاس دويناس يحتاج الى الاصلاح فعين معشوقته هذه رئيسة للراهبات ، واتخذ الدونة غيماردو كاسترو عشيقه ، فحكمها في ارادته وانقطع اليها دون العالمين فثار عليها حسد الملكة واشتدت الفتنة بينهما ، حتى انهم مرة تعاركتا وتضاربتا وقتل من ساعد الملكة ما في صدرها من الغيظ ومن اغتصبها حقها ، فأمسكث بذوائب الحظية وصرعتها في الارض ، فحضر الملك مسرعاً ورفس الملكة فأنامها لوقتها مغشياً عليها . قال المؤرخ لا فاله : « وهذه الواقع المخجلة لم تكن الا مقدمة لحوادث اعظم فضيحة واظهر عارا ، وروى من عشق الملكة لبرتران دولاكوفا ومن تهتكها وولادتها ودعوة الملك امراء البلاد لتحالف يمين الامانة لابنته الجديدة ، وإباائهم ذلك اشتباها في صحة نسبها للملك ، الى غير هذا من الامور الفاضحة ما امسكنا عن تفصيله ضنا ب شأن التيجان وحرمة لمقام الصولجان خصوصاً وان لهذا الملك فيه السهم الاولى من العار ». وبالإجمال فنقول ان امراء قشتالة خرجوا على اميرهم انريك ، ولاشتهر عجزه عن الزواج عندهم ، رفضوا ان يقبلوا عليهم ولدي عهد من سلالته ، اذ ليس عندهم من له سلالة ، فولوا عهد الامارة اخاه الفونس وطوح ببعض الثوار بغض الملك واحتقاره حتى نصبوا له علماً في محفل غاص ، ووضعوا عليه جميع شارات الملك وعصبوه بالتأاج وقام واحد فقرأ على الملائكة سيرته فأخذوا عند كل نبذة ينزعون قطعة حتى جردوا النصب ، ثم لم يتنهوا حتى حطوه للارض ، وبايعوا الفونس ملكاً ، وجمهوروا حوله ، وحصروا بعض المدن فزحف اليهم انريك وناصره من الامراء والاعيان من احفظه عمل الثوار ولم

يحطب في حال الفوضى ، فالتقى الجمuan في ظاهر اولميدو وتناجزوا مناجزة الاصدادر، اذا ملأت صدورهم الاحداد وفصل كل من الفريقين مدعيا لنفسه النصر وال الصحيح انه لم يتعين لاحد. ولم تزل الثائرة حتى جاء ما لم يكن في الحسبان ، وهو وفاة الدون الفونس في ٥ تموز من أشهر عام ٦٨٦ بعد الاربععماة والالف فلما لم يجد الخوارج من يقدمونه عليهم جاؤوا مباعين الدونة ايزابلا أخت الملك ازريك ، فأبانت مزاحمة اخيها وذكرتهم بما عليهم من فروض الطاعة لمليكتهم ، الا أنها طالبت بحق الوراثة فلما عرض ذلك على الملك عده مغفنا بشرط دخول القوم في الطاعة وسكن الثوار على وثيقة استخلاف الدونة ايزابلا والغفو العام عنهم ورضي الملك بذلك واعتبرت الملكة داعية لابنتها التي تقدم خبرها فلم يسمع لها وحل وكيل البابا الامراء الذين أقسموا يمين الامانة لتلك البنت من عقدة اليمين .

فرديناند ملك اراغون وايزابلا ملكة قشتالة

وكانت ايزابلا جامعة بين جمال المنظر وجودة الادراك ، وأحسن منها انها وارثة ملك قشتالة فأخذ جميع ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها، الا ان اختيارها وقع على فرديناند ملك اراغون ومضت اليه رغمما عن اراده الكثرين من أعيان المملكة ، فالتقىا في وادي الوليد وتم عقد النكاح بينهما في سنة ٦٩.

فأحفظ ذلك المركيز دوفيلنه مستشار الملك ، فقام يسعى في ايجاد خطيب من الملوك لابنة الملك ، أملا بمنازعة ايزابلا الوراثة فمالوا أولا الى ملك البرتغال ، ثم أبزوا الدوق دوغويان واحتفلوا بالخطبة لكن سفراء الدوق اشترطوا على الملكة ان تحلف على رؤوس الاشهاد بأن هذه الفتاة هي ابنة الملك ازريك وعليه أيضا ان يحلف بأنه أبوها ، ففعلا ومع ذلك بقي الخطيب مشتبها ، حتى انه لم يهجم على النكاح . وأخطبوها لامير آخر اسمه الدون ازريك ، ثم لسوء ملكته كره الملك تزويجها منه فبقيت بدون عرس الى ما بعد مهلك الدون ازريك الذي وقع في ١٢ كانون الاول سنة ٧٤ .

فانتقل الملك الى ايزابلا زوجة فرديناند ، وفي أوائل الامر كاد يقع بين الزوجين الشقاق لكون فرديناند يزعم انه هو الملك الوحيد لانه لا يوجد رجل سواه من سلالة الدون انريك دوتراستامار، وايزابلا تزعم ان انتقال الامر الى النساء معروفة في عادات مملكة قشتالة وهي أقرب وارث الى آخر ملك ، فلها الحق وحدها في الملك ، وحكم الزوجان من يفصل الخطاب فحكموا على الملك فرديناند فأجمع الرحلة عائداً الى أراغون فحينئذ أخذت ايزابلا تقدم له البراهين مقرونة بالرجاء بان دعواها هذه ضرورية لمصلحة ابنتهما اذ لوفرض انهما لم يرزقا ذكراً وكان حق المرأة ساقطا في الامارة لزم ان يتنتقل ذلك الى زوجها الذي يكون أجنبياً فيكون قد اسقط ابنته من حقها ، ثم وعدته بانها تحكم وإياه بدون أن تخالفه الى شيء ، وانها تقدم اسمه على اسمها في الاوامر لكن لها وحدها الحق في نصب الحكام والولاة ، وهكذا مضى الامر وطال الرفاء بينهما وتم ما تم على يديهما فكانت شدة التحامهما سبباً لانسلاخ الاندلس عن بلاد الاسلام .

وكان المركيز دوفيلنه قد مات وخلفه ابنه وارثاً عداوة ايزابلا من أبيه فتحرك مع الدون الفونس كاريلو رئيس أساقفة طليطلة لأجل مناصبة الملكة وزوجها ، وأغرياً ملك البرتغال بالاقتران بالدونة جويانة المشكوك في نسبها ، فأطاعهما ومع كونها ابنة شقيقته أقدم على ذلك ملتمساً من البابا الاسعاف في سؤله ، وخطبها ودخل مملكة قشتالة داعياً لنفسه ، فاعصوصب حوله أضداد الملكين ، وكشرت الفتنة عن نابها وكثير العيث وحوصرت المدن وضيق فرديناند على قلعة زامورا ونهد الى صاحب البرتغال بقرب ثورو فانكشف البرتغال ، وقتل منهم جم وافر وسلمت قلعة زامورا وذهب ملك البرتغال مستصرخاً لوييس الحادي عشر صاحب فرنسا ، فلم يصرخه وخذله أحزاب خطيبته ، وراجع البابا نفسه في الرخصة التي أعطاها في شأن زواجه بابنة أخيه وقال انها كانت على غير ترو فنسخها بمنع لاحق ، ورأى تلك المسكينة أن زواجه من أحد أصبح عسيراً ، وان نسبها الى الملك انريك أصبح مسألة خلافية ، والقائمون بنصرتها قليلون فتبتلت راهبة في دير سانت كليردو قويمبرة وكانت تلقب بالبلتراينجه .

وكان يكثر في ممالك إسبانيا لذلك العهد اللصوص وقطع السوابيل ، وقلما تخلو كورة من عيщهم وفسادهم ، وربما كان بعض أمراء البلاد يد في امدادهم ، فوجه فرديناند وايزابلا عزمهما لاستئصال اللصوص ونظموا عسكراً خاصاً لتأثيرهم وقطع دابرهم ، وسمياه هرمانداد وخصصا له مالا معينا ، وعقدا عليه للدون الفونس أخي فرديناند من حظية أبيه ، فجرى في أثر اللصوص ونكل بهم في كل سهل وجبل حتى لم يبق من هذه الدعاارة إلا القليل .

وفي هاتيك المدة هلك الدون جويان الثاني ملك أراغون ، وتولى مكانه ابنه فرديناند الكاثوليكي ، فضم أراغون وبلينسية وكاتالونية وصقلية وميرقة إلى قشتالة ، في بينما كانت ممالك النصرانية العظيمة تتحدى في تلك الأقطار كانت مملكة الاسلام الوحيدة فيها تزداد فتقا على فتق ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .



الفَصْلُ الْخَامِسُ

في ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطن الامم المتناظرة ، وموافق الاقران من حماة الاقوام المبارزة ، وكماه الشعوب المتحاجزة ، ومقامات صدق المجاهدين ، ومظان النخوة الجائشة بالرؤوس للذب عن العرض والدين ، ومنذ ظهرت دولة الاسلام بما شرع فيها من الجهاد لم تبرح مرابطة الثغور ، ومحافظة الدروب ، وبعواث الصوائف ، من اركان الملة وقواعد الدولة وأعمدة سرادق الخلافة ، يتنافس في الوفاء بها والقيام عليها الاطول يداً ، والأبعد همّاً، والاشد عزمه ، والارخي في المجد غاية ، من خلائق الاسلام وسلطانيه وأمراء التوحيد وأساطينه ، ممن رفعوا في تعزيز الملة واجابة داعي الجنة شأن الجهاد ، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد ، فان كان للاسلام لواء خافق فوق رؤوس بنيه فهو بقية ما عقد بأيدي الغزاة والمجاهدين ، وان كان تحت أقدامهم موقع للامتناع فهي نتيجة موقع السيف من رقب المناهدين . ولما كانت الجزيرة الاندلسية - بموقعاها من الاتصال ببر العدوة الاوروبية ، والموازاة لبر العدوة المغربية ، غير منفصلة عنه الا ببحر الزقاق الذي يتراءى الساحل من وزائه - تعد ثغر الثغور بين البرين الكبيرين ، وموطن الرباط ومعترك الثقاف من العنصرين العظيمين ، استمر الجهاد فيها ثمانمائة سنة ونيف بين حماة الحنفية والنصرانية منازعة الارض بالشبر ، فاذ كان الاسلام هناك في عنجهيته والعرب تترامي الى الاندلس للاعتمار من جميع الاقطار ، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج

وأجفلت هذه بين أيديهم ، وانهزمت من أوجههم ، وانتظمت دولة بنى أمية في ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نصارة وأكمل عزًا وأبعد في العدو مغاراً ، مضت على الاسلام في الأندلس فرون كفت فيها نفسيها مونة الجهاد، وقادت وحدها في وجه العدو الذي كان قد انضم بعد التخاذل واستمسك بعد الاسترسال ، الى ان انقرض حبل الخلافة المروانية ، وتشعبت الكلمة وصار الامر الى ملوك الطوائف ، فاستأسد الفرنج ، واقتسموا ثغور المسلمين ، وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي ، فاستصرخ هؤلاء اخوانهم من وراء البحر بحسب الانقطاع في تلك الجزيرة ، فوافهم مدد المرابطين من بنى لمتونة ، واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب ، فرمى اليه بأفلاذ أكباده من زناتة وصنهاجة وغيرهما ، وأجاز الى الاندلس بجحافله ، فرد عادية النصارى ، واسترجع كثيراً من القواعد ، ولم يلبث ان تأذن الله بانقراض أمد تلك الدولة وقيام دولة الموحدين بنى عبد المؤمن ، فاقتدوا بسلفهم في الجهاد ، وأجازوا الى الاندلس على ظمآن اهلها لتجدهم ، فصدموه تقدم العدو ، وفلوا غربه ، ولم يسعد الاسلام الحظ بطول انتظامهم ، وامتداد التائهم ، فخامر دولتهم الضعف ، واستولى عليها الانقسام ، وظهر في عقبها الفشل ، وجاءت وقعة العقاب لعهد الناصر من امرائهم الطامة الكبرى على الاسلام فلم تقم له بعدها قائمة تحمد فيما وراء البحر ، وانحل أهله أمام العدو المتقدم الى سيف البحر ، وحشروا في مملكة ابن نصر الذي ضم شملهم في غرناطة وجوارها ، ورأى المسلمين أن الامر كاد يفلت من ايديهم وأن متزلمهم هناك أصبح قلعة ، وأن زيالهم لتلك الديار أضحي قريب الاجل ، كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم كقول أبي البقاء الرندي :

قواعدٌ كُنَّ أركانَ الْبَلَادِ فَمَا عَسَى الْبَقاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانٌ

وكقول غيره :

حُثُوا رواحِلُكُمْ يَا أَهْلَ اندلسٍ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
 الشَّوْبُ يَنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ثُوبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولًا مِنَ الْوَسْطِ

ملاة موسى بن نصیر مع طارق بن زید بارض طبلطة



وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير من جملة نصيحته لولاده : « ومن رزق منكم ملا بهذا الوطن القلق المهد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتتاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال امام التوب الثقال ». .

عامر بن ادريس والاعياص من بني مرین

ولما ضعفت حامية الاندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن ، وضاقت مسالك المسلمين في الجزيرة ، وتسامع بذلك أهل المغرب ، نفروا للجهاد ، وسابق التي ذلك الامير أبو زكريا بن أبي حفص صاحب افريقية ، فأمدتهم بالمال والرجال ، واعطوه بيعتهم ، ولما قامت دولة بني مرین ، واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق ، واستبد بسلطنة المغرب ، وكان عظيم الاستعداد في نفسه لاحراز تلك المثوبة وبلغ هاتيك الرتبة ؛ وأهمه شأن ابن أخيه ادريس بن عبد الحق لما وقع بينهما من المنافسة ، واستأنفه عامر بن ادريس في الجهاد ، اغتنم هذه الفرصة وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناته ، وأجاز معه رحوان بن عميه ابن عبد الله بن عبد الحق ، فكان لهم في الاندلس مقام كريم في الجهاد ، ثم صارت الاجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب المنافسين في الملك والمزاحمين في الدولة ، اغتناما للاجر والذكر ، وتوسلا الى قطع أسباب المنافسة بالغربة والانقطاع وهؤلاء مثل ابناء عم الملوك من بني مرین الملقبين بالاعياص^(۱) ومثل عبد الملك يغمراسن بن زيان وعامر بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد بن عبد القوي ، فامتلاط الاندلس بأقىال زناته واعياصهم ، وكان منهن أجاز معهم بنو عيسى بن يحيى بن وسنان بن عبو بن أبي بكر بن حمامه ، ومنهم سليمان وابراهيم اللذان كرم مقامهما في الرباط ، ثم أجاز موسى بن رحون عبد الله مع

(۱) اعياص مفردها عيص : الاصل والشجر الكثير الملتئف الاصول او جماعة الشجر ذي الشوك او ما اجتمع وتدانى والتفر من العضة او عالي الشجر او مبت خيار الشجر او اصوله . والاعياص في قريش : أولاد امية بن عبد شمس الاربعة .

أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق ، فولاه السلطان ابن الأحمر رئاسة الغزاة والمجاهدين ، ثم انصرف إلى المغرب ، فولى مكانه أخيه عبد الحق ، ثم انصرف فولى مكانه إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وستاف ، ثم رجعا فرجعت امارة الغزاة إلى موسى ، وبقي فيها إلى أن هلك ، فوليها أخيه عبد الحق إلى أن هلك سنة ٦٧٩ ، فولتها ابنه حمو بن عبد الحق بن رحو . وفي تلك المدة خرج عبد الحق بن عثمان من ولد محمد بن عبد الحق ثانية الامراء علىبني مرين على السلطان أبي الربيع المريني ، وأجاز إلى الاندلس لعهد سلطانها أبي الجيوش بن محمد الفقيه ، وخطاب ملك المغرب سلطان غرناطة في اعتقاله ، فقبض هذا عليه ففر من السجن لاحقاً بالطاغية ، وعند ما ثار أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ، ودعا لنفسه ، وبويغ بمالقة ، ووقعت الحرب بينه وبين ابن عمته سلطان غرناطة ، واخذ فيها حمو بن عبد الحق أسيراً ، وسيق إلى أبي الوليد أطلق سراحه اكراماً لعمه أبي العباس بن رحو ، فرجع إلى سلطانه ، فارتبا به وولي مشيخة الغزاة عبد الحق بن عثمان فاستدعاه من دار الحرب ثم ارتحل هذا إلى إفريقيا ، إلى أن قتل في تلمسان .

عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة

ولما انتزى أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر على ابن عمته صاحب غرناطة كان شيخ زناته بسالقة عثمان بن أبي العلاء من آل عبد الحق ، فانتصر به أبو الوليد على ابن عمته ، ولما استتب له الامر عقد له على الغزاة من زناته ، وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان فلحق بوادي آش مع السلطان أبي الجيوش ، وصار حمو بن عبد الحق بن رحو من جملة عثمان بن أبي العلاء بعد ان كانت الرئاسة له، وبعده صيت ابن أبي العلاء ، واستفحلا أمره وعلت رايته ، وأتاح الله لل المسلمين من النصر على يده ما لم يتوقعوه ، ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة وبويغ ابنه صبياً لنظر الوزير ابن المحروق ، استبد عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة ، فوقعت الفتنة بينه وبين

الوزير ، ونصب الوزير له كفؤاً من ذوي قرباه يحيى بن عمر بن رحو ، وارتحل عثمان ، وبقي الى أن استبد بالامر السلطان محمد بن الاحمر ، ونكب ابن الحروق ، فاستدعي عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين ، ومات لسبع وثلاثين سنة من امارته عليهم وكان مكتوباً على قبره هكذا :

« هذا قبر شيخ الحماة وصدر الابطال والكماء ، واحد الجلالات ، ليث الاقدام والبسالة ، علم الاعلام ، حامي ذمار الاسلام ، صاحب الكتائب المنصورة ، والافعال المشهورة ، والمعازى المسطورة ، امام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيف ، سيف الجهاد ، قاصم الاعداد ، وأسد الأساد ، العالى الهمم ، الثابت القدم ، الهمام المجاهد ، البطل الارضى ، الباسل الامضى ، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ، ابن الشيخ الجليل ، الهمام الكبير ، الاصليل الشهير ، المقدس المرحوم ، أبي العلاء ادريس بن عبدالله بن عبد الحق . كان عمره ثمانية وثمانين سنة ، انفقه ما بين روحه في سبيل الله وغدوة ، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة » الى آخر ما هنالك .

رئاسة الغزاة بعد عثمان بن أبي العلاء

وقام برئاسة الغزاة بعد عثمان الغازي هذا ابنه أبو ثابت عامر ، وكثرت عصابته ، واشتدت وطأته ، حتى استبد على ابن الاحمر هو وقومه ، وهم الذين قتلوا بعد رجوعه فائزاً من جبل الفتح بعد أن قتلوا عاصماً خادمه ، وبايعوا أخاه يوسف قبلها منهم ، لكن على حذر في الباطن ، فلما واجه السلطان أبو الحسن ابن مرين عزائمه الى الجهاد ، ددخل ابن الاحمر في ازاحة الغزاة هؤلاء عن الاندلس ، فأجابه ، وقبض على أبي ثابت أميرهم واخوه ادريس ومنصور وسلطان ، وفر أخوه سليمان فلحق بالطاغية ثم غربهم سلطان الاندلس الى افريقية ، وأعاد اماراة الغزاة الى يحيى بن عمر بن رحو ، فكرم في الجهاد مقامه ، وحمدت آثاره ، وبقي فيها الى أن هلك السلطان أبو الحجاج بن الاحمر وقام بالامر ولده محمد ، وأخذ له البيعة الحاجب رضوان ، فقاسم يحيى بن عمر هذا

في الشأن ، وشارك في الدولة ، فلما انتزى الرئيس أبو سعيد قائماً بدعوة ابن عمه اسماعيل أخي السلطان ، واغتصبوا منه الملك حسبما تقدم ، وأجاز إلى المغرب مستجيراً بالسلطان أبي سالم بن مرين و معه وزير ابن الخطيب ، وقتلوا الحاجب رضوان ، لم يتقو بيهي بن عمر ، فاستدعوا لامارة الغزاوة ادريس بن عثمان بن أبي العلاء ، وكان ببرشلونة ، فخف وانهزم يحيى إلى دار الحرب ، ثم ترك فيها ابنه ، وأجاز إلى سلطان المغرب لاحقاً بالسلطان محمد المخلوع ، فبقي في صحبته إلى أن قيس الله له الرجوع على يد أبي سالم والطاغية ، فرجع يحيى إلى امارة الغزاوة وخلطه السلطان بنفسه ، وبقي على حاله إلى أن وقعت المنافسة بينه وبين ابن الخطيب الوزير ، فأغرى السلطان به وبقومه ، فأشخاصهم إلى المشرق ، فركب يحيى إلى الاسكندرية ، ثم عاد إلى المغرب ، وعاد بعض ولده إلى الاندلس غزاة على عادتهم .

وأما ادريس ففر بعد رجوع المخلوع مع الرئيس أبي سعيد إلى الطاغية باشبيلية ، فلما غدر الطاغية بأبي سعيد حسبما تقدم الخبر ، أودع ادريس السجن ، فلم يزل فيه حتى تحيل للخلاص بمداخلة أسير مسلم ، فلحق بأرض الإسلام ، واتبعوه فلم يدركوه ، وجاء إلى السلطان محمد المخلوع ، فأكرمه واستأذنه في اللحاق بالمغرب ، فأسعفه ، وآل أمره إلى الاعتقال في أيام السلطان عبد العزيز بن مرين ، وقتل خنقاً بمحبسه ، وتولى امارة الغزاوة بالandalس علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق ، وآثره ابن الأحمر أبو الحجاج لممانعته دونه ليلة لحاقه بوادي آش مفلتاً من شرك النكبة بالحرماء كما سبق به النبأ ، فاستمر في رئاسته هذه إلى أن توفي حتف أنفه سنة ٧٦٨ .

سلطان الاندلس يباشر الغزو بنفسه بعد انتهاء امر الغزاوة فيها

وقام برئاسة الغزاوة بعده الأمير عبد الرحمن بن علي بن يغلوسن ابن السلطان أبي علي ، قلده ايها سلطان الاندلس لقرب نسبه من سلطان المغرب ، وكون

هذه الخطة مخصوصة بأعياص بن مرین كما قدمنا ، فأهم ذلك صاحب المغرب لما خشي من عاقبة الترسیح ، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطیب مراسلات سرية فأفضی اليه بمیله الى الاسداد ما بين سلطان غرناطة وأمیر زناتة في الاندلس ، فاشتغل ابن الخطیب ذلك طبق خاطره ، حتى حمل سلطانه على اعتقال الامیر عبد الرحمن وبطانته ، فألقاهم في السجن ، واسترضی بذلك سلطان المغرب ، فلما نزع ابن الخطیب الى هذا السلطان ، وتبين لابن الاحمر احتیاله في شأنهم ، أطلق سبیلهم وجهز لهم الاسطول فأجازوا الى العدوة منازعین في الملك ، واستبد الامیر عبد الرحمن بقسم من أعمالها ، وعفا رسم هذه الخطة من الاندلس ، وصار سلطانها يباشر أمور الغزو بنفسه ، وربما عقد على الغزاة لأحد أولاده ، وكان محو هذه الخطة من الجزیرة لسنة ٧٨٣ ، وأكثر السبب استبداد امراء الغزاة أبناء عم الملوك على سلاطین بنی الاحمر ومقاستمهم إیاهم الجباریات للتفريق على الجند ، ومع هذا فقد احتملوا داللهم مدة مدیدة لمقامهم في الجهاد وأثراهم في دفع العدو ، وأخيراً لما ضاقوا بهم ذرعاً رأوا الاحرز تحويل هذا الرسم الى أبنائهم ، فقلد محمد الغنی بالله بن الاحمر ولده الامیر يوسف مشيخة الغزاة .

لسان الدين بن الخطیب ورسم امارة الغزاة

وفي هذا التقليد يقول لسان الدين بن الخطیب : « هذا ظهیر کریم فاتح بنشر الالویة والبنود ، وقود العساکر والجنود ، واجال في میدان الوجود ، جیاد البأس والجود ، واضفی ستر الحماية والوقایة بالتهائم والنجد ، على الطائفین والعاكفین والركع السجود ، عقد للمعتمد به عقد التشریف والقدر المنیف زاکی الشهود ، وواجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهدود ، وبشر السیوف في الغمود ، وأنشا ریح النصر آمنة من الخمود ، أمضی أحکامه ، وانهد العز وأمامه ، وفتح عن زهر السرور والجبور أکمامه ، أمیر المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمیر المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمیر المسلمين أبي الولید بن فرج بن نصر أید الله تعالى أمره ، وخلد ذکرہ ، لکبیر ولدہ ، وسابق أمدہ وریحانة

خلده ، وياقوته الملك على يده الامير الكبير ، الطاهر الظاهر الاعلى ؛ واسطة السلك وهلال سماء الملك ، ومصباح الظلم الحلك ، ومظنة العناية الالهية من مدير الفلك ومجري الفلك ، عنوان سعده ، وحسام نصره وعنصره ، وسمى جده وسلامة فضله ومجداته ، السعيد المظفر الهمام الاعلى الامضى ، العالم العامل الارضى ، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج يوسف أبى الله تعالى من رضاه عنه حلا لا تخلق جدتها الأيام ، ولا تبلغ كنهها الافهم ، وبلغه في خدمته المبالغ التي يسر بها الاسلام » .

الى أن يقول : « رأى والله الكفيل لنجح رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعايه ، أن يجهد لهم اختياره ، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنيب فيما بينه وبين سيف جهاده ، وابطال جلاده ، وحمة أحوازه ، وآلات اعتزاره ، من يجري مجرى نفسه النفيسة في كل مني ، ويكون له لفظ الولاية وله أيده الله تعالى المعنى ، فقدمه على الجماعة الاولى كبرى الكتائب ، ومقادة الجنائب ، وأجمة الابطال ، وزنة الودق الهمال ، المشتملة من الغزا على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام ، واعلام الاسلام ، وسائل قبائلبني مرين ، ليوث العرين ، وغيرهم من أصناف القبائل ؟ وأولي الوسائل ، ليحوط جماعتهم ، ويستخلص لله تعالى ولابيه أيده الله تعالى طاعتهم ، ويشرف بأمارته مواكبهم ، ويزين بهلاله الناهض الى الابدار على فلك سعادة القدر كواكبهم ، تقديمًا أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل ، واحس باقتراب ما أمل ، فلليلخيل اختيار ومراوح وللاسل السمر اهتزاز وارتياح ، وللتصدور انشارح ، وللأمال معدى في فضل الله تعالى ورواح ، فليتول ذلك أسعده الله تعالى تولي مثله منمن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربي محتد لطيب طبعه » الخ ...

وقال في تقليد الامير سعد أخي الامير يوسف : « هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعقد منه في سبيل الله تعالى لواء منصوراً ، وأعطى المعتمد به باليمن كتاباً منشوراً ، ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ واطلع صبح العناية

المبصرة الآية يبهر سفوراً ويسطع نوراً ، وأقر عيوناً للمسلمين وشرح صدوراً ، ووعد الاهلة أن تصير بامداد شمس الهدى اياها بدوراً ، وبشر الاسلام بالنصر المنتظر والفتح الرائق الغرر مواسط وثغوراً ؛ واتبع حماة الدين لواء الامارة السعيدة النصرية ، فأسعد بها أمراً وأكرم بها مأموراً ، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه امير المسلمين عبد الله محمد ابن امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الوليد بن فرج بن نصر ، اعلى الله رايته وسدد رأيه ، وشكر عن الاسلام والمسلمين سعيه ، لفترة عينه ، ومقتضي حقه من العدو ودينه ، وغضن دوحة ، وآية لوحه ، ودرة قلادته ، ودرى افلاك مجادته ، وسيف نصره ، وهلال قصره ، ولده الاسعد ، وسليل ملكه المؤيد :

الى ان يقول :

« حامي الحمى تحت ظل طاعته ، وكافي الاسلام الذي يؤمن من اصواته ، المحرز مزايا الاعمار الطويلة ، حظ الشهر في يومه ، وحظ اليوم في ساعته ، المؤقر المهيوب المؤمل المعلم ابي النصر سعد ، عرفه الله تعالى ببركة سعد بن عبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعظم مجداته ، وزيره في حله وعقده ، واجتاه ثمرة النصر الذي كناه به ، ووصل سببه بسببه ، فما النصر إلا من عنده » .

الى ان يقول : « اختار لقيادة مغانيه المنصورة ، واماارة غزواته المبرورة ، اقرب الناس الى نفسه نسبا ، واوصلهم به سببا ، واحقهم بالرتب المنيفة ، والمظاهر الشريفة ذاتا وأبا ، وصرف اليه آماله واستعمل في أستنه يمينه وفي اعتنه شماليه ، وعقد عليه أولويته الخافقة لعزه نصره ، ورأى الظهور على اداء الله تعالى جنى فهياه لهصره ، ودار هالة قتام الجهد عن قرب بالولادة على بدراه ، ونبه نفوس المسلمين على جلالة قدره ، وقدمه على الكتبية الثانية من عسكر الغزاة ، المشتملة على الاشياخ من اولاد يعقوب كبار بنى مرين ، وسائل قبائلهم المكرمين » الخ . . .

رسائل لسان الدين بن الخطيب الى ملوك العدوة

وكان رسائلبني الاحمر الى ملوك العدوة تترى بالنفير والاستنجاد كلما بدأ للعدو كرها ، وأجلها ما كتب بقلم لسان الدين بن الخطيب أيام وزارته نقل منها بعض الجمل إجمالاً لمعنى الحالة ، وتأثير بعض الفقر الدالة على فقر الاندلس الى المغرب كلما أمعن العدو في الاستطالة ، فمن ذلك ما كتبه من كتاب على لسان سلطانه الى ابن مرین :

« ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الاقوات المهيأة للانتساف ، ويسكن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الارجاف ، ونفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف ، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته ، حتى يظهر الله تعالى في نصر الفتة القليلة آيته ، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أردناه ، وشموخ الانف فيما أصدرناه ، الا ما أشعنا من عزكم على نصرة الاسلام ، وارتقاء خ فوق الاعلام ، والنهوض الى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وان الارض حمية الله تعالى قد اهتزت ، والنفرة قد غلت النفوس واستفزت ، واستظهروا بكتبكم التي تضمنت ضرب المواعد وشررت عن السواعد ، وان الخيل قد أطلقت الى الجهاد في سبيل الله الاعنة ، والثانيا سدتها بروق الاسنة ، وفرضت الجهاد قد قام به المؤمنون ، والاموال قد سمح بها المسلمين ، وهذه الامور التي تمشت بقريها أو بعيدها أحوال الاسلام ، والاماني المعدة لتزجية الايام ، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان من خور العزائم المؤمنة بعد كورها ، وتسويف مواعيد النصرة بعد استشعار فورها ، وان الحركة معملة الى مراکش الجهة التي في يديكم زمامها ، واليكم وان تراخي الطول ترجع أحکامها ، والقطر الذي لا يفوتك مع الغفلة ، ولا يعجزكم عن الصولة ، ولا يطلبكم ان ترکتموه ، ولا يمكنكم ان طرقتموه وعرکتموه ، فسقط في الايدي الممدودة ، واحتللت المواعد المحدودة ، وخسئت الابصار المرتقبة ، ورجفت المعامل الاشبة ، وساقتطنون ، وذرفت العيون ، وأكذب الفضلاء الخبر ، ونفوا أن يعتبر ، وقالوا هذا لا

يمكن حيث الدين الحنيف ، والملك المنيف ، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم ، وحمل النصيحة أعنائهم ، هذا المفترض الذي يبعد ، والقائم الذي يقعد ، يأباء الله تعالى والاسلام ، وتتاباه العلماء الاعلام ، وتتاباه الماذن والمنابر ، وتتاباه الهمم والاکابر ، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبی الذي اذا كان باطلا فهو الظن ، والله المن ، وان كان خلافه لرأي ترجح ، وتنفق بقرب الملك وتتجه ، فتحن نوقد كل من يقدم الى الله تعالى بهذا القطر في شفاعة ، ويمد اليه كف ضراعة ، ومن يوم بصلاح وعبادة ، ويقصد في الدين بث افاده ، يتطرحون عليكم في نقض ما ابرم ، ونسخ ما أحکم ، فانكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد ، وتحلون عليه ما عقد وهب العذر يقبل في عدم الاعانة وضرورة الاستعانة والاستكانة ، أي عذر يقبل الاطراح ، والاغراض الصراح كان الدين غير واحد ، كان هذا القطر لكلمة الاسلام جاحد ، كان ذمام الاسلام غير جامع ، كان الله غير راء ولا سامع » الخ . . .

ومن كتاب آخر في وصف ضيق المسلمين بالاندلس قوله « وإن تشوفتم الى احوال هذا القطر ومن به من المسلمين ، بمقتضى الدين المتيين والفضل المبين ، فاعلموا إننا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ونكابراً بحراً زخاراً ، ونتوقع - الا أن وقى الله تعالى - خطوبنا كباراً ونمد اليد الى الله تعالى انتصاراً ونلجم اليه اضطراراً ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعداداً به واستظهاراً ، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ اخطاراً ، وينشئ ريح روح الله طيبة معطاراً ، فإن القومس الاعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع ، ومخالفته لا تستطيع ، رمى هذه الامة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها ، ولا يحصى فريقها ، التفت على أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله ، وتبلغه أمله ، ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين ومناصبة هذا الدين واستئصال شأفة المؤمنين ، وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد ، ولا عرفها نجد ولا وهد ، وقد افتحمروا الحدود القريبة والله تعالى ولی هذه الامة الغريبة ، وقد جعلنا مقاليد امورنا بيد من يقوى الضعيف ، ويدرأ الخطب المخيف ، ورجونا أن تكون ممن قال الله تعالى

فِيهِمْ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعَمُ الْوَكِيلُ﴾ إِلَيْ آخرِ مَا قَالَ .

وله من جملة كتاب عن سلطانه الى سلطان المغرب في ذلك المقصد :
وليعلم مقامكم ، وهو من أصالة النظر غني عن الاعلام ، ولكن لابد من الاستراحة بالكلام ، والتنفث بنفثات الاقلام ، إننا إنما نجري امورنا مع هذا العدو الذي رمي بجواره ، وبلينا والحمد لله بمصادمة تiarه ، على تعداد أقطاره ، واتساع براريه ، وبخاره ، بأن تكون الامة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق واسواق النفاق غير ذات نفاق ، والجماهير تحت عهد من الله تعالى وميثاق ، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلفا منهما بالعدوتين عقد ، ووقع بينهما في قبول الطاعة رد ، ساعنا واقعه ، ، وعظمت لدينا مواقعه ، وسألنا بأن يتدارك الخرق راقعه ، لما نتوقعه من الشاغل عن نصرنا ، وتفرغ العدو الى ضرنا». الى آخر ما قال وانعم في المقال .
وله في مثل ذلك عن سلطانه الى أحد أولاد السلطان أبي الحسن المربي

فَيَلِ الْسُّلْطَانِ أَبِي فَارِسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَزِيزِ وَهُوَ فَوْلَهُ :

« ان هذا القطر الذي تعددت فيه المحاريب والمنابر والرا��ع والساجد والذاکر والعابد والعالم واللھیف والارملة والضعیف قد انقطع عنه أرفاد الاسلام ، وشحت الايدي به منذ اعوام ، وقویلت ضرائره بالاعذار ، والمواعید المستغرقة للاعمار ، وان عرضت شواغل وفتن وشواغب وإن ح فقد كانت بحیث لا يقطع السب بحملته ولا يذهب المعروف بكلیته .

ولَا بُدَّ مِنْ شَكُونَى إِلَى ذِي مَرْوَةِ يُؤَسِّيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ
وَلَوْ كَانَ الْأَشْغَابُ تَقْطَعُ الْمَعْرُوفَ ، وَتَصْرِفُ عَنِ الْوَاجِبِ ، لَمْ يَفْتَحْ
الْمَقْدِسُ وَالدَّكْمُ جَبَ الْفَتْحَ ، وَهُوَ مَنَازِلُ أَخَاهُ بِسْجُلْمَاسَةٍ وَلَا أَمْدَهُ وَلَدُهُ السُّلْطَانُ
أَبُو عَنَانُ وَهُوَ بِمَرَاكِشَ (إِلَى أَنْ يَقُولَ) وَلَا كَالْحَسْرَةِ فِي الْجَبَلِ بَابُ الْأَنْدَلُسِ ،
وَرَكَابُ الْجَهَادِ ، وَحَسْنَةُ بْنِي مَرِينَ ، وَمَاثَرُ آلِ يَعْقُوبَ ، وَكَرَامَةُ اللَّهِ لِلْسُّلْطَانِ
الْمَقْدِسِ أَبِي الْحَسْنِ وَالدَّمْلُوكَ ، وَكَبِيرُ الْخَلْفَاءِ وَالْمُجَاهِدِينَ وَالدَّكْمِ الَّذِي تَرَدَّ

على قبره مع الساعات والانفاس وفود الرحمة وهدايا الزلفة وريحان الجنة فلولا أنكم على علم من أحواله لشرحنا المجمل وشكّلنا المهمّل ، إنما هو اليوم شبح مائد وطلل بائد ، ولو لا أن الله تعالى شغل العدو عنه بفتنته ، لم يصرف وجهه إلا إليه ، ولا حوم طيره إلا عليه ، ولكن بصدق أن يتخدذه الصليب داراً ، وأن يقربه عيناً ، والعدوة فضلاً عن الاندلس قد أوسعها شرّاً ، وأرهق ما يجاوره عسراً ، نسأل الله أن لا يسود الوجوه بالفجع فيه ، ولا يسمع المسلمين الشكّلة ؟ إلى أن يقول :

« فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن ، حيث المآذن بذكر الله تملأ الأفاق ، وكلمة الإسلام قدّعمت الربي والوهاد إنما الإسلام غريق قد تشبت باهدابكم ، ينادكم الله في بقية الرمق ، وقبل الرمي تراش^(١) السهام ، وهذا أوان الاعتناء ، واختبار الحماة ، وأعداد الأقوات ، قبل أن يضيق المجال ، وتمنع الموانع ، وقد وجهاً هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم ، مقرراً الضرورة منها البرغبة مذكراً بما يقرب عند الله مذكراً للذمام الإسلام ، جالباً على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشري التي تشرح الصدور ، وتستبني الآمال ، وتستدعي الدعاء والثناء فالمؤمن كثير بأخيه ، ويد الله مع الجماعة ، والمسلمون يد على سواهم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والتعاون على البر والتقوى مشروع في الذكر الحكيم مذكور حق الجار مشهور وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب » إلى آخره . . .

تخاذل المسلمين عن إنجاد أخوانهم في الاندلس

وما زالت الاندلس تستجيشه بالغرب أوَانَ الضعف ، وملوك بني الاحمر يستصرخون ببني مرين من وراء البحر إلى المائة التاسعة حيث صار السائل لا يجد مجيناً ، والصارخ لا يسمع مليأً ، وتخاذل المسلمين عن النصرة ، وشغلوا في المغرب بشؤونهم الخاصة ، وفتنهم الناجمة عن مد اليد إلى أخوانهم في

(١) راش يريش ريشاً السهم : ركب عليه الريش

اسبانية ، بل انصرمت حبال آمالهم ببقاء ذلك القطر على الكلمة ، وأيقنوا أن سوف لا يقى أحد في ذلك البر من الامة المسلمة ، فصارت ترد عليهم الاخبار وهم ساهون ، وتحدهم الجالية والركبان بما خلفوا وراءهم من الفجائع والفظائع ، وهم لا هون ، وإذا ثار بأحدهم ثائر للجهاد لم يجد علماً ينضوي إليه ، ولا سندًا يعول عليه ، ولا جماعة يتنظم فيها . ذلك بما أصاب المغرب من افراق الكلمة وانحطاط الدول ، وتحول الاحوال الأول فلما سقطت الاندلس كانت اختها العدوة ناظرة إليها وهي تنشد :

ألا ربِّ يوْمٍ لَوْ رَمَّتْنِي رَمِّهَا وَلَكَنْ عَهْدِي بِالنِّضَالِ قَدِيمٌ

اوروبا تنجد الاسپانيویل وانشاء انظمة الفرسان لمحاربة المسلمين

وأما النصارى ففي بداية برازهم مع المسلمين في الجزيرة الاندلسية كانوا يستنجدون إخوانهم وراء جبال البيرانة ، فتحتف إلى صريخهم امم الفرنج والالمان والانكليز ، وربما نهض معهم امم اخرى من جميع أقطار النصرانية ولولا نجادات البر الكبير لأهل اسبانيا لتحولت الجزيرة باسرها الى الاسلام ، وكان الفاصل بين الفريقين جبال البيرانة ، بدل أن يكون بحر الزقاق ، كما أنه لو لا شارل مارتل المعروف عند العرب بقار له لسخر المسلمين قسماً من اوروبا ، وربما كانوا يصلوا الى القدسية العظمى من طريقها حسبما كان يتخيل موسى بن نصیر ، ولكن دول اوروبا خصوصاً مجاور منها اسبانيا كانت لا تضن على هذه البلاد بدم ولا مال في مدافعة المسلمين ، تخلصاً من غاراتهم الى ما وراء الجبال . وحصل لهم في قلب اوروبا وكان نصارى اسبانيا أنفسهم أهل شدة ومراس على الحرب ، وكان أمراؤهم عند القتال يجمعون من في اقطاعهم من المقاتلة ، وينضمون الى الملك ، وبقي هذا شأنهم الى أن علقت آمالهم باجلاء المسلمين عن البلاد ، ووجدوا في حالة الجندي من جهة المؤونة قصوراً عن ادراك المرام ، فرأوا انشاء مراقبة أشبه بمراقبة الاسلام ، لا شغل لها الا الصلاة والقتال وسبق

الى تحقيق هذه الوطأة الفونس الباتليور صاحب أراغون ، فأنشأ جندية سماها بنظام المخلص ، وجعل لها قوانين وعلامات ، وقاتل بستة آلاف من رجالها في غارته على بلاد المسلمين ، ثم ظهر نظام الفرسان الهيكليين الذي انشأ سنة ١١٩٩ فلم تمض بضع عشرة سنة حتى بلغ من القوة والاستفحال المبالغ التي لا تصح إلا للدول ، وسنة ١١٥٦ انشأ إثنان من أمراء الإسبانيول أحدهما اسمه سويرو والثاني غرمان نظام مار جولييان الأحاص ، وذلك لوكنهما بنيا حصنًا في مكان مخصص بمار جولييان فيه غيبة أجاص ، نزل لهما عنها مطران طلمنكة .

وسنة ١١٥٧ بعد وفاة الامبراطور الفونس السابع ، حينما جمع الموحدون عساكرهم لمنازلة طليطلة ، خارت عزائم الفرسان الهيكليين الذين في يدهم قلعة رباح ، فنزلوا عنها للدون سانشو أو شانجه الملقب بال媿وسف عليه فأعلن هذا الأمير أن من أراد من أمراء البلاد الدفاع عن قلعة رباح فهي له أقطاعاً بملحقاتها ، فلم ينهض أحد وبعثت الحمية راهباً من دير فيترو سمى فيما بعد مار ريموند وراها آخر اسمه دياغو فلسكيز فطاها في البلاد وبالغا في التحرير والنفير ، حتى جمعا عشرين ألف مقاتل في تلك القلعة ، وامتلأت ذخائر ، فأنشأ لهم ريموند نظاماً ، وقيدهم بروابط وسمى هذه الجنديه الدينية بنظام قلعة رباح ، وجاءها التثبت من البابا ، واستمسكت بقوانين مارينا ، وكانت علامتها الفارقة رداءً أبيض وقلنسوة مرسلة من الرأس على المنكبين ، وبعد ذلك صارت علامتها صليباً أحمر على الثياب ، وفي هاتيك المدة تألف نظام رهباني حربي آخر يقال له نظام مار يعقوب السيف ، وثبته البابا اسكندر الثالث ، وجعلت لاصحاته علامات فارقة في الثوب وشكل الصليب وغير ذلك ، وكانت مدينة القنطرة في يد فرسان قلعة رباح فأسلموها إلى فرسان مار يعقوب وصارت مركزاً لهم ، ومن هذه الفرق الرهبانية المرابطة أيضاً فرسان مار جرجس الفامه ، نظمهم الفونس الثاني ملك أراغون سنة ١٢٠١ في نواحي طرطوشة ، وسنة ١٣١٧ بعد استئصال الهيكليين تألف في مونتيزه من أراغون نظام آخر باسم مار جرجس ، فانضم إليه النظام الأول وصارا واحداً وكان لكل نظام من هؤلاء رئيس اسمه المعلم أو الاستاذ

ورتبته أعلى الرتب ، ويتلوه القائد الكبير وينوب عنه اذا غاب ، ويتلوه الكلافرو ، وهو دهقان القوم المكلف بإدارة الاملاك وحفظ الاموال ، وكان في نظام مار يعقوب مجلس مؤلف من ثلاثة عشر أخاً لا يعقد ولا يحل المعلم بدون قرارهم .

رهانیات النصاری المرصدة لمجاهدة المسلمين

ووجد في اسبانيا نظام راهبات محاربات سمي بنظام سيدات الفأس ، وأصل تأسيسه ان المسلمين بعد أن خسروا طرطوشة كروا لاسترجاعها وحاميتها قليلة ، فكادت تسقط ، لولا ما قيل من أن النساء هجمن نحو الاسوار وبذلن أنفسهن حتى رددن العدو ، فتأسس من ذلك الوقت نظام جندية للنساء ، وسنة ١٣٧٩ قلد جويان الاول سيف الفروسية مائة شاب من أبناء الاعيان ، وأعطاهم وسام الحمامه ، وكان عقد الوسام عبارة عن سلسلة ذهب معلقة بها حمامه من الفضة في دائرة من الذهب ، وكان نذر أولئك الفرسان أن يكونوا أمناء لنسائهم .

وأما مقصد هذه الرهبانيات كلها فهو حرب المسلمين وغزوهم ، وقد وجد غير ما ذكرنا لكن هذه هي المشهورة ، وقد اتسعت سلطتها وانبسطت قوتها ، حتى صار يخشاها الملوك ، وأصبحت تستبد عليهم استبداد غزاة المغرب على ملوك غرناطة ، فلما تُل عرش غرناطة وتم مقصد فرديناند وايزابلا ، وأدى هؤلاء الفرسان خدمتهم ، عول الملك وامرأته على الغاء هذه النظمات ، ونال من البابا إينوسنتيوس الثامن أمراً بادارة هذه الرهبانيات ، وصارت منذ ذلك الحين الى نظر الملك .



الفَصْلُ السَّادِسُ

في سقوط غرناطة والجلاء الأخير

عودة الى ذكر بنى الاحمر فتنة الزغل

وصلنا في ذكر دولة بنى الاحمر الى أبي الحسن علي المتولى الملك بعد محمد بن اسماعيل ، والذي يفهم من بعض مؤرخي الفرنج انه هو ابنه البكر وفي (النفح) يقول «انه هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمد الغني بالله» ولا يذكر كيف أفضت اليه الامارة ، بل جل ما يقوله هنالك : «إن بنى الاحمر ملوك الاندلس الباقيه بعد استيلاء العدو على الجل ، كانوا في جهاد وبلاد في غالب أوقاتهم الى زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الاحمري ، واجتمعت الكلمة عليه بعد ان كان أخوه أبو عبدالله محمد ابن سعد المدعو بالزغل قد بويع بمالقة بعد ان جاء به بعض القواد من عند النصارى ، وبقي بمالقة برهة ، ثم ذهب الى أخيه أبي الحسن وانقضت الفتنة»

السلطان أبي الحسن علي بن الاحمر وال الحرب بينه وبين فرديناند وايزابيلا

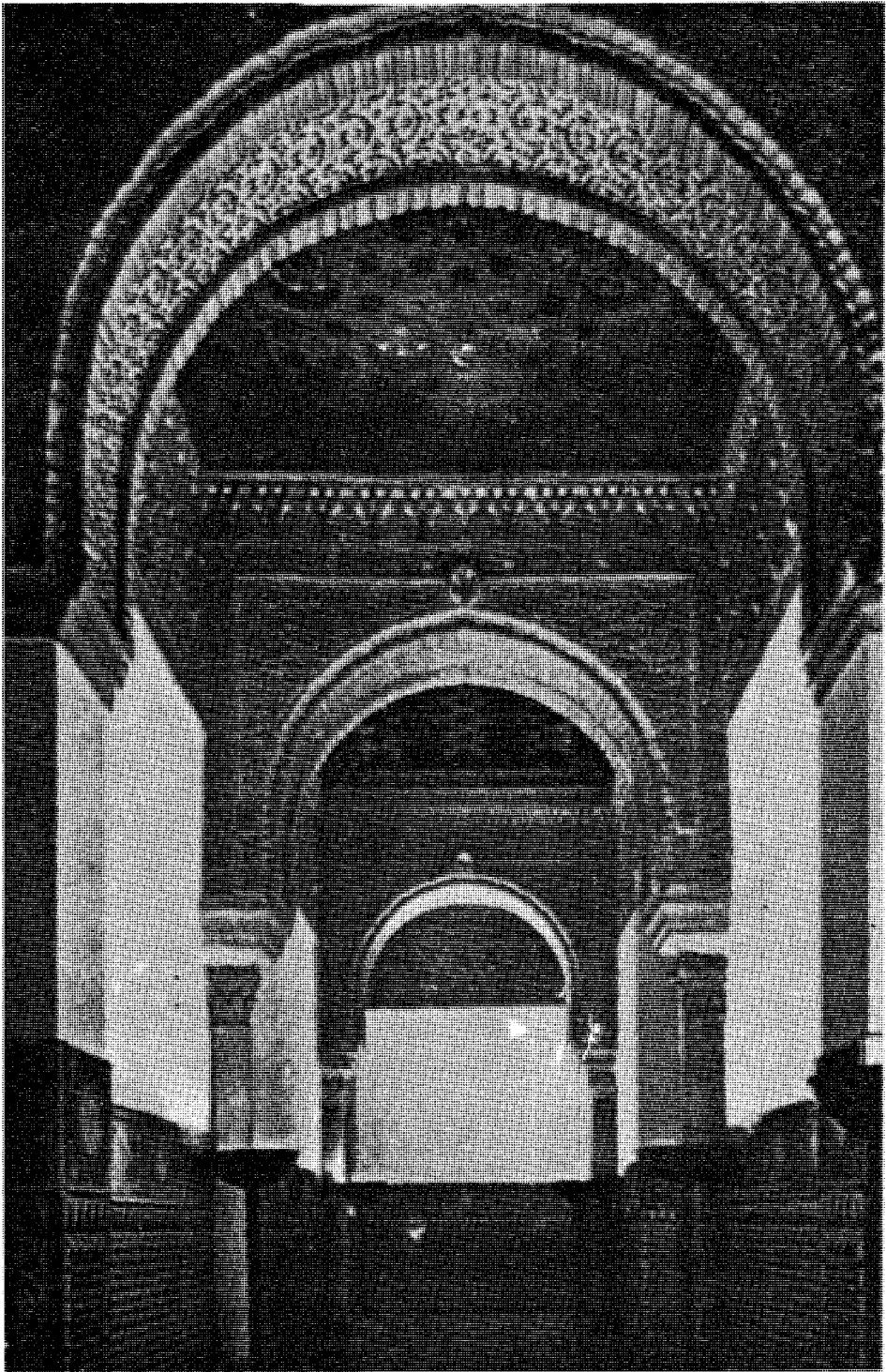
وقال مؤرخو الفرنج انه لما ثار الزغل على أخيه ، وسرح أخوه الجيش في أثره فر هذا الى الدون انريك ملك قشتالة ، فتجاوز أبو الحسن حدود بلاده ، وأغار على بلاد الاسپانيول لكن روى دوليون قائد التغور قابله بأخذ مدينة مونتيجيكار ، ثم مات الدون انريك ، وتولى فرديناند وايزابلا ، فراسلهما أبو الحسن في

المهادنة فقبلها على شريطة ان يعترف سلطان غرناطة بسيادة ملك قشتالة ، فأجاب سفراء ابن الاحمر انهم غير مفوضين بذلك ، فأشخص فرديناند وإيزابلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخصوص من صاحب غرناطة ، فلما عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن أبي قوله كل الاباء ، وقال لهم « اذهبا واخروا من أرسلكم ان الملوك الذين كانوا يؤدون الجزية قد ماتوا منذ طويل ، وان دار الضرب في غرناطة عادت لا تضرب فضة ولا ذهبا ، ولا تضرب الا سيوفا وحرابا ». وحيث كان فرديناند وإيزابلا مشغولين بحرب البرتغال احتملا منه هذا الجواب ، وأجلوا الانتقام منه الى وقت آخر .

واما أبو الحسن فافتتح الحرب على النصارى ، ودهم قلعة الصخرة التي كان الإسبانيون قد استولوا عليها في أيام فرناند الرشيد لما بلغه من ضعف حاميتها ، فسلقت عساكره أسوارها ليلا ووضعت السيف في الحامية ، وساقت البقية مقرنين في الأصفاد الى غرناطة ، وقف أبو الحسن ظافراً منصوراً الى حاضرته فخرج الاعيان لمقاتله ، ولكن عامة أهالي غرناطة بزعم مؤرخي الإسبانيون لم يحتفلوا بما صنعه أبو الحسن ؟ خصوصاً بسي النساء فأظهرروا الامتعاض ، وزعوا المأكل على الاسرى ، وقيل انه لما اجتمع الامراء والفقهاء ، لتهنئة السلطان بهذا الفتح ، اذا بصوت هائل ارتفع فيهم يقول الويل لغرناطة قد دنا أجلها ، إن انقضاض الصخرة ستقع على رؤوسنا ؛ فأرجف هذا الصوت جميع الحضور ، وتطلعوا فإذا بشيخ طاعن في السن من طبقة الدراويش قد خرج يطوف في الأسواق ناعقا بالخراب ولا ناعق الغراب ، حتى أجزع الجميع ، وتطير منه الرفع والوضع ، وأما أبو الحسن فعده من جملة الممسوين ولم يلتفت اليه .

حدود مملكة غرناطة وسكانها

وقال بعض أولئك المؤرخين أن مملكة غرناطة لعهد أبي الحسن كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبعين وتسعين قلعة عدا البراج والمحصون والقرى العاملة ، وورد في التاريخ العام للعلامة كثو الشهير: ان سلطنة



أقواس ولا عمدة داخل أحد القصور

غرناطة في تلك الايام كانت تحتوي ثلاثين مصرأً وثمانين مدينة صغيرة وعددا لا يحصى من الابراج والمحصون والدساكير ، وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الاندلس باربعة ملايين من النسم وقالوا ان السلطان أبي الحسن بن الااحمر دخلته الخيلاء وخامره العجب ببساطة سلطانه وكثرة جنوده ، ففي سنة ١٤٧٨ لما حضر الدون جان دوفيرا من فرسان فرديناند وإيزابلا ومعه جماعة يتلقاهم الجزية المعتادة من مولاي أبي الحسن احتفل السلطان بلقائه ، وظن في الاول انه قادم لمبارزة أحد فرسان المسلمين ، لما كانت جارية به العادة بين الفريقين من البراز والسبحال في ألعاب الفروسية أيام المواعدة ، فلما عرض له الامر أجابه الجواب السابق من أن الذين سبق لهم أن يؤدوا الجزية قد ماتوا والآن دار ضربنا عادت لا تضرب إلا نصالة وحرابا ، فلم يتمكن الملك وزوجته من جواب أبي الحسن إلا بعد ثلاثة سنوات لاستغلالهما بحرب البرتغال . وكان بين ملوك الاسلام والاسبانيوں عهد على أن لكل فريق أن يشن الغارة على أرض الفريق الآخر خفية بدون نشر بنود ولا قرع طبول بشرط أن لا تطول مدة غارته فوق ثلاثة أيام ، فعلم أبو الحسن أن قلعة الصخرة قليلة الحامة ، وهي قلعة أمنع من عقاب الجو ، مبنية على قنة جبل لها طريق واحد منحوت في الصخرة ، فقبل عيد الميلاد بأيام انتبه أهل الصخرة ليلا على صياغ «المغاربة» . المغاربة فدخلوا القلعة وقتلو الحراس وأسرموا من سلم ، وساقوهم الى غرناطة وجرى ما جرى .

وقال المقربي في شأن ملك هذا السلطان ما يأتي :

« واستقل السلطان أبو الحسن بما بقي من ملك المسلمين بالأندلس ، وجاهد الاعداء وافتتح عدة أماكن ، ولاحت له بارقة الكرة على العدو ، وخفافوه ، وطلبوها هدنته ، وكثرت جيوشه ، فأجتمع على عرضها بين يديه ، وأعد لذلك مجلسا اقيم له خارج الحمراء ، وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة ، ولم تزل الجنود تعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرم السنة التي تليها ، وهو يوم ختام العرض وكان معظم

المتنزهين بالسبورة وما قارب ذلك ؛ ببعث الله سيلا عرما على وادي حدرة بحجارة وماء غزير كافواه القرب عقابا من الله وتأديبا لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر ، واحتمل الوادي ما على حافتيه من حوانيت دور ومعاصر وفنادق وأسواق وقنطر وحدائق وبلغ تيار السيل الى رحبة الجامع الاعظم ، ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد ، وكان بين رؤساء الافرنج في ذلك الوقت اختلاف عظيم ، فبعضهم استقل بملك قرطبة ، وبعضهم باشبيلية وبعض بشريش ، وعلى ذلك كان السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات ، وركن الى الراحات وأضاع الاجناد وأسند الامر الى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورفض الجهاد ، والنظر في الملك ليقضي الله تعالى ما يشاء ، وكثرت المظالم والمغارم ، فانكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكان أيضا قد قتل كبار القواد ، وهو يظن أن النصارى لا يغرون البلاد ، ولا تنقضي بينهم الفتنة ، ولا ينقطع الفساد ، واتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها ، وانقاد لهرؤساء المخالفون ، ووجدت النصارى الطريق الى الاسفاد ، وذلك انه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوف وهما من بنت عميه السلطان أبي عبد الله الايسر وكان قد اصطفى على امهما رومية له منها بعض ذرية ، وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية ، فخيف أن يقدم أولاد الرومية على أولاد بنت عميه السنية ، وحدث بين خدام الدولة التنازع والتعصب لميل بعضهم الى أولاد الحرة وبعضهم الى أولاد الرومية وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمد حدوده وضربوه ، ولما تم أمد الصلح ، وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الاولاد ، وتشكي الناس مع ذلك بالوزراء والعمال لسوء ما عاملوا به الناس من الحيف والجور ، فلم يصح اليهم ، وكثير الخلاف واشتد الخطب ، وطلب الناس تأخير الوزير وتفاقم الامر « انتهى .

زوجتا أبي الحسن والفتنة

وورد في تواريخ الافرنج « أن السلطان أبي الحسن كان متزوجا بأمرأتين : احدهما ابنة عميه واسمها عائشة الحرة ، والثانية ثريا اسبانيولية اسلمت كان أبوها

قائد مرتوس وله من الاولى أبو عبدالله محمد ويلفظ في بلده بالتحفيف ، فيقال أبو عبدالله ، وحرفه الاسبانيول أبو عبديل ، ومن الثانية ولدان أحدهما سيدي يحيى الذي كان يريد أبوه أن يوليه عهده اكrama لوالدته الحظية ، وبهذه المناظرات انقسمت غرناطة الى قسمين وما قسم من الرؤساء والاعيان نحو الامير أبي عبدالله ، واشتدت الفتنة التي مصدرها النساء ، وفي خلالها ارتكب السلطان أبو الحسن الخطأ في منازلة الصخرة لوقوع الفرقة في مملكته » .

نكبة الحامة

«لما بلغ خبر أحد الصخرة الملك فرديناند جزع جزع شديداً ؛ وأعمل في النفير ، وجمع مقاتلة الشغور ، وبث الرهابين في جميع الأقطار يستنفرون فرسان النصرانية لقتال الاسلام ، فأول من لبى الدعوة بدون لذریق بونس ليون الملقب بمرکيز قادس ، وكان له في الاندلس أراضٌ واسعة ، وحصون عديدة ، وعنه مقاتلة كثيرة ، فأجمع الغارة وبلغه ان قلعة الحامة قليلة الحراس ، فارسل من جماعته رجلا حاذقا مقداما دربا باقتحام الشغور خيرا بتسليق الجدران اسمه اورتغادو برادو فر ، ادله في نواحي الحامة بليلة مدهمة وطاف حول الاسوار ، وصعد القلعة وعين مكان وضع السالم ، وعاد مخبرا ، مولا بهما شهد ، فجمع هذا اصحابه وساروا في ثلاثة آلاف فارس واربعة آلاف ماش ، وكانوا في النهار يكمنون ، وفي الليل يسرoron بدون جلبة ولا ضوضاء ، حتى وافوا الحامة قبل انبلاج الفجر بساعتين ، فسار اورتغا بثلاثمائة مقاتل وثلاثين من حملة السالم الى جانب القلعة فسلقوها بدون عائق ، وقتلوا بعض الحراس ، وارتقت الصيحة وملكت القلعة ، لكن أهل المدينة وان كانوا في الاغلب تجارا وصناعا فقد كانوا ذوي حفاظ وشدة بأس وبصائر في الحرب كسائر المغاربة فرشقوا المحاصرين بالنبال والحجارة وحملوا على القلعة فضيقوا عليها حتى خاف الاسپانيول أن يسترجعوها منهم ، وتشاوروا في حرقها ، والخروج منها فنهاهم المرکيز عن ذلك وحرضهم على الثبات ، واستحر القتل بين الفريقين ، وقاتل أهل الحامة نساء

ورجالاً صغاراً وكباراً قتال الاسود عن أشبالها ، لكن العدو تغلب عليهم فقتل
بعضًا وأسر بعضاً ونهب البلدة ودمراها تدميراً .

وأسرع فارس مغربي الى الحمراء يخبر السلطان أن النصارى قد دهموا تلك
الليلة قلعة الحامة ، وحدث عراك شديد على الاسوار وانه عندما فارق المدينة
كانت القلعة في يد النصارى فأرسل من غرناطة الف فارس لاجل المشارفة
 واستقصاء الخبر فوجدوا العدو قد تسلم القلعة والبلدة ، فزحف السلطان أبو
الحسن بثلاثة آلاف فارس وخمسين الف راجل ولم يستأن ريثما يجهز جيشه
 بالمدافع والعدة ، وكان للمركيز صاحب هو الدون الوزرو القرطبي قدم لنصرة
 صاحبه ، فلما أحس بقدوم أبي الحسن فرًا الى الناقرة ، فلم يتعقبه السلطان ،
 وظل قاصداً الحامة ، وحضرها من كل جهة وركز الاعلام حواليها ، لكن حيث
 كان جيشه مكشوفاً للعدو أصبح هدفاً للسهام فقتل منه كثيرون ، وارتدوا على
 أعقابهم ، وادرك ابن الاحمر خطأه بالزحف بدون آلات الحصار ، ولكنه لم يرجع
 عن كيده بل أمر بحفر الخنادق حول السور وواصل القتال فقتل وجرح من
 المسلمين نحو الالفين .

فأعمل المسلمون الحيلة في قطع المدد عن الحامة وكان لها نهر يسقيها
 فأداروه عنها بعد أن تقاتلوا عليه قتال اليأس ، واذ لم يكن فيها عيون ولا آبار اشتد
 الخناق بالاسبانيول ولم يبق لهم مورد سوى قناة صغيرة ، وعليهم اذ وردوها أن
 يقاتل منهم فريق ، ويشرب فريق ، حتى يصح أن يقال ان كل نقطة ماء بنقطة دم .

ثم سقطوا على بئر أغاثهم ماؤها قليلاً ، ولكن بلغ منهم الضيق حده ،
 فأرسلوا بالصريح الى ملوكهم فأصرخهم دوق مدينة سيدونيا من اشبيلية في خمسة
 آلاف فارس وخمسين الف ماش وظاهره رئيس فرسان قلعة رباح ، وتقدم فردیناند
 بحاشية غير وافرة ، وأرسل يقول للدوق ان يتضرر اجتماع الحشود ، فأجابه الدوق
 انه لا يمكنه الانتظار لكون الذين تحت الحصار في ضيق شديد ، واذ علم أبو

الحسن بدنو الجيوش عزم على الهجمة الأخيرة وفي صباح يوم اجتمع نخبة من أبطال المسلمين ، وتسلقوا السور من ناحية برج عال ووضعوا السالم ، وقتلوا الخفراء ، ووصلوا الى السوق وكادوا يبلغون الابواب ، وهم نحو سبعين رجلاً فقط فأحاط بهم الاسپانيول إحاطة السوار بالمعصم فانضموا شبه دائرة رافعين في وسطهم راية النبي صلى الله عليه وسلم وظلوا يدافعون عن حوضهم دفاع الليوث حتى لم يبق منهم سوى رجل واحد سقط وهو معتقد الراية النبوية فأصاب أبا الحسن اليأس من هذا الفشل ، وأقلع عن الحامة الى غرناطة ووصلها المدد الكثيف»، انتهى ما ذكره الافرنج في شأن الحامة وهكذا ما ورد في (نفح الطيب) بهذا الشأن .

«وصح عند النصارى ضعف الدولة واختلاف القلوب ، فبادروا الى الحامة فأخذوها غدرًا آخر أيام الصلح ، على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة وغدوا للقلعة وتحصنت بها ، ثم شرعوا في أخذ البلد فملأوا الطرق خيلاً ورجالاً ، وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ، ونهبوا الحريم والناس في غفلة أيام من غير استعداد كالسكارى ، فقتل من قضى الله تعالى بتمام أجله ، وهرب البعض وترك اولاده وحريمه ، واحتوى العدو على البلد بما فيه وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم ، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماش وفارس ، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه ، واذا بالسرعان من اهل غرناطة وصلوا ، فرجع العدو الى البلد ، فحاصرهم المسلمون وشددوا في ذلك ، ثم تكاثر المسلمون خيلاً ورجالاً ، من جميع بلاد الاندلس ، ونازلوا الحامة وطمعوا في منع الماء عن العدو ، وتبين للعامة ان الجندي لم ينصحوا فأطلقوا أسلتهم بأ Buckley الكلام فيهم وفي الوزير وبينما هم كذلك اذا بالنذير جاء ان النصارى اقبلوا في جمع عظيم لاغاثة من بالحامة من النصارى ، فأقلع جند المسلمين من الحامة وقصدوا ملاقاة الواردين من بلاد العدو ، ولما علم بهم العدو ولووا الادبار من غير ملاقاة محتاجين بقتلهم وكان رئيسهم صاحب قرطبة .

ثم ان صاحب اشبيلية جمع جندًا عظيماً من جيش النصارى الفرسان

والرجال ، وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى ، وعندما صح هذا عند العسكر ، اجتمعوا وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد ، والصلاح الرجوع الى غرناطة ، ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج اليه الحصار من العدة والعدد ، فعندما أقلع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون وتشاوروا في إخلائها أو سكناها ، واتفقوا على الاقامة بها وحصونها وجعلوا فيها جميع ما يحتاج اليه ، وانصرف صاحب اشبيلية وترك أجناده وفرق فيهم الاموال ، ثم عاد المسلمون لحصارها وضيقوا عليها وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة منه ، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى فعادوا عليهم وتردى بعضهم من أعلى الجبل ، وقتل أكثرهم وكانوا من أهل بسطة ووادي آش فانقطع أمل الناس من الحامة ووقع الاياس من ردها «انتهى» .

فأنت ترى قرب الروايات العربية من الافرنجية في مؤداها وقد آثرنا المقابلة بين التقليدين زيادة في التمحيص وامعاناً في النصح لقلة تداول هذا التاريخ في العربية .

ثم قال صاحب (نفح الطيب) «وفي جمادى الاولى من السنة توالت الاخبار ان صاحب قشتالة أتى في جنود لا تحصى ولا تحصر ، فاجتمع الناس بغرناطة ، وتكلموا في ذلك ، وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصد أن يضيفها الى الحامة ، وجاء بالعدة والعدد ، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين فقتلوا من لحقوه ، وأخذوا جملة من المدافعين الكبار ، ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة وناوشوا النصارى ، فألجماؤهم الى الخروج عن الخيام ، وأخذوها فهرب النصارى وتركوا طعاماً كثيراً وآللة ثقيلة وذلك في السابع والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة »انتهى .

وقال مؤرخو الافرنج « ان فرديناند عقد مجلسا في قرطبة ليرى ماذا يفعل بالحامة ، فأشار اكثرهم : بذك حصونها واحتلالها لصعوبة حفظها من طارقة العدو

ولزوم حياطتها دائماً بحامية وافرة تقتضي نفقات باهظة ، فعارضت في ذلك الملكة إيزابلا ، وأصرت على ابقاءها ، وجعلت حمايتها لنظر قائد اسمه فرناند بورتو كريرو مع اربعمائة فارس والفال راجل .

الحرب على لوشة

وأجمع فرديناند على حصار لوشة وهي موقع حصين على مقربة من الحامة ، فاستنفر جميع المدن وبالغ في حشد العساكر ، وبلغ ذلك المسلمين فراسلوا أخوانهم من وراء البحر . فأرسل فرديناند وإيزابلا اسطولهما لمنع إجازة المدد ، واكتساح أرياف برافيريقية ، وسار من قرطبة وقد ترك أكثر جنوده في استجة ، وانما استصحب خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف ماش فنازل لوشة فشاهد من حصانة لوشة وصعوبة مسلكها ومنعة النهر المطيف بها ما هاله ، فأدرك خطأه بسرعة الاقدام ، لكنه أرسل كثيبة من جيشه للتنزول بربوة محاذية للجسر يسمىها المغاربة « صنتو أبي الحسن » وكان قائداً لوشة رجلاً يقال له علي العطارشيخاً عالياً السن متاهزاً التسعين ، لكنه لم يفقد شيئاً من صلابة جنانه ولا قوة ادراته وهو حمو الامير أبي عبدالله ابن السلطان أبي الحسن ، وكان عنده ثلاثة آلاف فارس فأرسل في الليل طائفة من جنده فكمروا وراء « صنتو أبي الحسن » وعند الصباح خرج وهاجم المسيحيين فشاروا في وجهه فانهزم أمامهم خديعة منه ، فطاردوه ملحين وإذا بالاصوات ارتفعت من خلفهم فالتفتوا فإذا بالمغاربة مقبلين فرجعوا للمحافظة على خيامهم فكر عليهم علي العطار وأرهف فيهم السيف ، وبقي يطاردهم ويستلهم منهم حتى تكاثرت نجداتهم ، فعاد عنهم وقد قتل منهم جملة وافرة ، وفيهم من أكابر فرسانهم لذريق جيرون صاحب قلعة رباح الذي استشعر الاسباريول فقده كثيراً ، فلما رأى الملك فرديناند ما رأى ، أيقن بلزوم الرجعة ، وتأهب للالقلاع واد رأى علي العطار حركته في الرجوع برب كالاسد اذا جاء ، وهجم على معسكر الاسباريول فهزمه منه جانياً فتداعى كله للفرار ، وارتفعت الضوضاء والصياح وبدل المسلمين فيهم السلاح . فثبت فرديناند

وبطانته ريشما أمكنهم نقل الخيام ، والمدافع والميرة ، لكنه كاد يلقى حتفه مرتين لولا تهالك الدون جان دور يبرا في وقايته ، وما زال في ذلك المأزق حتى وصل مركيز قادس ، وحال بينه وبين العدو ، فنجا الملك وفر الى بلاده وعلى العطار يطارده الى ريوفريو ، فلحق بقرطبة مدحوراً كسير القلب » .

وعلى رواية اخرى « أن السلطان أبا الحسن خف الى نجدة لوشة وانه في ٢٦ جمادى الاولى سنة ٨٨٧ الموافق ١٤٨٢ تموز سنة هاجم معاشر فرديناند من الوراء بينما كان على العطار قد نهد اليه من جهة المدينة وانه بذلك دارت الدائرة على الاسباريول » وهذه الرواية أقرب الى خبر (نفح الطيب) اذ فيه أن جماعة من أهل غرناطة ذهبوا الى لوشة وناوشوا النصارى فاخرجوهم من الخيام .

وقال آخرون أن أبا الحسن لما حضر بجيشه نجدة لللوشة ، وجد فرديناند بجيشه قد جاز الدروب ، وانه لما بلغت أخبار لوشة حامية الحامة هلت قلوبهم ، فقصدتهم أبو الحسن فأسرع فرديناند باصرارهم ، فارتدى ابن الاحمر عنهم ، وقصد مدينة قانيت ، فاستولى عليها ، وقتل الى غرناطة فبلغه أنها بايعت ولده أبا عبدالله محمد وتبعها كثير من مدن المملكة فتوجه الى مالقة التي حافظت على عهده هي ووادي آش وبسطة .

انتقام ابي عبد الله محمد علي ابيه السلطان

ابي الحسن وفاراه الى مالقة

قال بعض مؤرخي الافرنج انه في تلك الاونة استحكمت عرى الخلاف في بيت ملك غرناطة ، وأخذ بنو سراج (عشيرة من أعيان غرناطة أصلهم من قرطبة^(١)) بالخلاف مع بني زغبة ، واستفحل أمر أبي عبدالله نجل السلطان أبي

(١) رواية ستانلي لأن يول المؤرخ الانكليزي ان اصلهم من قرطبة فيكون بنو سراج غرناطة هم سلالة بني سراج قرطبة المذكورين في نفح الطيب .

الحسن ، ومالت اليه العامة بما نعموا على أبيه ذهب الحامة وهي مفتاح غرناطة ، فلما قفل عنها المرة الاخيرة خائبا وجد الحاضرة مقلة الابواب في وجهه ، فمال إلى بسطة وهناك جمع خمسمائه رجل وحضر بهم إلى الحمراء ، فقتل من التقاه في الدور والساحات ، ولما أصبح الصباح تکاثروا عليه ؛ فافروا أكثر جماعته ففر شريداً إلى مالقة وفي هذه الحادثة يقول المقربي : « انه هرب الاميران أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أيهما ان يفتك بهما باشاره حظيه الرومية ثريا واستقرا بوادي آش وقامت بدعوتهم ثم بايعتهم تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة ، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة » .

وفي روايته شيء من مخالف الرواية الفرنجية لكن على اتفاق في التجية ، فانظروا أي زمن اختاره أمراء غرناطة للشقاق والخلاف ، واذا أراد الله شيئاً هياً أسبابه .

غزوات أبي الحسن في طريف

أما أبو الحسن فاصبح بعد انقسام المملكة غير قادر على مناطحة فرديناند قرنا لقرن ، ولكنه يراقب الفرصة للقيام بعمل يمكنه من قلوب المغاربة ، ويعيد عليه سلطانه ، فعزم على الغارة في أراضي دوق سيدونا ، وزحف بستة آلاف راجل وalf وخمسمائة فارس ، فلما حصل في بلاد النصارى بين جبل طارق وقسطلية سرح اربعمائة فارس نحو حصن الجبل ، وأرسل اربعمائة أخرى نحو طريف ، فعادوا بغنائم لا تحصى ثم رفأ إلى ميناء الحصن اسطول بقيادة كارلوس دوفاليرا ، فالتمس منه بطره دوفرغاز أن يتولى قيادة الحصن مكانه ليخرج إلى لقاء العدو ، وسار بسبعين فارسا إلى جهة قسطلية وكانت طلائع السلطان منفصلة عن جيشه فناوشها القتال ، فخرج إليه ثمانون فارسا وحمي الوطيس فقتل جماعة من أبطالهم ، وجراح دوفرغاز ، وعاد كل من الفريقين إلى مكانه ، فخييم أبو الحسن بساحة قسطلية وأحرق بعض بيوتها ، ولم تتمكنه منها ، ولكنه اعجب بشجاعة

دوفرغاز ، فاستدعى اليه أسيرين من النصارى وسائلهما ما هي وظائف قائد جبل طارق ، فأجاباه ان له على كل قطيع يمر بأرضه كبشاً ، فصاح : « أعوذ بالله من أن اعتدي على فارس مقدم كهذا ». وأرسل اليه اثنى عشر رأس غنم عن الاثنى عشر قطيعا التي عنده قائلا لمن أمره بسوقها اعتذر له عنى بجهلي الواجب ، فأجاب دوفرغاز الرسول قبل لي يدي جلالته وقل له ابني أسيف من انه لم يوجد عندي جند أكثر من هذا لأقوم بواجب لقائه وأملي عند وصول الثلاثمائة فارس الذين أرسلت بطلبهم من شريش ان احتفل له بوليمة فاخرة ، ثم صرف الرسول مكرما .

غزوات الامير ابو عبد الله الزغل اخي السلطان ابي الحسن

ولما بلغ امراء الاسپانيوں غزاة ابی الحسن عقدوا النية على أخذ الثأر . واهتبوا هذه الغرة من اشتغال المسلمين بالفتنة فيما بينهم ، فاجتمعوا في النقرة تحت زعامة مركيز قادس الدون بطرة هنريكس وقائد اشبيلية الكونت دوسينيونتا ز والدون الوزرودو كردناز والدون الوزرودو اغيلار وغيرهم . ويبلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة آلاف مع رجاله كثيرة ، وجعلوا وجهتهم الجبال لوجود قطuan الضان فيها بكثرة ، وخليت لهم أنفسهم الوصول الى وادي آش والاستيلاء عليها بغية لضعف حاميتها ، فساروا مجتهدين في إخفاء أثرهم ، ولكن بلغ خبرهم وادي آش وهي وان كانت حاميتها قليلة فكان عليها قائد هو جيش بنفسه وأمة برأسة ، ألا وهو الامير ابو عبدالله الزغل اخو السلطان ابی الحسن ، وكان أخاه أيضا في البسالة والاقدام ، لكنه أحذق وألbic وأدرّب بكيد العدو ، وأبصر بموقع الكر والفر ، ومعنى الزغل عندهم الفتى العض الشبّاب ، وكان هذا الاسم وحده يلقى الرعب في قلوب الاسپانيوں .

فلما اشرف الاسپانيوں من الجبل المطل على مرج مالقة ابتهجوا ببرؤية تلك الارض ابتهاج بنى اسرائيل بأرض الميعاد ، واذ شعر بهم الاهالي جمعوا قطuanهم ولاذوا بحصون الجبال فاحرق الاسپانيوں المنازل المهجورة واخذوا

بشعاب تلك الجبال ، فتردى بعضهم في الاوعار ، فبصر بهم المغاربة من ابراجهم فخرجوا ونضحوهم بالنبل ، ورمواهم بالحجارة ، وتصايدوا بهم من كل جانب ، وارتقت الاصوات ، وتجاوיב الاصداء فوق الرعب في قلوب الاسپانيول واغاث بعضهم بعضا وانضموا الى مكان واحد ، وتشاوروا فيما يصنعون ، فأجمعوا الرحلة وترك الغنائم فساروا في الوعر والمغاربة يمطرونهم سيلادافقا من النبل . حتى خارت قواهم ، وواجهدوا سحابة يومهم الى ان جن الظلام فحصلوا في وادٍ عميق واذا بصوت قد ملاه الربي والوهاد : « الزغل الزغل »

فسأل صاحب انتياغو : « ما هذا ؟

فأجابه أحد فرسانه : « هذا صوت الزغل فلعله قريب » .

فقال لفرسانه : « لنطلع هذا الجبل ، ذلك خير لنا من ان نذبح كالغنم في قعر الوادي »

فأخذوا صعداً والشباب والحجارة في ظهورهم ، حتى استلهموا لا سيما الرجال الذين كانوا يتثبتون باذناب الخيل ، فتهوي بهم وبفرسانها فيهلكون جميعا ، وما زالوا في هذا الضيق الى ان بلغ كردنازقنة الجبل ، فالتفت فإذا به قد فقد حامل رايته وجما من أصحابه وانسبائه ، ورأى نفسه محاطا من كل جانب ، ثم تردى في مضيق حرج جداً ، وانشر نظام جيشه .

هزيمة مركيز قادس والكونت دوسيفنتاز ورفاقهما

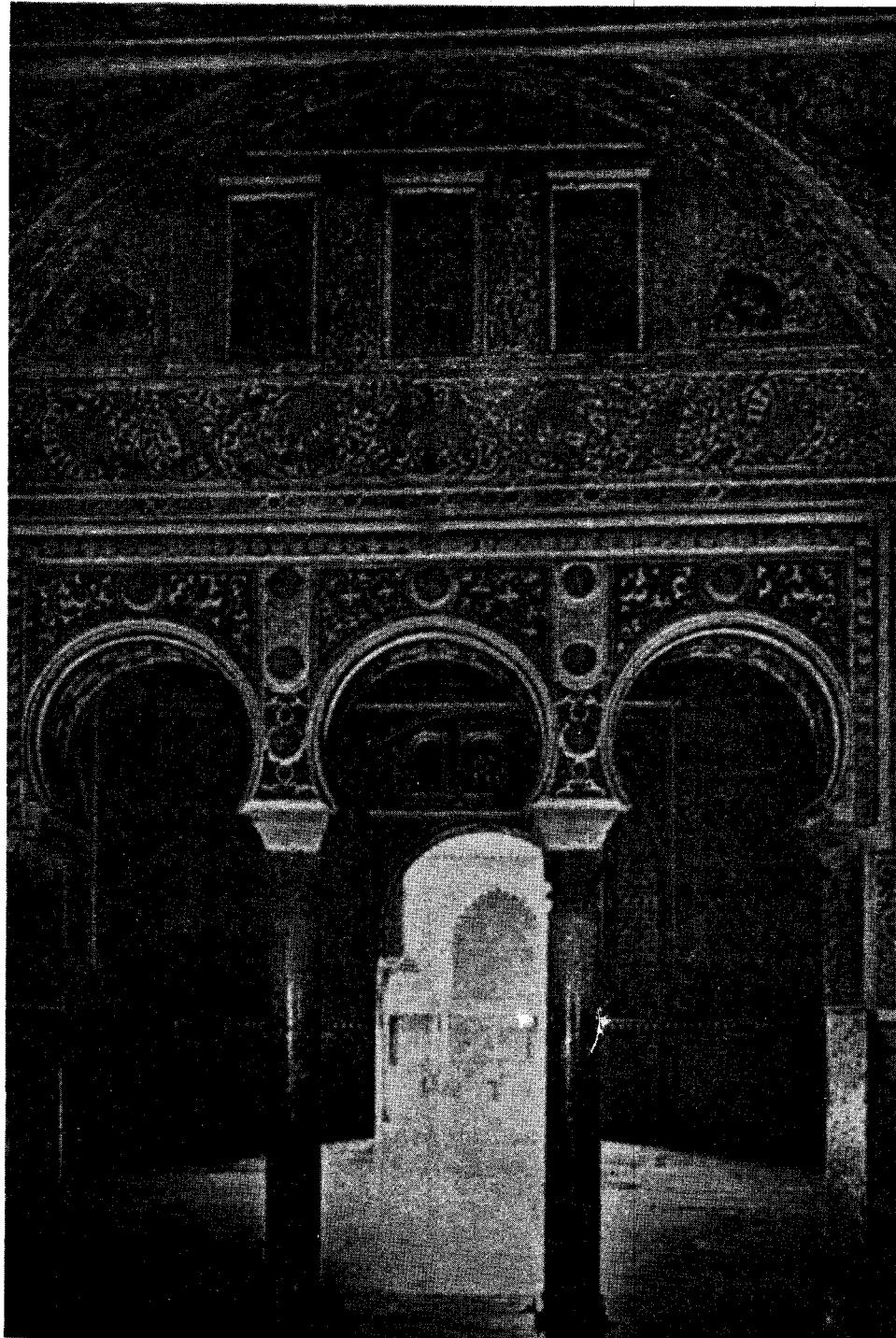
أما مركيز قادس فسار من جهة أخرى ، ومعه الكونت دوسيفنتاز والونزو دواغيلار فالتقوا بعساكر الزغل فتناجزوا ، وضافر الزغل من هنالك من ابطال الجبلين ، فانكشف الاسپانيول واثخن فيهم المسلمون قتلاً واسراً ، وأذرعوا الفتاك ، فقاوم المركيز مقاومة شديدة لكن سقط أخوه وولدا أخيه صرعى بجانبه ولما رأى الثالث من اخوه قد خر صريعا طار قلبه شعاعاً ،

وأجهش بالعويل ، ولم يتمالك من البكاء وقتل فرسه ، فقدم له فرس آخر ، والتمس منه أصحابه الفرار فساعدهم فيه ، وانهزم بفلتهم الى النقيرة .

وما الكونت دوسيفيتاز فبقي في الجبل مع جماعة وأرادوا اللحاق بالمركيز فمروا بجثث القتلى من أخوانهم وفيهم سراة الإسبانيول وأمثال رجالهم ومعاوير ابطالهم فأصابهم جزع شديد ، وظلوا منهزمين الى النقيرة وتاه منهم جملة وافرة في الشعب ، فأسرهم الجبليون حتى النساء ، واعتقلوا منهم بحصن مالقة نحو مائتين وخمسين فارسا وأكثر من خمسمائة راجل .

ولما وصل مركيز قادس الى النقيرة مفلولا شريداً أشعث أغبر مخضبا بالدم عظمت النكبة في قلوب الإسبانيول ؛ لأنه كان عظيم المكانة فيهم ، ولم يجرس أحد أن يعزيه بأخوته ، بل لزم غرفته كئينا حزينا ، وانتشر خبر هذه الهزيمة الشنعاء في البلاد فارتجمت الشغور ، وساحت العبرات ، وهلعت القلوب ، حتى قلب فرديناند وايزابلا في وسط قصرهما ؛ أما المغاربة فطارت قلوبهم فرحاً ، لا سيما عندما شاهدوا أمراء الإسبانيول وأعيانهم مقيدين بالسلسل ، تجلبهم فلا حرج في الجبال ، وفي أيديهم راياتهم ، والكونت دوسيفيتاز من جملة من ثقفوهם .

وهاك ما ورد في (النفح) بشأن هذه الواقعة قال : « في صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، اجتمع رؤساء النصارى وقصدوا قرى مالقة وبليش في نحو الثمانية آلاف ، وفيهم صاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب استجة وصاحب النقيرة وغيرهم ، فلم يتمكنوا منأخذ حصن ، ونشبوا في او عار ومضايق وخنادق وجبال ، واجتمع عليهم أهل بليش ومالقة ، وصار المسلمون ينالون منهم في كل محل ، حتى بلغوا مالقة ، ففر كبارهم ومن بقي قتل أو أسر . وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب ، ويبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة ، ومعه بعض الجندي وقتل من النصارى في هذه الواقعة ثلاثة آلاف ، وأسر نحو الفين من جملتها خال السلطان وصاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم ، وهم نحو الثلاثمائة من الاكابر ، وغنم المسلمون غنيمة وافرة



قاعة السفراء

من الانفس والاموال والعدة والذهب والفضة » انتهى .

ابو عبد الله يحقق في فتح لشانة ويؤسر

وأما غرناطة فغبطت أبا الحسن على ما أصاب من الغنم والقوز ، وثارت بأبي عبد الله ولده لاجل الجهاد ، فلبى الدعوة ، وعقد عزماً موفرأً على ابلاغ الغارة حدود قرطبة ، فحسد سبعمائة فارس وبسبعين ألف ماش ، وسار الى لوشه حيث وفاه حموه علي العطار بجيشه من الفرسان كلهم مغاوير ، ثم دخل أرض النصارى واكتسح بلادهم الى حدود لشانة .

وكان علي العطار خيراً بالارض لكره ما قاتل فيها في زمانه ، فأبصر ناراً على علم فقال لصهره لقد أصبحنا مكسوفين فلنسرع الى فتح لشانة ، فسار معه أبو عبد الله وكان الدون دياغو دوق قرطبة في حصن بانية ، وقد علم بقدوم المغاربة فخرج بمائتين وخمسين فارساً ولفين ومائتي راجل لإنجاد ابن أخيه في لشانة ، وفي الطريق تذكر أنه نسي راية بانية التي هي شارة بيته ، فنشر راية قبرة ، وعند وصوله انتعش به ابن أخيه مما اعتبراه من خوف العدو ، وبرز الكونت لمنازلة العدو ، فتلاقيا وراء ربي وهضاب ، وقد أثقلت الغنائم حركة المغاربة وشوهد أبو عبد الله متقطيا جواهدة الاشهب تحف به بطانته الباهرة ، ولما ظهر لابي عبد الله جيش النصارى سأل حماه عن رايتهم فأجابه لست أعرف يا سيدي هذه الرأية ، وأظن الاندلس كلها زاحفة علينا اذا لا يمكن أن أهل مدينة واحدة يقتسمون لقاعنا ، واشتعلت نار الحرب واذا بأحد القواد قد جاء الاسبانيول بمدد جديد وعزف بموسيقى إيطالية ، فقال علي العطار هذه ألحان طليانية لعل العالم كله أصبح ضدنا ، وكان الضباب كثيفاً فغم على المسلمين أمر العدو ، وظنوه أضعاف ما هو فكانوا يقاتلون رجوعاً حتى بلغوا ساقية هناك ، فوقف السلطان أبو عبد الله على صفتها حتى عبرتها رحاله وبقي الحرس حواليه والقتال بينهم وبين الاسبانيول ، فانهزم الحرس وعبروا الماء وأصبح السلطان فريداً برأسه ، فترجل وتوارى وراء الصفصفات لثلا يعرفه الاسبانيول فحضروا اليه وامسکوه ، وظنوه كبيراً من كبراء

المغاربة فعادوا به الى لشانة ، أما علي العطار فلبيث سائراً والعدو في أثره ، لكنه كان يكر عليهم ، فيجدد شملهم ، ويستأنف سيره ، ولما وصل الخبر الى فرسان النقيرة ، اغتنموها فرصة لادرأك الثأر ، وسار الدون الونزو دواغيلار بجيشه فالتحقى بالمعاربة على ضفاف الشنيل ، فاقتتلوا شديداً وزعموا أن علي العطار أبصر الدون الونزو فقصده وطعنه بحربة فاثبتهما في قسم من درعه ، ولم تصبه بضرر ، فانتقضى حسامه ووثب عليه كالليث الذي قد ثكل شبله ، فدفع الفارس الاسپاني عن نفسه ، وبقي القرنان يتتساواران ساعة ، تارة على ضفة النهر وطوراً في الماء وأثنخن ذلك الشيخ العجيب جراحات ، فرق الدون لشيخوخته وعرض عليه التسليم فأباه ، فدهمه الدون بضرية على ام رأسه فخر صريعاً في النهر .

قالوا : « وكان مصرعه سبباً في فشل المغاربة فعبروا النهر مفلولين وغرق منهم كثير » وأما أبو عبد الله فأحضر لدى كونت قبرة فأعظم موصله وعزاه بما يناسب المقام ، قائلاً له ان القضاء الذي قضى عليه هذه المرة ربما يقضي له مرة اخرى .

عودة أبي الحسن الى غرناطة

وصل سيدى غالب الغرناطي بالصريح الى لوحة فغرناطة ، وأخبر أن السلطان أبا عبد الله قد وقع في يد العدو ، وان العطار قد قتل ، فجزع المسلمين جزاً شديداً ومالت القلوب الى السلطان أبي الحسن ، وتطيروا من أبي عبد الله ، واستشعروا صدق أقوال المنجمين بحقه بأنه سيكون سقوط غرناطة على يده مما لقب لاجله بالشقيوي الشقي ، ودخل أبو الحسن الحمراء واستقر ثانية في كرسيه ، وانحازت امرأته الحرة الى محلة البيازين ، وانقسمت العاصمة شطرين فكتب أبو الحسن الى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا أن يسلما اليه ولده وهو يسلمهما الكونت سيفنتاز وسبعة امراء آخرين ، فأبيا تسليمه خوفاً من أن يقتله لا حذرا عليه بل خشية من انقضاء الفتنة بينهما ، وأرسلت امه من جهة اخرى تعرض عليهم ما رده اليها على وثيقة أن يعترف بسلطنة ملك قشتالة ، ويؤدي جزية وافرة كل سنة ، ويقدم النفقات العسكرية ، ويرد اربعمائه أسير نصراني ، ويقدم سنوياً

سبعين رقيقا مدة خمس سنوات ، ويرهن على ذلك ولده الوحيد وأولاد اثني عشر
بيتا من بيوتات المغاربة .

وحيث كانت إيزابلا غائبة لم تحظ عائشة بحواب ، وخرج فرديناند فشن
الغارة على أراضي غرناطة ، وأبو الحسن ملازم مكانه لا يخرج اليه خوفا من أن
يعود فيجد الابواب موصدة في وجهه كالعادة ، فكان نظير النمر الكاسر المحبوس
في القفص وصيه بازائه ، وهذه نتيجة استبداد النساء بالأمور ودخولهن في
الاحكام ، ثم عادت إيزابلا فاطلقت مولاي أبي عبد الله على شريطة أن يعترف
بسلطانها سلطان زوجها ويطلق من في جانبه من اسرى المسيحيين ، فخرج
أبو عبد الله بحاشية وافرة لزيارة الملك فرديناند ، فلما قابله انحنى لأجل تقبيل يده
فأبى فرديناند ذلك ، وانهضه بيده ولاطفه واكرمه » .

اطلاق سراح أبي عبد الله وعودة الفترة بعودته الى غرناطة

قالوا : « وقدم ابن سراج من غرناطة ومعه ولد أبي عبد الله وابناء الاشراف
الغرناطيين ، فأودعهم رهنا ، وجيء بالسلطان أبي عبد الله الى غرناطة ، وسار
فرديناند في تشيعه بضع ساعات ، ولما وصل أبو عبد الله الى الحاضرة ثار به
والده وأصحاب والده من جهة وانتصرت له والدته ومن اليها من جهة اخرى ،
فكان هناك في ذلك الوقت الضيق مشهد الحماقة الاعظم ، وجرى من الامور
المنكرة ما ليس في كتاب ، وامتلأت الاسواق بالمتقاتلين بعضهم ينادي باسم أبي
عبد الله ، والبعض الآخر باسم والده أبي الحسن ، وكان أكثر ميل العامة الى أبي
عبد الله ، فسألت الدماء وأصبحت حمراء غرناطة اسمها على مسمى الى أن كل
الناس من تقبيل بعضهم بعضا والعدو على الابواب ، وسئموا من اهدر دماء
المسلمين أعظم ما كانت الحاجة الى ادخارها ل الدفاع العدو ، وارتضى أبو عبد الله
اخيرا بالخروج من غرناطة والانحياز الى المريعة المدينة الثانية بعد تلك في الابهة

والشأن وتشامخ البنيان ، لن والدته حرسها الله لم تكن راضية عن ذلك ، بل قالت له ان الملك الذي لا يقدر ان يستقر فيعاصمه ملكه لا يصح ان يسمى ملكا ، وكان بودها أن يبقى ابنها في الحمراء ، ولو استمرت الفتنة وجرى من الدم اضعاف ما جرى ، والحق ان لهذه المرأة ولضرتها الثريا اليد الطولى في تعجيل سقوط غرناطة » .

* يالرببي مما تجر النساء *

وقائع رندة والصخرة والحامة

على انه وان كان أبو عبد الله قد ارتحل عن غرناطة ، فقد بقي له في البيازين رجال كلما اغتاظوا من أبيه نادوا باسمه ، فأجمع أبو الحسن أخيراً على الغزو في بلاد العدو لعله يزداد تمكينا ، وكان فرديناند بقسم كبير من جيشه في غزاة بعيدة ، فعقد السلطان على الجندي لقائد مالقة ، وجعل معهد اللقاء رندة ، وهي حصن مشهور المنية ، كان لذلك الوقت عش الدعاارة ومركز قطاع السبل وأماوى الفتاك ، وأهله لا يألون النصارى خبala ، ولا يفترون عن معاورتهم من حصنهم ، وسجونهم ملأى بأسراهم ، وعليهم قائد يليق بهم اسمه حامد الزغبي منبني زغبة الموصوفين بالشدة والقسوة ، وعندهم طائفة من الافريقيين من غماره ، ولم يكن في الدنيا أحسن من هؤلاء اذا ركبوا لأنهم سريعوا الكرة ، عقبان عند الوثوب ، شديدو الوطأة ، اذا أقبلوا من معاصمهم اندفعوا على مروج الاندلس ولا اندفاق السيل المنهر من الجبال ، فاجتمع الاختاد في رندة وقائد مالقة وذلك في ١٧ ايلول سنة ١٤٨٣ فانتشروا في السهول وامتلأت أيديهم من الغنائم ، وامتد الصريح بين رؤساء النصارى ، فجمع صاحبا قادس وبويerto جيشا كثيفا ونهضا لمدافعة العدو ، وكان المسلمون قد أقاموا كمبين أحدهما عند مدخل سهل الاندلس ، والثاني حفافي نهر لوبرة ، فلما انتشروا في أرض العدو نهد إليهم جيش من اوتررة فالتزموا الرجوع نحو لوبرة ، فطاردهم الاسبانيون حتى

وصلوا الى الكامنин فأزّوا^(١) بهم ، وحمل الجميع على الاسبانيول فهزموهم . فانجدهم بoyerتو كرير و فتشلدوا به ، وأعاد الكرة فثبت المسلمين في مواقفهم ، لكن أسر قائدتهم فذعوا و انشطروا شطرين فتألف^(٢) الاسبانيول احدهما وألحوا عليه ، والتقى الآخر بصاحب قادس فناوشة ، وإذا رأى جواد أخيه المقتول في الواقعة السابقة تحت أحد فرسان المغاربة ، ورأى الاسبانيول خيول اخوانهم القتلى في جبال مالقة تحت فرسان اعدائهم ، غلت في صدورهم مراجل الغيط ، وثاروا لأخذ الثأر ، فحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فكشفوهم ، وضل حامد طريقه الى رندة فرده اليه احد المتمسلمة من النصاري .

وكان عند صاحب قادس بعض العيون والجوايسين اكثراهم من منتصرة المغاربة ، فأخبروه بضعف حامية الصخرة ، فنهياً لقصدها ، واستجاش بoyerتو السابق الذكر وجويان المارز ، فبادراً لإنجاته ، وزحفوا في ٢٨ اوكتوبر سنة ١٤٨٣ بستمائة فارس و ألف و خمسين مائة ماش ، فبلغوها ليلاً بدون أن يشعر بهم أحد . وكم من اورتغادو برادو المعهود بعشرة من أقرانه تحت السور ، ومعهم سلام ، وكان رجال الحصن قد خرجوا الى المدينة ، وناشبهم الاسبانيول القتال ، ريثما تمكّن هؤلاء الكامنون من صعود الحصن ، فعندما ايقنوا أن العدو أصبح فيه ، سقط في ايديهم ، واتفقوا مع العدو على الخروج بالaman .

وبعث السلطان أبو الحسن جيشاً الى الحامة ، وكان قائدها الكونت طنديله فذب عنها حسناً ، وفي أحد ليالي الشتاء خر جانب من سورها ، فخاف الكونت ان يدرى المسلمين فاقتحموا الثغرة ، فنشر غطاءً كبيراً من النسيج ، وجعل وراءه الفعلة يستغلون حتى اكمل بناء الحصن المتهدّم .

(١) أَزَّ بِهِ : اجتمع .

(٢) تائفه الناس : احتلوه فصاروا حواليه كالاتفاقية .

سقوط ايلورة في يد الاسپانيوں ونزوں السلطان أبی الحسن عن الملك لأخيه الزغل

وفي تلك المدة احتشد أمراء الاسپانيوں ثانية للغزو وزحفوا بستة آلاف فارس واثني عشر الف راجل وعليهم مرکیز قادس وکونت قبرة وقائد القنطرة وصاحب صنتیاغو والدون الونزو دواغیلار وبویرتو کریرو وغونزالف القرطبي وغيرهم ، فاجتاحوا أراضي مالقة ، وحطموا زرعها ، وأحرقوا البيوت المنفردة ، ونهض اليهم المالقيون فلم يفزوا منهم بطائل .

وكان فردیناند قد استبدل بالات الحصار القديمة المدافعة النارية الجديدة ، ونزل بها على ايلورة ، ولم يكن لأهلها عهد بهذه الادوات الجهنمية ، فارتاعوا ، وسلموا بلدتهم صلحًا ، وانحاشوا الى مالقة ، فلم يقبلهم أهلها ظنا بأنهم جبنوا عن القتال ، وخاموا عن اللقاء ، ثم سير فردیناند بهذه الالات جیوشًا اكتسحت سائط غرناطة ، فسأله أبو الحسن الهدنة ، فأبى وأظهر التعصب لابنه أبي عبد الله ، وبعث اليه بالمدد بمکانه من المرية ، وكان أبو الحسن قد بلغ من الكبر عتيما ، وكف بصره ، ولزم الفراش ، فنزل عن الحكومة والقيادة لأخيه أبي عبد الله الملقب بالزغل ، وكان له أمينا وبه برأ ، فهاج أهالي المرية على أبي عبد الله محمد ، وقاموا ببيعة عمه ، ولم يلبث أن حضر هذا اليهم بنفسه ، فافتتح قلعة المرية ، وفر ابن أخيه شریداً الى قرطبة ، مستغيثاً بالملك والملكة ، واستوسق أمر غرناطة كلها للزغل ، وسار الى مالقة ، وحومت عليه الخواطر ، وانشرحت له الصدور ، وعقد به مغاربة اسبانية انواط الامال .

قال (صاحب النفع) بشأن الواقع المتقدمة : « ولما استقر السلطان ابو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة ، وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية ، تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها ، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية ، والتقوا في موضع يعرف بالدب ، فكسر السلطان أبو عبد الله . ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأن عمه

بمالقة غنم من النصارى اعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية ، وذلك في ربيع الاول من السنة ، الى ان بلغ نواحي لشانة وقتل وأسر وغنم ، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير قبرة ، وحالوا بين المسلمين وببلادهم في جبال وأوعار ، فانكسر الجندي وأسر من الناس كثير وقتل آخرون ، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبد الله ولم يُعرف ، ثم علم به صاحب لشانة وأراد صاحب قبرة ان يأخذه منه فهرب به ليلاً وبلغه الى صاحب قشتالة ، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد وتفاءل به ، فقلما توجه لجهة او بعث سرية الا ويعث فيها ، ولما أسر السلطان أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة ، وأعيان الاندلس ، وذهبوا لملاقته للسلطان أبي الحسن ، وذهبوا به لغرناطة ، وبايعوه مع انه كان أصحابه مثل الصراع الى ان ذهب بصره ، وأصحابه ضرر ، ولما تذر أمره أقام اخاه ابا عبد الله ، وخلع له نفسه ، ونزل بالمنكب ، فأقام بها الى ان مات ، واستقل اخوه ابو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده » انتهى .

وقد سار المؤلف رحمة الله في تاريخ هذه الواقع كلها على قاعدة الايجاز فيه البلاغة .

فرديناند يقصد مالقة والزغل يرد عنها وسقوط رندة

ثم ان فرديناند اعاد الكرة سنة ١٤٨٥ خامس ابريل فحشد في قرطبة تسعه آلاف فارس وعشرين الف راجل وقصد بها مالقة لأنها ميناء غرناطة ، ومنها كان يتسرب المدد من جهة البحر ، فابتدأ بفتح الحصون التي في طريقه ، وأشهرها ذكوان ، فأسرع حامد الزغيبي لإغاثتها فوجد اهلها قد استأنموا وخرجوا منها . وفي (النفح) « ان الف دارع من النصارى دخلوا ذكوان عنوة ، فأظفر الله تعالى أهل ذكوان بهم ، فقتلوهم جميعاً ، ثم طلبوا الامان وخرجوا . فسار الى مالقة ، فخرج اليه الزغل بالف فارس فرده ، وقتل من الفريقيين ، فانعطف صوب رندة باشارة مركيز قادر لمنعه هذا الحصن وكثرة ما فيه من اسرى المسيحيين ، وكان

قائد رندة قد خرج للغزو وعاد بغنائم لا تسهي ، وعند ما وجد الاسپانيوبل منازلين حصنه بعث بالصريح الى أهل الجبال المجاورة فاسرعوا اليه ، واعلوا الحرب ، واقدموا اقدام الاتي ، ولم تؤخذ رندة الا بسبب عين كان يستقي منها أهلها ، وينزلون اليها بدھلیز طویل ، ولا ماء لهم غيرها ، فلما تمكن العدو من هذه العین ، لم ينفعهم الثبات ، وطلبو الامان على شرط الاجازة الى افريقيا ، فأذن لهم وخرجوا ووجد في اسرهم عدد غير من كبار الاسپانيوبل وابناء الامراء ».

الزغل ينتصر على كبير قبرة

ثم عزم فرديناند على منازلة حصن مكلين لما بلغه من ضعف الجندي المرتب له ، وحصل التواعد بين الملك وبين كبير قبرة على المسير معا ، فبادر الزغل الى الجهاد ، وبرز الى ملاقاتهما ، فلم يصبر صاحب قبرة عن ملاقاته وحده ، وناوشة باربعة آلف فارس وستة آلف راجل ، ظانا انه يأسره كما أسر ابن أخيه ، لكن الزغل غير الشيقتو ، والفرق شاسع بين أبيي عبدالله ابني الاحمر، فوصل صاحب قبرة الى واد عميق وكمن فيه ، لكن القمر باغى عليه وخانه فاقتضح امره للمغاربة وانهالوا عليه بنبل متابع ، فاستسلم جيشه وقتل أخوه ، وهلك جواده ، فامتنطى جواد أخيه ، ولما رأى شدة فتك المغاربة باصحابه فر شريداً فطاردوه مدة ، واذرعوا في عسكره القتل فهلك في ذلك اليوم جملة وافرة من أمراء النصارى وابناء البيوتات الاسپانية وآب الزغل بالعنيمة .

سقوط حصن قبیل في يد الاسپانيوبل

وساء جدا وقع هذه الواقعه عند الاسپانيوبل ، فاراد الملك محو أثرها ، وأجمع على مهاجمة حصن قبیل والحصن الذي بجانبه وهمما مبنيان على صخرتين متناوحتين ترتطدان بجسر ، ولهما حاميہ شديدة تکثر المغاربة في أراضي العدوخصوصا جهة جيان وقائد الحصنين محمد بن يوسف بن سراج من رؤوس فرسان العرب ، فوضع الملك المدافع الناریة الجديدة بازاء الحصنين ، وشرع يرسل عليهمما النيران ، وأدار الحركة الدون فرنسيسكو راميرز أول مهندس في اسبانيا

لوقته ، واستمر إطلاق النار يوماً كاملاً حتى خرت الجدران وهلكت الابطال ، ولم يجد ابن سراج فائدة من المقاومة بازاء هذه النيران المحرقه التي لم تكن عنده فسلم القلعتين على شرط الخروج الى غرناطة فأجيب الى ذلك .

سقوط قلعة زالعة

وكان قائد الحامة الدون غايatarz دو باديلا ، فحضر لديه مرة مغربي من طبقة التجار الذين من عادتهم أن يلحقوا الجيش لشراء السلب ، وطلب الكلام معه قائلاً : « كم تقدني من المال اذا سلمتك قلعة زالعة ؟ » فأجابه : « وكيف يكون ذلك ؟ » قال : « ان لي فيها اخا أو عز اليه سراً فيمكن جنودك من دخولها ليلًا ». قال له : « وهل تخون دينك وامتك لاجل المال ؟ » قال المغربي : « ابني بدلت ديني وأمي وأمي إسبانيولية وقائد زالعة رجل ظالم سلبني مالي فأريد الانتقام منه ». فأرسل الدون رجالاً راسلوا الخائن فأنزل اليهم سلماً تسلقوا بها الحصن فذبحوا نصف رجاله واستولوا عليه .

الحرب بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله وقسمة المملكة بينهما

وكان أبو عبد الله ابن أخي الزغل قد جعل حاضرة ملكه بش البلانكو ، وتقوى به حزبه سكان البيازين ، وعادت الحال الى مكانها بينهم وبين أصحاب الزغل ، وتخضبت غرناطة بالدماء من أبنائها ، وازدادت الحمراء حمرة مع جميع ما اشتق من هذا المصدر ونكثت قرحاً على قرح . وبينما هم كذلك اذ بلغهم تأهب العدو لاكتساح البلاد فتكلم الناس في الصلح واتفقوا على قسمة المملكة بين الزغل وابن أخيه ، فجعلوا للزغل غرناطة ومالقة وبش مالقة والمرية وما يلحق بها ، وتركواباقي لعهدة أبي عبد الله وسألوه أن يقيم بلوحة لكونها ثغر المسلمين طمعاً في دفع العدو عنها لمكان السلطان أبي عبد الله من الاتصال بالطاغية .

سقوط لوشة في يد فردیناند بعد ان تکبد جیشه خسائر فادحة

سار الزغل الى لوحة وبعث الى فرديناند يسأله التجانف^(١) عنها فلم يجده ، بل انه في ربيع عام ١٤٨٦ زحف الطاغية بجحفل جرار مؤلف من ١٢ الف فارس و٤ الف ماش و٦٦ الف من ممهدى الطرق ، وكان في جيشه كثير من مطوعة الفرنسيس ، وفيهم من المشاهير مثل غاسطون اليوني ، ومن غزاة الانكليز وفيهم اللورد سكالس ، وكان معه آلات ومدافع تفوق الاحصاء بادارة جند المانين بادروا لاجابة داعي الحرب المقدسة من اقاصي بلادهم ، فقبل الوصول الى لوحة استاذن مركيز قادس من الملك أن يتبوأ رابية « أبو الحسن » التي حقت فيها الهزيمة على الاسپانيوں المرة السابقة ، والتمس كبير قبرة أن يكون في طليعة الجيش فأذن لكل بما سأله ، وخيم مركيز قادس في أبو الحسن بخمسة آلاف فارس وأثنى عشر ألف راجل ، وأخذ كونت قبرة باتباع الوادي طامعا في اسر ابي عبد الله ، وأما هذا فبرز الى القتال يطلب الموت ، وتقدم الصوفون ينافح ويكافع وما زال يخوض غمرات المانيا الى أن أصيب بجرحين كبيرين ، فاللتزمت حاشيته أن يرجعوا به ، ولكن القتال بقي مشتدا وتتابع الفريقان على الموت ، وتحاجزوا وتناجزوا ، وإذا بفارس مغربي زميـت المنظر شديد الروعة راكبا جواداً ادهم كالليل الحالـك قد أحـدق به أبطـال من غـمارـة ، ووـثـبـ كالـاسـدـ الـحـارـدـ ، فاختـرقـ مصـافـ الاسـپـانـيـوـںـ وهـزـمـ منـ لـقـيـهـ ، فـاشـتـدـ بـهـ بـأـسـ الـمـسـلـمـيـنـ وـرـاجـعـواـ بـصـائـرـهـمـ ، وـنـبـهـواـ عـزـائـمـهـمـ ، وـحـمـلـواـ حـمـلةـ الرـجـلـ الـوـاحـدـ فـاخـتـلـ مـصـافـ الـاعـدـاءـ عـلـىـ كـثـافـةـ جـمـوعـهـمـ ، وـكـانـ هـذـاـ الفـارـسـ هوـ حـامـدـ الزـغـبـيـ فـانـكـشـفـ الاسـپـانـيـوـںـ منـ جـهـةـ الـوـادـيـ ، وـكـادـ صـاحـبـ قـادـسـ يـقـعـ فـيـ الـاسـرـ ، فـبـادـرـ الـمـلـكـ فـرـدـيـنـانـدـ بـقـيـةـ الـجـيـشـ وـالـىـ جـانـبـهـ اللـورـدـ سـكـالـسـ الـبـطـلـ الـانـكـلـيـزـيـ وـمـعـهـ غـزـةـ الـانـكـلـيـزـ يـقـاتـلـونـ بـالـفـؤـوسـ عـلـىـ عـادـةـ بـلـادـهـمـ ، وـلـمـ يـكـنـ ذـلـكـ مـعـهـوـدـاـ عـنـدـ الـمـغـارـبـ فـذـعـرـوـاـ وـجـرـحـ الزـغـبـيـ ،

(١) تجاف عن طريقة : عدل عنها .

فاحتملوه الى المدينة وارتخت عزائمهم فنكصوا الى الارباض وألح عليهم الاسپانيووں فاشتد العراق وراجع المسلمين ضمائرهم وصدقوا الحملة فكشفوا العدو ، وجرح اللورد الانكليزي ، وحمل الى الخيام فنصب الطاغية مدافعاً وأخذ يرمي البلدة بالنيران الدائمة ، فهدم أسوارها وحاول أهلها ترميم حدرانها ، وسد فرجها ، فلم يفلحوا ، وكان النساء والاطفال والشيخوخ تحت نيران المدافع يصابرون على مر الحمام ، فيئس من ذلك المسلمين وحملوا على الاسپانيووں فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، واستمرروا يفتكون بهم ليالتين ويوماً ، لكن تهدم بلدتهم وموقفهم بازاء النيران المحرقة ، اضطراهم أخيراً الى التسلیم ، على شرط الانصراف آمنين فاجبوا الى ما سأله وخرجوا الى رياغو على ثلاثة ساعات من لوشة .

وهاك ما رد في النفح بشأن ما تقدم ببعض تصرف قال :

« ثم انتقل (أي الطاغية) في جمادى الاولى الى رندة وحاصرها وكان أهلها قد خرجن الى نصرة ذکوان وسوهاها فحاصر رندة وهد اسوارها وخرج أهلها على الامان وطاعت له جميع البلاد ولم يبق بغربي مالقة إلا من دخل في طاعته وتحت ذمته وضيق بمالقة وفرق حصصها على بعض الحصون ليحاصر مالقة وعاد الى بلاده .

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطة لتحصين بعض البلاد ، وبينما هو كذلك اذ بالخبر جاءه ان محلة العدو خارجة لذلك الحصن ، وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن ، كانوا قد سروا اليه ليلاً ، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين ، فقاتلهم المسلمون من غير تعية ، فاختل نظام المسلمين ، ووصل النصارى الى خباء السلطان ، ثم التحزم القتال واشتد وقوى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شر هزيمة ، وقتلوا منهم خلائق ، وقصر المسلمين خوفاً من محلة سلطان النصارى اذ كانت قادمة في أثر هذه ، ولما رجعت اليهم الفلول رجعوا القهرى ، واستولى

ال المسلمين على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كله بالحصن ، ولم يحدث شيء بعد الى رمضان ، فتوجه العدو لحصن قبيل ، ونازله وهد أسواره ، ولما رأى المسلمين ان الحصن قد دخل طلبا الامان ، وخرجوا بأموالهم واولادهم وفر الناس من تلك المواقع ، واستولى العدو على عدة حصون مثل مشافر وحصن اللوز ، وضيق بجميع بلاد المسلمين ولم يتوجه لناحية الا استأصلها ، ثم إن العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوة فبعث الى السلطان أبي عبد الله الذي تحت اسره وكساه ووعلده بكل ما يتمكنه ، وصرفه لشريقي بسطة ، واعطاه المال والرجال ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين فإنه في الهدنة والصلح ، وخرج لبلش فأطاعه أهلها ، ونودي بالصلح في الاسواق ، وصرحت به في تلك البلاد الشياطين ، وسرى هذا الامر حتى بلغ ارض البيازين من غرناطة ، وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى ، وتبعهم بعض المفسدين المحبين لفريق كلمة المسلمين ، ومن مال الى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة ، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماسرتها بتقبيح وتحسين الى ان قام ربض البيازين بدعاوة السلطان الذي كان مأسورا ، ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها ، لما أراد الله من استيلاء العدو على تلك الاقطار ، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة ، وعظم الخطب وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الاول عام احد وتسعين وثمانمائة ودامت الفتنة الى منتصف جمادي الاولى من العام ، وبلغ الخبر إن السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على لوحة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزغل صاحب قلعة غرناطة ، بان العم يكون له الملك وابن أخيه تحت ايالته ولوحة او بأي المواقع احب ، ويكونون يداً واحدة على عدو الدين ، وبينما هم كذلك اذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدد وعدد ونازل لوحة ، حيث السلطان ابو عبد الله ، وضيق عليها الحصار وقد كان دخلها جماعة من اهل البيازين بنية الجهاد ولم يغضده ولهم ، وخاف أهل غرناطة وسواها من ان يكون ذلك حيلة فلم يأت لنصرتهم غير البيازين (انظر الى ما تجنبه الفرقة واختلاف النية من

ثمرة التخاذل) واشتد عليهم الحصار وكثرت الاقاويل بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة، ودخل على أهل لوشة في ربضهم وخفوا من الاستئصال فطلبوا الامان في انفسهم واموالهم، فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك وأخذ البلد في السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وهاجر اهل لوشة الى غرناطة . وبقي السلطان ابو عبد الله بلوشة فصرخ عند ذلك اهل غرناطة بأنه ما جاء لوشة إلا ليدخلها العدو ، وقيل إنه سرح له حينئذ ابنه الذي كان مرهوناً في الفداء ، ثم رجع صاحب قشتالة الى بلاده ومعه السلطان المذكور وفي نصف جمادى الآخرة خرج الى البيرة فهد بعض الاسوار، وتوعد الناس ، فاعطاه أهلـ الحصن على الامان ، فخرجوا وقدموا على غرناطة ، وانتقل للصخرة فأخذها ، وحضر هذه الحضون كلها وشحنتها بالرجال والعدة ، ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة ، ثم عاد لبلاده وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بان من دخل في حكمـه فهو في الامان ، واعشاـوا أنـ ذلك بسببـ الفتنة وقعتـ بينـهـ وبينـ صاحـبـ افـرنـسـيةـ ، فـخـرـجـ لـبـلـشـ وـأـطـاعـهـ ثـمـ بـعـثـ لـمـنـ وـالـاـهـ مـنـ الـبـلـادـ اـهـ اـتـىـ بـصـلـحـ صـحـيـحـ وـعـقـدـ وـثـيقـ ، وـانـ مـنـ دـخـلـ فـيـ حـكـمـهـ فـهـوـ فـيـ الـامـانـ فـلـمـ يـقـبـلـ النـاسـ ذـلـكـ الاـ القـلـيلـ مـنـهـ مـثـلـ اـهـلـ الـبـيـازـينـ فـلـهـجـوـ بـهـذـاـ الصـلـحـ وـأـقـامـوـ عـلـىـ صـحـتـهـ الدـلـائـلـ وـتـكـلـمـوـاـ فـيـ اـهـلـ غـرـنـاطـةـ بـالـكـلـامـ الـقـبـيـعـ مـعـ تـمـكـنـ الـفـتـنـةـ وـالـعـداـوـةـ فـيـ الـقـلـوبـ ، فـبـعـثـ لـهـ اـهـلـ الـبـيـازـينـ اـنـ اـذـ قـدـمـ بـهـذـهـ الـحـجـجـ اـتـيـعـ النـاسـ وـقـامـوـ بـدـعـوـتـهـ مـنـ غـيرـ التـبـاسـ فـاتـىـ عـلـىـ حـيـنـ غـفـلـةـ وـلـمـ يـكـنـ يـظـنـ اـتـيـانـهـ بـنـفـسـهـ . فـدـخـلـ الـبـيـازـينـ وـنـادـىـ فـيـ اـسـوـاقـهـ بـالـصـلـحـ التـامـ الصـحـيـحـ ، فـلـمـ يـقـبـلـ ذـلـكـ مـنـهـ اـهـلـ غـرـنـاطـةـ وـقـالـوـ : مـاـ بـعـهـدـ لـوـشـةـ مـنـ قـدـمـ . وـدـخـلـ رـبـضـ الـبـيـازـينـ بـالـرـجـالـ سـادـسـ عـشـرـ شـوـالـ سـنـةـ إـحـدـىـ وـتـسـعـينـ وـثـيـمانـيـةـ وـعـمـهـ بـالـحـمـراءـ ، وـاشـتـدـ أـمـرـ الـفـتـنـةـ ، وـأـمـدـ صـاحـبـ قـشتـالـةـ صـاحـبـ الـبـيـازـينـ بـالـرـجـالـ وـالـعـدـةـ وـالـبـارـودـ وـاشـتـدـ أـمـرـهـ بـذـلـكـ وـعـظـمـتـ أـسـبـابـ الـفـتـنـةـ ، وـفـشـاـ فـيـ النـاسـ الـقـتـلـ وـالـنـهـبـ» ، اـنـتـهـىـ .

وفي رواية المقربي اختلاف مع الروايات الافرنجية في بعض المظان من

تقديم وتأخير وتصغير وتكيير ، كما لا يخفى على من تدبر النقلين وقال مؤرخو الاسپانيول : « ثم زحف فرديناند نحو (ايلورا) الواقعة على ستة عشر الف متر فقط من غرناطة ، فضيق عليها ، ورمها بالنيران ، فسلمها سكانها وخرجوا ، وكان حصن متن فريد من أمنع حصون المغاربة ، وقد حفر الزغل حوله الخندق وارسل من فيه من النساء والولاد الى غرناطة ، فأناخ عليه فرديناند يرميه بالمحرقات حتى اشتعل مخزن البارود . وفي (النفع) يقول « دار العدة ، وتهدمت المنازل ، وهلك الناس فطلبوا الامان وخرجوا الى غرناطة ودخل ملوك النصارى الحصن . ووجدوا فيه جملة وافرة من أسرى المسيحيين هذا والزغل لا يتحرك من مكانه بالحمراء ، خوفاً من انتقام أهل البيازين الذين كان لهم مع نساء القصر السهم الاوفر في اسقاط تلك السلطة » .

وزعموا أن قائدي متن فريد وايلورة كانوا اخوين وكانا اخوين في البأس كما في النسب والمغاربة يحبونهما كثيراً لقادامتها وبعد تسليم الحصين تبدلت محبتهم قلي ، فيئساً من الحياة ، وشرعاً يجدان في استعادة متزلمهما ، واستأذنا السلطان في نزال النصارى ، فعقد لهما على جيش وافر وخرجوا للجهاد ، فالتقى بالاسپانيول عند جسر بينوس على مسافة ساعتين من غرناطة ، فكانت ساعة مؤرخة في وقائع حروب الدنيا ابدي فيها الاخوان من حسن البلاء ، وصدق الجlad ملا يدخل تحت وصف ، فكانا كييفما حملان في مصاف العدو اختلت امامهما الصفوف ، وتهاوت امامهما الابطال ، وكان مركيز قادس قائداً الطليعة فأوشك أن يولي منهاما ، فاسرع لاغاثته كونت قبرة فلم يقض أربا ، فبادر الدون جويان ابن أخي الملك فلم يشف غليلا ، فوافاهم الطاغية الكبير بنفسه ، وبيافي جيشه ، فرد المغاربة بكثرة العديد ، وبقي الاخوان المستميتان يقاتلان في مقدمة الجند ، وقد احاط بهما شرذمة من انجاد الغارة الى ان وقعا صريعين الواحد بعد الآخر ، فعظم الخطب فيما ، واشتدت النكبة بموتهما ، وبكاهما اهل غرناطة بسيول الدموع .

وعاد فرديناند الى قرطبة بعد أن اجتاز مرج غرناطة ، واخني على نصارته ، ولم يكدر يخلص الى بلاده حتى استؤنفت الفتنة في غرناطة بين الزغل وابن أخيه ، وكان ما كان من حضور أبي عبد الله الى البيازين وقيام دعوته فيها ، واستمرار القتال بين الفتتنين أياماً حتى قيل إن السلطانين تبارزاً بانفسهما في اسواق غرناطة فلم يفز أحدهما بالأخر .

وصول خبر الاندلس الى المشرق والاتفاق على الاغاثة

وذكر مؤرخو الفرنجة ان اخبار الاندلس كانت وصلت الى المشرق فارتاج لها العالم الاسلامي ، ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر . فهادنا ، ووقع الاتفاق على أن يرسل بايزيد اسطولاً على سواحل صقلية لكونها تابعة مملكة أسبانية ، وان يجهز صاحب مصر بعونا من جهة افريقيه .

خوف فرديناند وسقوط بلش

فلما أحس بذلك فرديناند وايزابلا أجمعاً على سد الثغور البحرية كلها عن غرناطة قطعاً للامداد ، ولما كانت مالقة هي الثغر الاعظم ، وميناء الاندلس ومركز التجارة مع مصر والشام ، ومنها كانت تسرب الاموال والأسلحة والجنود والخيول من تونس وطرابلس وسائر المغرب ، كان أول ما أعملا فيه الاستيلاء على مالقة ، ولكن قبل النزول على مالقة عزماً على أخذ بلش القريبة منها ، ففي ربيع سنة ١٤٨٧ زحف الطاغية بعشرين الف فارس وخمسين الف ماش ، قسمها قسمين : أحدهما بقيادة صاحب القنطرة والثاني قاده بنفسه وأخذ الاول بطريق الوادي ، وسار الثاني بطريق الجبل ، وامامه نحو أربعة الآف من الصناع ومهدى الطرق ، فلم يزل حتى أطل على مرج بلش وجنانها ، وهي من أزهى بقاع الارض وابعد أقاليم الدنيا ، وقد ارتفعت في حفافيها الحصون والابراج ، وهناك قوم من الجبلين اهل شدة ونجد ، فما خيم الملك حتى انقضوا عليه من وراء الصخور ، انقضاض النسور من الوكور ، فهزموا طائفة من جنده واستلهموا جماعة فقتل

جملة وافرة من أبطاله وأصيب ابن دوق براجانس بجراحة ، ثم أرسل جنودا للمحافظة على الذخيرة الآتية بطريق الجبل ، فلم يتمكنوا من حفظها واصابها المغاربة ، وابعدوا في معسكره النكایة ، وأخذوا يضرمون النيران في الليالي على رؤوس الجبال اشارة بعضهم الى بعض على حد ما قال :

وضعوا السلاح الى الصباح واقبلا يتكلمون بألسن النيران

وكبسوا معسكر الطاغية بياتا مراراً جمة ، وأخيراً تجمعوا من كل ناحية وهاجموا المعسكر ، وبعد قتال عنيف ارتدوا الى جبالهم ، هذا وال الحرب الداخلية لم تزل قائمة على سوقها في أسواق غرناطة ، فلما شاهد المسلمون ما هم عليه من الغفلة والاشغال بمناظرة بعضهم البعض ، أحوج ما كانوا الى الانضمام والوئام شددوا النكير على السلطانين ، ونصحوا لهما بالعدول عن الشأن الذي هما فيه ، فأبى أبو عبد الله التخلّي لعمه عن الملك وأصر على المطالبة غير متأمل في عواقب هذه الحال التي ستزعزع الملك منه ومن عمه ومن جميع أهل بيته وملته في أرض عمروها ثمانية قرون ، الا ان الزغل لم يصبر عن نجدة بلش فابقى في الحمراء حامية كافية لدفع ابن أخيه المشؤوم ، وخرج ليلاً بالف فارس وعشرين ألف ماش ، واجتمع اليه من أهل الجبال أعداد ، وعلا الصوت في الربي والوهاد ، « الزغل الزغل » فوقع الرعب في قلوب الاسپانيوو ، وكانت مدافعة الطاغية في الطريق ، فحاول رضوان المكناسي استخلاصها ، فلم يفز بطائل ، وكتب الرغل الى قائد بلش ، يأمره انه عندما يشاهد النار ليلاً يخرج من احدى جهات المدينة ، وهو يقابلها من الجهة الثانية وكان الرسول من المتمسلمة فوقع الكتاب في يد فرديناند فخاف جداً وخافت الملكة اكثراً منه ، ولكن أفادهما الظفر بذلك الكتاب عدم وقوف قائد بلش على أمر الزغل ، فبقي في المدينة لا يبدي حركة وتقدم الزغل نحو معسكر الاسپانيوو فلم يجدوا أحداً خرج من البلدة ، فلم ينكصوا على أعقابهم بل اقتتلوا اقتتالاً شديداً وانتظر المغاربة ، ان يخرج اهالي بلش لمساعدتهم ، فطال الامد ولم يبرأ أحد ، فأصابهم الهلع وتقهقرت وتقدم صاحب

قادس فتبوا مربقا عاليا ركب فيه ريحهم ، فاجتهد الزغل في ضم شملهم فلم يفلح ، فعاد بهم إلى غرناطة ، ولما طار الخبر إليها بما حل به من الفشل بايع أهلها ابن أخيه ، فضرب هذا اعناق اربعة من اعيان الغرناطيين انصار عمه ، ولما بلغ الزغل نهر شنيل الخبره بعض حواشيه أن الحضرة بايعت ابن أخيه ، فتحول إلى المرية فالمنكب فوادي آش . ولما أصبح أهالي بش وقد رأوا الزغل أقلع بعسکره عنهم وهم عزائمهم فعولوا على التسليم ، وعقدت شروط الصلح بين رضوان قائد البلدة ، وبين الكونت دوسيفونتاز صاحب شريش الذي كان أسيرا في بش ، وخرج أهل بش باموالهم إلى غرناطة ، وانطلق اسرى الإسبانيول ، وأطاعت جبال البشرات ونحو أربعين بلدة فيما قيل بنواحي مالقة ، وطالبو حماية الطاغية وصار المسلمون في جميع هاتيك النواحي مدجنين .

وقال صاحب (فتح الطيب) بشأن الحوادث المتقدمة ما ملخصه « إن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكب وبlesh ومالقة وجميع الأقطار وتجمعوا بغرناطة ، وتعاهدوا وتحالفوا على أن يدهم واحدة على عدو الدين ، ونصرة من قصده العدو من المسلمين ، وخفاف صاحب البيازين ، فبعث لصاحب قشتالة في ذلك ، فخرج بمحله قاصداً نواحي بش ، وبعث صاحب البيازين وزيره إلى مالقة وإلى حصن المنشأة ؛ يذكر ويحوف ومعه النسخة من عقد الصلح ، فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته خوفاً من صاحب قشتالة وطمعاً في الصلح ، ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدسوة والسبب الحامل لهم على ذلك ، فلم يرجع أهل بش عمما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الاندلس من العهود ، وخرج صاحب قشتالة قاصداً بش مالقة ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنين وتسعين وثمانمائة ، وحاصرها ولما صر عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس فشاروا بالمسير لاغاثة بش للعهد الذي عقدوه ، واتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات ، وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ، ووصل بش فوجد العدو نازلاً عليها براً وبحراً فنزل بجبل هناك وكثير لغط

الناس ، وحملوا على النصارى من غير تعبية ، وحين حركتهم للحملة بلغ السلطان الزغل ان غرناطة بايعت صاحب البيازين ، فالتقوا مع النصارى فشلوا ، وقبل الالتحام انهزوا وتبعدت جموعهم ، مع كون النصارى خائفين وجلين منهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، فرجعوا وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان ، فقصدوا وادي آش ، وعاد النصارى الى بلش ، ودخلوا ربضها عنوة ، ولما رأى أهلها تکالب العدو عليهم ، وادبار جيوش المسلمين عنهم ، طلبوا الامان ، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الاولى من السنة واطاعت النصارى جميع البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش » انتهى .

حصار مالقة ومحاولة تسليمها صلحا

ثم ذكروا أن فرديناند أجمع على حصار مالقة ، وكانت من قواعد سلطنة غرناطة وميناء الاندلس وثغرها المحروس كما تقدم الخبر ، وهي مبنية في قعر واد خصيب فاتح فاه لجهة البحر ، تمنعها الجبال والابراج والاسوار من البر ، والامواج المتكسرة على الاسوار من البحر ، وعلى رابية في أحد طرفي المدينة القصبة (دار الحكومة باصطلاح المغرب) وفوق القصبة صخرة شامخة عليها المنارة البحرية المسماة بالفار ، ولها وراء السور ربستان ، وأما المناوح^(١) منها للبحر فجنات معروشات وغير معروشات ، ومنازل رحبات ، وأما المقابل للبر فكان مشتبكا بالعمارة متصل البيوت . وكان لمالقة حامية وافرة مجربيون في الحروب ومعتدلون لقاء الاهوال ، وأهلها من ذوي الحركة والنشاط والعمل والحزم أكثرهم تجار وفيهم عدد من ذوي اليسار ، وفي مقدمة هؤلاء التجار الموسرين رجل يقال له علي دردوق له عدة سفن تجارية تസافر الى جميع موانئ الشرق ، وله في ثغر مالقة الكلمة العالية والرأي المقدم ، فجمع هذا عصبة من كبار القوم وسار الى قائد القصبة وبين له عقم الدفاع وخلو المقاومة من كل

(١) المناوح : المقابل

جدوى ، وان الاجدر بهم قبول دعوة السلطان أبي عبد الله حليف الطاغية ، فرضي القائد وسار الى خيام الاسپانيوں للمكالمة في شروط التسلیم وترك القيادة لأخيه .

حامد الرغبي وجماعة الزغل يأبون الاستسلام

وكان حامد الرغبي المشهور بـلدد العداوة للنصارى ، قائد موقع المئارة البحرية ، وعنده من بنى غماره طائفة كلهم على شاكلته من شدة البأس وصعوبة المراس ، فطارت عقولهم عندما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة واستنفروا من كان باقيا من أهلها على عهد الزغل ، واستدعى حامد الخواص الى حضرته فحضروا جميعا ، ولم يختلف منهم الا دردق الأنف الذكر ، فقرروا وجوب الدفاع ونقضوا ما أبremه قائد القصبة بـ تمامه .

وكان صاحب قادس قد عرف في بلش مالقة رجلا شهيراً، من تجار المغاربة ، وعده بقتل نؤابه حامد عن المقاومة فعرض الامر للملك ، ففوضه بالعمل وأركبه المركيز جواده ، وقلده سلاحه ، وارده بمغربي آخر من انسبياته بكتب يعرض فيها على حامد مدينة كوهين مع أربعة الآف ذهب ان سلم قصر المئارة أو جبل نارو ، وان رضي بـ تسليم البلدة كلها كان جزاً اعظم ، وكان حامد يحترم مركيز قادس احترام الابطال بعضهم لبعض ، فأكرم الرسل واصغى اليهم لكنه رفض خيانة ملته ووطنه رفضاً باتا ، فكرر فرديناند الرسالة فـ كـاد الـ اـهـالـيـ يـقـبـلـونـ بـالـصـلـحـ لـوـلـاـ مـاـ قـالـ حـامـدـ لـلـرـسـوـلـ وـهـوـ :ـ «ـ اـذـهـبـ وـقـلـ لـسـيـدـكـ اـنـيـ قـدـ تـسـلـمـتـ مـدـيـنـةـ مـالـقـةـ لـاـحـمـيـهـ لـاـ لـأـسـلـمـهـاـ»ـ فـعـنـدـمـاـ يـئـسـ فـرـدـيـنـانـدـ مـنـهـمـ قـدـمـ المـدـافـعـ ،ـ وـزـحـفـ بـالـجـيـشـ وـقـابـلـهـ أـسـاطـيـلـهـ مـنـ الـبـحـرـ فـاحـرـقـ حـامـدـ الـأـرـبـاضـ ،ـ وـسـيـرـ ثـلـاثـ فـرـقـ لـمـصـادـمـةـ الـعـدـوـ ،ـ وـذـلـكـ اـنـ لـمـ كـانـ لـابـدـ لـلـأـسـپـانـيـوـںـ مـنـ الـمـرـورـ بـمـضـيقـ بـيـنـ قـصـرـ الـمـئـارـةـ وـالـجـبـلـ ،ـ اـمـرـ الرـغـبـيـ فـرـقـةـ مـنـ جـيـشـهـ بـاـحـتـلـالـ الـمـضـيقـ ،ـ وـفـرـقـةـ أـخـرـىـ بـاـحـتـلـالـ الصـخـرـةـ الـمـشـرـفـةـ ،ـ وـفـرـقـةـ ثـالـثـةـ بـالـتـزـوـلـ بـالـجـهـةـ الـبـحـرـيةـ .ـ

القتال وصمود مالقة

وانتشتبت الحرب بداية في المضيق المذكور ، وتصارعوا قرنا لقرن ، وعولوا على القتل اكثر من الاسر ، وتلاحقت النجادات للمسيحيين ، فعظهم سوادهم ، واشتدت وطأتهم ، لكن المغاربة ثبتو في موافقهم ، وفلوا حدودهم ، فالزموهم الرجوع ، فنكصوا على أعقابهم ، ولما يقضوا وطرا ، وكان فردیناند مستغلا بتركيب مدافعه وتصويبها مما اقتضى من المشقة مالا يوصف ، فلما تم له ذلك رمى البلدة بالنيران ، وظاهرته الحرارات من البحر ، وارتفع دوي المدافع ولكن المدينة قاومت مقاومة شديدة ل蔓ة أسوارها ، ومنعة موقعها ، ولم تؤثر النيران الا في برج واحد كبير تداعى اكثره للخراب ، فاهتبوا الصارى فيه الغرة وتسلقوه ، فدحرهم المسلمون أول مرة وأهلوا منهم خلقاً كثيراً ، فحملوا ثانية وصدقوا الحملة فازاًحوا المسلمين ، وملكوا الحصن ، فتجمع المسلمون وحملوا عليه ، واحتferوا عند ركنه أخدوداً ووضعوا النار في الاخدود فخر منه جانب ، وهلك بسقوطه جم غفير من الاسبانيول ، ففتحوا منه ثغر لجهة معسركهم ، يتسرب لهم بها المدد وبقي الفريقان يراوحون القتال ، ويغادونه يومين وليلتين ، وانكفا المسلمين ، ولم يتمكنوا من الحصن ، واشتدت عزائم الاسبانيول بأحده ، ولكنهم لم يطمعوا في مهاجمة المدينة لما فيها من الجيوش المدرية على القتال ، وطال بهم المقام ، فسئموا وتبروا وخافوا العاقبة ، ووقر في نفوسهم من خوف الزغبي وطائفته ما آل بهم الى القنوط ، ففر منهم جماعة وافرة الى المدينة وانضموا الى المسلمين ، وانذرواهم عن ضيق الحالة بالنصارى وبالغوا في الحكاية فثارت الحمية برأوس هؤلاء فأخذوا يندلعون على الاسبانيول اندلاق السيوف من الاغماد ، ويندفعون اندفاع السيول من الانجاد ، فلا يلقونهم في مأزق ، الا مزقوا شملهم كل ممزق .

فرديناند يجدد طلب التسلیم

وأتصل بفرديناند ان النصارى الخائنين بشروا حامداً بكون الملكة ترجمت زوجها كثيراً برفع الحصار عن مالقة ، فذهب الى تقطيع آمالهم باستدعاء الملكة الى المعسكر فجاءت وصحتبها ابنتها ، وبعد وصولها راجع حامداً في التسلیم ، فجده حامد الرسل وانكر الامر وترجاه بعض الخواص بالقبول ، فقيل انه قتلهم ، فأمر الطاغية باطلاق المدافع فاطلقن نيرانها دراكا ، واتفق ان حضر الملك والملكة الى معسكر صاحب قادس ، فجرب في حضرتهما بعض مدافعي الكبار ، ولم ينشب ان ابصر الرأية التي فقدتها في جبال مالقة وهي تحفظ فوق برج قريب من جبل فارة او المنارة ، فأثر ذلك في خاطره ولج في اطلاق النيران ، ثم تقدم بالجند نحو ذلك الحصن وطبع في أخذه ، فانهال عليه الف مغربي من ذؤبان الجيش فذبحوا أجناهه ذبح الشياه ، وهزموا من سلم منهم فتلحق المدد للنصارى ، فاعادوا الكرة والتجم الفريقيان وهلك منهما خلق كثير ، وتولى الصبر مقام المغاربة فقاد المركيز ينهزم ثانية ، وكادت رايته تقع أيضاً في يد العدو لولا أن قائداً تلك القطعة من جيش المسلمين ابراهيم بن زناتة جرح في معمدة القتال ، فعاد به قومه الى الحصن ، وأرسلوا من هناك وبالهم فنالت من الاسپانيوں ، وتقهقر عسكر المركيز وفشل فيه القتل وهلك في هذه الوعة اورتاغو دوبرادوا الفارس الشهير أول من تسلق قلعة الحامة فكان يوماً شديداً على الاسپانيوں .

القتال المرير من جديد

ومن ثمة أصبح الكفاح بين الفريقين يأس المرء من الحياة ، ومباعدة الارواح في أسواق المنايا ، وتهالكت المقاتلة وتكالب الجندي بعضهم على بعض ، وشرع حامد يرمي المتهم من أسوار المدينة ، حتى أنه عزم على بناء ست سفن حراقات بقصد الهجوم على اسطول الاسپانيوں ، وأما الملك والملكة فاستجلبا الذخائر والأقوات من جميع مدن اسبانيا ، وأمراً ببناء ابراج من الخشب

يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب ، ولها سالم لأجل التسor والنزول ، وعقب ذلك بحفر الخنادق ونقب الاسوار وحشرا لهذه الغاية الفعلة والصناع ، واستكثرا من العدة والآلة ، وقام العمل على قدم وساق وحامد لا يترك للمحاصررين راحة ولا يمهلهم فوaca ، بل يغاديمهم التزال ، ويرأوحهم ، حتى ملوا وامتلأت الخيام بالجرحى والمرضى ، ثم لم يلبث أهل مالقة ان اكتشفوا الحفر التي أداروها على جدران المدينة ، فحفروا بازائها ونقبوا تحت الارض الى أن اتصل بعضها ببعض ، فكان الفعلة يتلاقو من المسلمين والنصارى في تلك الدهاليز ويتصارعون في بطن الارض صراعهم فوق ظهرها ، الا أن الظهور كان للمسلمين هناك دائما ، وكان الاسپانيول يخرجون من اخاديدهم مدحورين وبهال على ما حفروه .

تفشي الجوع في مالقة

ثم تجمع المحصرون وحملوا من البحر والبر حملة واحدة ، واستمر القتال ست ساعات فلم يكشفوا العدو ، وعادوا الى مراكزهم وكان الجوع قد فشا في مالقة ، وانقطع عنها المدد وسدت دونها المسالك ، وفنيت في أهراها الغلال فاشتد الضيق بالناس ، واجتمعوا عند علي دردق ، واجمعوا على مراسلة الطاغية ، في أمر التسليم بشرط الامان على التفوس والنفاث ، وانفذوا بالرسالة رجال آبائهم بجواب شاف طبق ما يشتهون فشعر به أصحاب حامد فرشقه بالسهام فأصيب وانهزم صوب مخيم الاسپانيول .

الزغل يسير جيشا لنجد مالقة فینهزم امام ابن أخيه

هذا ولما رأى أهل وأدي آش ما حل بأهل مالقة من الضيق سألوا السلطان الزغل الميسير لنجدتهم . فساعدهم فيه ، وحشد جيشا وجهز له ما يلزم وبلغ ذلك السلطان أبا عبدالله ابن أخيه ، فأرسل جيشا لمعارضة جيش عمه في الطريق اثناء لاماته وتأكيداً لصداقته لملوك النصارى ، ولم تأخذ رأفة ببناء جلدته ، وقضى الله

ظهور أصحاب أبي عبدالله الملقب بالشقي، فقفز جيش الزغل الى وادي آش، وفرح أبو عبدالله فرحاً جزيلاً بهذه النصرة وبعث بالشائر مع تفصيل الواقعه الى فردیناند وایزابلا ، وأسنى الهدية فجاوباه شكرأً وتمجيداً وظن انه قضى بذلك وطراً ، لكنه أونغر عليه بهذه الفعلة قلوب المسلمين ، فمال عنه كثير من حزبه وخاف على نفسه ، فأرسل يستمد فردیناند فأمده بالف فارس وعشرة آلاف راجل لاجل حراسته . لعمري جدير بملك كهذا أن يكون آخرأً لملوك قومه .

وفي هاتيك المدة وصل وفد من ملك تلمسان إلى فردیناند وايزابلا بهدايا فاخرة ، وقد تضمنت رسالتهم الكلام في شأن أهل مالقة فاستقبل الملك وامراته ذلك الوفد براً وترحيبا واقتصر على ذلك، واشتد الجوع بأهل مالقة وأكلوا الخيل وهلك منهم سغبا خلق كثير .

النجدات تترى الى مالقة والي فرديناند

ثم ظهر من وادي آش رجل يدعى بابراهيم ، ويلقب بالصانع أولي ؛
فلما رأى رجوع عساكر الزغل عن نجدة مالقة ، أخذ يطوف في أسواق وادي آش
مناديا إن الله أوحى اليه كيفية خلاص مالقة فسألوه عن كيفية خلاص مالقة فاجتمع
حوله اربعمائة رجل من أولي النجدة وساروا بصحبته الى تلك المدينة ، فرأوا أوفق
مكان للدخول جهة معسكر المركيز صاحب قادس فهجموا عليه ، فمنهم من قتل
الخفراء . ومنهم من ألقى بنفسه في البحر ، ثم تصور جدران البلدة بلغ منهم
مائتان المدينة وانهزم الباقيون .

اما الصانتو فلم يغش الكريهية بل دلف اليه الاسپانيوں فوجدوہ ساجدا قانتا
لا یتحرك ، فأخذوه الى المركیز فسأله عن حاله ، فأجابه انه ولی الله وان الله تعالى
قد کاشفه بفتح مدینۃ مالقة ، فسأله عن كيفية ذلك فأجابه انه نھی عن کشف ذلك
السر ، الا للملوک ، فأرسله المركیز الى الملك والملکة وكان فردیناند قد طعم
ونام فلم ینبهوہ وقادوا المغربي الى سرادق المركیزة موبیا والدوق الفارو دوبرتغال ،

فتتشابه هذان عليه بالملك والملكه لما رأى من اجلال الجند لهما وما شاهد من الرياش الفاخر في فسطاطهما فطلب ماء ليشرب ، وبينما هو يمد يده لتناول القدح اذ استل من تحت جنبه شفرة فاجأ بها الدوق بضرره فصرعه ثم أراد أن يثني على المركبزة فاختطأها وقع خنجره في نصائـد الديباج ، فوثب عليه الجنـد وقتلـوه ، وافحـشـوا المثلـةـ في جـسـدـهـ وـطـرـحـوـهـ إـلـيـ أـهـلـ مـالـقـةـ ، فـأـخـذـهـ غـمـارـهـ وـغـسـلـوـهـاـ وـدـفـنـوـهـاـ بـكـلـ اـكـرـامـ ، ثـمـ ذـبـحـوـاـ أـحـدـ كـبـراءـ الـإـسـبـانـيـوـلـ الـمـأـسـوـرـيـنـ عـنـدـهـ ، وـنـاطـوـاـ جـثـتـهـ بـذـيلـ حـمـارـ وـسـرـحـوـهـ بـهـاـ إـلـيـ مـعـسـكـرـ الـمـسـيـحـيـيـنـ .

فارتاب النصارى من ذلك وزادوا عدة الحرـسـ على فـسـطـاطـ الملـوكـ وـاـمـرـواـ جـمـيعـ المـدـجـنـيـنـ ايـ المـغـارـبـةـ الـخـاصـعـيـنـ بـالـاـنـصـرـافـ منـ الـمـعـسـكـرـ ، وـلـمـ يـمـتـ اـبـراهـيمـ الـوـليـ حـتـىـ قـامـ فـيـ مـالـقـةـ وـلـيـ آـخـرـ وـادـعـيـ مـثـلـ دـعـوـاهـ ، وـنـشـرـ رـاـيـةـ فـرـعـعـهـ حـامـدـ فـوـقـ الـاـبـرـاجـ تـشـدـيـداـ لـلـمـحـصـورـيـنـ .

وفي تلك المدة حضرت النجـدـاتـ الـوـافـرـةـ لـمـعـسـكـرـ الطـاغـيـةـ ، فـكـانـ مـاـوـرـدـ منـ قـبـلـ دـوـقـ مـدـيـنـةـ سـيـدوـنـيـاـ ، مـاـ خـلاـ الـجـيـوشـ مـائـةـ سـفـيـنةـ دـخـلـتـ جـوـنـ مـالـقـةـ مـوـقـرـةـ بـالـمـيـرـةـ وـالـكـرـاعـ ، وـاـكـثـرـ مـنـ عـشـرـيـنـ الـفـ ذـهـبـ مـنـ الـنـقـودـ ، وـعـنـدـ ذـلـكـ رـاجـعـتـ الـمـلـكـةـ اـهـلـ مـالـقـةـ فـيـ اـمـرـ التـسـلـيمـ فـرـفـضـ حـامـدـ كـلـ الرـفـضـ وـمـنـعـ اـنـقـادـ الـصلـحـ ، فـعـزـمـ الـمـسـيـحـيـوـنـ عـلـىـ الـحـمـلـةـ الـعـامـةـ وـالـوـقـعـةـ الـفـاـصـلـةـ .

وـكـانـ عـنـدـ الـمـدـيـنـةـ جـسـرـ ذـوـ اـرـبعـ قـنـاطـرـ عـلـىـ كـلـ مـنـ طـرـفـيهـ بـرجـ شـاهـقـ فـتـولـىـ قـائـدـ الـمـدـفـعـيـةـ الـاـكـبـرـ فـرـنـسيـسـكـوـ رـاـمـيرـزـ اـفـتـاحـهـ فـحـفـرـ اـخـدـوـدـاـ تـحـتـ الـاـرـضـ وـجـعـلـ مـنـهـ مـسـرـبـاـ إـلـيـ الـبـرـجـيـنـ ، وـتـقـدـمـ بـالـجـيـشـ وـوـضـعـ الـبـارـوـدـ فـيـ الـاـخـدـوـدـ وـقـذـفـ بـنـيـانـ الـمـدـافـعـ فـاـصـابـ الشـرـ أـثـنـاءـ الـمـعرـكـةـ الـبـارـوـدـ الـذـيـ فـيـ الـدـهـلـيـزـ فـخـرـتـ طـائـفةـ مـنـ الـبـرـجـ وـقـلـ مـنـ حـمـاتـهـ جـمـاعـةـ وـفـرـ الـبـقـيـةـ فـاـسـتـولـىـ عـلـىـ الـإـسـبـانـيـوـلـ وـنـاشـبـوـ الـحـصـنـ الثـانـيـ .

القتال الاخير وسقوط مالقة

وكان الجوع قد عض أهل مالقة بنابه حتى طلبو لحم الخيل فلم يجدوه ، فاكروا الجلود وطبخوا الورق بالزيت ، وهلك منهم خلق كثير ، والتتجأ جماعة الى معسكر النصارى مؤثرين الرق على الموت جوعاً ، فعند ذلك توجه علي دردوق وجماعة من أعيان البلدة الى حامد فوجدوا عنده الدرويش المار الذكر ، فقالوا له اننا نتوسل اليك بالله وبرسوله أن لا تصر على مقاومة عقيمة من الجدوى ، فان أسوارنا دون أسوار رندة وقد تهدمت رندة .

وإن رجالنا ليسوا بأشد من رجال لوشة وقد سلمت لوشة ، وليس لنا في غرناطة كبير أمل ، فان سلطانها أبا عبدالله تابع لملوك النصارى ، وان الزغل عمه طريد منها شريده في وادي آش ، فما ننتظر ونساؤنا وأطفالنا يهلكون أمامنا جوعاً ، فأجابهم حامد علينا بعد هجمة اخيرة ، فلا تبظوا عزائمنا عنها ، وخرج في اليوم الثاني رافعا راية الدرويش ووراءه ابراهيم الزناتي ، وجماعة غمارة ورتب المصف وصعد النساء والولاد على أعلى الابراج لمشاهدة الواقعة الأخيرة وتراحت الصفوف وجاءت الهجمة على معسكر صاحب قلعة رباح ومعسكر صانتياغو فصدق المسلمين الحملة ، وهبت الريح المبشرة ، فخففت لها راية الدرويش ، وحمي الوطيس وتسابقت غمارة الى تسم الجنة ، وقاتلتهم بما يعرف من بأسها وصدق جلالها فانكشف الاسپانيول ، وطاردهم المغاربة بالقتل والاسر ، واذرعوا الفتى ، فوقع الرعب في قلوبهم ، وتداعوا من كل ناحية للفرار ، وبينما الامر كذلك اذخر الدرويش صريعا بحجر أصابعه ، وسقطت الراية فتطير المسلمين ، ونزل بهم الهلع ورجعوا أدراجهم فلما رأهم النساء مدبرين ارتفع عويلهن ونادين بالويل والثبور ، ولبث حامد سائرا الى معقله مع قومه الغماريين ، وانقطع أمل المغاربيين وعلوا على التسلیم فراسلوا الملوك ملتزمين الامان على النفوس والنفائس ، فلم يجابوا اليه وقيل لهم ان أيام الرأفة قد مضت ، فراجعوا في ذلك فأجيبوا بالاعراض أيضا حينئذ أرسلوا الى الملك

يقولون له انهم عزموا أن يشنقوا الفا وخمسمائة أسير مسيحي فوق السور ، ويجمعوا نسائهم وذارياتهم في القلعة ويحرقوا البلد ويخرجوا منه بالسيف مقاتلين إلى آخر نفس من حياتهم ، فعندما حسبوا بذلك حسابا، ورضوا منهم التسليم على ذلك الشرط ، ودخلوا مالقة وتبوا الحصون وبقي الزغبي ممتنعا في مكانه ، إلا أن جماعته جنحوا إلى التسليم من الجوع . والتزم أن يتبعهم فبعث إلى فرديناند بذلك فاجابه انه لا يناله إلا ما ينال أهل مالقة ، فلما استسلم غدر به ، وأخذ هو وأصحابه أرقاء وحينما سأله عن سبب مقاومته الشديدة أجابه أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني وسلطاني ولو طاوعني جندي ما أسلمت السلاح أبدا فغضب الطاغية وأمر به فحمل على الأدhem .

فرديناند يدخل مالقة ويحول مسجدها إلى كنيسة

وعندما دخل مالقة حول المسجد الأعظم كنيسة ، وقام بالقصبة واقامت الملكة بجبل فارة ، وبعد فتح المدينة اطاع غربي البلاد كلها وخضدت شوكة اهلها، وجدع مارن عزهم ، وسكنت سورة بأسمهم ، وأما السلطان أبو عبدالله فبعث يهنيء الملك والملكة بهذا الفتح ، ولم يكن هذا المسكين يدع فرصة لاظهار امانته الا ويتنهزها ، فلم تنفعه تلك الامانة الا حينما كان مظاهراً للطاغية على عمه ، وللاسبانيول على قومه ، حتى اذا خارت قوى مناظريه واستسلموا الى العدو ، وظن الامر قد استتب له نزلت الصاعقة على رأسه ، وأخذ من حيث كان يرجو الامن ، وختم به ملك آبائه ، وشقيت مئات من الالوف بشقائه ، ولم ينج من المحنـة سكان البيازين الذين ظاهروه على غيه ، وشاركونه في فساد سعيه .

وتأمل فيما قال المقرى بشأن حصار مالقة تجده منطبقاً على الرواية الفرنجية لولا شدة الاختصار قال: «وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين ، واتى إليها النصارى بالميرة ، ولما نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدتهم وزير صاحب البيازين ، وقاد شريش الذي كان مأسوراً عندهم فلم

يلتفت اليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فارة وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش ، وارتحل صاحب قشتالة الى مالقة ونازلها برأ وبحراً وقاتلها أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم ، وطال الحصار ، حتى اداروا على مالقة الخنادق من البر ، والسور والاجفان من البحر ، ومنع الداخل اليها ، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار ، وحاربوا حرباً شديداً وقربوا المدفع ، ودخلوا الارياض ، وضيقوا عليهم بالحصار الى ان فني ما عندهم من الطعام ، فأكلوا الماشي والخيل والحمير ويعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الاغاثة فلم يأت اليهم أحد (ولكن عهدي بالنضال قديم) وأثر فيهم الجوع ، وفسوا في أهل نجدهم القتل ، ولم يظهروا مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً ، الى أن ضعف حالهم ، ويسوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر ، فتكلموا مع النصارى في الامان كما وقع ممن سواهم ، فعودتبا على ما صدر منهم ، وما وقع من الجفاء ، وقيل لهم لما تحقق العدو التجاءهم : تؤمنون من الموت وتعطون مفتاح القلعة والحصن ، والسلطان ما يعاملكم الا بالخير اذا فعلتم ، وهذا خداع فلما تمكّن العدو منهم أخذهم أسرى وذلك أواخر شعبان سنة اثنين وسبعين وثمانمائة ، ولم يبق في تلك النواحي موضع الا وملكه النصارى » انتهى .

كرة أبي عبد الله الزغل

وفي هاتيك الايام خرج الزغل بعساكره من وادي آش منقضاً كالصاعقة على الاسپانيول ، فأجلب على الاطراف ، وشن الغارات في البسائط ، وقتل وأثخن وسيبي وغنم ، وعاد بالأسرى والغنائم الى وادي آش ، ثم جمع فرديناند حشوده كلها في مرسيه في ربيع ١٤٨٨ وزحف بها على ديار الاسلام فدخل في طاعته نحو ستين بلدة ، الا المرية فان سالم ما قائدتها هزم جيوش الطاغية ، فمال الى بسطة ، وكان الزغل قد وصل اليها ووضع كميناً في واديها فزحفت طلائع الاسپانيول فصدّمها الزغل صدمة رئيال ، وبعد مقاتلة شديدة أخذ يتقهقر حتى أصبح الكمين من ورائها ، فلما حصلت بين الجيشين كر الزغل من ناحية ، ونفر الكامنون من

آخرى ، وانقضوا على الاسپانيول انقضاض النسور ، فافتوهم بحد السيف ، ولم يسلم منهم الا الطويل العمر ، فقدم الملك فرديناند للكرة ، فصدمه الزغل صدمة جديدة ، وعلا الصياح في الربي والوهاد «الزغل الزغل» ، فهلعت قلوب الاسپانيول ، فانهزموا ، ومنحوا القوم اكتافهم ، فتعقبهم المغاربة بالقتل والاسر ، فاهلکوا منهم خلقا كثيرا واجلت الواقع عن مصرع الدون فيليب الارغوانى من كبار أمراء أسبانيا وغيره من الامراء ولم يرجع الزغل عنهم حتى وفاهم المدد ، فانصاع فرديناند الى نهر قریب وفرق كتائبه على المدن والحسون ، فخرج الزغل ، ودهم هذه المدن فلم يدع فيها اسپانيوليا فيه عين تطرف وافنى خلائق لا تحصى في قلعة نزار .

وكان قائدا قلعة قلار معتمداً على مтанة جدرانه ، ومركزه من قمة الجبل . محاطا بالاهاوي والاودية ، فغاب عنها فدهمها الزغل والسيف مشهور بيده فانهزم الاسپانيول من وجده ولاذوا طرأ بالحصن ، وكان لهم قائدا مقداما اسمه جوان دو افالوا فأحسن البلاء ، وأحکم التدبیر فلم يتمكن الزغل من الحصن ، فأدار حوله الخنادق ، وهدم جانبا من السور ، وأوشك أن يدخل الحصن عنوة ، لولا ما أمره من النشاب والحجارة ، وقدفوا عليه من الانفاط والزفت ، وبقي القتال خمسة أيام متواتية لم يسيغوا فيها الريق حتى يئست الحامية ومالت الى التسلیم فأذن لهم القائد بان الزغل يفحش فيهم العقوبة والانتقام بما هو معهود من قسوته ، فاعتبروا قوله وفضلوا الموت تحت الحصار على الموت صبراً بين يدي العدو ، وما زالوا في الضنك الى أن نفس من خناقهم بوير تودو كريرو ببنجدة وافرة فأحرق الزغل المدينة وقفل الى وادي آش .

غارات المسلمين في بلاد الاسپانيول

ثم إن مغاربة المرية وطربنة وبرشنة خرجوا واغاروا على مرسيية وجهاتها ، وثار كثير من المغاربة الذين عاهدوا العدو ، وفي هاتيك الايام هطلت أمطار غزيرة وجاءت سيول جارفة هدمت كثيراً من البناء في مملكتي قشتالة واراغون واشتدت

عواصف البحر فتحطم كثير من السفن .

حصار بسطة

ولما أقبل ربيع سنة ١٤٨٩ عرض فرديناند جيوشه في جيان ، فبلغت ١٣ ألف فارس و٤٠ ألف راجل ، فزحف بها قاصداً مدينة بسطة موطننا نفسه على ابادة ملك الزغل ، فاعده الزغل قوته لمصادمته لكنه لم يتجرأ أن ينهى إليه بنفسه خوفاً من أن يشد عليه ابن أخيه من الوراء فيقع بين عدوين كبيرين ليس أدناهما إليه بالقل عدواًنا فسرح إلى بسطة جميع الاجناد التي يستغنى عنها في وادي الاشات ، واستنفر العامة إلى الجهاد فامتلأت برشنة وطبرنة وقلاع البشرات بالخيل والرجل ، ورنت الأودية بقوعة السلاح وصليل البارق ، وكان ابن عم الزغل سيدى يحيى الناصر بن سالم في المرية ، وكان قائداً مجرباً مقداماً ، وللزغل فيه مزيد الثقة فاستدعاه من مكانه وأرسله إلى بسطة بعشرة آلاف من شجعان المغاربة ، فتقوت بسطة بهذا العدد ، وبلغ مقاتلتها عشرين ألفاً عليهم ثلاثة من أكابر قواد الاندلس الأول محمد بن حسن من أبطال عصره المشاهير ، والثاني حامد أبو حلى قائد الجندي المخيم ببسطة ، والثالث قائد قيجار وكان من رؤوس القواد وكانت القيادة العامة لسيدي يحيى ولكن علو الرأي كان لمحمد بن حسن لمزيد خبرته وبلااته وسداد آرائه وانحائه .

وبسطة بلدة حصينة واقعة في واد خصيب متسع الارجاء ، طوله ثمانين مراحل ، وعرضه ثلاث يسمى الهوية محاطة بسلسلة روابي اسمها جبل الكحل ويسهل في واديه نهران يسقيان أرضها ، والمدينة مبنية في السهل لكنها محصنة من أحد طرفيها بوعر الجبل وبقلعة متينة ، ومن الطرف الآخر بسور مكين عليه أبراج شاهقة ، ولها ريض إلى جهة السهل فيه حصون وأبراج ، وفي مقدمة هذا الربض غوطة أشجار مسافتها مرحلة مشتبكة السرح ، فينانة الدوح ! كأنها أجمة واحدة تدور عليها المياه باقنية متشعبه تسقي جميع غياضها ، وفيها مئات من الأبراج متفرقة في البساتين فكانت هذه الغوطة بما فيها من اشتباك الشجر وكثرة

مجاري المياه وعدد الابراج والمحصون يجعل مقترب تلك المدينة في غاية الصعوبة .

اهالي بسطة يتأنبون للقتال والحاصر الطويل

فعندما قصد جيش الطاغية نزال بسطة ، اخذ أهلها يتأنبون للمقاومة ، ويعدون ما استطاعوا من قوة ، فبحصدا زروعهم قبل أن يستفرك الحب في السبلة ، وادخرروا لمؤونتهم جميع ما وصلت اليه أيديهم ، فكانت ترى اقاطيع المواشي تباعاً داخلة من الابواب ، والبهائم موقرة احمالاً من المؤن والميرة والسلاح والكراع من كل نوع ، فيمكن أن يقال على وجه التقريب ان بسطة أخذت عدة الحصار خمسين شهراً ، ولما اناخت عساكر فرديناند بساحة الموقع ، اشتدت الحركة في البلدة وازدادت الجلبة من قرع الطبول وتقليل السلاح ، وجاء فرديناند فضرب خيامه في الوادي بين البساتين ، وبعث الى أهل المدينة يدعوهم الى التسليم على شروط موافقة لهم ان انقادوا الى ذلك منذ البداية ويعود لهم أنه لا يرفع الحصار ولا يفرج عن البلدة ابداً حتى يتمكن منها ، فعقد قواد المغاربة مجلساً حربياً وشاوروا فيما يجاوبون به ملك الاسپانيول ، وكان سيدى يحيى قد استاء من انذار فرديناند فأراد أن يجاوبه بان حامية بسطة لا تسلم ابداً ولكنها تقاتله حتى تفني جميعاً تحت انقضاض السور ، فأجابه محمد بن حسن ان لا فائدة لنا من هذا الجواب فلنجهد ان يكون في فعلنا ما ينقض اعلان الطاغية ، وان تزيد فصاحة العمل على فصاحة القول ، وهكذا فقد أرسلوا الى الملك فرديناند جواباً في غاية اللطف والايجاز يشكرونـه فيه على عرضه التسليم بشروط خفيفة ، لكن يعتذرونـ له عن الرفض بكونهم أؤتمنوا على المدينة ليحافظوا عليها لا ليسلموها .

الحرب والقتال الشديد

فعندما أخذ الملك جوابهم شحد غرار العزيمة ، وعوّل على التضييق والأخذ بالمخنق فقدم بحملته صوب سور لاجل تمكين المحرقات من البلدة ،

وأوجف بخيله ورجله وتغلل الاسپانيول في البساتين ليتخذوا مركزاً يمنعون فيه المغاربة من الخروج ، وانشروا في أطرافها وكان الشبان الاغرار منهم متقدمين كأنما يوفضون الى اعراس ، الا أن أهل الحنكة والتجربة كانوا يرون في كل خطوة بين تلك الغياض خطراً ، وأما صاحب صانيتاغو فتح أصحابه ، وتقديم بهم وعدهم عن الله بالنصر ، وبينما هم على هذه الحال اذ ارتجمت الارجاء بقمع الطبول ، وأصوات الهيجة واندفعت فرقه من المغاربة يقودها سيد يحيى بنفسه لصد الاسپانيول عن التقدم ، فاللتقت الفتىان في مشتبك تلك الغياض مبالطة بالسيوف ، ومناضلة بالسهام ، ومطاعنة بالحراب لكن طبيعة ميدان الحرب من جهة التلاف الشجر وتقطيع البساتين بالأقنية وكثرة البراج والبيوت جعلت الريح للمغاربة الذين كانوا يقاتلون مشاة حال كون الاسپانيول ركبانا ، زد على هذا كون أولئك أخبار بالارض وثناياها وزواياها وادرب على الكرو والفرس ، فلما رأى قواد الاسپانيول ذلك أوعزوا إلى كثير من الخيالة أن يتزلجو ويفاتلوا على أرجلهم فعندها استحر القتل وحمي الوطيس ، ولم تكن معركة عامة ، بل مجتمع معارك متفرقة ، إذ كل بستان أصبح ميداناً لمعركة ، وكل روضة صارت موطننا للنزال ، وعاد كل من المقاتلة لا يبصر إلا الذي حواليه ولا يعلم بالبعيد عنه ، وعادت القيادة وقمع الطبول عبثاً ، لأن كلاً من الجندي مشغول بنفسه متجرد لقرنه ، وفي بعض الاماكن كان الاسپانيول هم الظاهرين وفي غيرها كان العلو للمغاربة وربما انهزمت فئة من وجه فئة فتعمتها فسقطت على فئة ظاهرة فانضم اليها شمل المنهزمين وجددوا الكرة ، وقد يقصد بعضهم الفرار من شدة الهول فيقع في جهة ولا يدرى إلا وهو فيهم ذلك من عدم تمييز العدو من الصاحب في مشتبك تلك الغياض وانصرف جهد كل من الفريقين إلى احتلال تلك البراج القائمة في وسط البساتين ، ووضعت في كثير منها النار فامتد الحريق وارتفع اللهيب ، وخرت الجدران وعلت الاصوات كقيام الساعة ، وازداد مشهد القتال هولاً وروعًا . هذا وفردیناند يتضر بذاهب الصبر نتيجة المصاف ، وهو في غاية القلق والجزع لا يعلم شيئاً مما وراء هاتيك الاشجار الحاجة لنور الشمس ، فكان يسرب البعوث والنجادات الى

الموقع التي يخشى فيها الدائرة على قومه ، واجلت المعركة عن مهلك الدون جويان دولارة من أفراد ناشئة الاسپانيول وأعianهم وأحبهم الى قلب الملك ، وكان قد اقتن حديثا بالدونة كاتالاينة دو أوريا من أبدع فتيات عصرها .

وأما من الجهة الثانية فكان القائد محمد بن حسن وحوله جماعة من القواد مراقبين حركات القتال من فوق الاسوار مدة اثنى عشرة ساعة استمرت فيها المناجزة ، وكانت كثافة ورق الاشجار تحول دون رؤية التفاصيل فلم يكن يرى الابريق الخوذ ولا يلمح سوى لمعان النصال ، ثم أخذت تند الجرحى فارتفع عويل النساء وكانت ضجة هائلة عند موصل جثة رضوان ذي الفرغى من متسلمة النصارى الذي صار من اعظم قادة المسلمين ، ثم أخذ المغاربة يتقدرون الى جهة المدينة وأمر فرديناند بنقل خيامه إلى هاتيك الجهة وعندما طار محمد بن حسن إلى نجدة سيدى يحيى ، واجتهد أن يزحزح الاسپانيول عن مراكزهم الجديدة لكن هجوم الظلام ، حال بينه وبين المرام ، فوقف متربصاً مكانه ولم يدع للعدوراحة الليل بطوله ، ولما أصبح الصباح كان مشهد القتال هائلاً فالارض مغطاة بجثث القتلى تنبئ بلسان حالها عمما احتملت من الحرب وأهوالها وهكذا أصبحت تلك الخمائل وهاتيك الحدائق مجر العوالى ومجرى السوابق .

تراجم فرديناند وعزمه على الرحيل

ثم ان فرديناند ادرك حرج الموقف الذي خرب فيه خيامه وشدة الخطر الحائق ، فاجتمع على تقويض خيامه منه ، لكنه قدم طائفه من جيشه تشاغل العدو الى أن يتمكن من إعادة المعسكر الى محله الاول فاغار سيدى يحيى بقوة جسمية من الخيل والرجال فلم يفزوا من المعسكر بطائل يذكر ، لكن رجوع المحلة الى المكان الاول جعل المغاربة في مناجاة من السوء عند الكر والفر نحو المدينة ، فقد الملك مجلساً مؤلفاً من كبار القادة واستشار فيما يفعل ، فاشعار عليه مركيز قادس بترك الحصار ، مؤقتاً بزعمه ان المدينة محصنة مكتفية في الميرة والذخيرة والسلاح وعدد المقاتلة لا يمكن افتتاحها الآن والجيش في تربصه أمامها معرض

للمرض . وإذا جاء الشتاء تعذر القتال وسالت الاودية وان من رأيه أن يعتاض عن الاصرار على منازلة بسطة ، باجتياح الكورة وافساد زرعها ، واطلاق الغارة على المدن والقرى المجاورة ، الى ان تكون تهيات فرصة اخرى . وأما الدون غوتيارودو كردناس امير لاره فذهب الى ان رفع الحصار عن بسطة يتخذه العدو دليلا على الضعف ، ويزيد المغاربة جرأة ويستأسد به الزغل وربما يكون سبباً لانتقاض أهل غرناطة على أبي عبدالله وميلهم اليه فهو يرى الافراج من سفة الرأي ، وكان الملك متربداً بين ان يقلع او أن يقيم . تارة يتصور المشاق التي ستحيط بعسكره خصوصا في جلب الذخيرة فيقول على رأي صاحب قادس ، وطوراً يتأمل فيما يترتب على الانصراف من استغلاله أمر العدو فيميل إلى رأي امير لاره ، وبلغ الجندي ما كان من تشور الملك واهتمامه وعزمته على الرحيل ضنا براحتهم ، فقاموا يطلبون الاقامة في ساحة البلد إلى أن يتم لهم فتحه ، ولما تضاربت الآراء بعث الملك يسأل الملكة رأيها بمكانتها من جيان ، وكانت بينهما بُرُد مرتبة ذات مراكز يقوم أصحاب كل مركز منها بقطع المسافة التي تخصل بحيث تصل الرسالة في عشر ساعات ، فأجابته أنها ترك قضية الاقامة أو الظعن إلى رأي الملك ووزرائه لكن فيما لو أريد الاستمرار تستعين الله في تقديم جميع ما يلزم للجيش من المؤونة والمال إلى أن تكون البلدة قد أطاعت ، فاجتمع حينئذ فرديناند على الاقامة وعند ما بلغ الجندي عزيمة الملك ارتفع ضجيج السرور كانهم اصابوا غنماً أو أحرزوا فتحاً .

فرديناند يعيد تنظيم جيشه

واتصل بسيدي يحيى ما هو واقع من المراء في أمر الحصار ، فعلل النفس بالأمال ، وترقب الفرج برحل الملك لكن محمد بن حسن لم يكن يصدق ذلك ، واذا بحركة فجائية في صبيحة يوم كادت تتحقق رجاء سيدي يحيى فان الخيام قوضت والألة أنهضت ، والمدافع تعاورها النقل ، وخيل أن قد شالت نعامة الاسپانيول وخدمت لهم بارقة النصر ، وإذا بالطاغية قد قسم جيشه شطرين فجعل مركيز قادس على أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل ، وأصحابه بالدون الوزرو

دو اغيلار ولويز فرديناند روبيروتو كريرو وغيرهما من مشاهير أبطالهم ، وجعل معه المدافع وسيره الى الجهة المقابلة للجبل واتخذ الملك لنفسه قيادة القسم الثاني وهو مؤلف من ستة آلاف فارس وجيش من المشاة كثيف وعدد من الجبلين ، واستظهر بجماعة من عظماء المملكة مثل الكونت دو تنديلا وصاحب صانتياغو فأقام كل فريق على طرف من البساتين . وضرب أوتاده هناك فنظر محمد بن حسن قائد بسطة فقال أما إنه لم يزل بينهما حاجز من الشجر ، لكن لم يكدر يخرج منه هذا القول حتى ملأ الفضاء صوت انقumar الاشجار واعمل الاسپانيول الفاس فطارت قلوب المغاربة شعاعا ، بما أصاب بساتينهم وتصاير على الممانعة دون القطع والتحطيم فاشتبك القتال أياما وتعددت الواقع وانصلت الكرات ، واستمات البشر دون الشجر ، ورخصت الارواح في سهل الادواح ، واستمرت المناوشات أربعين يوما تمكن خلالها الاسپانيول من استئصال تلك الغياض وإبادة هاتيك النصرة بلاحقة العمل والصبر على هجمات العدو ، واذيل الحاجز الذي كان بين المحلتين وعطلت بسطة من حلها وعريت في آن واحد من جنة نزهتها وجنة وقايتها . ثم جعل الاسپانيول من احدى المحلتين الى الثانية ممرا ، وضربوا دونه السدود ورتبوا مجاري المياه وبنوا الابراج على الجوانب بحيث أصبح من المحال أن يحال بين المحلتين ، ثم طمع فرديناند في منع الماء عن بسطة وقال بعض الاسپانيول ممن أرخ الواقع ان الماء ضروري لهؤلاء أكثر من الخبز ، لأنهم على اضطرارهم اليه لاجل الشرب ، يحتاجون اليه لاجل الوضوء والغسل واسقاط الجنابة مما تأمر به ديانتهم ، ولا تحتاج اليه نحن الاسپانيول . وكان لبسطة عين تجري من قمة « أبو الحسن » وراء البلدة وكانوا يتبركون بمائها فلما احسوا بما أجمع عليه الاسپانيول خرجوا تحت جناح الليل وأقاموا عندها من الحصون ما يعصمها من كل غارة .

وفي خلال هذا الحصار خطر بعض فتيان الاسپانيول شن الغارة على نواحي وادي آش وكان في مقدمتهم فرنسيكودو بازان وأنطونيو دوكويفا ، فجروا نحواً من ثلاثة وثلاثمائة فارس ومئتي راجل وسارا مسترين بجناح الليل آخذين بشعاب

الجبل حتى وافيا قري الوادي قبل تحقق الفجر ، فأسروا من صادفوه من اهلها وانتهبو مالها ، وحطموا زرعها ، وساقوا نعمها ، كل ذلك في لحظة وقفوا غائبين قبل أن يشعر بهم أحد فطار رعاه المواشي الذين خلصوا من شرهم ، واعلموا بهم الزغل فسرح في أثرهم ستمائة من نخبة فرسانه ورجالته فادركتوه في طريق انصرافهم ، ولما التقت العين بالعين وجد الاسپانيول أنفسهم دونهم في العديد والقوة فتصوروا ترك الغنية والرضى بالياب ، لكن فرنسيسكو دو بازان وانطونيو دو كويفا لم يوافقاهم على الفرار بحجة أن المشاة الذين معهما لو فروا لاستلهمهم العدو ، وان المقاومة هي أنجى لهم في تلك الحال فاختلت الآراء بينهم وأراد القواد حسم النزاع فأمرروا حامل الرأية أن يتقدم فتوقف وكاد القوم يولون الادبار فتقدم فارس من الحرس الملكي اسمه هرناندو بيريز دبلغار قائد حصن سالار ورفع منديلا كان متلفعا به على حسب عادة أهل الاندلس وعقده برأس الحربة ونادي أصحابه فدبب الحمية ببرؤوسهم وكرروا بقلب واحد وصدقوا الحملة ، فانكشف العدو دون انتظار وقتل نحو ثلاثة مائة من المغاربة وأسر واجماعة وقفوا ظافرين فكافأ الملك هرناندو المذكور بلقب فارس ، وأجاز له رفع ذلك المنديل في مواطن قتاله .

الزغل يعجز عن امداد بسطة خوفاً من ابن أخيه

وبينما كان الزغل يتضرر اياب أصحابه بالغنية اذ رآهم راجعين فرقا ، مغلوبين حزقا ، فرأى القدر معاكسة له والدهر قد قلب ظهر المجن بما كان يتراكم اليه من أخبار بسطة ، وهلاك قسم كبير من حاميتها واستبداد الكظام باهلها ، ولم يكن في وسعه أن يخف اليها بذاته خوفا من أن يقتحم تلك الفرجة ابن أخيه من غرناطة فيسلبه ملكه ، فكان يبعث اليها بالمدد بعد المدد ، لكن الاسپانيول كانوا يلاقون الامداد فيفلونها قبل الوصول الى المدينة ، مع ذلك بقيت حالته أجمل من حالة ابن أخيه السلطان أبي عبدالله لانه حفظ لنفسه هيبة سلطان ذي صولة وصاحب دولة .

وأما ابن أخيه فكان ملكاً تابعاً لملوك قشتالة ، وحزب القتال في غرناطة لم يكن ليساوي بين المجاهد المرابط المثاغر والخائن الخاضع الخانع لغير أهل الدين ، وأخبار بسطة كل يوم تنكأ قلوبهم ، وتفت في اعصابهم ، حتى تمشت المراسلات فيما بينهم في التوبة على الحمراء وقتل أبي عبدالله والنفور من غرناطة حزباً واحداً إلى وادي آش ومنها إلى بسطة للافراج عن المحصورين ، لكن لحسن بخت أبي عبدالله وسوء طالع الاندلس عرف هذا الملك بالمكيدة فضرب أعنق رؤساء الحركة ورفع رؤوسهم فوق جدران الحمراء ، فأنزل بذلك الرعب في القلوب ، ولم يبق في غرناطة عرق ينبع نورة ، واحس فرديناند بما كان في عزم الغرناطيين فازداد حذره ، وضاعف القوة ، ووضع المحارس ، وبث العيون والرواد ، وأخذ يظهر لأهل بسطة كل يوم من القوة بمظهر جديد ، وهم يتظرون النجدة ، ولا يحضر لصريحهم أحد ، حتى يئسوا ، وغلب عليهم القنوط ، فاراد محمد بن حسن أن ينهي عزائمهم ، ويحيي آمالهم ، فقال لسيدي يحيى : «يلزم ان نظهر للعدو اتنا لم نهن ، ولم نزل على عزمنا وقوتنا». فجمعوا جيوشهما ، وخرجوا بقوة عظيمة ، فالتقاهم فرديناند بجموعه ، وهدرت طبول الحرب ، وتراحت الصنوف من كل جانب ، واستماتت كتائب المسلمين ، فانكشف الاسپانيول وقع الخلل في مصافهم ، ولم يتم عليهم الهزيمة لوفرة أعدادهم وسعة محلتهم ، فقفز المسلمون بالغائم ، ودخلوا البلد ظافرين ، ومن ثمة أخذوا يرسلون الجنود من جهة الجبل فيهبطون السهل كل مع البصر وينعمون الماشي ويعودون بها إلى بسطة ، وجرى خلال ذلك وقائع متفرقة شديدة امتاز فيها بين الاقران الدون الوزنو دو اغيلاز .

ومما يروى أن أحد فرسان الاسپانيول المسمى مارتين غالندو شاهد لمغيب الشمس فارساً مغربياً شديداً الصولة باهر الفتاك يحمل على الاسپانيول فلا يقف في وجهه فارس الا جده ، ولا يساوره قرن الا صرعيه ، فتصدى غالندو لبرازه ، فتصاولاً وتجاولاً ساعة ، فجرح المغربي في وجهه وانقلب عن صهوته فقبل أن يقحم الاسپانيولي جواهه ليفتكت به كان المغربي نهض على رجليه واستل حربته

فأعجله بجرح في رأسه ، ومع كونه على رجليه وكون قرنه راكباً كاد لشدة بأسه وخفة حركته يورده حتفه ، لولا اسراع رفاق للاسبانيولي بنجذته ، فعندما أخذ المغربي يتقهقر رويداً رويداً إلى أن صار بين أصحابه فسئل عنده فإذا به من عشيرةبني سراج . ولما كان الوجه في أكثر هذه المبارزات الفردية للمغاربة شد الطاغية في منع قومه عن قبول هذا البراز ، وحضر عليهم المناوشات الخاصة لعلمه اليقين أن المغاربة أقوم من كل شعب في الأرض على هذا النوع من القتال ، وأنهم أدرى بالارض وأهدى فيها سبيلاً .

انذار سلطان مصر الى فرديناند

قالوا : وبينما كان الإسبانيول يحصرون بسطة ، اذ شوهد في المعسكر اثنان من أجلاء رهبان الفرنسيسكان : الواحد منهما ذو هيبة وهيبة ووقار عظيم راكب جواداً كريماً بسرج مذهب ، والأخر متصغر متضائل يسعى وراء الأول راكباً رمكة^(١) بسرج خالٍ من الزينة ، وكان دائماً مطرقاً في الأرض ماشياً القصد خافض الجناح ، فلما شوهد هذان القسيسان في الجيش تكلم الناس في مجبيهما ، على انه كان معهوداً حضور الرهبان في هاتيك الحروب المقدسة ، فطالما اجتمعت الخوذة والقلنسوة تحت راية واحدة ، فظن من البداية أنهما من الرهبان المجاهدين ، لكن فُهم أخيراً أنهما قادمان من الاراضي المقدسة برسالة مهمة . أما صاحب الوقار والتصدر وعلو النغمة فهو الاب انطونيو ميلان رئيس دير الفرنسيسكان في بيت المقدس ، كان ممتلىء الجسم ، جهير الصوت ، طلق اللسان ، ذا أساليب خطابية كمن تعود ان يقول في الناس ويسمع له الناس ، وأما رفيقه فكان صغير القد ، مختصر الجرم ، مصفر اللون ، لين الحديث ، خفي الاشارة ، خافت الصوت ، وكان من التواضع وخفض الجناح على ما ينبغي أن يكون عليه من انتمى الى مثل دعوته ، وتليس بمثال حلته ، لكنه كان من أهم

(١) الرمكة : الفرس : البردونة تتخذ للنسل (مَعْرِب) جمعها رَمَكْ ورماك ورمكات وجمع الجمع أرماك .

رهبان الدير وأحمسهم وأدر بهم ، كان اذا رفع نظره من الارض انقدحت عيناه شراراً فيما يطنه الانسان أودع من الورقاء ، اذا هو أدهى من الحياة الرقشاء .

وكان هذان الراهبان آتين من عند سلطان مصر في ذلك الوقت الملقب من قبل الافرنجة بسودان مصر ، لأنه كان الاتفاق بين هذا السلطان وبين السلطان بايزيد الثاني صاحب القسطنطينية على إصراخ مملكة غرناطة ، ووضعا فيما بينهما اوزار الحرب اجتماعا على مظاهره الملة وتفرغا للجهاد ، ثم أوفد صاحب مصر هذين الراهبين بكتاب منه إلى ملوك قشتالة وإلى البابا وإلى ملك نابلي منكرا عليهم ما هو واقع من العذاب على مغاربة غرناطة ، الذين هم منبني ملته وجلدته ، بينما عدد كبير من المسيحيين راتعون في ممالكه في بحاجة الراحة والامان ، متمتعون بأملاكهم وحقوقهم ، ناعمون بحرি�تهم الدينية ، فهو يلح في الإفراج عن مسلمي الاندلس وتمكينهم من الاملاك التي اغتصبوهم إليها وأجلوهم عنها ، والا فإنه يه هو بذباب السيف جميع النصارى الذين هم في ممالكه ، ويخرج معايدهم ، ويجعل كنيسة القيامة في القدس قاعاً صفصفاً . وكان خبر هذا الانذار قد ذاع بين مسيحيي الشرق فأقض مضاجعهم ، وروع قلوبهم ، وصاروا يتظرون خلاص مسلمي الغرب ، لئلا يؤخذوا بحريرة المعتدلين عليهم .

فالتحق فريديناند ذينك الواحدين برأً وتجلة ، كعادته من ملاقاة رجال الدين ، وخلا بهما مراراً مستقصياً منهم ملياً عن أحوال النصرانية في المشرق .

وكان الواحدان قد عاجا برومة لتسليم البابا كتاب سلطان مصر ، فكتب البابا معهما إلى ملوك قشتالة يستشير فيما يجب ان يجاوب على خطاب صاحب مصر ، وكتب بمثل ذلك ملك نابلي ، وتوخى في كتابه تخطئة ملوك قشتالة ، ولو من طرف خفي فيما هم مباشرون ، ومما جاء فيه : « انه ولئن كان المغاربة مخالفين في المذهب ، فليس من العجائز اليساء اليهم بدون سبب عادل ، وانه ان كان ملوك قشتالة لا يصبرون على أدنى أساءة من مسلمي اسبانيا ، فليس من اللائق بمقامهم أن يأتوا أقل عمل من شأنه أن يجر على النصرانية وبالا » الى آخر ما ذكر

من هذا القبيل مما نقله بعض الاسپانيوں ، وعقبه بالطعن في ذلك الملك والقدح في أمانته للنصرانية ، واتهامه بالعصبة مع صاحب مصر ، الا أن بترو باركا لا يزور كوب ملك نابلي ظهر الخلاف في هذه المسألة إلى نقص في حميته الدينية ، بل لمأرب سياسية بأنه كان يعتقد انه ان تمكن فرديناند من فتح غرناطة أمكنته الفرصة ، وتهيأت له الوسيلة للادعاء بملك نابلي انه تابع لمملكة أрагون .

اما فرديناند فأجاب ذلك الملك جوابا في غاية اللطف والرشاقة ، أتى فيه على تفاصيل تلك الحرب ، وبيّن له وجوه الحق في غشianها ، وختم كتابه بتسكن روعه من جهة نصارى المشرق ، مؤكداً له أن الاموال التي يدفعونها هي الجنة الواقية لهم دون ما يتهدد به سلطان مصر من استئصالهم ، وكتب الى البابا يعرض له أسباب الحرب وهي تنحصر في ثلاثة : الاول استرجاع أرض تملكتها المغاربة بالسيف ، والثاني مجازاتهم على سيء المعاملة التي عاملوا بها المسيحيين ، والثالث انها حرب مقدسة يقصد بها اعلاء مجده الكنيسة .

وبعد أن أقام الراهبان الوافدان بالرسالة مدة بمحله الملك يقصان على قواد الجيش أخبار المشرق ، شخصا الى جيان لمقابلة أعظم الملوك كثلاثة ألا وهي الملكة إيزابلا ، فاستقبلتهما من البر والاحتفاء بما يفوق الاطراء ، وعيّنت لديرهما في بيت المقدس احسانا سنويانا نحو الف دوكا ، وعند انصرافهم سلمتهما غشاء باهر النفاسة مطرزاً بيدها الملوكية لوضعه على القبر المقدس .

فرديناند يرسل المؤرخ بطرة مارتيل بسفارة الى مصر

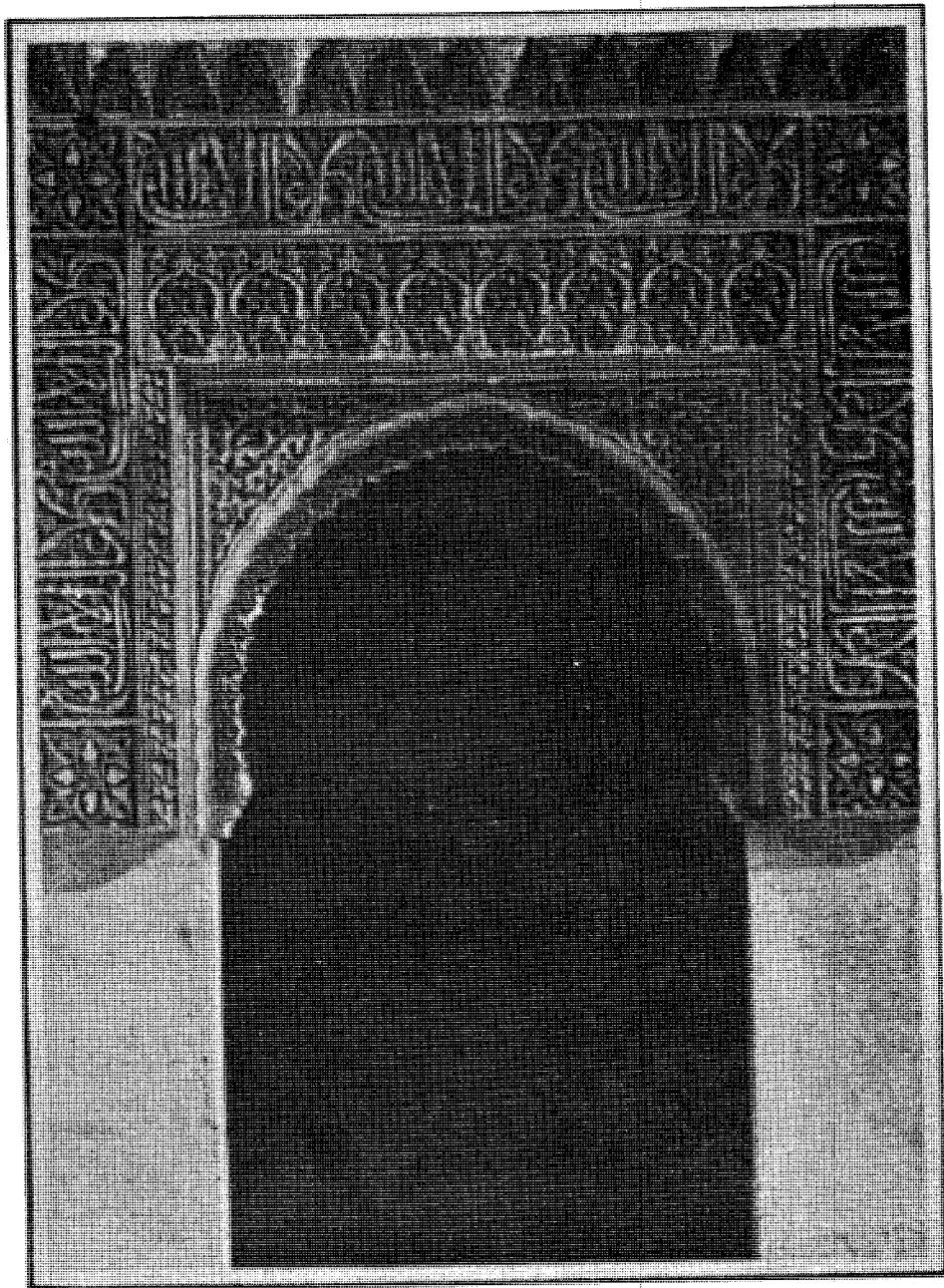
قال الكاتب الانكليزي الشهير واشنطن أرفن : « ولم يذكر الاب أغاييدا مؤرخ هذه الواقع نتيجة الرسالة التي وفد بها ذانك الراهبان ، وهي انه في ما بعد أزعج فرديناند وايزابلا المؤرخ الشهير بطرة مارتيل انغليريا سفيراً الى الشرق لدى صاحب مصر ، أو بحسب قولهم السودان الاعظم ، فابدى من الحذق والمهارة بذلك السفارة ما أقنع به ذلك الملك الشرقي ، واستجلب به ميله ، وفاز منه بإيثار

غرضه ، وحصل على أوامر برفع كثير من المغارم عن زوار القدس الشرييف ، ولبطرة المذكور رحلة شهيرة في بلادهم ضمنها جما من الفوائد والتواتر^(١)

هذا وبقي الحصار مستمراً على بسطة ونفير فرديناند وإيزابلا ينبع إلى آفاق إسبانية ، فتتكثّف الجيوش وتتوارد المقاتلية من كل فج ، ولم يكن العناء كله في جمع الاجناد ، بل بازاحة علّلهم وتوفير أقواتهم ، ولم تتحصر النفقـة في الجيش المقاتل وحده ، بل كان يلزم الملك وأمرأته تسريب الذخـرة لـجميع المدن التي دخلت في حوزتهما ، وكفاية حـمانـتها لما سبق أخذـها من الـاكتـسـاح والـعـبـث الذي غادرـها كـجـوفـ العـيـر ، فـرتـبتـ الملكـةـ الـوـفـاـ منـ الـبـهـائـمـ لـنـقـلـ الـاقـواـتـ ، وـجـعـلـتـ عـلـيـهـاـ خـفـارـةـ وـافـرـةـ لـصـدـ غـارـاتـ الـمـغـارـبـةـ فـيـ الطـرـيقـ وـأـقـامـتـ تـوـاصـلـ الـأـمـدـادـ صـبـاحـ مـسـاءـ ، وـلـمـ فـرـغـتـ خـزـينـتـهاـ مـنـ النـقـدـ اـسـتعـانـتـ بـاعـيـانـ الـبـلـادـ وـالـبـطـارـقـةـ ، فـقـدـمـ كـلـ مـنـهـمـ مـاـ وـصـلـتـ إـلـيـهـ يـدـهـ مـنـ النـقـدـ ، وـبعـضـهـمـ قـدـمـ مـاـ عـنـهـ مـنـ الـحـلـيـ وـالـجـواـهـرـ ، وـبـاعـ الـاسـاقـفةـ آـنـيـةـ الـكـنـائـسـ ، وـاستـنـزـفـواـ مـاـ فـيـ خـزـائـنـ الـاـوـقـافـ مـنـ الـكـنـوزـ ، وـتـبـرـعـ التـجـارـ بـمـبـالـغـ طـائـلـةـ مـنـ الـمـالـ وـجـادـ كـثـيرـ مـنـ الـعـشـائـرـ الـأـصـيلـةـ بـذـخـائـرـهـمـ وـنـفـائـسـهـمـ ، وـأـخـيرـاـ اـرـسـلـتـ الـمـلـكـةـ نـفـسـهـاـ حـلـيـهاـ وـآنـيـةـ الـقـصـرـ الـثـمـيـنـةـ إـلـىـ بـرـشـلـونـةـ وـبـلـنـسـيـةـ وـبـاعـتـهـاـ لـأـجـلـ شـرـاءـ الـاقـواـتـ وـالـمـيـرـةـ وـإـزـاحـةـ عـلـلـ الـعـساـكـرـ .

وبينما كانت قطر الحـيـوانـاتـ تـرـدـ تـبـعاـ مـوـقـرـةـ بـالـذـخـيرـةـ وـالـطـعـامـ إـلـىـ مـخـيمـ الـمـلـكـ فـرـدينـانـدـ ، وـقـوـةـ الـإـسـپـانـيـوـلـ تـتـعـزـزـ يـوـمـاـ فـيـوـمـاـ باـزـاءـ بـسـطـةـ ، كـانـ الـاقـواـتـ اـبـدـأـتـ تـنـفـدـ فـيـ الـبـلـدـةـ ، وـالـمـجـاـعـةـ تـعـضـ الـحـامـيـةـ بـنـابـهـ ، لـكـنـ بـقـيـ لأـهـلـ بـسـطـةـ أـمـلـ فـيـ الفـرـجـ بـهـجـومـ الشـتـاءـ وـتـرـاكـمـ الـأـمـطـارـ ، وـحـسـبـواـ أـنـ لـابـدـ مـنـ أـنـ السـيـوـلـ الـمـتـحدـرـةـ مـنـ الـجـبـالـ تـضـطـرـ الـطـاغـيـةـ لـلـظـعـنـ بـمـحلـتـهـ ، وـبـيـنـمـاـ هـمـ يـتـسـلـونـ بـهـذـاـ الـأـمـلـ إـذـ أـخـذـ الـإـسـپـانـيـوـلـ يـبـنـوـنـ بـيـوـتـاـ مـنـ الـخـشـبـ مـسـقـوـفـةـ بـالـأـجـرـ ، حـتـىـ كـمـلـ لـهـمـ نـحـوـ الـفـ بـيـتـ عـلـىـ هـذـهـ الصـورـةـ لـاقـامـةـ الـأـمـرـاءـ وـالـقـوـادـ ، وـاتـخـذـ الـاجـنـادـ لـأـنـفـسـهـمـ بـيـوـتـاـ

(١) لا يوجد حل لهذه المسائل الا بوجه واحد وهو ان الشرقيين اكرم اخلاقا من الغربيين وان قاعدة « اذا ملكت فأسجع » لا تعرفها اوروبا . (أسجع : احسن العفو) .



بهو السفارة قمارش



من الطين موطدة بفروع الاشجار ومعطاة بالخصوص ، وصارت المحلة عبارة عن مدينة قائم في وسطها بناء كبير لنزل الملك ، يخنق فوقه علماً أراغون وقشتالة ، وقد عول فرديناند على احتطاط هذه المحلة توقياً من السيل وقطعها لأمل المغاربة من الافراج ، الا أنه لم يكدر يتم بناءها حتى عصف إعصار شديد ، صحبه مطر مدرار وسيل أتى^(١) فتهدم جانب من البيوت ، وهلك خلق كثير من الجن والخيل والماشية ، وفسدت الاقوات والذخيرة ، وارتاع الجيش ، وخافوا الهلاك ولكن أسعدهم الطالع باقلاع المطر ، فخفت ، وتيسرت الحركة ، وأرسلت الملكة بعض عما نقص من الزاد ، وبعثت ستة الآف رجل لترميم الطرق التي أضرّ بها السيل ، وإقامة المعابر عليها ، وأعاد الملك بناء البيوت التي تهدمت في المحلة ، ورجع الاطمئنان إلى قلوب الإسبانيو.

وخف الطاغية تكرر الاعصار والغرق وتفشي المرض في جيشه ، فراسل أهل سبطه في التسليم على أن يؤمنهم في أنفسهم ونفائسهم ، فبعث اليه محمد ابن حسن بجواب لطيف العبارة سلبي المعنى ، وكانت أخبار السيل وما ألحقه من الضرر بمعسكر فرديناند قد وصلت إليهم مع المبالغة ، فطمعوا في رحيله ، وتشددت عزائمهم ، وبرزوا للقتال ، فحدثت عدة مناوشات هلك فيها جملة وافرة من رجالات الفريقين ، وحدثوا ان في احدى هذه الواقائع خرج نحو ثلاثة فارس وألفي راجل ، فأعترضوا مرقباً وراء المدينة ركبوا فيه ريح الإسبانيو ، فتناوشوا ساعة واستوت الهزيمة على هؤلاء فتبعوهـم ، وقد فقد منهم جملة ، الى ان حصلوا في محلـة كونـت تندـلة وغـونـسلاف القرـطيـ ، فصدقـوها الحـملـةـ فـتـدـاعـىـ رجالـهاـ لـلـفـرارـ ، وـثـبـتـ الـكـونـتـ وـصـاحـبـهـ فيـ مـوـطـنـهـماـ اـذـ وـجـدـاـ الثـبـاتـ أـدـنـىـ إـلـىـ السـلـامـةـ مـنـ الـهـرـبـ ، فـانـضمـ اليـهـمـاـ مـنـ صـبـرـ مـنـ الجـنـدـ ، وـصـدـوـرـ المـغـارـبـ ، فـأـوـقـفـوهـمـ ، وـلـكـنـهـمـ كـادـواـ يـخـتـلـوـنـ فـيـ مـصـافـهـمـ وـتـحـقـقـ عـلـيـهـمـ الغـلـبـةـ ، وـاـذـاـ بالـوـنـزـوـدـوـ اـغـيـلـارـوـ كـوـنـتـ اوـرـيـنـهـ وـجـمـاعـةـ مـنـ رـجـالـهـمـاـ قـدـ أـقـبـلـوـ ، فـتـلـقـواـ الصـدـمـةـ ،

(١) الأئمـةـ : جـدـولـ تـقـيـهـ إـلـىـ اـرـضـكـ، السـيـلـ الغـرـبـ لمـ يـصـبـكـ مـطـرـهـ، وـكـلـ مـجـرـىـ مـاءـ أـئـمـةـ وـأـئـمـةـ .

وتکاثروا ، فارتدى المغاربة نحو المدينة ، وجرى على هذا النمط عدد من الوقائع لم تتحقق فيها راية ظفر تام لأحد ، وكانت شرة^(١) المغاربة في القتال تزداد بازدياد يأسهم وخناقهم ، وكان الامير سidi يحيى دائماً في مقدمة جنده ، لكن فراغ الخزائن من المال ، ونفاد القوت قطعاً من آماله ، وتذاكر مع محمد بن حسن في الحالة ، فأجمعوا على استمداد الاهالي ، وبيانا لهم تعذر المقاومة مع إعوaz القوت ، فتشاور أهل بسطة بعضهم مع بعض ، وجمعوا ما عندهم من الحلي والآلية من ذهب وفضة ودفعوها لمحمد بن حسن قائلين له : « خذ هذه فاضربها نقداً ، أو فبعها ، أو فارهنها ، واستحضر مالا لقوت العسكر » وقالت نساء بسطة بعضهن البعض : « هل يليق بنا أن نتبرج ونتزين بهذه الحلي حالة كون بلادنا خراباً ، ورجالنا محتاجة الى القوت الضروري » ثم جمعن ما عندهن من العقود والاساور وسائر الحلي ودفعتها لمحمد بن حسن قائلات له : « خذها ودافع بها عن ديارنا وعيالنا ، فان افوج عن بسطة لم نتحرج الى الزينة لأجل اظهار فرحتنا ، وان اخذت بسطة فاي حاجة للاسير بالحلي والجواهر » .

تمكن محمد بن حسن بهذه الاعانة من مداومة الدفاع ، ونمى الى الملك ما فعل أهالي بسطة ، وما تجدد عندهم من النشاط ، فعمد الى مقابلتهم بما يوهن عزائمهم ، وكتب الى الملكة يدعوها الى المعسكر ، فيبينما محمد بن حسن يشدد حماة البلدة ، ويبيّن لهم الأمل برحل الملك ، اذ سمع قرع الطبول ، فشخصت الانظار الى جهة محللة الاسپانيول ، فاذا بالملكة قادمة بجيشه يحف بها بطانة عظيمة بأبهى الملابس ، وعلى يمينها كريمتها البرنسس إيزابلا ، وعلى الشمال الكريدينال الاكبر في اسبانيا ، ووراءها جماعة من عقائل اسبانية السريات ، فلما شاهد القائد محمد هذا المشهد فت في عضده ، والتفت الى أصحابه قائلاً : « يا اخوانى أصبح تسليم بسطة مقرراً » .

(١) الشّرة : الحرث : النشاط والرغبة ومنه شرّة الشباب .

سقوط بسطة صلحًا

وقد كان لموصل الملكة إيزابلا من الأبهة والوقار ما أثر في خواطر المغاربة أنفسهم ، وعزم بعض رجالهم أن يهاجموا موكب الملكة لدن وصوله ، فمنعهم الامير سidi يحيى حرمة لمقام الملكة ، وأطل جميع سكان بسطة من السطوح والمآذن والابراج لمشاهدة وصول الموكب ، وكان احتفالاً فائقاً وعلت فيه السكينة جميع الجوانب ، وعندما أيقن المسلمون أن الملك والملكة لا يرحلان إلا بتسليم بسطة ، مالوا الى التسليم ، وتمشت رحالات الاسبانيول بالصلح ، فحضر الدون غوثياردو كردناس ، واجتمع بالقائد محمد بن حسن وقال له باسم الملك انه ان سلم أهل بسطة الآن يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وحرية اعتقادهم ، وإنما أصرروا على المقاومة لم يأمنوا أخيراً لاعلى دم ولا على مال ولا على دين محمد ، وذكره بما أصاب مدينة فراجم سلطانهم الزغل في ذلك ، وكتب له سidi يحيى كتاباً ، وأرسل به القائد محمد بن حسن فلما وصل الى وادي آش وجد السلطان منقطعاً في جهة من قصره يتأمل في سوء بخته ، وما آلت اليه الاحوال ، فسألته عن حال بسطة فأجابه «تفهم من هذا الكتاب» ودفع اليه كتاب سidi يحيى فقرأه حتى على آخره ، وعرف اضطرار البلد للتسليم ، وما عرضه عليهم الطاغية من الشروط الموافقة ، ولم يخالف صدره أقل ريب في كلام سidi يحيى لما كان عليه من الثقة فيه والتعويل عليه وخلطه بنفسه كأنهما شخص واحد ، فتنفس الصعداء ، وتوجع ملياً ، وأخذ يفكر فيما يعمل مطرقاً ساعة ، ثم أمر فحضر الفقهاء والشيخ ، وتشاوروا فيما يفعلون فأجلوا المجلس عن تعذر إمداد بسطة بشيء ، فاستدعي الزغل قائد بسطة محمد بن حسن ، وقال له : «اذهب الى ابن عمي سidi يحيى وقل له : (لا يتضرر مني نجدة لأنني لا أقدر على تلبتيه بشيء فليفعل ما يريد له) ». فعاد القائد بالجواب ، وكان أمراً مقصياً ، لأن قواد بسطة تصالحوا مع فرديناند على أن يدخل البلد ، وبينما الجميع الامان ويخرج من جاء في صريح بسطة من فرسان المغاربة بخليهم وامتعتهم الى حيث

شاؤوا ، ويكون تسليم البلدة والقلعة في ستة أيام ، وأما أهل بسطة فلهم الخيار بين أن يرحلوا باموالهم أو أن يقيموا بالربض متمتعين بأملاكهم وحرি�تهم الدينية .

فرديناند يكرم القادة وتنصر الامير يحيى

وخلع الملك فرديناند على القواد وأكرمه ، وأنعم عليهم واختص بايثاره الامير يحيى وأدناه ، ونال هذا من الحظوة لديه ولدى الملكة ما أكد لها صداقته ، وتعلق قلبه بالملكة بما بهرها من جمالها ولطفها ورصانتها ، فأخذ يسعى في خدمتها ، ويترافق إلى مرضاتها بتنوع المناصحة ، وحبيبه إليها حبها النصرانية . فيقال انه تنصر سرًا ، وقد أطنب المؤرخ أغاييدا الإسبانيولي في وصف تلك النعمة ، وعد هذه من فتوحات فرديناند ، وذهب بعض مؤرخي العرب بحسب قول واشنطنون أرفن إلى أن الطاغية استغوى هذا الامير باجزال الصلات واسناء الجوائز وتوسيع الأقطاعات ، ولكن أغاييدا يقول ان ذلك كان حكمة منه لأجل بسط يده وانفاذ كلمته فيما يعود باستعماله كثير من قومه إلى النصرانية ، وانه بقصد ابقاء سطوة الامير يحيى على المغاربة صدر أمر الملوكين بابقاء مسألة تنصره مكتومة إلى أن يكون قضى بواسطته أوطاره ، كذلك دخل القائد المجريب محمد بن حسن في خدمة فرديناند ، واقتدى به كثير من فرسان المغاربة .

وكان تسليم بسطة في رابع ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٤٨٩ بعد حصار ستة أشهر وعشرين يوماً ، ووجد فيها نحو خمسمائة أسير نصراني ، وهلك تحت أسوارها من عساكر الطاغية عشرون ألفا ، قيل منهم سبعة عشر ألفا ماتوا بالأمراض . والباقيون هلكوا في القتال .

واقتدى ببساطة غيرها من المدن كالمنكب وطبرنة وكثير من حصون البشرات ، ودخل أهل تلك الجهات جميعا في ذمة الطاغية ، واعتنى في البداية بإحسان معاملتهم واجزال العطاء في قوادهم سياسة منه لاستنامة جمهورهم إليه ورضاهم بسلطانه .

وكان من هؤلاء القواد رجل يقال له علي بن الفخار في يده عدة من المواقع والمحصون ، فحضر في جملة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم ، وانقلبوا بالصلات والجوائز ، وكان شامخ الانف شديد الزماتة والوقار ، فلما وصل الدور اليه خاطب الملوك بحرية الرجل العسكري وان كان لم يستطع اخفاء يأسه وانكساره فقال لهم : « أنا رجل مسلم قائد لمحصون طبرنة وبرشنة ، قد تسلمت هذه المحصون لأجل محافظتها ، لكن الذين عهد الي بقيادتهم فقدوا كل نهضة وقوة وعادوا لا يطلبون سوى الامان ، فهذه المحصون أصبحت أيها الملوك العظام لكم متى شئتم ابعثوا من يستلمها » فأمر فرديناند في الحال باعطائه مبلغا طائلا من المال جزاء هذا التسليم الجليل القدر ، فامتنع من أخذه منكراً ذلك انكاراً شديداً ، وقال لهم : « أنا لم آت لابع ماليس ملكي ، بل لأسلم ما جعلته القدر الالهية ملكا لكم ، ول يكن يقينا عند جلالكم ، انه لو وجد من يسعفني كما يجب ، لكان الموت هو ثمن هذه المحصون بدلا من الذهب الذي يعرض علي ». فاعجب الملكان بانفة هذا القائد وشهادته وأمانته ، وتمنيا أن يكون متظهماً في جملتهم ، ويدخل في خدمتهم ، فأبى خدمة أعداء ملته وقومه ولما يئسا منه قالت له الملكة إيزابيلا « إذاً لا يوجد لك حاجة نظهر لك بقضائها مالك في جانبنا من الاعتبار » .

أجابها : « بلى ! حاجتي عندكم إنني تركت في المدن والمحصون التي سلمتها كثيراً منبني ملتي البائسين ، الذين لا يتيسر لهم الرحيل عن أوطنهم بنسائهم وأطفالهم فأرجو ان تعطوني وعداً ملوكياً بحمايتهم واطلاق الحرية لهم في دينهم وأملاكهم » .

فوعدها بذلك ثم قالت له الملكة : « وهلا تطلب شيئاً لنفسك ؟ » قال : « كلا سوى الاذن في الاجازة بخيلي ومتاعي » .

فأراد الملكان أن يجبراه على قبول صلتها من المال مع الخيل الثمينة السروج لا بقصد المكافأة بل على سبيل الهدية ، فأنكر أن يصيغ هذه النعمة وذاك

الوفر في زمن بؤس قومه وخراب وطنه ، ثم أخذ تذكرة الاجازة من الملك فرديناند واستصحب خيوله وخدمه وامتعته واسلحته ، والقى على بلاده نظرة الوداع كاسف البال بادي الكآبة لكن بدون أن تسقط له دمعة ، ولا يترطب له جفن ، وركب جواهه قاصداً البحر لاجل الاجازة الى افريقيا .

وقال في (نفح الطيب) بشأن بسطة وحصارها الطويل : « وفي عام أربعة وستين خرج لبعض حصون بسطة ، فأخذها بعد حرب ، واستولى على ما هنالك من الحصون ، ثم نازل بسطة ، وكان صاحب وادي آش لما تعين العدو بمحلته ، بعث جميع جنده وقواده ، وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات ، فلما نزل العدو بسطة ، أتت الحشود المذكورة ، ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تقهقر العدو عن قرب بسطة ، ولم يقدر على منع الداخل والخارج ، وبقي الامر كذلك رجب وشعبان ورمضان ، ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد ، ثم ان العدو شد الحصار وجد في القتال ، وقرب المدافع والآلات من الاسوار ، حتى منع الداخل والخارج بعض منع واشتد الحال في القعدة والحججة ، وقل الطعام ، وفي آخر الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا الا القليل ، وكانوا طامعين في اقلاع العدو عند دخول فصل الشتاء واذا بالعدو بنى وعزם على الاقامة ، وقوى اليأس على المسلمين ، فتكلموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الاماكن وظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء وأن ذلك هو الملجئ لهم للكلام ، وفهموا عنه ذلك فاحتالوا في اظهار جميع أنواع الطعام في الاسواق وابدوا للعدو القوة مع كونهم في غاية الضعف ، وال الحرب خدعة ، فدخل بعض كبار النصارى للتتكلم معهم ، وهو عين ليرى ما عليه البلد ، وما صفة الناس ، وعند تحققتهم بقاء الطعام والقوة أعطوهما الامان على أنفسهم دون من أهلهم من أهل وادي آش والمنكب والمرية والبشرات فان دفعوا هؤلاء عنهم صع لهم الامان وإلا فلا ، فلم يوافق أهل البلد على هذا وطال الكلام وخفف أهل البلد من كشف الستر فاتفقوا أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات ، ففعلوا ذلك ودخل جميع

هؤلاء في طاعة العدو وعلى شروط شرطوها وامور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم ، وقبض الخواص مالا ، وحصلت لهم فوائد . وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكونها ، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام وقالوا لهم : (من بقي بموضعه فهو آمن ومن انصرف خرج بماليه وسلامه سالم) ثم أخرج العدو المسلمين من البلد وأسكنهم بالربض خوف الثورة » .

الزغل يدخل في طاعة الطاغية

وكان الزغل قابعاً في كسر بيته من وادي آش ، يسمع كل يوم صريحاً ويرن في اذنه كل ساعة صدى ويل ، وبالاده تسلم الواحدة بعد الاخرى الى العدو ، والاقدار تعاكسه اطراداً والضربات تنهال عليه دراكا ، وفي هذه الحالة قدم عليه ابن عمه سيدي يحيى عدوا في ثياب صديق ، ويعيدا في صفة قريب مشارك في الهم والدم ، ولم يكن الرغل علم بتنصره اذ بقي ذلك سرا فارتاح جدا الى رؤيه ابن عمه في ذلك الوقت الضيق ولما أقبل عليه عانقه لزاما وضممه الى صدره وبثه همه ، فأخذ سيدي يحيى توطئة لما يتلوى من خدمة الطاغية يبين له اليأس من الحالة ، وعم الدفع من الفائدة لما هو مقدر من سقوط مملكة غرناطة بين أيدي النصارى ، وان المنجمين لم يكذبوا فيما حکوه عن أبي عبدالله الشقى ، وان السقوط سيكون على يده ، وانه لما أسر في لشانة كان تبادر للظن انها هذه الواقعه التي أشار اليها المنجمون ، وان التحس قد انقضى ، فظهر الأن أن ليس المقصود واقعه مفردة ، بل وقع المملكة باسرها ، فحيث كان أمر الله قدرًا مقدوراً ، لزم التسليم لمشيئته تعالى (واذ وقع القضا ، فليس الا التسليم والرضى) فاطرق الزغل ساعة وهو غريق في لحج الهواجس والاشجان ، ذاهب من التأمل والتائم في بحران ، ثم رفع رأسه وكبر وحوقل وقال : « ليس من القضاء مفر و(لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) تالله لو لم يكن سقوط غرناطة قدرًا لكان سناني وحسامي زعيمين بحفظها » .

فقال له سيدى يحيى : « وماذا استقر في عزتك الآن؟ هل أجمعت تسليم المدن الباقيه لك الى ابن أخيك أبي عبدالله حليف النصارى؟ » فلما سمع الزغل ذلك اضطرب كله ، وقال له : « كلا ! بل أفضل ان أرى رايات العدو خافقة فوق هذه الابراج من أن أسلمها لهذا الشقى » فاغتنم سيدى يحيى فيها الفرصة ، وأخذ يرغبه في التسليم ويسهل له الانحياز الى الطاغية والدخول في ذمته ، الى أن حصل أخيراً على موافقته ، فانقلب الى الطاغية بما أراد وتقرر تسليم المرية ووادي آش وسائر البلاد التي في يد الزغل ، وأن يكون الزغل لقاء ذلك حليفا للملكيين ، ويقطع أرضاً واسعة في البشرات مع نصف الملاحة ، ويلقب بملك اندرش ، ويكون الفا مدرج رعية له ، ويتمتع بدخل أربعه ملايين مراويد - هذا الى مواعده كثيرة .

وتقرر بينهما على أن يكون التسليم في المرية ، ففي سبع عشرة خلت من ديسمبر (كانون الاول) تحرك الملك فرديناند من بسطة بقسم من جيشه ، وتبعته الملكة بالقسم الآخر ماراً بالمدن والحسون التي دخلت في طاعته ، فلما صار على مقربة من المرية ، لقي السلطان ابا عبدالله الزغل خارجا في ملاقاته مع الامير سيدى يحيى وجماعة من الخواص ، ولم تخف على وجه الزغل علامات الغيظ الشديد والاسف البالغ ، وكان ظاهراً على خصوصه التكلف ، وفي مقادته الصعوبة ، وكأن لسان حاله يحدث بان خصوصه انما كان للقدر لا للقدر والله لا للبشر .

على انه لما اقترب الملك فرديناند ترجل الزغل ، وتقدم اليه وهو على يده كمن يريد استلامها ، فتجافى الملك عن ذلك حرمة للقب السلطنة ، وانحنى اليه فعائقه ، وأشار اليه باستئناف الركوب ، وأجمل في مكالمته ، ولما تم له استلام البلاد لحق الزغل بأرضه في جبل البشرات حيث انقطع يحشو على رأسه تراب الذل .

وحيث توخيانا نصحا بالتاريخ وامعانا في تمحیص الروایات مؤاخاة النقل الانجليزي بالرواية العربية نتبع ما قاله بهذه المقام أيضا (صاحب النفح) وهو « ثم

ارتحل العدو للمرية ، واطاعته جميع تلك البلاد ، ونزل صاحب آش للمرية ليلاقه بها فلقه ، وأخذ الحصون والقلع والبروج ، وبايع له السلطان ابو عبدالله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب ، فوعده بذلك وانصرف معه الى وادي آش ومكنته من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور ، واطاعته جميع البلاد ولم يبق غير غرناطة وقرها وجميع ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين ، وجعل في كل قلعة قائداً نصراانياً وكان قائداً من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم مالاً من عند صاحب قشتالة اكراماً منه لهم بزعمهم ، فتبأ لعقولهم وما ذلك منه إلا توفير لرجاله وعدته ودفع بالتي هي أحسن ثم أخذ برج الملاحة وغيره وبناء وحصنه ، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة ، وأظهر الصلح والصحبة مع صاحب وادي آش وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرأً منه وخداعاً ودهاءً » انتهى .

فردیناند یطلب الی ابی عبد الله تسیلیم غرناطة

وأما صاحب غرناطة الشیقتو فلما وصل اليه خبر نزول عمه على حکم الطاغية طار فرحاً ، وظن انه بالغ امنيته ، وانه من الان فصاعداً أمن النزاع واصبح بدون مناظر ، وتمكن سلطانه بتمكين ملك الاسپانيوں الذي هو حليفه ، الى غير ذلك من الاماني الكواذب التي قلما تخطر الا في بال امثاله من يضيعون مثلما أضاع ، وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمه ، لو لا أن وزيره يوسف ابن ك마شة نبهه من غفلته ؛ وأصحابه من نشوته وقال له: « أفق ، فإن الزوجة كانت في أفق واحد ، فستنتقل الى أفق آخر » مع هذا لم يقنع لحماته وسخفه ، وأمر فأسرج له جواده ، وخرج للنزهة فسمع بأذنه كلام السوء في حقه ، وأيقن بغضب العامة منه ، اذ كانوا يعتبرون الزغل هو السلطان المجاهد المرابط الحامي ذمار الملة ، وانه ما سبق اليه الا اضطراراً بمظاهره ابن أخيه للعدو عليه ، فأسرع ابو عبدالله الأوية الى قصره ، وأرسل الى فردیناند يستدعى نجده خوف الانتقام ، فأجابه فردیناند یطلب النزول له عن غرناطة ويدركه بالعهد الذي عقده معه بعد

أسره بأنه عند ما يتمكن من وادي اش وقرية بسطة يمكنه من الحمراء وهذا قدتمكن
في تقاضاه الوفاء بالعهد الذي عاشه إياه ، فاجابه ابو عبدالله ان ذلك قد كان منه ،
ولكن حيث أصبحت غرناطة مجمعا لجالية المسلمين من جميع أقطار الاندلس
وملجاً للشذاذ والمشددين من المدائن التي دخلت في حوزة الاسپانيول . وقد
غلت في صدور الجميع مراجل الاختة واستوفزوا للأخذ بالثار فان داخلهم في
طاعة الملك فرديناند الآن انتقضوا عليه ، واستهدف للخطر المحيق ، فهو يلتمس
المهلة لاجل سكون ثائرهم ، وانطفاء وقتهم ومن ثمة لا يبقى مانع من القيام بما
عاهد عليه .

بواحد الحرب بين غرناطة وفرديناند

فلم يقنع الطاغية من جواب أبي عبدالله وقلب له ظهر المجن ، وكثير له عن
ناب العداوة ، وارسل الى أعيان غرناطة والقواد يعرض عليهم تسليم القلاع
والنزول عن الحمراء ، وهو يفي لهم في مقابلة ذلك بشروط الامان ويعاملهم بما
عامل به أهل وادي آش والمرية ، والا فان حدثهم انفسهم بالمقاومة وأصرروا على
الجفاء سار معهم سيرته ، مع اهل مالقة ، فمال جماعة التجار وارباب الاشغال
الذين يدور نجاحهم على السكون الى رأي التسليم ، وتابعهم فيه من خاف في
عياله مغبة الحرب وعاقبة الخذلان ولكن كانت غرناطة لذلك العهد قد غصت
بالمطرودين والموتورين الواردين عليها من كل اوب قد ملاً الضغفن قلوبهم ، وغلا
الثار في صدورهم ووطن اليأس نفوسهم على الاستماتة وقد شحنت بالمقاتلة
واحلاس الحرب وانجاد الغارة ممن ولدوا على صهوات الجياد ، ونشأوا في
معamus الجهاد ، وممن لا حرفة لهم سوى الغزو والمرابطة ، وكان فيها آخرون وان
لم تكن الحرب حرفة لهم يرتفعون منها فإن همهم العربية تأبى لهم ، وحميتهم
الاسلامية تربأ بهم من أن يستسلموا للعدو صاغرين ، ويروا غرناطة الحمراء قبله
الاسلام في الاندلس العهد الاخير وحضره العز ومتبوأ المنعة مئين من السنين

وال المصر الذي يموج بجموع المؤمنين قد وطئها الطاغية بقدم استيلائه ،
وقاد شملها بزمام استعلائه .

موسى بن أبي غسان روح الجهاد

وأتفقت توارييخ الأفرنج على انه كان واسطة عقد هذه الطبقة المجلبي في حلبة الفراسة الامير موسى بن أبي الغسان من سلالة الملوك ، شاباً بعيد الهمة كريم السجية ، أبي النفس باهر القوة مستوفياً شروط الفتوة ، جامعاً بين صباحة الوجه وضباره الخلق^(١) ، غاية في بهاء الطلعة ونفاذ العزيمة ، حداً في عزة النفس وزكاء الطبع ، كان لا يوجد أدرب منه في عصره بفنون الفروسية ، ولا أحسن منه اقتداءً لصهوات الخيل ، ولا ألق ولا أرشق حركة بألعاب السيف والترس ، وتقليل السلاح بأنواعه ، كان اذا برق في ميدان ترك أمره فتنة لحسان غرناطة ، ومداراً لحديث الاندلسيات ، واذا شهد الكريهة قذف مشهده الرعب في قلوب الاسپانيول وطالما نصر المسلمين باسمه .

وكان موسى ناقماً على السلطان أبي عبدالله هوادته مع النصارى ، ولين جانبه لهم ، فعندما وصل الى غرناطة رسيل الطاغية ، وشاع ما طلبه من تسليم الحضرة ، والتزول عن الحمراء ، قام هو وتلك الفتنة المائلة الى الحرب مستنفرين العامة للجهاد ، مستبلغين في حد الهمم ، وتشييط العزائم ، وتحذير القوم عوّاقب الخضوع من فقد الامن على الاعراض والدماء والاموال ، وأعمل موسى في الاحتشداد وبالغ في النفير ، فبادرت جمهرة المسلمين الى اجابة داعيه ، وطمعت في استئثار الجنة ، ونفرت فتيان غرناطة تrepid الموت في سبيل الذب عن ذمار الدين ، وتطيع من موسى سيداً كانت تغضب له ألوفهم اذا غضب ولا يدرؤون لم غضب فكيف وقد غضب للدين ، ونفر لحماية عرض المؤمنين ، فأرسلوا

(١) رجل ذو ضبارة في خلقه : مجتمع الخلق وثيقة

الجواب الى الطاغية قائلين له انهم يفضلون الموت على تسلیم مدينتهم ويوعدونه
ان شاء الاجlab بما استطاعوا من قوة .

الحرب

فلما أيقن فرديناند بما أجمعوا عليه اطلق الغارات على الاطراف ، وجعل ذلك الى نظر كونت تنديلا قائد ثغر جيان ، وشرع في التأهب والاستعداد للحركة ، وقام موسى بن أبي الغسان من الجهة الثانية وقد حف به فتیان سراة غرناطة ، وتبایعوا على الموت تحت لوائه ، ونفرت فرسان المسلمين من كل أوب ، وماجت أسواق غرناطة وساحاتها بالحشود ، وملا الآفاق صهيل الخيول وموسى روح الجهاد ومحط الآمال ، وقبة الخواطر وحياة نفوس المثاغرين ، واسمه الرعب المحيق بأقصاصي الثغور .

فلما اخذ الاسپانيویل يشنون الغارات خرج الامیر موسى بفرسانه فوالى عليهم الهزائم ، وصارت خيوله وسرایاه تعود بالغنائم ، وتدخل غرناطة دخول الظافر ، مما أعاد الى خواطر القوم ذكر الايام الماضية ، وحدثهم بعد عز الاسلام وايام غلبه على تلك الاقطار ، ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال وأقبل الربيع فقال الطاغية علينا أن نحتاج هذه السنة كور غرناطة وفي التي بعدها نهاجم البلد بعد أن يكون قل القوت وانقطع المدد ، فحضر بخمسة آلاف فارس وعشرين ألف ماش وأخذ يكتسح منزغ غرناطة البديع النضير المنقطع النظير معه من أمراء بلاده دوق مدينة سيدونية ومركيز قادس ومركيز فيلنه والدون الونزو دواغيلار وغيرهم منرؤوس قوادهم ، فشمل تلك المروج عياثا وتخریبا وبعث النار في جميع ارجائها حتى غطى الدخان الافق ، وأظلم جو غرناطة من دخان شجرها ، هذا وأبو عبد الله لا يجسر على الخروج من حمرائه خوفا من فتك العامة به ، لقولهم انه هو سبب هذه المصائب ، لكن موسى قسم فرسانه الى عدة كتائب وعقد على كل كتيبة لواحد من آحاد القادة ، وأطلق الغارات على أطراف معسکر الاسپانيویل ، فأبلغ فيهم النکایة ، وربما عمد لکثرة حشودهم الى الخدعة

والمكيدة أحياناً ، ففي إحدى المرات بينما كانت قطعة من الجيش الإسبانيولي سائرة في سفح جبل ، إذ التقت بجماعة من المغاربة تقهقر أمامهم ، فطمعت فيهم حتى نشبت بين صخور فاندفق عليها المغاربة من وراء الجندي^(١) ، فاستلجم الإسبانيول ، وفر منهم جماعة ، وصبرت جماعة بقيت تقاتل في أرضها ، وإذا بخيل الإسلام قد أطلت منقضية انقضاض العقبان ، فحصلت في وسط الإسبانيول ، وحمي الوطيس ، وكان مركيز فيله وأخوه الدون الونزو دو بشيكو في بهرة المعمدة ، فما عمَّ أن جرح المركيز وخر الدون الونزو صريعاً وبجانبه اصطفان دو سوزون من صيابة القواد ، وضاق الخناق بالإسبانيول ، وشاهد الملك أن الوجه للمغاربة ، وأن جماعته هالكون لا محالة فأمرهم بالرجوع ، فلم يترىوا في تلبية أمره وانكفؤوا خاسرين بعد دفاع شديد .

ولما رأى فرديناند أن مناجزة المغاربة خصوصاً في هذه المناوشات الخاصة ، تعود غالباً بالخسران على عسكره أصدر أمره الصارم باجتناب القتال معهم ، والاعتماد على العيث في بلادهم ، واكتساح أراضيهم ، واستئصال أسباب القوت ، ليأخذ غرناطة بالمجاعة بدل الحرب .

سقوط حصن روما في يد فرديناند

وكان على مسافة مرحليتين من غرناطة حصن يقال له حصن روما ، من فوق هضبة مشترفة على المرج ، وكان في مكانه أعز من الأبلق ، يقصده الملتجئون من المغاربة والشذاذ منهم وفل العساكر اذا انهزمت ، وهو شجاً في حلوق الإسبانيول ، فلما كان الطاغية نازلاً على مرج غرناطة ازدادت يقظة حراس الحصن ، وفي صبيحة يوم بينما كانوا ينظرون الى بعيد مراقبين حركات الطاغية اذا تراءى لهم عمامهم عجراء ، واسنة مغربية ، ولم يكن غير قليل حتى وصل حذاء

(١) الجندي : المكان الكثير الجندي والجندي : الحجارة .

القصر نحو مائة وخمسين مغربيا ، معهم قطيع من المواشي مسرعين
 مهبعين^(١) ، وتقدم منهم عريف عليه سيماء الشرف والنباهة ، فالتمس الدخول
 قائلا انهم كانوا في غارة ببلاد النصارى ، وقد غنموا منهم ، وقفلوا ، لكن
 النصارى تطاردهم فهم يخافون ان يدركوهم في الطريق قبل أن يدركوا غرناطة ،
 ففي الحال أسرع الخفراء الى فتح الابواب ودخل هؤلاء المغاربة وأظهروا
 الاطمئنان ، وفرحوا بهم ، الا أنه ما كاد ينتشر حراس الحصن في باحاته حتى
 علت صيحة بغتة ، فأسرع كل الى سلاحه مذعورا ، فوجدوا القصر في يد هؤلاء
 الدخلاء ، فاستناموا الى الخضوع ، وعلم بعد ذلك أن سيدي يحيى السابق الذكر
 مع ولده ، قدما من الجبل بجماعة من المجنين لخدمة الطاغية ، فأعمالا الحيلة
 في الاستيلاء على هذا الحصن استزادة من الزلفى لديه ، وبهذه الوسيلة تمكنا منه ،
 وبعثا بالخبر الى فرديناند ، فأرسل وشحنه بالمقاتلة ، واما حامية الحصن فان
 سيدي يحيى ابقى عليهم واطلق سراحهم ، فانصرفوا إلى غرناطة ، ولم ينفعه عند
 الغرناطيين ابقاءه على حياتهم مع خيانته في أمر الحصن ، فانهالت على اسمه
 اللعنات كالمطر الصيب ، كما انه من الجهة الثانية لم يحمل عمله كله على اسمه
 الخلوص التام ، فقد قال الاب اغابيدا الاسپانيولي في تاريخه ، « ان اطلاق
 سراحهم دليل على أن نصراناته لم تكون كاملة ، بل لم ينزل في قلبه بعض ذرات
 من الاسلام » وهذه غاية المنافقين ان يخلصوا من كل فئة .

الزغل ينضم بجندوه الى فرديناند

ثم أوغر صدور الغرناطيين حنق آخر اشد من الأول ، وهو من عمل مولاي
 أبي عبد الله الزغل ملك اندرش الذي كان معتلا فيها ، متسليا بهذا اللقب عن
 احزانه وأوجاعه ، وكان المسلمون إلى ذلك الحين ينظرون اليه نظرهم الى رجل

(١) هطبع : اسرع مقبلا خائفا وهو مهبطع .

مظلوم مخدول وصل إلى الحالة التي وصل إليها اضطراراً وتسييراً ، وزوجه فيما هو فيه كنود ابن أخيه ، وقعود بني ملته عن نصره ، ففي أحد الأيام ساقت الزغل عمایته في بعض ابن أخيه إلى التزول من اندرش بمئتي مقاتل والانضمام إلى عسکر الاسپانيول ، فلما رأى المسلمين راية الزغل بين رايات ملوك النصارى تحققوا انحيازه للطاغية ، فألحقوه بسيدي يحيى في المنزلة عندهم ، وعلت عندهم مكانة ابن أخيه حينئذ ، ونودي باسمه في الأسواق ، وهتفت الأصوات بالدعاء له ، وعقدت به الآمال ، ففعله عمل عمه ، ونشط السلطان أبو عبد الله للحركة ، واعمل في الجهاد ، بما رأى من اقبال قومه عليه .

تراجع فردیناند وقيام ابی عبد الله للجهاد

وبعد أن لبث الطاغية شهراً كاملاً يعيث في مرج غرناطة حتى أخنى على نضارته ، قفل إلى قرطبة من طريق الجبل ، مما توارى عن العين حتى نهض أبو عبد الله متقلداً سلاحه ، وامتطى جواده ، ونفر واستنفر ، فالتفت عليه فرسان غرناطة ، وخفت إليه سكان جبال البشرات الموصوفون بشدة البأس ، وماجت ساحات الحضرة بالحشود ، وتبایع الناس على الموت ، وتباري الفرسان في ميدان التزال ، يقدمهم الامير موسى بن أبي الغسان وهو روح النهضة وسيف العزيمة والفجر الصائح بليل الملمة .

سقوط حصن همدان في يد ابی عبد الله

فخرج السلطان من الحمراء في ١٥ حزيران ودهم حصن همدان على بضع مراحل من غرناطة وهو من أعز حصون النصارى يحرسه مائتان وخمسون مقاتلاً من أبطالهم ، معقوداً عليهم لفارس مغوار اسمه مندو دو كويشاده فنانخ بساحته السلطان ستة أيام وست ليال يغاديه القتال ويراوحة ، حتى هلك أكثر حاميته ، وسلم الباقيون فدمر السلطان الحصن وجعله دكاً وأرسل الأسرى إلى غرناطة .

سقوط حصن مارشنة وحصن بلدة في يده ايضا

ثم استولى أبو عبد الله على حصن مارشنة ، وحصن بلدة من حصون النصارى ، وشاع بين المسلمين أن السلطان اثخن في النصارى ، وافتتح من معاقلهم ، وأن الكرة مأمولة ، فقويت عزائمهم ولاحت لهم بارقة الأمل ، وانتقضوا الخاضعون منهم للطاغية ناشرين راية أبي عبد الله ، وأخذ خيالة غرناطة يغزوون أرض النصارى من جهة ثغر جيان ، ويغنمون منهم ، الا انه مرة بينما كان بعضهم عائدين بغنية وافرة كمن لهم كونت تندية في أحد الاودية ، فذعوا وقتل منهم خمسة وثلاثون فارساً وأسر نحو من خمسين واستعاد الكونت الغنائم .

ابو عبد الله يفكربفتح شلوبارانية على البحر ويقصدها ثم يدخلها

وبقيت سرايا الفريقين يغزو بعضها بعضاً ، فرأى السلطان أبو عبد الله ان بقاء الحال على هذا المنوال لا يزيده قوة ، وانه بعد أن جرى من حطم الزروع وقطع الاشجار ونصف العمran حول عاصمته لا بد أن يؤخذ بالجوع ان لم يؤخذ بالحرب ، ففكرا في فتح طريق بينه وبين البحر ، والاستيلاء على فرضة بحرية ، يتسلب منها اليه المدد حيث كانت جميع موانئ الاندلس في ايدي النصارى ، فوجه عناته نحو شلوبارانية وهي مدينة كانت معدودة عند العرب من أحسن مدن الارض وأصعبها مرتفع ، وكان ملوكهم يستودعون فيها خزائنهم وكنوزهم ، وكان الطاغية لذلك العهد قد جعلها لنظر الدون فرنسيسكوراميرز دو مدرید قائد المدفعية الاكبر ، لكنه كان عند زحف أبي عبد الله اليها غائباً في قرطبة ينوب عنه في القيادة أحد فرسانه ، فانتهز الفرصة سلطان غرناطة ونازل شلوبارانية بجيشه جرار ، وكان أهلها من المدجنين ، فلم يأوا رايات الاسلام قد أقبلت انضموا تحتها وخلعوا طاعة العدو ورأوا حامية البلدة من النصارى انها لا تقدر على مدافعة أبي عبد الله ، فاعتتصمت بالقلعة ، فدخل المدينة ، واستولى عليها وامتنعت عليه القلعة فازلها ، وطعم في منع الماء عنها ، وامتد الصريح في الجوار بأن

ال المسلمين منازلون شلوبانية ، فامتلأت قلوب نصارى الساحل رعباً ، وكان الدون فرنسيسكو ازريك قائد بlesh مالقة فجمع جيشا فيه فرناندو بيرز دبلغار صاحب المنديل ، وحضر لاغاثة قلعة شلوبانية ، فوجد المدينة في ايدي المسلمين فخيم تجاه القلعة ، فاشتد به ازر الحامية ، وانساب فرناندو سرا بسبعين من أشداء رجاله فتسلقوا القلعة من باب صغير قبل أن تتمكن العدو من الشعور بهم ، ولم يلبثوا أن حضر الى الميناء استطول فيه جنود ومؤن لاغاثة النصارى، فنزلوا في مكان حصين على شاطئ البحر ، ولما نازل المسلمون القلعة صاروا بين عدوين ، فارتدوا عنها وعول ابو عبد الله على أخذ ميناء حدرة الذي كان سلمه الى النصارى سيدى يحيى السابق الذكر فيما تزلف به اليهم من الخدمة ، الا أنه بلغه كون الملك فردیناند زاحفا بعساكره فهاجم القلعة الهجوم الاخير فلم يفز منها بطائل ، فاقلع عن شلوبانية عائدا الى غرناطة ، واشتفى في مسирه بالعيث في الاراضي المختصة بسيدى يحيى ، والانتقام من جماعته ، ورجال عمہ الزغل ، ودخل الحمراء بمعانم كثيرة تسلى بها عن فشله امام شلوبانية ، ولم يكدر يستقر في مقعده بالحمراء حتى وصل الطاغية بجيشه مؤلف من سبعة آلاف فارس وعشرين الف راجل بقصد اغاثة شلوبانية ، فلما بلغه اقلاع ملك غرناطة عنها مال الى المرج ، فاستقصى جهاته تخريبا وتدميرا واستأصل أشجاره وافسد زرعه حتى قيل إنه لم يبق فيه غصنا اخضر ولا نعجة تسرح ، فبينا هو مرج أخضر، اذ انقلب قفرا اغبر ، ودافع اهل غرناطة عن حياضهم ورياضهم فلم يجد لهم دفاعهم ، لانتشار العدو في بقاعهم ، والتزامهم الانكمash في مدیتهم محافظة على اسوارها .

فردیناند يخرج اهالي وادي آش وبسطة والمرية من منازلهم

وفي تلك الايام كشف النصارى مكيدة دبرها أهل وادي آش والمرية وبسطة ، فانهم راسلوا السلطان ابا عبد الله ان يزحف الى مدنهم ، وهم يفتكون بحامياتها ، ويفتحون له ابوابها فبلغ ذلك مرکيز دو فيلنه ، فخف الى وادي آش بقوة وافرة ، وبحجة انه يريد أن يعرض الاهالي في مكان فسيح اخرجهم خارج

الابواب ثم أغلق الابواب في وجوههم ، وابلغهم أنه محظور عليهم سكني المدن ، نعم أذن لهم بالدخول مثنى أو ثلاث ثلاث لأجلأخذ نسائهم وأولادهم وحيث صاروا بدون مأوى اتخذوا مضارب واكواخا في الارباض والبساتين وأوصلوا الشكوى من هذه المعاملة ، فأجิبوها بان عليهم الانتظار الى أن تتحقق براءتهم ، ويصدر أمر الملك بشأنهم ، فلما حضر الملك فرديناند وفدوه عليه وشكوا لديه معاملة قواده لهم ، خلافا للعهود التي أعطاهم ايها فأجابهم بما معناه يا أصحابي بلغني ان كيداً هنا قد تدبر بأن تقتلوا عمالى وجندى وتشتركون مع ملك غرنطة في قتالى ، وقد تحققت تدبیر هذه المكيدة فيما بينكم فمن منكم ثبت براءته يعود الى منزله ، ومن دخل في هذه الدسيسة فاني لا أسامحه لاننى كما أحب الرحمة أحب العدل أيضاً ، وها أناذا الآن أجعلكم في الخيار فاختاروا الاخف عليكم ، اما ان تقوموا من هنا جالين عن البلاد بعيالكم وأموالكم وأنتم آمنون وسامدون في أنفسكم ونفيسكم واما أن تسلموا الي رؤساء الفتنة الذين كادوا لي كيدهم . قال المؤرخ غابيدا وهو من التعصب والتحامل بالمقام الذي لا يخفى : « ولما كان اكثراً أهل وادي آش مشتركين بهذه الدسيسة آثروا الرحيل بنسائهم وأطفالهم » .

ثم خير فرديناند أهالي بسطة والمرية هذا التخbir نفسه تخلصا منهم ففضلوا الاجازة الى افريقية ومن بقي منهم لاذ بعض القرى والدساكر لابسين اثواب الذل ألواناً وأشكالاً .

الزغل يجوز الى افريقية

وكان السلطان أبو عبد الله الزغل قد يئس من الحالة التي آله اليها وتكاءده⁽¹⁾ الهم ، واشتدت عليه وطأة الاحزان مما جرى له من فقد الملك ، وانتشار

(1) تكاءد وتكاءد الامر: شق وصعب وتكاءده : كايده وشق عليه وصلبي به .

السلك ، والنزول عن عرش سلطنة الى رتبة شيخ قرية ، بل كان أهل أندرش ابتدأوا ينشرون عليه ، وبعد لحاقه الاخير بجيش الطاغية أصبح اسمه ممقوتا عند كل المسلمين ، وصار رديفاً للعنة اللاعنين ، فضاقت مذاهبه ، وعول على الرحيل من الاندلس ، فقدم على الطاغية وطلب منه المساعدة في الاجازة ، وعرض عليه شراء أملاكه الواسعة بثمن بخس ، وكانت نحواً من ثلات وعشرين بين مدينة وقرية في وادي أندرش والهورين ، فأعطي بدلها خمسة ملايين من السكة المعروفة بالمرآويـد ، ووـهـبـ حـصـةـ فيـ المـلاـحةـ وأـماـكـنـ آخـرـ لـابـنـ عـمـهـ سـيـديـ يـحيـيـ ، وـشـدـ حـقـائـبـ وـأـجـازـ إـلـىـ اـفـرـيقـيـةـ .

فـلـمـ وـصـلـ إـلـىـ اـفـرـيقـيـةـ أـخـذـهـ سـلـطـانـ فـاسـ وـالـقـاهـ فـيـ السـجـنـ ، وـبـعـدـ ذـلـكـ سـمـلـ عـيـنـيـهـ بـدـعـوـيـ إـنـهـ كـانـ السـبـبـ فـيـ بـلـاـ يـاـ مـسـلـمـيـ الـانـدـلـسـ ، وـذـهـابـ غـرـنـاطـةـ مـنـ الـيدـ ، وـاستـصـفـيـ اـمـوـالـهـ ، وـاستـبـدـ بـخـزـائـنـهـ ، وـلـعـلـ هـذـاـ هوـ السـبـبـ فـيـ نـكـتـبـهـ ، ثـمـ خـلـىـ سـبـيـلـهـ فـرـوـيـ مـؤـرـخـوـ الفـرنـنـجـةـ أـنـهـ التـجـأـ إـلـىـ أـمـيـرـ بـلـشـ غـمـارـةـ وـكـانـ صـدـيقـاـلـهـ ، فـأـشـبـعـهـ مـنـ جـوـعـ وـآـوـاهـ مـنـ فـقـرـ ، وـلـطـفـ مـصـيـبـتـهـ بـقـدـرـ الـاسـطـاعـةـ ، حـتـىـ إـذـاـ مـضـىـ هـذـاـ لـسـبـيـلـهـ لـمـ يـبـقـ لـهـ مـغـيـثـ وـلـاـ نـاصـرـ فـهـوـيـ ثـانـيـةـ فـيـ وـهـدـهـ الذـلـ وـالـفـاقـةـ ، وـقـيـلـ إـنـهـ آـلـ أـمـرـهـ أـخـيـرـاـ إـلـىـ أـنـ يـسـتـعـطـيـ فـيـ الـاسـوـاقـ ، وـيـطـوـفـ وـعـلـىـ ثـيـابـهـ رـقـ غـزـالـ مـكـتـوبـ عـلـيـهـ «ـهـذـاـ سـلـطـانـ الـانـدـلـسـ الـعـاثـرـ الـجـدـ»ـ وـهـذـاـ مـخـالـفـ لـرـوـاـيـةـ (ـنـفـحـ الـطـيـبـ)ـ كـمـاـ سـتـرـىـ عـنـ ذـكـرـهـ جـوـازـ الرـغـلـ .

فرديناند يحاصر غرناطة من جديد

هـذـاـ وـبـعـدـ انـ عـطـلـ فـرـدـيـنـانـدـ مـرـوجـ غـرـنـاطـةـ مـنـ حـلـاـهـاـ ، زـحـفـ فـيـ حـادـيـ عـشـرـ نـيـسانـ مـنـ ذـلـكـ الـعـامـ بـارـبعـينـ الـفـ رـاجـلـ وـعـشـرـ آـلـافـ فـارـسـ لـحـصـارـ الـمـدـيـنـةـ ، وـاستـصـبـحـ فـيـ هـذـاـ السـفـرـ جـمـيعـ عـظـمـاءـ قـوـادـهـ مـثـلـ لـذـرـيقـ بـونـسـ دـولـيـوـنـ وـمـرـكـيزـ قـادـسـ وـمـعـلـمـ صـانـيـاتـاغـوـ وـمـرـكـيزـ فـيـلـنـهـ وـكـوـنـتـ تـنـديـلـهـ وـكـوـنـتـ قـبـرـةـ وـأـورـنـيـةـ وـالـدـوـنـ الـوـنـزـوـ دـوـ أـغـيـلـارـ ، وـانـعـقـدـتـ العـزـائـمـ عـلـىـ التـضـيـيقـ بـالـبـلـدـةـ ، وـمـزاـوـلـةـ الـحـصـارـ إـلـىـ

أن يتم تسليمها ، وإنه لا افراج عنها هذه المرة . وكانت الملكة إيزابلا مع ولدها البرنس جويان وابنته جويانة مارية وكاتالين في حصن كونت تنديله تبعث بالمدد والذخيرة الى المعسكر .

فلما رأى السلطان أبو عبدالله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية مقبلة ، وقد غطى عجاجها الفضاء وسد الافق ، عقد مجلساً مؤلفاً من أعيان غرناطة ورؤسائها ، فاجتمعوا كاسفي البال نادبي سوء الحال وتحفظ بعضهم عواقب الحرب من نزول المعرات في بيوتهم ، فأشاروا على أبي عبدالله بتسليم مقاليد أمره الى كرم فرديناند أملاً بأن ذلك يعود بشروط صلح مقبولة .

وسئل الوزير أبي القاسم عبد الملك أن يبين مقدار الباقي من الطعام والذخيرة لاجل الحصار . فأجاب أن الباقي يكفي مؤونة بضعة أشهر ما عدا الذي في مخازن التجار ومنازل الأغنياء لكن أي فائدة من ذلك اذا كان حصار النصارى لا ينتهي ، ثم سئل عن عدد المقاتلة ، فأجاب إنه عدد عظيم لكنه ماذا يتضرر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون ويزبون في أماكنهم ، حتى اذا دلف اليهم العدو سكنت ثائرتهم وانطفأت جمرتهم .

فلما سمع موسى بن أبي الغسان هذه الكلمات نهض قائلاً : « أي باعث بنا الى اليأس ؟ فان دم الابطال من عرب الاندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا ، وعندنا قوة وافرة ، وجيوش موعودة مجربة في الواقع لا نرتاب في إقدامها ، إذ لدينا عشرون الف شاب يمكنهم ان يدافعوا عن دورهم واسوارهم أعظم قوة واكثر جيش ، فاما الطعام فلا نحتاج في أمره ، ولدينا عقبان من الجياد المسومة نطير بها الى ديار المجنين الذين استسلموا للنصارى والى بلاد العدو فنعود بالغائم والانفال » .

فثبتت كلام موسى عزائم القوم ووطئهم على الدفاع وتوزعت القيادة فعهد الى الوزير أبي القاسم بتجنيد الاجناد وتفريق المؤونة والسلاح الى الامير موسى بقيادة الخيالة وحفظ أبواب المدينة والمحاجمة ومعه نعيم رضوان ومحمد بن

Zaheda ، والى عبد الكرييم الرغبي وقاده آخرين بالمحافظة على الاسوار ، والى قواد القصبة والابراج الحمر بالدفاع عن الحصن .

وأخذ الغرناطيون بالتأهب للجهاد ، فلم يكن يسمع إلا قرع طبول ، وسليل أسنة وصهيل خيول ، وانتظمت الفرسان بقيادة موسى كواكب يتقدمها شهاب ثاقب ، فكان أنجاد الغارة واحلاس القتال يعججون ببسالته وقادمه ، وكانت العامة تحوم عليه هاتفين بالدعاء مهليين ، وكان طائفة العجزة من الشيوخ والنساء يسلمون عليه ويباركونه معتقدين انه حاميهم والجنة الواقية دونهم .

ولما قرب النصارى من المدينة احكم المغاربة أفال الابواب وجعلوا وراءها السدود والسلالس واوثقوها بالاغلاق المتينة فجاء موسى وأمر برفعها كلها قائلا : « قد عهد الي والى خيالي حراسة هذه الابواب ، وستكون أجسادنا سدوداً من دونها وجعل عند كل باب حرساً وافراً وكانت خيله دائماً حاضرة للتزال ، ومقاتلته على أوفاز للحرب ، فاذ دنا العدو انقضت عليه كالصواعق وافحشت فيه النكبة ، فكان في أفعال موسى فضلة على أفاله .

قال الكاتب الشهير واشنطن ارفن : « فلو وجد عند الغرناطيين عدة رجال مثل موسى ، أو كان ظهوره في بداية هذه الحرب لكان تأجل سقوط مدينة غرناطة وبقي المسلمون مدة مدينة بعد ذلك متبوئين أبراج الحمراء » .

وقائع الامير موسى بن ابي الغسان

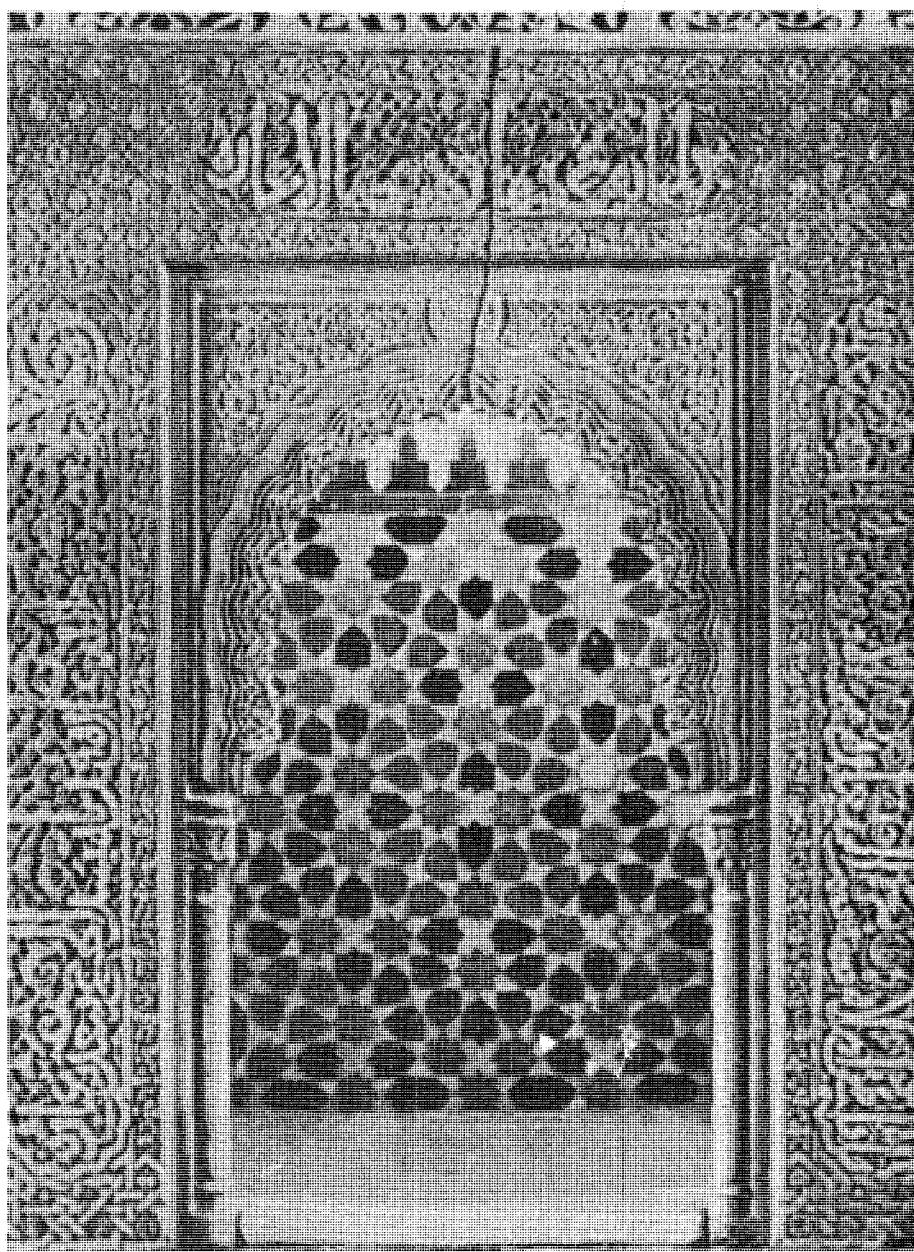
هذا ونظر فرديناند الى حالة غرناطة ومن فيها من جموع المسلمين المنضوية اليها من سائر الاندلس تغلي في صدورهم الاوثار غلي النار في المراجل ، وفيهم من ذؤبان الرجال ، وابطال التزال عدد يفوق الاحصاء فرأى أن أخذ البلد بالسيف من قبيل الاحلام ، واعتمد أن يأخذها بالحصار والتضييق كما أخذ مدينة بسطة ، فقطع عنها المدد واجتاح جبال البشرات ، وصار يقبض على كل قافلة نازلة صوب غرناطة فكان موسى يشن الغارة في خيله على معسكر ، فيغمم ويفتك ويعود

بالسلب ، فأمر الملك اتقاء غارات موسى بحفر خنادق واقامة اسداد حول المخيم ، وجعل المخيم أقساماً أربعة على شكل مربع وبينها الاسواق والدكاكين .

وبعد أن تم ذلك على هذا المنوال استدعى أمرأته الملكة ايزابلا فحضرت باولادها وأقامت معه ، وذلك دهاء منه لقطع آمال الغرناطيين من الرحيل عنهم ، حتى يمكنوه من بلدتهم وكان لقدومها في المعسكر صجة فرح عظيمة ، أما المغاربة فلم ترث عزائمهم بذلك ، وقال لهم موسى : « ان علينا الدفاع عن الارض التي تحت أقدامنا لانه إذا لم تبق لنا ذهب ملتنا ومحيت اسماؤنا » .

المبارزات

ولما رأى موسى أن الملك فرديناند لا يناوشهم القتال متتطرأً تسليم البلد بالحصار والتضييق وقطع الميرة ، أخذ يرسل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى قرنا لقرن ، فلم يكن يمضي يوم الا ويقع فيه عدة مبارزات بين شبان الطائفتين ، فرأى فرديناند أن هذه المصارعات الشخصية قد أثارت جأش المغاربة ، وقوت عزائمهم وافقدته عدداً من فرسانه ، فأمر جيشه بعدم قبول البراز . وعيّرهم المسلمين بذلك . فلم يخالفوا أمر الملك ، فقال المسلمين : « أي فضل لملك يحاول أن يخضعنا باضعاف أجسادنا ويفر من لقاء أرواحنا » ومنذ ذلك الحين شرع فتية المسلمين يحركون شبان الإسبانيو للنزال بما أمكن من الوسائل ، فكان بعضهم ينقض على معسكر فرديناند بيده حربة يثبتها في أقصى معسكرهم وعلىها اسمه ، وربما كتب مع اسمه بعض الشتائم تحمساً للإسبانيو ، لكن هؤلاء كانوا يتحملون هذا الذل إطاعة لأمر الملك . إلى انه في أحد الأيام أغار فارس مغربي اسمه طرفة مشهور بقوة جسمه وثبات جنانه ، لكن شجاعته أميل إلى التوحش ، وغاظ الكبد مما هي إلى النخوة والحمية ، فثبتَ رمحه في الأرض أمام فسطاط الملك والملكة ، ورجع كالبرق الخاطف ، فجد الحرس في أثره فلم يدركوه ،



مشكاة لوضع الباريق في قاعة البركة



ودخل المدينة فنظروا الى الرمح فوجدوا عليه رقا مكتوبا عليه بعض الشتائم عرفاوا
أن المقصود بها الملكة .

سلل الاسبانيول الى غرناطة وانسحابهم منها

فعظمت نكبة هذا الفعل في قلوب الاسپانيول ؛ وكادت فتيانهم تتميز من الغيط من هذه الجرأة ، وفي الليلة التالية جمع فرناندو بيريز دبلغار نخبة من الشبان وسرى تحت الظلام الى أحد أبواب المدينة ، فوجد الحرس نائمين لعدم توقعهم مثل هذا الهجوم ، فدخل بجماعته وقام كل الى سلاحه فتمكن الاسپانيول من الباب وحفظوه ريشما كان فرناندو قد أوغل في وسط المدينة راكضا جواه الذي يسابق الريح حتى وصل الى الجامع الاعظم ، فثبتت في بابه لوحًا كان معه مكتوبا عليه اسم « مریم العذراء » ورجع مسرعا فوجد قومه ثابتين ، في مراكزهم فخرجوها وافرين وما انتبه أهل غرناطة لهذه الضجة وجدت العساكر من كل نواحي البلد حتى كان الاسپانيول قد صاروا بقرب مضاجعهم .

ويقال ان هذا الجامع بعد دخول الاسپانيول الى غرناطة تحول الى كنيسة باسم السيدة مریم وإن الامبراطور شرلكان منح دبلغار هذا وذريته الحق في دفن امواتهم بتلك الكنيسة .

وكان بعد معسكر الاسپانيول عن المدينة بحيث لا يمكن منها سوى لمحتها العامة ، فأرادات الملكة ايزابلا أن تشاهد تفاصيل البلد ، وقل صبرها عن ذلك فهياً مركيز قادس بطانة وافرة واحراسا متعددین وسير قطعة من الجيش بين خيل ورجل وسار الملك والملكة وأولادهما وأمراء أسبانية بافخر الزينة وأنفس المراكب وقصدوا مزرعة يقال لها « الزبية » في حدود الجبل شمالي غرناطة مشرفة على حمرائها وأجمل أحيايتها فلما قاربوا المحل تقدم مركيز فيله وكونت أوريته والدون الونزو واغيلار بجنودهم وربطوا أعلى القرية ووقف مركيز قادس وكونت تنديله وكانت قبره والدون الونزو وفرناند بجموعهم حذاءها ، ودخل الملك والملكة

أحد بيوت القرية حيث أعد المكان لجلوسهما وحف بهما الامراء والاساقفة ينظرون الى غرناطة الحمراء متأملين كيف تحول قريبا مساجدها كنائس وماذنها معالق للنواقيس .

الغرناطيون يهاجمون موكب ايزابيلا

معركة « مناوشة الملكة »

ولما رأى المغاربة اصطفاف جيش الاسپانيوں كانما يريدون القتال رأوا من الذل الاحجام عن مناجزتهم فما مضت هنيهة حتى شوهدت سرية من فرسان غرناطة قد خرجت من المدينة بالعدد الكاملة والاسنة اللامعة وعلم انها فرسان موسى بن أبي الغسان فصدر أمر الملكة لمركيز قادس باجتناب القتال لانها لا تزيد أن يراق بمقدار نغبة الطائر من الدم في سبيل نزهتها ، فاللتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة السبب فيه فأخذوا يتحرشون بالاسپانيوں ، ويدعونهم الى التزال ، والملك يمنع قومه من الاجابة ، وألح بعض فرسان المسلمين حتى صاروا في مصاف النصارى يهزون أستتهم ويحركون حفائظ اعدائهم ، وهؤلاء ساكنون في مواطنهم وإذا بفارس زميت الهيئة مفتول السواعد غريب الصولة عظيم البطشة قد تقدم ووراءه جماعة عرف بالقرينة انه هو طرفة الذي اهان الملكة حسبما تقدم ونظر الاسپانيوں فإذا به معلق بذيل جواده اللوح الذي كان دلبغار قد رکزه في باب الجامع الاعظم بما فيه من الكتابة ، فلما رأى الاسپانيوں هذه الاهانة غاب صوابهم وضاع رشدهم ، واسرع أحد ابطالهم المدعو کارسیلاسو ، فاستأذن الملك في التزول لمبارزة هذا الذي اهان السيدة مریم فأجابه الى ذلك اجلالا لمقام الطلب ، فعاد کارسیلاسو وتقلد سيفه ، وتأتب بدرعه ، واعتقل سنانه ، وامتطى حصانه ، ونزل لمبارزة الفارس المغربي ، فتساور القرنان بمشهد من الجيشين الشاخصة أبصارهما وكان المغربي بحسب رواية مؤرخي الفرنجة أشد ساعداً وأعظم خلقاً وأوثق اصلاحاً وأحسن ركوباً من خصمه ولذلك كان

النصارى خائفين على فارسهم وفي الصدمة الاولى ترخز كارسيلاسو عن صهوته وكاد يهوي لولا انه تمكן حالا من لجام حصانه ، وعاد مستويا على ظهره ، فأخذ المغربي يدور حوله متوبأ به دوران الباز الاشهب حول فريسته ، وكان جواده طائعا له وخيل للناظرين عند كل ضربة يضر بها ان رأس الاسپانيولي قد طار عن جثته او فلق شطرين ، لكن كارسيلاسو بسرعة حركته اتقى ضربات طرفة ، تارة بالنكوس بجواده ، وأخرى بالدرب يحتمي بها ومع هذا فكانت كلوم البطلين قد غطتها بالدم ، وخارت قوى الاسپانيولي ولحظ ذلك طرفة منه فوثب عليه وأهواه عن سرجه ولما حصل على الارض صرעה على ظهره ثم رکع فوق صدره واختلط خنجره وهم ان ينحره به ، فصاح كارسيلاسو صيحة رج بها الفضاء ولم يكن الا كالبرق حتى سقط المغربي قتيلا ، وعلم أن خصميه وجاه في احشائه بمدية كانت معه ، وقام من تحته وقد علا ضجيج النصارى من شدة فرحهم بنجاة فارسهم ، ونسبوها لمدد جاءه من السيدة مريم العذراء التي انتصر لها وقد رویت في هذا البراز قواعد الفروسية ، فلم يتعرض أحد من الفريقين لنجدۃ ابن جلدته ، لكن المغاربة لما رأوا سقوط فارسهم هاجت احقادهم فأمر موسى بقطعتين من مدفعه فأخذتا ترمي النار على صفوف الاسپانيول ، فاختلت مصافهم فقال موسى لرؤساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا نضيعن الوقت في المبارزات الشخصية ثم وثب كالغضنفر الطاوي وتبعه جماعة من خيل ورجال وحملوا حملة الرجل الواحد على صفوف النصارى فشطرواها وأوقعوا بها فلما رأى مركيز قادس ذلك لم يجد محلا لطاعة أمر الملكة في التزام السكون وأمر بالقتال واستحر الطعن والضرب من كل الجهات وقال مؤرخو الفرنج ان الملك والملكة وجميع حاشيتها من الاساقفة والامراء لما حمي الوطيس جثوا على ركبهم بمكانهم من السطح المشرف على ميدان الحرب مستغليين بمريم العذراء ، وأن استغاثتهم قد صادفت القبول فإن الشدة التي حمل بها المغاربة لم تلبث ان انحلت ووقع الرعب في قلوب رجالهم ، فولوا الادبار واجتهد موسى كثيراً مع خيالته في ضم شملهم فلم يفلح لأن أكثرهم انهزموا الى الجبال ، وبلغ بحسب زعمهم عدد من قتل وأسر وجرح من الغرناتيين نحو

الالفين ، وهذه المعركة تسمى بمناوشة الملكة ، ويقال انه بعد ان بردت البلاد للطاغية ابنت ايزابلا ديراً في قرية ، زبية ، باسم مار فرنسيسكيولم يزال الى الان وفي حديقة الدير شجرة غار (شجرة النصر) مغروسة بيد الملكة نفسها .

احتراق معسكر الاسپانيوں

وكان مرج غرناطة لم يزل باقيا منه نطاق اخضر يحيط بأسوار المدينة فاعتمز فرديناند ان لا يدع هناك غصنا أخضر ولا عذبة مورقة⁽¹⁾ واخذ يستعد لنقل محلته صوب البلدة ، وبينما هو في ذلك اذ حصل حريق في خيمة الملكة وكانت من ابدع الفساطيط في النصرانية، وامتد لسان النار في المعسكر، فلم يكن الا كلاما حتى أصبحت تلك المدينة المتحركة هباء مثوراً ، ولكن لم يصب احد باذى وظن النصارى في البداية انها مكيدة من المغاربة بقصد أن يزحفوا اليهم اثناء اشتغالهم بالحريق فأعد مركيز قادس ثلاثة آلاف فارس وتقدم بها نحو المدينة صداً للغارة فلم يبرز أحد وانما شوهدت الرؤوس المعممة متطلعة من شرفات الاسوار نحو الحريق ، وظن المسلمين ايضا أن للنصارى مأربا في احرق معسكرهم وان في طي ذلك كيداً ، وال الصحيح أن الملكة كانت أمرت احدى جواريها بنقل المصباح من جانب سريرها الى جهة أخرى ، فوضعته الجارية في مكان آخر بقرب الستار وهب عليه نسيم فاتصل اللهيب بالنسيج وحدث ما احدث .

فرديناند يزحف نحو الاسوار فيبرز له السلطان

وكان فرديناند عارفا بطبع المغاربة فخاف أن يحدث هذا الحريق في قلوبهم جرأة ويقوى لهم أملا فلم يصبح الصباح حتى عبا جيشه وزحف به نحو الاسوار مجتاحا بقية البساتين التي كانت محيطة بالمدينة فبرز السلطان أبو عبدالله من حمرائه بنخبة جيشه يذبح عن حوضه وينزود عن روضه في مواطن كاد الجبان فيه يساوي الشجاع ، واوشك الهيبة أن يلقى السباع ، اذ كان بنو الاسلام هناك

(1) الذين يزورون اسبانيا في هذه الايام يقولون ان جميع هذه المدن التي كانت زاخرة العمران في زمان العرب لا تزال منحطة قليلة السكان ، وان كل تلك الجنان لم يتجدد منها الا القليل مع انه مضى على خرابها نحو اربعمائة سنة وصدق بعض مؤرخي الافرنج في قولهم ان اسبانيا بعد العرب صارت جسما بلا روح .

يقاتلون في الدفاع عن اعراضهم واوطنهم الاخيرة ، ويناضلون عن أعز ما عندهم تحت أعين نسائهم وأطفالهم وشيوخهم المطلين عليهم من مشارف الابراج والمنازل ، ولم تكن هناك واقعة واحدة ، بل انتشرت المعارك بعدد الغياض والبساتين ففي كل حديقة معركة ، وعند كل غية مشتبك ، ولم يبق من الأرض قدم الا اريق عليه دم ، وكانت خيل موسى تجول في الميدان مشددة من عزائم المغاربة حتى لو كان منهم جريح معفر بالتراب وشاهد مرور موسى انقض قائما ، وذهل عن جراحته وكم من صريح التفت صوب موسى فترت به عينه ، ودعاه وحياه وهو يفارق الحياة .

الاسبانيون يملكون بعض الابراج ودفع موسى المستميت

وملك الاسپانيون بعض الابراج بقرب البلدة ، لكن بعد أن اذيقوا من الكفاح ، وتساقوا كؤوس الحمام مسافة الراح ، وابلی أبو عبدالله في هذا العراك بلاء تححدث به الركبان ، ولكن رجالته نكصت على الأعقاب وكاد يقع في ايدي الاعداء لولا انه نجا بفرسانه بخفة الحركة ، وظل قافلا الى المدينة تاركا في وسط المعمعة موسى الذي بذل جهد الاستطاعة في ضم شمال المشاة ، وكان يناديهم معنفا ايامهم ، ويحرضهم على الجهاد في سبيل حرهم ودمهم ، ولكن غلب الجزء على قلوبهم فلم يجيئوا مناديا ولا لبوا داعيا ، وتراجعت المشاة كلهم صوب المدينة ، فثبت موسى وفرسانه وانتصب الميزان بينهم وبين العدو بأسره ولم يعترهم فتور ولا ملال ولكن قتل منهم جملة وافرة وأثخن الباقون جراحها ، فأأخذ موسى يتقهقر بهم مدافعا الى أن بلغ المدينة فدخلها واغلق الأبواب ، وجعل وراءها الانقال والسلال ، قائلا إنه عدم الثقة في المقاتلة المعينة لحراستها ، وأمر بأن لا يخرج المشاة مرة أخرى من المدينة لملاقاة العدو .

مدافع غرناطة تجبر فردیناند على التراجع

وكانت مدافع غرناطة النارية قد فجرت أفواهها ، فرزأت طلائع الاسپانيون ، فأمر فردیناند برجوع الجيش بعد أن أحرق آخر ما احذق بغرنطة من

الخضرة ، وغادرها تختنق بدخان أشجارها ، وكانت هذه الواقعة الاخيرة التي خرج بها المغاربة للقاء الاسپانيول دفاعا عن مدینتهم الفیحاء ، وشهد سفير فرنسا الذي كان هناك من باهر شجاعتهم وإقدامهم واقتحامهم حیاض المنايا ما ملأه عجبا . قال المؤرخ واشنطن ارفن الانكليزي « ان هذه الحرب حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر ، بما تخللها من باهر الثبات والاصرار ، فإن النكبات توالت فيها على المغاربة مدة عشر سنوات بدون انقطاع فأخذت مدائهم الواحدة بعد الاخرى ، وفنيت رجالاتهم قتلا وأسراً وقاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج ، بل عن كل صخرة كأنما هم يتظرون الفتح ، ولم يجدوا مكانا تثبت فيه أقدامهم ، ولا جدارا يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به . ينزعون العدو وطنهم المحبوب ، حتى إذا لم يبق لهم الا عاصمتهم مقطوعا عنها عن كل مدد ، غير طامة في أدنى غوث نازلا على أسوارها أمة بقضها وقضيضها ، لم يزالوا يدافعون عنها ، كأنما هم يترقبون معجزة يرسلها الله في حقهم ». وقال غيره من المؤرخين القدماء : « إن مقاومتهم الشديدة تدل على الالم الذي كانوا يشعرون به لفارق مرغ غرناطة الذي كان لهم فردوسا ونعمما ، فبذلوا أقصى ما عندهم من القوة محاما عن أعلى الأرضين بقلوبهم ، لا يفصلهم عنها انخذال ولا ادباد سعد ولا اثخان جراح ولا الموت نفسه ، بل ليثوا يناضلون عن محاب قلوبهم ، ومواضيع أشجانهم الى أن سقط في أيديهم وأبى السعد ان يخدمهم ».

وبرهان ما قاله هؤلاء المؤرخون من الافرنج قول شاعر ذلك العصر في ذلك المصر سيدى محمد العربي العقيلي عندما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة :

بالطلب في كل يوم وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا وذاك الا القراع
يارب تخيرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسليبني صبرا به لقلبي ادراع

وهو الذي قال فيمن تنصر من المسلمين :
فان يرتفع عند النصارى بالابدا فكم عندنا من حرف جبل يجره

فرديناند يبني معسرا من الحجر

هذا وبعد ان دارت الدائرة الاخيرة على جند غرناطة و خاب الامل وخان الجد لزم المسلمين البلد لا يأتون بحركة وأنما انتظروا اقلاع الطاغية وتبرمه بالحصار بعد حريق الخيام ، فكان منه ان شرع ببناء معسرا من الحجر بدل الاطم والاخيبة ، ولم يكن الا قليل حتى قامت هناك مدينة عامرة باسواق وحوانيت مقسمة بشارعين عظيمين ، يقسمانها على شكل صليب فيتكون منها أربعة أحيا و في الوسط رحبة فسيحة لاجتماع الجيش ، وللمدينة أربعة أبواب تناوح مهاب الرياح الأربع ، ولما تم بناؤها أطلق عليها اسم « صستافي » أو مدينة الایمان المقدس ولم يكدر يستقر بها سكانها حتى دارت فيها الحركة التجارية ، فما كان يرى الا قواقل نازلة اليها وصاعدة منها بينما كانت غرناطة البائسة غريقة في لجة ، مقطوعة الامداد ، ثم لم تثبت أن فشا فيها الجوع بانقطاع الوارد من الميرة والمرافق ، وكانت قافلة من الطعام وقطعان وافرة من الغنم قد استولى عليها صاحب قادس وهي نازلة من جبال البشرات الى غرناطة وزاد الحال تقدم فصل الخريف وهجوم الشتاء ، فاشتد الخناق باهل غرناطة وأحسوا بالعجز عن المناسبة ، وتذكروا جميع أقوال المنجمين عند ولادة ملكهم ، وما قيل بشأن سقوط غرناطة ليلة أخذ قلعة الصخرة ، وانقطع قرع الطبول وتفخ ابواب ، وسكنت جلبة الحرب في تلك المدينة ، وغلب على الجميع اليأس .

ابو عبد الله يتشاور في التسلیم ورفض موسى لذلك

حيثئذ عقد أبو عبدالله مجلسا في الحمراء حضره أكابر قواد الجندي وحمة الحصون وأعيان مصر ، وفقهاؤه وسائلهم عن رأيهم في اسلام البلد ، فقام أبو

القاسم عبد الملك حافظ البلدة ، وبين لهم الحالة السيئة التي آلوا اليها فقال : «إن اهراينا قد خلت من المؤونة أو كادت ، ولا ننتظر الآن شيئاً في الطريق ، بل الذي كان وارداً لاجل الخيل صار قوتاً للخيالة أنفسهم ، وربما أكلوا الخيل نفسها ، وناهيك انه من السبعة الآلاف من رؤوس الخيل التي كانت عندنا برسم الرباط ، لم يبق سوى ثلاثة رأس وان في مدینتنا مائتي ألف نسمة كلها تطلب الخبز» .

فقال اعيان البلد ان اهل غرناطة أصبحوا غير قادرين على المقاومة واحتمال المحاصرة ولأي شيء يجب استمرار المقاومة ما دام العدو غير مقلع عنا ولا راض إلا منا إلا باحدى الخطتين : اما التسليم وأما الموت .

فاستدلت كآبة أبي عبدالله مما سمع واطرق ساعة ، وتأمل في وجوه العمل ، وفك في أنه لو وصل إليه على الأقل مدد من صاحب مصر أو ملوك المغرب لأمكنه الثبات ومع هذا فقلما يتمكن من الثبات إلى أن توافيه النجدات من وراء البحر نظراً لانقطاع الزاد ولذلك ارتحت عزائم وران عليه اليأس ورأى الجمهور منه ذلك فعولوا على التسليم ، واصفقوا على الدخول في ذمة الطاغية ، حينئذ قام موسى معارضاً وحده اجمعاعهم قائلاً : «لقد عجلتم في الكلام في أمر التسليم فان وسائلنا لم تقطع ، ولم يزل عندنا بقية قوة عظيمة الفعل شديدة التأثير ، وطالما كانت سبب الفتح لا وهي الاستماتة فلنستفرن العامة إلى الجهاد ولنسلحنهم ونقتلون صفوف العدو حتى نخالط استهم ، وانني لحاضر ان أمضي في هذا السبيل واتوغل في كيف جمع الاعداء وخير لي مراراً ان أعد فيمن استأكلهم الدفاع عن غرناطة من أن أعد في الاحياء من بعدها» .

ارسال الوزير أبي القاسم بطلب الصلح

فلزم تحرك كلماته منهم ساكناً ، ولم تثر عزماً ، لأن اليأس كان قد استولى عليهم ، والاعتقاد بأن المصير هو إلى ما انبع به المنجمون من السقوط ودللت عليه

الحوادث من البار اصبح عاماً عندهم ، فكانوا اسرع الى طلب المواعدة من الماء الى الحدور ، ولما رأى أبو عبدالله ان هذا هو استعداد القوم جنح معهم الى التي يتغونها ، وتقرر اشخاص الوزير أبي القاسم عبد الملك الى الطاغية لعقد شروط الصلح .

شروط الصلح

فلما قدم أبو القاسم على الملك والملكة رحبا به واكرما موصله واحواله في المذكرة على غونسلاف القرطبي وفرناندو دو صفر كاتب أسرار الملك وبعد المراجعات الطويلة تقرر الامر على انه ان مضت سبعون يوما ولم يرد في اثنائها مدد للمغاربة يتسلم الاسپانيول غرناطة وان جميع اسرى النصارى يطلق سراحهم بدون فدية .

وأن أبا عبدالله وخواص رجاله يحلفون يمين الامانة للملك والملكة ، ويتعين لهم في جبال البشرات اقطاعات معلومة لاجل معيشتهم ، وان سكان غرناطة يصبحون رعية لمملوك الاسپانيول لكنهم يحفظون املاكهم واسلحتهم وخيولهم ولا يسلمون سوى مدافعيهم ، وتكون لهم الحرية التامة في أمور دينهم ، ويتعين لهم قضاة من أنفسهم يحكمون بمقتضى قواعد كتابهم تحت سلطة ولاة منصوبين من قبل مملوك الاسپانيول ويصيير اعفاءهم من الضرائب مدة ثلاث سنين ، وفي ختامها يدفعون لمملوك الاسپانيول الجزية التي كانوا يدفعونها لمملوكهم بدون زيادة ، ومن شاؤوا منهم الاجازة الى بر افريقيا في خلال هذه المدة تعطى لهم الرخصة بالسفر مع عيالهم واموالهم بدون رسم مرور من أي ثغر شاؤوا من ثغور البحر .

واتفقوا على تسليم اربعمائة شخص من ابناء البيوتات المغربية تبقى رهائن عند الطاغية الى أن يتم تسليم البلد وفيهم نجل سلطان غرناطة .

هذه خلاصة الشروط التي قرأها الوزير ابو القاسم بمحضر الملأ من اهل

غرناطة وبين يدي سلطانه بعد عودته من معسكر النصارى ، فلم يبق واحد من حضر الا أجهش بالبكاء ولع بالعويل ، ففاضت شؤون المآقى ، وبلغت الارواح التراقصى ، وتصاعدت الزفرات من الجميع الا الامير موسى بن ابي الغسان فانه بقي ثابت الجاש عصي الدمع ، والتفت نحو الجمع فقال لهم « دعوا يا موالينا البكاء والنحيب للنساء والولاد فنحن رجال ولنا قلوب ، لا لاجل ذرف الدموع بل لاجل سفك الدماء ، وانني لأرى عزائم هذه الامة قد ارتحت وقطعوا أملهم من نجاة هذا الملك فوالله لقد بقي علينا اشرف الخطتين وهي الموت فلنمت اذاً في سبيل استقلالنا والانتقام من عدو غرناطة فأمنا الارض تتلقى ابناءها في أحشائهما غير مقيدين بسلاسل العبودية ولا قدر الله أن يكون اشراف غرناطة صاروا يخافون الموت في الدفاع عنها » .

غضب موسى وما يقال عن نهايته

ثم سكت موسى وعلت المجلس السكينة فالتفت ابو عبدالله نحو الحاضرين ، وأخذ يحدق في وجه كل منهم فلم يقع نظره الا على وجوه علتها الكآبة وظهرت عليها دلائل اليأس وأبصر الجميع مطريقين كأن على رؤوسهم الطير ، فصاح حينئذ : « الله اكبر لا اله الا الله محمد رسول الله ، باطل اجتهادنا في معاكسة الارادة الالهية ، فقد كتب في اللوح المحفوظ اني اكون شقيا وان هذا الملك يذهب من يدي » فصاح الوزراء والفقهاء : « الله اكبر لا حيلة في قضاء الله ». وارتقت الجلة بالتكبير والحوقلة من كل جانب ، لكن وقع الاجماع على قبول الشروط . ولما رأى موسى ان جميع الحضور متفقون على امضائها قام من بينهم غاصبا والتفت نحوهم قائلا : « يا قوم لا تغشو انفسكم ولا تسروا بالمحال ، ولا تظنو ان ملوك النصارى وافقوا بمواعيدهم لكم ، وانهم كرام عند المقدرة كما هم فتاكون عند القتال ، فوالله إن الموت الا حمر هو أهون ما نتوقع ، وانما نحن مستقبلون امراً أيسره اتساح الاوطان وفضيحة العيال وانتهاب الاموال وقلب المساجد وتدمير المنازل ، هذا عدا السوط والنار والنطع والنفي من الارض

والضنى في اعمق الحبوس إلى غير ذلك مما نحن صائرون اليه :

إذا لم يكن من الموت بد . فمن العار أن تموت جبانا
أما أنا فوالله دون أن أشهد ذلك «(؟)» قال هذه الكلمات وخرج من محل
الاجتماع واجما مطرقا ثم طاف بقاعة الاسود وسائر ابهاء الحمراء بدون أن يكلم
أحداً من الجسم الواقفين في الابواب ، ودخل منزله ، وتقلد سلاحه الكامل ،
وأمر فأسرج له جواوه الكريم ، فركب وخرج من باب البيرة الى حيث لم يسمع
له بعدها خبر ولم يوقف له على أثر .

قال المؤرخ واشنطن أرفن هذه رواية مؤرخي العرب في شأن غيبة هذا
البطل لكن أغاييدا روى في انتهاء أمره غير ذلك فقال : « كان في أكثر العشيّات
يجتمع عصبة من فتية الفرسان الإسبانيول سائرين للنزهة حفافي الشنيل ، ففي
إحدى المرات أبصروا عند العشاء فارساً مغرياً أخذ يدنو منهم دارعاً ، مرخي
القناع ، وحصانه مثله مغطى بالزرد ، وكانوا دارعين مثله تحت المغافر لأنهم في
أيام الهدنة لم يكونوا يحملون الا أسلحة الدفاع فلما شاهدوا هذا الفارس
المجهول متقدما نحوهم بهيئة منكرة نادوه كي يقف عنده ويعرف بنفسه .

أما هو فلم يحر جواباً ، بل ظل حاملاً عليهم ومن أول طعنة بسنائه شك
فارساً ، منهم ، فرماه عن صهوته ، ثم دار حول الباقيين شاهراً السيف فاذرع
الضرب ، وتلاحت ضرباته فلم ترتفع له يد إلا بحتف ، ولم يقع له حد إلا في
مقتل ، وكان الظاهر عليه انه مستيمت مولع بالفتوك يقاتل للاشتفاء لا للعلاء ،
ويرغب في المنايا لا في الجراح وبهوى الموت لا البقاء الى أن كب نحو نصف
الخيالة الذين التقوه صرعى على وجوبهم بفياصل ضرباته ، وقواصم طعناته قبل أن
يصاب بجراحة ذات خطير لشدة تلامح زرده وسبوغ درعه لكنه أصيب في الآخر
وخر جواوه من تحته ، وخيل أنه وقع في اليد فحاول فرسان النصارى ان يمسكوه
مسك اليد ابقاء على حياته بما بهرهم من فتكه ، وادهشهم من اقدامه ، لكنه بقي
يقاتل وهو على ركب بخنجر من خنافس كان في يده . ولما رأى قواه قد خارت

واصبح لا يستطيع اطالة الدفاع ، وخشى ان يؤخذ أسيراً زحف الى النهر فرمى بنفسه في الماء ، حيث غاصت به درعه في الحال . وكان هذا الفارس المجهول هو موسى بن أبي الغسان وقد عرف جواده بعض المتنصرة المغاربة من كانوا في معسكر الاسپانيول » قال ارفن : « ومع هذا فلم تزل هذه الحكاية مفتقرة الى زيادة التأكيد » .

أما شروط تسليم غرناطة فقد سردها المرحوم ضياباشا في تاريخه للاندلس وهي خمس وخمسون مادة تتضمن تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق ، وفي طيها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا يفي به إلا نصه .

وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة ، وعدم التعرض لامورهم الشرعية بل إعادة ذلك الى فقهائهم والمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في الاعقاب وأعقاب الاعقاب .

وفي المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ومراكبهم ومواشيهما الا الاسلحة النارية فتقرر أخذها .

وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة بامواله وامتعته ، وفيما بعدها أجرازه على نفقة دولة قشتالة من أي مرسي أراد وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل ، وإذا لم يتهيأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلاً تعتبر وكالته ، ويساعد على استيفاء حاصلاته وايصالها اليه بمكانه وراء البحر .

وورد في المادة الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جاماً بدون رخصة الفقهاء .

وورد في المادة الخامسة عشرة إعفاء السلطان أبي عبدالله وسائر أمراء

المسلمين وقوادهم وفقائهم من الضرائب والرسوم ، وإقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا لعهد ملوكهم ، وأن تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعاً .

وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين ، حتى ولا الملك والملكة ومن خالف ذلك من النصارى يجازى بشدة .

وفي المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين في سائر الممالك ، ووصل الى غرناطة ، فقد نجا ولم يكن لامروري شرطة غرناطة ، أن يمسكوه ، لكن ذلك الامتياز مخصوص بعرب الاندلس لا يتناول أسرى المغرب .

وفي المادة الثلاثين أن من أسلم من النصارى قبل هذه الكائنة فلا تجوز معاملته الا بالحسنى ولا يرى أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال من الجزاء شدة .

وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي .

وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسلمت لا تجبر على الرجوع الى دينها الاصلي ، والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها .

وفي الخامسة والثلاثين لا يرد المسلمين شيئاً مما غنموه أثناء الواقع التي جرت الى يوم تسليم البلد ، وفي التي بعدها لا يعاقبون على شيء مما مضى من تحقير الاسرى أو اهانتهم .

وفي الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلف من قائددين أحدهما مسلم والأخر مسيحي .

وفي الثالثة والاربعين تعداد جميع أسرى المسلمين في مدة ثمانية أشهر من أي بلاد وجدوا فيها من اسبانية ، وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الاندلس .

وفي التي تليها ذكر أطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غونسالف هرناندز ، وعثمان أسير كونت تنديله ، ورضوان اسير صاحب قبرة ، واعادة الفقيه ابن محبي الدين ورفاقه الذي غابوا على اثر حادثة ابراهيم بن سراج اينما وجدوا .

وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة في موانئ الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع الرسوم ، بشرط عدم نقل اسرى من النصارى . وفي الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين بل تكون شرطهم من انفسهم .

وفي آخر هذه المعاهدة تعهد الملك فرديناند وامرأته صاحبا ممالك قشتالة واراغون وليون وصقلية ان يحافظا على نص شروطها حرفا بحرف ، ويجريا جميع احكامها من خاص وعام وكلي وجزئي بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب ، وان تبقى على شكلتها وهيئتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الابد ، ولا يمكن احداً من خلفاء الملوكين المشار اليهما ولا خلفاء خلفائهم ولا حفديتهم ولا اولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا اقل حكم من احكامها ، او يبدلوا حركة من حركاتها ، واعطى الامر بها الى الامراء والوزراء والقواد والاجناد والرهبان والرعية من حاضر وغائب وقادص ودان وكبير وصغير ، وأعلن أن من يجريء على الخلل بشيء مما تضمنته هذه المعاهدة يجزى جزاء من اقدم على افساد البراءات الملكية او تقليد الحجج والسنادات بدون ادنى تأخير .

وأقسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد ، على الصورة المبينة وكتبت على رق غزال محلی ومطرز ، تحريراً في ثلاثة من كانون الاول سنة احدى وتسعين واربعمائة والف من الميلاد .

وحررها فرناندو صفره بأمر الملكين ، وأمضها الملك فرديناند والملكة

ايزابلا ، وأولادهما : الدون جان والدونة ايزابلا والدونة حنة والدونة ماريانا والدونة كتالينه ، ورئيس أساقفة أشبيلية الدون دياغو هرتادو ، رئيس أساقفة صانتياغو الدون الفونس ، وكبير فرسان صانتياغو المسمى بالدون الفونس أيضا ، والدون جان كبير فرسان القنطرة ، والدون الفارو ، زعيم رهابين مار يوحنا ، والدون بير وغوانزالس كردينان إسبانية ، ورئيس أساقفة المملكة ، والدون هنري كبير حومة أراغون ، ومن أبناء عم الملك ، والدون ألفونس من أبناء عمه ، أيضاً ، والدون الفارو مدير دائرة الملكين ، والدون بفرو فرناندز رئيس جند قشتالة ، ويليهم نحو أربعين دونا كلهم من أبناء السلالة المالكة وأساقفة البلاد وامرائها واعيائها وقوادها .

وكتب ايضاً معااهدة اخرى لسلطان غرناطة ابى عبد الله بن ابى الحسن متضمنة اربع عشرة مادة فيها تملكه الاقطاعات والاراضي والبلدان التي وهبها إياه الملكان ، معينا كل منها بذاته ، والتعهد باعطائه اربعة عشر مليونا وخمسماه قطعة من السكة المعروفة بالمراويد عند دخولهما قلعة الحمراء ، واقرار ملكيته لجميع العقار الموروث ، واعفاءه من دفع الضرائب والرسوم واداء المkos عما يجلب من الامتعة برسمه ، وانه في اي وقت شاء بيع هذه الاراضي والاملاك يشتريها الملكان كلها بقيمتها العادلة ، وان لم يشاً بيعها واراد النقلة الى بر المغرب فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفى له حاصلاتها ويوردها عليه في اي جهة كان مما وراء البحر ، وفي اي وقت عول على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً ، ولا يطالب بشيء ، ولا يكون مسؤولاً عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ، ولا يسترد شيء مما غنمته ، وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه ، تجري أيضاً في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي ابى نصر ، والـعهـدةـ الثـانـيـةـ مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا انني وجدت اكثـرـ المؤـرـخـينـ يؤـرـخـونـ امـضاءـ المـعـاهـدـاتـ فيـ ٢٥ـ كانـونـ الـأـوـلـ وـفـقـ ٢٢ـ المـحـرمـ سنـةـ ٨٩٧ـ .

فرديناند يبث جميع اساطيله وجيوشه منعاً لوصول المدد

ولما كان الاسپانيوں قد اعطوا المغاربة مهلة سبعين يوماً لاجل التسلیم بناء على امل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ، ازداد الطاغية تيقظاً وسهرًا ، وجعل الجيوش محیطة بغرنطة احاطة السوار بالمعصم وجمع الاساطيل وبثها في مراسی الاندلس ، وفي فرضة المجاز منعاً لكل مدد وارد ، فلم يطل احد ، وان أطل فلم يكن شيئاً ، لأن سلاطین الاسلام كانوا في ذلك الحین متشارغین بفتحهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً ، فضلاً عن أن الذي اصبح مقرراً في أذهان عامة المسلمين ان لا امل بحفظ مملکة الاندلس وتتجدد دولة الاسلام فيما وراء البحر الى جهة العدوة الاسپانية ، وان الجهاد في هذا السبیل عبث ، وهذا الامر کائن لا محالة ، فتركوا الامور و شأنها ، وأهل غرنطة يعللون أنفسهم بلعل وعسى ، ولكن ابتدأ الجوع يعصفهم بانيا به فرأى ابو عبد الله ان انتظار آخر المدة مما لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ، ولا رجاء في ورود اقل مدد ، ولو كان في حيز الامکان لظهر ، او كان في قيد الحياة تنفس ، فشاور الرؤساء فاشاروا بالتسليم قبل انقضاء الاجل المضروب .

قيام مرابط آخر اسمه حامد بن زارة

وفي العشرين من كانون الاول أرسل وزيره يوسف ابن کماشة مع الرهائن الى الملك فرديناند ، وأصحابه بفرسین كرمین . وسف ثمين على سبیل الهدیة ، فبته مقصدہ وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الامد . وفي اليوم التالي ظهر درویش اسمه حامد بن زارة ، فأخذ يطوف الاسواق مناديا بالجهاد ، مستنفراً العامة إلى الدفاع قائلاً لهم إنه سيرد اليهم نجدات من البشرات ، ومن بر العدوة ، وان الامل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائنوں ، وكثير هذا القيل والقال في البلد ، وصبووا اللعنات على ابی عبد الله ، ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن ، شأن كل امة غلت و شأن امة اليونان اليوم بعد ان قهرتها

الدولة العثمانية ، وجاست عساكر مولانا السلطان الاعظم خلال بلادها فقام كثير منها ناقمين على الملك جورج وولي عهده ، ولو لا صلاتهما النسبية مع ملوك أوروبا لطردhem اليونان أو فتكوا بهما^(١) .

ثورة غرناطة

فثار نحو عشرين الفا من أهل غرناطة ، وتقلدوا أسلحتهم ، وخرجوا الى الأسواق بضوبياء ملأت الفضاء ، عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو ، فاستمرروا يوما كاملا وقسما من الليل بهذه الحركة ، وإذا باعصار قد عصف بشدة ، فألزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف .

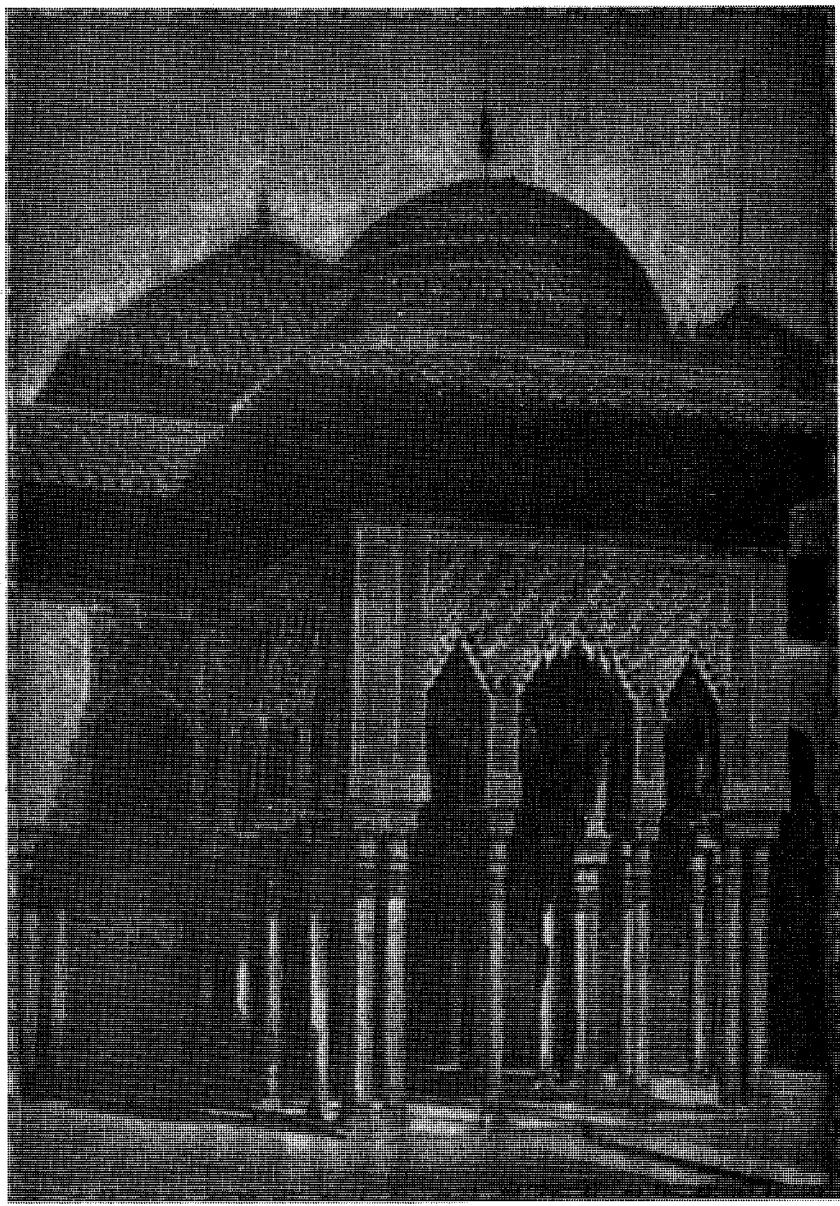
وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الحمراء محفوفا برؤساء البلد وخطاب الأمة قائلا لهم : « لا ذنب الا علي ، انا الذي عقت والدي وجلبت الاعداء على المملكة ، لكن الله قد أخذني بجرائمي ، ونزل النقمـة كلها على رأسي وهذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لاجلكم يا قومي ضئلاً بدمكم أن يراق ، وبأطفالكم أن يموتو جوعاً وبنسائمكم وذارياتكم أن تنزل فيهن معرات الحرب ، وحفظاً لأموالكم وأملاككم وحربياتكم وشريعتكم وديانتكم في ظل ملوك اسعد طالعاً من أبي عبد الله المسؤول » فأثرت رقة كلامه في خواطر القوم ، وسكنـت سورة حقدـهم ، واستلت نعومة خطابـه ما خشنـ في صدورـهم . فانفضوا إلى امكتـهم . وفي الحال ارسل أبو عبد الله إلى الملـكين يعرض عليهمـ التـسلـيم في اليوم التالي حـذراً من تـجـديـدـ الحـوـادـثـ ، فـرضـياـ بذلكـ وـتأـهـباـ لـدخـولـ الحـمـراءـ . كما انـ اباـ عبدـ اللهـ وـاسـرـتهـ وـحـشـمهـ أحـيـواـ اللـيلـ فيـ التـأـهـبـ للـخـروـجـ وـقدـ غـسلـواـ اـبـهـاءـ الحـمـراءـ بـدـمـوـعـهـ وـمـلـأـواـ نـواـحـيـهـ بـنـواـحـيـهـ ، وـزـمـواـ حـقـائـيـهـ بـسـاـ فيهاـ منـ الذـخـائـرـ وـالـاعـلـاقـ ، وـاحـضـرـواـ لـهـاـ الـيـغـالـ وـقـبـلـ أـنـ تـبـلـجـ الـفـجـرـ اـنـسـابـ حـرـيمـ أـبـيـ عبدـ اللهـ وـأـهـلـ القـصـرـ مـنـ أـحـدـ الـأـبـوـابـ حـيـثـ كـانـ بـاـنـتـظـارـهـمـ ، فـرـقةـ مـنـ فـرـسانـ الـمـغـارـبةـ

(١) هذا كان في حرب اليونان للاستراك أيام السلطان عبد الحميد ولكن في الحرب الأخيرة بين الترك واليونان قام هؤلاء على اسرتهم الملكية وطردوها كما لا يخفى مما حقق كلـمتـنا هذه .

الذين لبوا متمسكين بعروة سلطانهم إلى الآخر ، وساروا من أحد الأحياء المعتزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية ، أما عائشة الحرة والدة أبي عبد الله فكانت متجلدة ومتجملة ، وأما امرأته وسائر جواري القصر فقد قرخ البكاء مآقينه ، وحدد الدمع خدوذهن ، ولما وصل الموكب إلى أحدى القرى التي على طريق البشرات . وقف ينتظر وصول أبي عبد الله .

التسليم

عند مطلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصاحبها هرناندو دوتالافيره مطران أفيلا ودخلت من أحد من أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان أبو عبد الله ، وقال للمطران المذكور : « امض وتسليم هذه الحصون التي صيرها الله إلى أيديكم عقاباً للمغاربة على أعمالهم ». ثم تقدم لمقابلة الملkin ، وتقدمت العساكر فدخلت الحمراء ، وكان فردیناند وايزابلا يتظاران رؤية اعلام اسبانية فوق أبراجها . فمضت مدة وانظارهما شديدة فلم يريا شيئاً وخشاً وقوع حادث ، لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الحمراء - حيث لم تزل خافية إلى الآن - وبجانبها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر ، فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل خراجاً جاثيين على ركبיהם واقتدى بهما جميع الامراء والقواد والجندي شكر الله تعالى على ما من به ، وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي ، فحالما وقعت العين على العين اراد السلطان الترجل اجلالاً للملkin فمعناه ، فهو على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه فردیناند من ذلك . وقيل أن الملكة أيضاً أبنت أن ترسل له يدها وأنها احسنت عزاءه وسلمته ابنه الذي كان مرهوناً فضمه إلى صدره ، وأخذ يقبله كأن الشقاء زاد من تعلق أحدهما بالأخر ، ثم سلم ابو عبد الله مفاتيح البلد إلى الملك قائلاً له : « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في اسبانيا ، خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته ».



قصر الحمراء في غرناطة



تعالى ، فتقبلها بالرأفة التي وعدت بها ، والتي ننتظرها منك » .

فأجابه فرديناند : « لا شك فيما وعدنا به ، وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك في عداوتنا » .

ثم دفع فرديناند المفاتيح إلى الملكة فدفعتها إلى ابنها البرنس جويان ، وهذا اعطتها لكونت تنديله الذي كان قد عين قائداً للمدينة ولسائر مملكة غرناطة .

ابو عبد الله يقصد وادي برشانة

ثم انفصل ابو عبد الله عن الملوكين قاصداً المقر الذي عين له في وادي برشانة ، وسار الطاغية وامرأته نحو المدينة واصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ، ولم يدخلها يوم تسليمها بل انتظرا ان تبوأها جميع العساكر . اما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة مرحليتين من المدينة يشرف عليها وقف يodus مديتها فلم تكن في عينه أجمل منها في تلك الساعة ، فأخذ يتأمل في ابراجها وقلاعها ومنائرها الضاربة في السماء ، ومرجها النضير والمنقطع النظير ، ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكتونا قد أبكهم الحزن وأخرسهم الهم ، وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ودوي صوت المدافع إيدانا بأن المدينة دخلت في حوزة الاسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام ، فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه دون البكاء فصاح « الله أكبر » وفسح مجال الدمع ، واستمطر ماء العيون ، فجادت بالشأبيب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة : « عليك ان تبكي بكاء النساء ، ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال » وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التوارييخ ، فاجتهد وزيره يوسف بن كمامشة في تعزيته فلم يقبل قلبه العزاء ، وبقيت شؤون عينه فائضة وزفراته متتصاعدة ، وهو يقول : « أي شقاء مثل شقائي » وقد سمي الاسبانيول تلك الذروة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والجحيب « بآخر حسرات المغربي » .

دخول فرديناند غرناطة

ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغيله الى أن تكون عساكره احتلت المواقع جميعها ، ارسل مركيز فيلنة وكت تنديلة بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالأمير سيدى يحيى الذي سماه النصارى بعد تنصره بالدون بدرود غرناطة ، وعين للنظر في أمور المغاربة وبابنه الذي أطلقوا عليه اسم الدون الونزوا دو غرناطة وكان اميراً للاسطول فتبأوا جميع الإبراج ونشروا فوقها الاعلام الإسبانية .

ولم يدخل الملكان المدينة الا في سادس كانون الثاني ، وكان الاحتفال بدخولهما باهراً ، وظلا سائرين الى مسجد غرناطة الاعظم ، فحولاه كنيسة وأقيمت الصلاة شكرًا لله تعالى على هذا الفتح المبين ، وأقبل الأمراء والقادة وعظاماء الإسبانيول على الملكين يقبلون أيديهما ويهنئونهما على هذه النعمة التي اختصهما الله بها وكرمهما بحرازها . وبعد الخروج من الكنيسة سار إلى الحمراء الموصوفة فألفياها فوق ما كانا يتصورانها : من اتقان الصنعة ، وفخامة البناء ، ورحابة الساحات ، ولطافة الرسوم ، والنقوش ، وأعجبما بما فيها من الزخرفة التي تنقطع من دونها الأيدي ، والتألق البالغ حده ، سواء في الأبهاء والمقاصير ، أو التوافر والصهاريج ؛ أو المداخل والتاريخ ، إذ يتحير الناظر ما بين مرمر مسنون ، وعسجد مصون ، وسواري كأنها مفرغة في أحسن القوالب ، وسقوف كأنها السماء زينت بالكوكاب ، فاتخذ الملكان لهما عرشاً فيها ، وجلسا للتهنة حيث جاء أهالي غرناطة والبشرات يقدمون لهما واجب الإجلال ويقبلون أيديهما صاغرين ، ووُجِدَ في غرناطة يوم دخول الملكين إليها خمسمائة أسير من الإسبانيول .

وهكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الواقع ، ولا نشفت الدماء ولا انقطعت المصارع ، وبنهايتها انصرم حبل الاسلام في بلاد

الاندلس ، بعد أن استتب دولته فيها سبعمائة وثمانين وسبعين سنة منذ انهزم لذرريق على ضفاف الوادي الكبير إلى تسلیم غرناطة ، والله وارث الأرض ومن عليها .

التسلیم كما ورد في كتاب (نفح الطیب) وما تبعه من وقائع

وهكذا ما قال صاحب (نفح الطیب) عن الواقع المتقدمة إلى حين التسلیم
نقله بعض اختصار تابعاً لما تقدم من روایته :

« ثم بعث (أي الطاغية) في السنة نفسها رسلاً لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكنه عمه من القلاع ، ويكون تحت إیالته ويعطيه مالاً جزيلاً على ذلك ، وأي بلاد شاء من الاندلس يكون فيها تحت حکمه ، قالوا وأطعمه صاحب غرناطة في ذلك ، فخرج العدو في محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة ، وهذا سر بين السلطانين ، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والkeepers والاجناد والفقهاء والخاصة والعامة واخبرهم بما طلب منه العدو ، وأن عمه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حکمه ، وليس إلا أحدي خصليتين : الدخول في طاعته أو القتال فاتفق الرأي على الجهاد ، ونزل صاحب قشتالة على مرج غرناطة ، وطلب من أهلها الدخول في طاعته ، والا أفسد زرعهم ، فأعلنوا بالمخالفة ، فأفسد الزرع ، وذلك في رجب سنة ٩٥ . ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ثم ارتحل العدو عند الأیاس منهم ذلك الوقت ، وهدم بعض حصون ، واصلح برج همدان ، والملاحة وشحنهما بما ينبغي ، ثم رجع إلى بلاده وعند انتصافه نزل صاحب غرناطة إلى بعض الحصون التي في يد النصارى ففتحها عنوة ، وقتل من فيها من النصارى ، واسكتها المسلمين ، ورجع لغرناطة ثم أعمل الرحلة إلى البشرات في رجب المذكور ، فأخذ بعض القرى ، وهرب من بها من النصارى والمرتدین أصحابهم ، ثم أتى حصن اندرش فتمكن منه ، واطاعته البشرات ، وقامت دعوة الإسلام بها ،

وخرجوا عن ذمة النصارى وهنالك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملة وافرة ، فقصدهم في شعبان من غرناطة ، واستقر عمه بالمرية ، وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجه ، ثم تحرك عمه مع النصارى إلى اندرش فأخذوها لرمضان ، وخرج صاحب غرناطة لقرية همدان وكان برجها العظيم مشحوناً فحاصره ونقب أهل غرناطة البرج الأول والثاني والثالث ثم البرج الكبير وهو القلعة وأسرموا من كان بها ، وهم ثمانون ومائة واحتوروا على ما هنالك من عدة آلات حرب ، وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب ، فلما وصل حصن شلوبانية أخذه عنوة بعد حصاره وامتنعت القلعة وجاءتهم الإمداد من مالقة بحراً فلم تقدر على شيء ، وضيقوا بالقلعة ، فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحملته لمرج غرناطة ، فارتحل صاحب غرناطة عن شلوبانية ، وجاء غرناطة ثالث شوال ، ووصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجانون ، وبعد ثمانية أيام ارتحل لبلاده بعد هدم برج الملاحة وبرج آخر ، واتجه إلى وادي آش ، فاخرج المسلمين منها ، وهدم قلعة اندرش ، ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بادر بالجواز لبر العدو فجاز إلى وهران ثم لتلمسان واستقر بها ، وبها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الاندلس .

ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة ، وحاصرها ، واخذها ، واسر من كان بها من النصارى . وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ خرج العدو بمحملاته إلى مرج غرناطة ، وافسد الزرع ودوخ الأرض وهدم القرى ، وكانوا يذكرون انه عزم على الانصراف ، فإذا به صرف الهمة إلى الحصار والاقامة ، وصار يضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة أشهر ، غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء ، ونزل الثلج فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب وقل الطعام ، واشتد الغلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرش والسبب وضاق الحال وعظم الخطب وذلك أول عام ٨٩٧ وطعم العدو في الاستيلاء على غرناطة . بسبب الجوع والغلاء دون

الحرب ، ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ، ثم اشتد الامر في صفر من السنة ، وقل الطعام ، وتفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم ، وقالوا : « انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم » فأحضر السلطان اهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا في هذا المعنى ، وان العدو يزداد مده كل يوم ، ونحن لامدد لنا ، وكان ظننا انه يقلع عنا في فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبني وأسس وأقام وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم ، فاتفق الرأي على ارتكاب اخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في اسلام البلد خوفا على نفوسهم ، وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش ، منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقادوا اليها ، ووافقو عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة ، فقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء .

« وفي ثاني ربيع الاول من سنة ٨٩٧ استولى النصارى على الحمراء ، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين ، منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ، ورباعهم وعقارهم ، ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت عليه ، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والواقف كذلك ، وان لا يدخل النصارى دار مسلم ، ولا يغصبو أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين نصراني ولا يهودي ، وان يفتَّ جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا خصوصاً اعينا نص عليهم ، ومن هرب من أسرى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان ، لا يلزمهم الا الكراء ، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع

للنصارى ، وان من تنصر من المسلمين يوقف اياما ، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما اراد ، ولا يعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ ما سلب من النصارى ايام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة اجناد النصارى ، ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم المحدثة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود^(١) ، وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منهم يعاقب ، ويترون من المغارم سين معلومة ، وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة ، ويضع خط يده . وامثال هذه مما تركنا ذكره . وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحرماء والمدينة جعلوا قائداً بالحرماء وحكاماً ومقدمين بالبلد . ولما علم بذلك اهل البشرات دخلوا في هذا الصلاح ، وشملهم حكمه على هذه الشروط ، ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج اليه في الحمراء ، واصلاح سورها وصار مختلف اليها نهاراً وبيت بمحنته ليلاً الى أن اطمأن من خوف الغدر ، فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبراً بما يروم « انتهى .

السلطان ابو عبد الله ينقطع في وادي برشانة

وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الاسبانيو انقطع السلطان ابو عبد الله في أرضه بوادي برشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات ، وكذلك لوزيره يوسف بن ك마شة الذي لزم بابه ، فاقام مدة هناك ذاق اثناءها طعم الراحة ، وانتقض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط ، لكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضي ملكه وعليائه ، ويحن الى غابر حمرائه ، فتشور فيه الأشجان ، وتسشعر فؤاده

(١) لعل الاصل : ولا يحمل علامه الخ - او - ولا يجعل له علامه كما يجعل لليهود مصححة

الأحزان . في هاتيك المدة لم يدع الملكان وسيلة الا استعملوها لاجل صبائه عن دين آبائه وادخاله في النصرانية ، فاختفت مسامعهما ، وبقي بالهما مشغولا من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلا للخوف من انتفاض مسلمي الاندلس تحت رايته والتفافهم حواليه ، ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كمashaة سراً في ابتياع اراضي مولاه بثمانية آلاف دوكا من الذهب ، فتمت الصفقة ، وانعقد البيع بدون علم أبي عبد الله ويدون أن يعتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة ، بل نقهde المال ، فحمله البغال وسار الى البشرات ، فلما وصل بين يدي مولاه نشر الدنانير أمامه قائلا له :

«رأيت يا مولاي أن بقاك هنا معرض للخطر ، فإن المغاربة أهل اقدام وثار ، وحملة أوتار ، ولا يبعد أن يثوروا مرة رافعين رايتك ، وتعزى ثورتهم اليك ، فتقع في المقيم المقعد ، وما دمت في هذه البلاد يخطر في بالك أنك كنت أميراها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة ، لذلك رأيت الانجح في حرك بيع اراضيك ، وهوذا ثمنها لديك ، يمكن لك أن تتملك به اراضي واسعة جداً وراء البحر» .

ابو عبد الله يجوز الى مدينة فاس ونهاية امره

فلما سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضبا ، واحتضر سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره ، فأسرع هذا الى الفرار من حضرته ، وبقي أبو عبد الله وحده يتأمل في هذه المسألة ، ويقلب من وجوهها ، فلم يلبث أن ذهب ما به ، وعاد اليه سكونه ، واستدل أن هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة فرديناند في زياله من هناك ، وان الحق قد يكون مع وزيره يوسف ، فأجمع الرحلة وشد حقائبه ، وجمع أمواله وكنوزه ، وتحمل الى أحد التغور حيث شيعه كثيرون من قومه داعين له بالتسهيل . قلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منها العبرات ، وتصاعدت من صدره الزفرات ، ونزل بمليلة ، ومنها سار الى فاس نزيلا على سلطانها متلهفا على ما سلف ، وفي بعض تواريخ

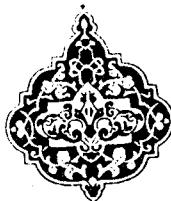
الافرنج انه توفي قتيلا في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ اي بعد ٤٤
حولا من فراقه اسبانية ، ولذلك قال فيه احد المؤرخين : « انه قتل في سبيل
الدفاع عن مملكة سواه ، بعد ان جبن عن ان يقتل في الدفاع عن سبيل
مملكته » .

وأما النفح فيقول في نهاية أمره ما يأتي : « ثم احتال (أي الطاغية) في
ارتفاعه (أي أبي عبد الله) لبر العدوة ، واظهر ان ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب
لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لاحد ان يمنع مولاي أبي عبد
الله من السفر حيث اراد من بر العدوة ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ،
ويقف معه وفاء بما عهد له ، فانصرف في الحين بنص هذا الكتاب ، وركب البحر
ونزل بمليلة ، واستوطن فاسا ، وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف
بذلك ، وحين جوازه لبر العدوة لقي شدة وغلاء وبلاء » .

ويقول بعد ذلك : « والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو
أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الاسلام بالأندلس ومحيت
رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن
السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم
الانية ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، أو هو المخلوع الوافد على الأصقاع
المرينية بفاس ، العائد منها لملكه في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس .
وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن
السلطان اسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ، ابن فرج بن
اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصاري الخزرجي رحمهم الله تعالى
جميعاً . وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده
معتذرًا عما أسلفه ، متلهفًا على ما خلفه ، وبنى بفاس بعض قصور على طريق
بنيان الاندلس ، رأيتها ودخلتها وتوفي رحمة الله تعالى بفاس عام أربعين
وتسعمائة ، ودفن بازار المصلى خارج باب الشريعة ، وخلف ولدين اسم أحدهما
يوسف والآخر أحمد ، وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس ، وعهدي بذربيته

بفاس الى ان سنة ١٠٣٧ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » انتهى .

وأما قوله في رسالته إلى السلطان فاس التي أنشأها له أبو عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي وهو « ولقد عرض علينا صاحب قشالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطي من أمانه المؤكد فيه خطه بایمانه ما يقنع النفوس ويكتفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الاحمر مجاورة الصفر . ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين الايمان والكفر » إلى آخر السجع - فهو من قبيل التغالي والتعزز إذ لو لا احتيال فردیناند عليه ما فارق أوطانه والله أعلم » .



الفَصْلُ السَّابِعُ

حال مسلمي الاندلس فيها بعد ذهاب ملتهم

عهد الانتقام والابتلاء والاكراء

ورد في تاريخ «الاسلام في اسبانيا» تأليف ستانلي لا نبول ما محصله : «إن آخر أنفاس أبي عبد الله على تلك الربوة لم يكن بأخر حر أنفاس المسلمين في تلك الديار ، بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء ، وافتتاح عهد انتقام وابتلاء ، وان أسقف غرناطة الاول هرناندو دو تالافيره كان رجلا حليما عادلا أحسن معاملة المغاربة ، وأبى الجور عليهم ، تعلم اللسان العربي ، وكان يصلبي به ، وعلى يده ارتد ألف من المغاربة إلى النصرانية . قيل ان ثلاثة آلاف تنصروا في يوم واحد ، الا ان الكردينال كسيميناس الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف بالسيء ، ومال الى العنف والاكراء ، وأساء معاملة المسلمين ، وحمل الملكة ايزابلا على ما بقي نقطة دهماء ، في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم واكراههم على التنصر ، فأثار ذلك ساكنهم ، وأخرج كامنهم ، وفي احدى المرات حبست امرأة من البيازين لشأن من هذا القبيل ، فثار سكان البيازين ، وتحصنوا ، وحملوا السلاح ، وكادوا يفتكون بالجنود ، وأوشك الدم ان يسيل بحدة الكردينال كسيميناس .

اقفال المساجد واحراق الكتب

إلا ان المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل بعض البيازين بالسكينة والانس مع نفر من حاشيته بدون سلاح ، وسأل القوم عن شكوكهم ، وتقبلها

بالاستماع والاحتفال ، وهذا روعهم وأعاد طائر الامن الى وكره ، وحجب الدماء يومئذ ، على أن كسيميناس المشهور لم يزل يغوي الملكة حتى أصدرت أمرها بإكراه المسلمين على احدى الخطتين : الجلاء أو النصرانية ، وذلك بأنهم كانوا يذكرون المسلمين بأنهم سلالة النصارى في الاصل ، فأغلقت المساجد ، وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبد الحقب ، وأذيق المسلمون العذاب اشكالاً ولواناً ، ففضل عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم ، الا ان شعلة الحمية الاسلامية بقيت تلمع في جبال البشرات حيث حتمتهم أوغارهم من مضطهدיהם .

الثورة الاولى وهزيمة الدون الونزو

وانتقام الاسپانيوں الهمجي

وأول جيش ارسل اليهم تحت قيادة الدون الونزو دو اغيلار البطل الشهير انهزم هزيمة شنعاء وذلك في سنة ١٥٠١ ، وقتل الدون المذكور ، وقيل انه الدون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين ، فازداد انتقام الاسپانيوں من المغاربة بعد هذه الغلبة ، وهجم كونت طنديلة على قوجار ، وهدم كونت سرين جاماً على جماعة التجأوا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم ، وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال ، فمن بقي حيا من الثوار فر الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية ، وانتهت الثورة الاولى في الجبال .

تظاهر المسلمين بالتنصر

ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب ، والمسلمون المنتصرون يعمدون أولادهم ظاهراً ، فإذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية ، وإذا تزوج أحد الموريشك (لقب المتنصرة من المغاربة) أجرى القسيس عقد الاكليل ، ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية .

اهالي الاندلس يساعدون قرصان البحر والاسبانيول يكرهونهم على تغيير عاداتهم

وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصارى ، ويأتون غير ذلك ، فلو كانت ثمت حكومة عاقلة قوية ترعى عهودها التي واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ، ولكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا عدل ، وكانوا يزدادون بتمادي الأيام شرًّا ، ولم تلبث الاوامر ان صدرت باكراه المغاربة على ترك ألبستهم المخصوصة بهم ولبس البرنيطة والسرابيلات الاسبانيولية ، وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداء بغالبيتهم في احتمال الأقدار ، ثم منعوهم من التكلم بالعربية ، وصدر الأمر بأن لا يتكلموا بغير الاسبانيولي ، ويأن يغيروا اسماءهم ، ويسيروا سيرة اسبانيولية ، ويسموا أنفسهم اسبانيولا ، وكان تصديق الامبراطور شرل كان هذا الامر الفظيع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر من اعتماده اجراؤه بالفعل ؛ لكن عماله اتخذوا ذريعة لاستنزاف اموال الموسرين من المغاربة ، وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجر بهذه المسألة .

الثورة الثانية في البشرات

لما صار الامر الى فيليب الثاني شدد في إنفاذ الأوامر بحق الموريسيك وسنة ١٥٦٧ عزز الامر الصادر بشأن تغيير الزي واللغة باستيثاق غريب لاجل منع النظافة التي هي من سنن الاسلام ، وذلك بأنه أخذ يهدم حمامات الحمراء البديعة ، فالطراائق التي أخذوا بها لتنكير احوال تلك الامة هي أشد من ان يحتملها أي قبيل كان ، دع سلاطيل المنصور وعبد الرحمن وابناء سراج ، ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر ، واشتعلت الفتنة ، وثار فرج بن فرج من نسلبني سراج بجماعة من ذوي الحمية من غرناطة قاصداً الجبال قبل أن تتمكن الحامية من تعقبهم ، ونودي بهرناندو دو فلور من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على الاندلس تحت اسم محمد ابن أمية ، وعمت الثورة في اسبوع واحد كل انحاء جبال البشرات ووقع ذلك سنة

. ١٥٦٨

ولما كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الارض مرتفع وأوعرها مسلكا ، كان تدوين سكانها من أصعب الامور منالا ، والفتنة فيها بعيدة المرمى ، فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافلا تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتياط من الجانبيين ، لكنه ايضاً حافل بوقائع ينذر في تاريخ الفروسية وكتب الحماسة الظفر بامثالها ، وتبقى على صفحات السير فخرًا للقرون والامم ، وكان المغاربة هناك في موطنهم الاخير والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر على نحو مئة سنة قصوها في البلاء العظيم ، والهون الذي ليس له نظير ، فهبا جميعاً منادين باخذ الثأر واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية ، وهدموا الكنائس وأهانو ما فيها ، وفكوا بالقسيسين ، وعدبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم ، واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج ودافعوا دفاعاً شديداً . وكان مركيز مونتيجارة قائداً في غرناطة ، فعمد الى المسالمة ، وأخذ بالملائنة ، وكانت الوقدة تنطفئ لولا ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء في حبس البيازين من المغاربة قيل إن ذبحهم بغير علم المركيز ، لكن الموريسك لم يقلوا العذر ، ونشروا لواء الثورة ، وصار ابن أمية أميراً بالفعل على جميع جهات البشرات ، الا أنه لم يكن من يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبوبيع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبد الله بن ابويه .

الدولة الاسانية تقضي على الثورة واسترقة الثوار

فارسلت دولة اسبانية لتدوين الثوار الدون جون الاوسترى اخا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر ، باشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ واتى من الفظائع ، ما بخلت بانداده كتب الواقع ، فذبح النساء والأطفال أمام عينيه ، وأحرق المساكن ودمر البلاد ، وكانت علامته « لا هوادة » ، وانتهى الامر بإذعان الموريسك ، لكنه لم يطل واستأنف مولاي عبد الله بن أبوه الكرة ، فاحتلال الاسپانيوو حتى قتلوه غيلة ، وبيقي رأسه منصوبا فوق أحد ابواب غرناطة ثلاثة سنّة . وافحش الاسپانيوو في قمع الثورة بما اقدموا عليه من الذبح

والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب هناك خلقاً كثيراً ، و Xenophanes
 الذين نجوا من الموت ، لكنهم وقعوا في الرق ، وسيقوا مماليك وعبداناً ونفي
 جملة منهم ، فأخذ عددهم يتناقص . ولما كان اليوم المشهود والمذكور في
 التواريХ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين
 ألفاً ، والذين أخذوا منهم في معمعة الفتنة صاروا إلى الاستعباد ، والباقيون
 أخرجوا من البلاد مخمورين ، فمات كثير منهم على الطرق تعباً ، فمنهم من أجاز
 إلى بر العدوة وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضروري ، ومنهم من لجأ إلى
 بلاد فرنسا حيث استقبلوهم براً وترحيباً واحتاج إليهم هنري الرابع لأجل دسائسه
 في مملكة إسبانية ، ولم ينته اخراجهم تماماً إلى سنة ١٦١٠ إذ وقع الجلاء
 الأخير ، ولم يبق في تلك البلاد مسلم بعد أن ولها الإسلام ثمانية قرون . ويقال
 إن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة إلى السنة العاشرة
 بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين ، وإن الذين خرجوا آخر مرة نحو نصف
 مليون .

الإسبانيوں یخربون بیوتوہم بآیدیہم

وأما الإسبانيوں فلم يعرفوا ماذا يصنعون ، ولا أنهم يخربون بيوتهم
 بآیدیہم ، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة ، مع أن إسبانيا كانت مركز
 المدنية وبعث أشعة العلم قروناً ، وقلما استفادت بقعة أوروبية من حضارة
 الإسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد ، فلما غادرها الإسلام انكسفت شمسها ،
 وتسلط نحسها ، وإن فضل مسلمي الاندلس ليظهر في همجية هؤلاء القوم ،
 وتأخرهم في الحضارة ، وسقوط هذه الأمة في سلم الاجتماع ، بعد أن خلت
 ديارها من الإسلام » انتهى كلامه ملخصاً .

وانستشهد في حاشية هذه الجملة بنقل يمثل لك درجة هذه الحقيقة ، وهو
 أن للملك حول مدينة غرناطة ضياعاً واسعاً ومزارع ، التزموا بيعها سنة ١٥٩١

بسبب كونهم يخسرون عليها أكثر من غلتها ، مع أن هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غناء ، وغياضا ذات افياء ، وموارد ثروة ورخاء .

واشنطن ارفن يصف الثورة

وقال واشنطن ارفن في تاريخه لفتح غرناطة ما معناه ملخصا : « انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسپانيوو بقيت الحال غير مستتبة تماما مدة سنوات ، إلى أن وقع من اجتهاد رؤساء مذهب الكاثوليک في حمل المسلمين هناك على النصرانية ما أیأس مغاربة الجبال المتشددين في دینهم ، فشاروا برؤساء الدين ، وقبضوا على اثنين من هؤلاء الدعاة في مدينة دارين ، وعرضوا عليهمما الاسلام فامتنعوا فقتلواهما . وقيل ان النساء والولاد قتلواهما عصا^(١) بالعصي وشدخا^(٢) بالحجارة ، وإنهم احرقوا جثيهم ، فانتقم النصارى من هذه الفعلة بان اجتمع منهم نحو ثمانمائة فارس ، وساروا الى قرى المغاربة يخربون ويعيثون ، فاعتتصم المغاربة بالجبال ، وانتشرت الفتنة في الجبال كلها ، لكن وسطها كان في جبل برميجه المصاقب للبحر ، فلما اتصل الخبر بالملك فردیناند أصدر أوامره بنقل المغاربة الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة ، وأعطى الامر سراً بان يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ، ثم رمى تلك الامة بالقائد المشهور الونزو دو اغيلار ومعه جيش وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة ، فما اقترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم إلى رندة للدخول في النصرانية ، وجم^(٣) الباقيون منهم تحت قيادة فارس اسمه الفهري سائقين نسائهم وأطفالهم الى حيث يتعدى السلوك من تلك الاوعار ، ورابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسپانيوو ، فالتحقى الجمuan أمام بلدة موناردة ، وانتصب القتال ، فيقال ان الدون الونزو مع ابنه الدون بطر وثلاثمائة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فازا حوصهم ، وتلاحقوا في الهزيمة ، فتتبعهم الجنديون يغنمون وينهبون ،

(١) قعنه قعضا : قتل مكانه ، أجهز عليه .

(٢) شدخ الرأس شدخاً : كسره .

(٣) جمر القوم على أمر : تجمعوا وانضموا .

ولما امتلأت أيديهم بالغنائم كر عليهم الفهري بجماعة من أبطاله ، وعلت الصرخة ، فارتخت لها جوانب الاودية ، وذعر الاسبانيوں فتداعوا للفرار ، وثبت الونزو في مكانه يحرضهم ويضم من شتت شملهم ، فصبر معه جماعة ، وولى الاكترون ، ودخل الظلام ، وخيم الغسق ، واشتد الخناق بالاسبانيوں وجراحته ابن الونزو ، فأمره أبوه بالرجوع ، فأصر على البقاء بجانب أبيه ، فأمر اتباعه بحمله إلى معسكر كونت أوريينه ، فاحتملوه مشحناً جراحًا ، ولبث الدون بمائتين من رجاله يناضلون حتى فروا عن آخرهم .

وتحصن الدون بين صخرين يتقي بهما ، فبصر به الفهري ، فقصده واستحر الصراع ، وألحّ وطبع في قرنه ، وكانا متماثلين في ثبات الجنان مع قوة الا ضلاع ، وتوثق الخلق ، فصاح الونزو بخصمه : « لا تحسين نفسك وقت على صيد هين ، فأنا الدون الونزو دو أغيلار » فاجابه المغربي : « ان كنت انت الدون الونزو فاعلم اني أنا الفهري » ثم كوره صريعاً ، ومات بموته مثال الفراسة الاسبانيولية . وأنموذج الغشمشية في الاندلس .

واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيوں ، ولم ينكفؤوا حتى لاح الصباح ، فأجلوا المعترك عن قتل الدون فرنسيسكو دوراميز المدريدي الذي كان قائداً للمدفعية الاكبر ، وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة ، لكن مصرع الدون الونزو دو أغيلار انسى الاحزان جميعها . وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة ، فسكنت بحضوره الثائرة ، واشتري بعض المغاربة أرواحهم ، فجازوا الى افريقيا ، واحتسمى آخرون بالنصرانية ، وأما أهل البلد الذي قتل فيه الدعاة فسلكوا في سلسلة العبودية ، وببحث الملك عن جثة الدون ، فوجدها بين مائتي جثة من الاسبانيوں ، فيها أجساد عدد من الأمراء والكبار ، فحملوها الى قرطبة في مشهد حافل ، بين مدافع كالسحاب الهواطل ، ودفن في كنيسة مار هيبيوليتو ، ونذهب الاسبانيوں دهراً طويلاً » انتهى كلامه مجملاً .

وذكر المؤرخ الفرنسي الشهير فيكتور دروي في تاريخه ما يأتي ملخصاً :

« ان اسبانية تخلصت من العرب ، لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب ، وكان لذلك العهد سكان الجزيرة أخلاطاً من مسلمين ونصارى ، ويهود ، فعول فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزاً للدولة ، فأنشأ ديواناً جديداً للتفيش . وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير ، ويوضع يده على أملاك المحكوم عليهم ، وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين وال المسلمين المتنصرين ظاهراً الباقيين في الباطن أمناء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كالبدع الدينية أيضاً .

إنشاء ديوان جديد للتفيش

وستة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد ان سلبواهم أموالهم ، وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرین لتلك الحادثة عدد من خرج منهم ٨٠٠ الف (قلت منهم جماعة وافرة بأزمير ، وأقوام بالاستانة ، هاجروا اليهما في تلك الكائنة ، ومنذ خمس سنين^(١) احتفلوا بعيد مضي الأربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العلية ، أكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين) والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذبه أحد من العالمين ، وستة ١٤٩٩ صدر أمر بسلب المغاربة حرفيتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة ، فجلا منهم جم غفير ، ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالي في سنة ١٦٠٩ ، وهكذا فازت اسبانية بوحدتها الدينية ، لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود أهم عمالها » .

وذكر مرة عند كلامه على شركان انه «أكمل مقصد فرديناند، فأكره مغاربة بلنسية على التنصر، وأهل غرناطة على ترك زيهם، والتكلم بغير لغتهم» وقال

(١) دون هذا التاريخ في سنة ١٣١٥ هـ . الموافق سنة ١٨٩٧ م فيكون الاحتفال قد حصل في سنة ١٣١٠ هـ الموافق ١٨٩٢ م .

بمناسبة فيليب الثاني انه : « اضطهد المغاربة ، وضيق عليهم حتى التزموا الثورة سنة ١٥٦٨ ، وأوقدوا نيرائهم على تلك الجبال اياذانا بالخروج ، وكان يمكنتهم بما أمسكوه من مخانق جبالهم الثبات طويلاً لو امتدت اليهم يد معونة من اخوانهم أهل افريقيا ، ففرق فيليب شملهم ، وبددهم في مقاطعته ، ولم تمض سنتين عشر حتى صاروا كلهم أرقاء » .

كلام المقرى في نهاية الاندلس

ثم لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة كلام المقرى في هذه الواقع الاخيرة وهو ببعض تصرف : « ثم ان النصارى نكثوا العهود، ونقضوا الشروط عروة وعروة، إلى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصير سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى ان يرجعوا قهراً للنصرانية ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا قوة لهم ، ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك كان نصراانيا فأسلم فلترجع نصراانيا ، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكم وقتلهم ، وهذا كان السبب للتنصر قالوا : ان الحكم خرج من السلطان ، ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا ان ينتصر ، وبالجملة فانهم تتصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصير ، واعتزلوا النصارى ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن ، كذلك ، منها بلفيق واندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجميع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً ، الا ما كان من جبل بللنقة فان الله تعالى أعنهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة (هو الوززو دو اغيلار) ، وأخرجوا على الامان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر .

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصير من المسلمين بعد الله في خفية ، ويصلبي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة ، فضلاً عن غيرها من الحديد .

وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً إلى أن كان إخراج النصارى أيامه بهذا العصر القريب أعوام^(١) سبعة عشر والف ، فخرجت ألف بفاس ، وألف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة .

وأما الذين خرجن بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وببلادها ، وكذلك بتطوان وسلا وفيجة الجزائر ، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً ، وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور ، والحمامات ، وهم الآن بهذا الحال ، ووصل منهم جماعة إلى القسطنطينية العظمى ، والى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى .

قلت وأشهر الائمة الذين أدركهم عهد الاستيلاء على غرناطة ورحلوا فيمن رحل إلى الشرق قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الازرق صاحب التاليف الجليلة ، منها (بدائع السلك في طبائع الملك) ، هذا فيها حذو ابن حليدون ، وقد دخل مصر بعد الارتحال عن وطنه ، واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الاندلس ، قال المقرئ : « فكان كمن يطلب بيس الأنوق » . ثم حج ورجع إلى مصر ، وجدد الكلام في غرضه ، فدافعوا عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس ، فتلولاه بتزاهه وصيانته ، ولو نظم بديع ف منه قوله :

تأملت منْ حُسْنِ الرَّبِيعِ نِصَارَةً وَقَدْ غَرَدْتُ فَوْقَ الْغَصُونِ الْبَلَابِلِ
حَكَتْ فِي غَصُونِ الدَّوْحِ قِسَاً فَصَاحَةً لَتَعْلَمَ أَنَّ النَّبْتَ فِي الرَّوْضِ بِاقْلِ
وَقُولَه

(١) لعل أصله : أي عام .

تعجبتُ مِنْ يانعِ الوردِ فِي
سَنِي وَجْنَةِ نِبْتُهَا بِأَرْضٍ
وَلِمْ لَا يَرَى وَرْدُهَا يَانِعاً
وَمِنْهُ قَوْلَهُ عِنْدَ نِزْوَلِ الطَّاغِيَةِ بِمَرْجِ غَرْنَاطَةِ :

تذَكَّرَهُ نَجْدٌ وَتَغْرِيهُ لَعْلُجُ^(۱)
فَلَمْ يَقِنْ لِلْسُلْوَانِ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعُ
وَمَنْ لِي بِجَنْفِنِ تَنَاهِيَ مِنْهُ أَدْمَعُ
وَخَلَّ الَّذِي مِنْ شَرِّهِ يُتَوَقَّعُ
وَيَا فَوْزَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلصَّبْرِ يَرْجُعُ
فَأَلْطَافُهُ مِنْ لَمْحَةِ الْعَيْنِ أَسْرَعُ
فَسُوفَ تَرَاهُ فِي غَدٍ عِنْدَكَ يُرَفَعُ
فَلِيَسْ لَنَا إِلَّا إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُ

مَشْوَقٌ بِخِيمَاتِ الْأَحْبَةِ مَوْلَعٌ
مَوَاضِعُكُمْ يَا لَا تَمِينَ عَلَى الْهَوَى
وَمَنْ لِي بِقَلْبٍ تَلْتَظِي فِيهِ زَفْرَةُ
رَوِيدَكَ قَارِبٌ لِلْطَّائِفَ مَوْضِعًا
وَصَبَرًا فَإِنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ غَنِيمَةٌ
وَبِتْ وَاثِقًا بِاللَّطْفِ مِنْ خَيْرِ رَاحِمٍ
وَانْ جَاءَ خَطْبٌ فَأَنْتَظِرْ فَرَجًا لَهُ
وَكُنْ رَاجِعًا لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ

أَمَا الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ أَحَقُ الْحَقَائِقِ ، وَأَمَا إِنَّهُ لَا بُدُّ مِنْ اِنْكَشَافِ الْخَطُوبِ
فَهَذَا خَطْبُ الْأَنْدَلُسِ لَمْ يَنْكَشِفْ إِلَّا بِتَقْلِصِ ظُلُّ الْإِسْلَامِ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَطَالَمَا
اِرْتَقَبَ أَهْلَهَا الْلَّطَائِفَ فَلَمْ تَطْلُ عَلَيْهِمْ إِلَّا الْبَلَايَا الْكَبَارِ ، حَتَّى آلُ أَمْرِهِمُ إِلَى
الْحَرِيقِ بِالنَّارِ ذَلِكَ بِقَدْرِ مِنْ اللَّهِ^(۲) إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(۱) الْلَّعْلُجُ : السَّرَابُ .

(۲) تَكْرُرُ فِي هَذَا التَّارِيخِ ذِكْرُ الْقَدْرِ وَهُوَ هُنَا فِي مَوْضِعِهِ فَإِنَّ الْقَدْرَ وَالْمَقْدَارَ أَنْ تَكُونَ الْوَقَائِعُ بِقَدْرِ أَسْبَابِهَا
وَعَلَلِهَا وَجَارِيَةً عَلَى نَظَامِ سَنِنِ اللَّهِ الْمُطَرَّدةِ فِي الْخَلْقِ ، وَأَمَّا مَا نَقْدَمُ مِنَ الْاعْتَذَارِ عَنِ الْخَضُوعِ لِلْأَعْدَاءِ بِالْقَدْرِ
وَكُونِهِ خَضُوعًا لَهُ لَا لَهُمْ فَانِمَا يَصْحُبُ فِي حَالِ الْعَجَزِ التَّامِ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ فِي جَهَادِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ أَوْلَئِكَ الْمُعْتَذِرِينَ
بِالْقَدْرِ كَذَلِكَ ، وَلَا سِيمَا ذَلِكَ السُّلْطَانُ الْأَفْلَمُ الْفَاسِقُ ، فَيُجِبُ أَنْ يَعْلَمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ بَدْعَةَ الْاعْتَذَارِ بِالْقَدْرِ
عَنِ الْمُعَاصِي وَعَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُجِبُ مِنْ حُقُوقِ الْأَمَةِ الْعَامَةِ كَالْجَهَادِ ، وَعَنِ الْإِسْتِلَامِ لِلْأَمْرَاضِ وَالْمَصَابِ وَعَدْمِ
الْإِهْتِمَامِ بِدُفْعَهَا بِالْأَدْوِيَةِ مثَلًا ، هِيَ اِقْتِلَ الْبَدْعَ لِهَذِهِ الْأَمَةِ ، وَقَدْ تَوَسَّلَ بِهَا بَعْضُ الْمُسْتَعْمِرِينَ لِاقْتَاعِ الشَّعُوبِ
الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ بِالرَّضَا بِسُلْطَانِ الْأَجْنَبِيِّ بِحُجَّةِ أَنَّهَا بِقَدْرِ اللَّهِ ، وَأَنَّمَا الْوَاجِبُ مُقاوَمَةُ الْأَقْدَارِ بِالْأَقْدَارِ ، كَمَا قَالَ
الْخَلِيفَةُ الثَّانِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، حِينَ أَمْرَ بَعْدَ دُخُولِ الشَّامِ لِوَجْدِ الْبَوَاءِ فِيهَا ، فَقَبِيلَ لَهُ
« اِنْفُرْ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ؟ » قَالَ : « نَفَرْ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ إِلَى قَدْرِ اللَّهِ ». وَقَدْ كَانَ الَّذِي سَأَلَهُ سُؤَالُ الْأَنْكَارِ أَبُو عَيْبَةَ
(رَضِيَّ) فَقَالَ لَهُ : « لَوْ غَيْرِكَ قَالَهَا ۹۹ ».

ثم ان الاندلسيين المطرودين النازلين ببر العدوة انتقاموا من الاسپانيوو و من طوائف الفرنج عما اذيقوه من العذاب بجهاد البحر الذي أشار اليه المقرى ، حيث انهم انتظموا في سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أيام كان أهلها يلقبون بملوك البحر ، وكانت دول اوروبا باسرها تدفع لهم الجزية ، وتواصل الى والي الجزائر الهدايا دفعاً لغاية السفن المغربية عن سفنهما ، فكان من قطع المغاربة - خصوصا الاندلسيين منهم - السبل البحرية على بحارة الاسپانيوو وغيرهم من السبي والاسر والعبيث الذي أتوه على شواطئ اوروبا لا سيما اسبانيا ما ألف له الاوروبيون تواریخ خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن في صدورهم ، وفي الواقع لا نري عداوة طال أمرها ، وتقدت جمرها كالعداوة التي بين المغاربة والاسپانيوو .

وقد اتفق الكتاب على أن الاندلسيين الجالين عن بلادهم إلى بر العدوة احتملوا معهم على أيديهم صناعة الاندلس ، وفي صدورهم هم أهلها ، ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة إلى حيث ألقوا عاصتا سيارهم ، فأخذت عنهم فنون ، وشاعت بواسطتهم صنائع ، وانتشرت بسببهم فوائد ، وكانوا مع رثأة حاليهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدي الا من زهيد المتع يمثلون حينما حلوا قطعة من الاندلس ، ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معايشهم وسائل شؤونهم وماخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق ، وتدل على الاصالة في التمدن ، حتى ان الكاتب فليكس دوبوا الافرنسي الذي ساح في أواسط افريقيا في العام المنصرم^(١) ، عشر على قبيل في جوارتنبكتو يقال لهم الأنجلوز حق بما أخذه من أخبار اصول تلك القبائل أنهم من جالية الاندلس كما يدل عليهم اسمهم ، وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقا وأعلى طبقة في المدينة من القبائل المجاورة لهم ، ولهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقوش الى غير ذلك ، والظاهر انهن متراكون الى السودان عن مراكش ، وسبحان من بيده تصارييف الامور .

(١) اي عام ١٨٩٦ م .

خاتمة

لا تزال آثار العرب حية في إسبانيا ، تشهد بفضل هذه الامة ، وتنطق
بامتزاج الاسلام مع الحضارة ، وان كثيراً من الاماكن في تلك البلاد خصوصا
غرناطة وقرطبة وشبيلية بل بلنسية وطليطلة قد يظن الداخل اليها أن المسلمين لم
يغادروها الا منذ عهد قريب ، وقد اندمج كثير من الوضاع العربية في البناء
بالهندسة الإسبانية ، كما اختلط اللسان الإسبانيولي بالعربي ، وتولدت من هذا
الاقتران ألفاظ خلásية ، سرد منها الفاضل المحقق أحمد أفندي زكي^(١) جمهورا
في رحلته الى الاندلس المنشورة في جريدة الاهرام .

وقد اتفق المحققون من مؤرخي الافرنجة أن إسبانيا كانت مجاز العلم من
الشرق الى الغرب ، ومبئث أشعة العرفان ، أفضها العرب ، فاستنارت بها
اوروبا ، واهتدى بها طويلا ، وقد تركوا هناك آثارا في الصناعة والزراعة والبناء ،
وافخم ما بقي عنهم منها مبانיהם التي لا تزال الى الآن بهجة السياح ودهشة
الناظرين ، على انهم في أيامهم لم يتركوا فرعا من فروع العلم ولا شعبة من شعب
التمدن الا ضربوا فيها بسهم ، وكانوا فيها القدوة لغيرهم ، فما شئت من طب
وجراحة وصيدلة وفلسفة ومنطق وطبيعة وهيئة^(٢) ورصد وحساب وجغرافية .

(١) هو الاستاذ العلامة أحمد زكي باشا المصري .

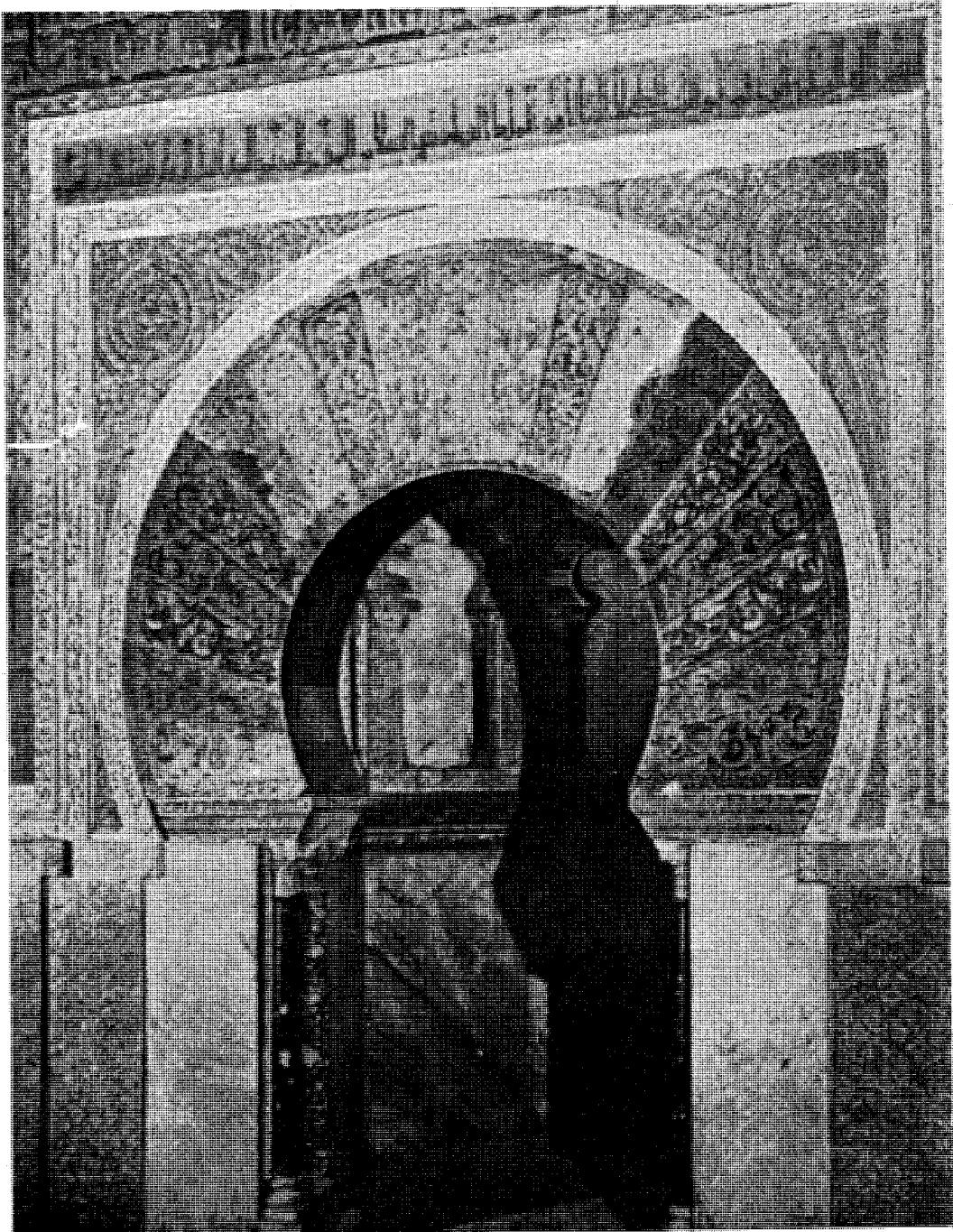
(٢) علم الهيئة : علم يبحث فيه عن احوال الاجرام السماوية (Cosmographie).

ومن أشبونة خرج الاخوة المغوروون هائمين في بحر الظلمات طمعا في الوصول الى بر وراءه يعدون اليه على ما ذكر الشريف الادرسي في كتابه (نزهة المشتاق ، الى اختراق الأفاق) ، وقد قمت بنشره في الجرائد اجابة لبعض السائلين عن ذلك من أهل اميركا ، وكانت عندهم مبادئ في الفنون العسكرية والملاحة ، وعناء جزيلة بخزائن الكتب ، وحمل العلم وتأليف الاندية العلمية واختراع الآلات ، وهم الذين أدخلوا الى اوربا الكاغد^(١) والبارود من الصناعة ، على ما أدخلوه من النبات والشجر الجديد في الزراعة ، وبالاجمال فكانوا حملة العلم وانموذج الامم المتقدمة في القرون الوسطى ، وكانت اسبانية لعهدهم جنة الله في أرضه ، ونكتة معمور الدنيا بطوله وعرضه ، وغابت شموسها من بعدهم ، وأوحشت لفقدهم .

وقد ذكر لافاله على وجه الاجمال مدينة الاسلام باسبانية ، وأتى على بيان مزاياهم في الصناعة والزراعة والغراس والبناء ، ووصف قصر اشبيلية وحرماء غرناطة وجامع قرطبة ، وأطال في خصائص الهندسة العربية والزخرف الشرقي ، ثم تكلم على أسلحة الاندلسيين ، وقرر أن العرب هم أول من استعمل المدافع الناريه في اوربا ، وانهم هم الذين هدوا الاوروبيين الى صناعة البارود ، وعرفوهم بصنعة اخرى أشد تأثيراً على الاجتماع الانساني وهي عمل الورق ، قال وانهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين ، وبلغوا الدرجة القصوى من الحضارة حينما كان اقرانهم ملفوفين في حنادس الجهة والبربرية ، فكانوا فوقهم في العلم ومثلهم في الپأس ، وكانوا حكماء في المجالس ؛ أشداء في المازق ، فان قيل فإن كانت الحال على ما وصفت فلماذا سقطوا .. ؟ قلنا انهم ظلوا مدة ثمانية قرون لم تنقطع بينهم الفرقه والشقاق الذي كان يمزقهم كل ممزق ، وانه أعوزهم روح الوئام والاتحاد الذي به قوة الامم وفلاحها .

ولا أتعرض الان لتفصيل ما انطوى تحت هذه التضاعيف مما يستغرق

(١) الكاغد والكاغد والكاغد : القرطاس .



مَرْأَبُ جَامِعٍ قَرْطَبَةَ

المجلدات الكبار لا سيما وإن الكلام في هذا الموضوع قد طال طولاً أخاف عليه انتقاد القراء ، والسبب فيه اني لم أستحضر التأليف بتمامه قبل طبعه ، وانما كنت أؤلفه وأنشره متتابعاً ، فحرضت أن لا يفوتي فيه شيء أعتقده مهما مما وصلت إلى الاطلاع عليه يدي القاصرة ليأتي كتاباً مستوفى في بابه ، ويكون قد نفع الغليل في هذا السبيل ، وجعلت أكثر اعتمادي في متأخر المدة على الكاتب الانكليزي اللغة (واشنطن ارفن) مع المقابلة بينه وبين غيره ، ومزاوجة النقل الافرنجي دائماً مع الرواية العربية من (نفح الطيب) التي لم أطلع على سواها في هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى . ولا يبعد اني ان حفقت أشياء فوق ما كتبت بهذا الكتاب ، مما يتعلق بأخبار غرناطة أصفته إلى هذا الكتاب في الطبعة التالية .

ولا ينس القارئ الليبي اني نبهته إلى غرضي في مقدمة الكتاب وهو التنقيب عن أخبار الحقبة الأخيرة من نزول المسلمين بتلك البلاد ، لأن هذه القطعة هي أشد الأقسام احتياجاً إلى هذا المعوز من تأريخهم ، واني لا أستحسن مذهب الكتابة في ما طال تعاور الأقلام اياه بلغة قوم ، وصار التأليف فيه زيادة أعداد ، واضاعة مداد .

ومن الغريب أن هذا التاريخ فضلاً عن ندوره بالعربي لمن أجر المطالعات بالوعي لما جاء فيه من سير الابطال ، وأوصاف مواطن النزال ، وما تبطنه من غريب الواقع الحاكية موضوع القصص ومولود الخيال ، مما لا يعتري قارئه الملل .

ولا أكتم القارئ الذي هو خليق بان لا يخفى عليه ذلك بشفوف بصره ولطف حسه أن الأمر غير الحال في هذا الاملاء أيضاً من نزعه جنسية ، وحنونه عصبية ، وهفوة للقول ادواره آثاربني الجلدة ، مما تستشعر فيه مرضاً هذه النفس العظيمة السر ، البعيدة مهوى الغرض ، الغريبة شكل الهم ، وتتوفر به اللذة والراحة لهذا الوجود الداخلي السائح في أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها ، على ترجيح الأقرب فالأقرب ، وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه ، والميل للاتصال ببناء أبيه ، فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التي هي جزء

من هذا المجموع ، لما يحس من أن أقرب أنواع الدم إلى دمه هو الجاري في عروق قومه ، فهو يحن إليهم ، ويحنو عليهم ، ويتالم لألمهم ، ويعتز بعزمهم ، وتراه اذا غابت أشخاصهم استأنس بآثارهم بعد الاعيان ، وارتاح الى مواطنهم ، ورغم في الدوس على مواطئ أقدامهم ، ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذي يصاب بعزيز أو بذى قرابة يختلف الى قبره ، ويشفي بالبكاء عنده حرارة صدره ، وإذا ظفر بقطعة من ملبوسه أو مفروشه ، أو برقعة من خطه ، احتفظ بها ، وغالب في قيمتها ، وجعلها مدار أنسه ، في خلوات نفسه ، وروح حياته ، في متبد مناجاته ، وبناء على هذه القاعدة اولع الخلق بحفظ آثار الغابرين ، وتطلعوا بغريزة فيهم الى معرفة سير السالفين ، ووقفوا على الاطلال الدوارس ، وبكوا على الدمن البوالى ، كأنما يجددون عندها عهودهم مع آبائهم ، ويشدون لديها معهم عروة وفائهم .

ومن هذا المأخذ انبعث الشعور بالميل الى احتذائهم ومحاكاتهم في سيرهم ، واقتاصص الخافي والعافى من أثرهم ، تصديقا لقول نبينا ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم شيئاً بشبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه»⁽¹⁾ فيما ليتنا نتبع الأن سنن من قبلنا ، ونقتدي بسلفنا ، ونبني بناء اوائلنا ، ونعتبر بحمراء غرناطتنا ، وخضراء دمنا ، ونتأمل في سالف عزها وسابق أمرها ونجتنب الفرقة التي آلت الى فقدها ، ونسأل رسومها عما مضى من نعيمها ، فهي رسوم ان لم تجبك حواراً ، اجابتكم اعتباراً ، فلا يكون دائمًا من شأننا ان نتباهي بمجد الاولى ونفاخر بالعظم الرميم ، دون أن نقتضي اثر الآباء ونحي ذكر القديم ، ولا

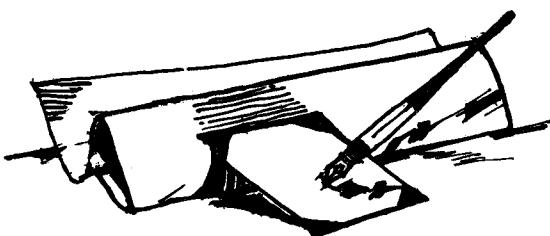
(1) الحديث في مستند الصحيحين وتنتهيه أن الصحابة (رض) سألهو ﷺ عن قبلهم فقالوا : « يا رسول اليهود والنصارى » ؟ قال : « فمن؟ ». وفي رواية انهم فارس والروم ، وكلتاهم بمعنى ، والمراد أنهم بعد الانتداب بالاسلام ، والاعتصام به ، سيتدعون في دينهم ويتفرون شيئاً بعد اتحادهم ، كما فعل من قبلهم من الامم المجاورة لهم ، فيجعل بهم من عقاب الله ما حل بآولئك ، وكذلك وقع ، وما حل بهم في الاندلس من الشواهد عليه . ولكن المؤلف أراد أن يعظ المسلمين من طريق آخر على طريق أسلوب الحكيم ، فتمنى لو اتبعوا سنن سلفهم الصالحة فيما أصلحوا فيه قبل فساد أمرهم .

يبقى من نصيبينا في المجد إلا حديث سمر ، ومجرد ذكر ، وما أحسن ما قال شوقي
شاعر العصر :

وذات دلائل من بني الرُّوم حولها
عنيت بها حتى التقينا فهزّها
فقالت أطيب بعد عسر وشدة
عطلنا من النعمي وطوق غيرنا
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها
إذا ما تبدلت أخوة سبعة مرد
فتى عربي ملء برديه مجد
فقلت : نعم مسك الاحاديث والنذر
تداولت الايام وانتقل العقد
ولكن عن أغصانه رحل الورد

هذا وكان الفراغ من كتابة هذا التاريخ ليلة السبت الواقع في
السادس والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة
وثلاثمائة بعد الالف الموافق ٢٦ من حزيران

سنة ١٨٩٧



وثائق تاريخية

اربعة مراسيم سلطانية صادرة عن ابي الحسن
علي بن ابي النصر بن أبي الاحمر
الى بعض فرسان الاسپانيول
وزعماهم بين سنتي
١٤٧٥ و ١٤٧٠

عن نسخة مطبوعة بباريس
سنة ١٨٦٣ .

المرسوم الاول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ، ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الامير المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيده الله بنصره ، وأمده بيسره ، إلى الفارسین المكرمین الزعیمین الحسینین المشکورین الوفین دون دیاقه هرندس المرشکال ومرتین الهنše ذی منت میور صاحب القبذیق اکرمهمما الله بتقواه ، وأسعدھما بهداه ، سلام یراجع سلامکم کثیراً ؟ کتبنا اليکم من حمرائنا العلیة بغرناطة حرسها الله عن الخیر والعافیة والحمد لله .

إلى هذا فاعلموا أيها الفارسان المكرمان انه وصل كتابکم ، وفهمنا جميع ما ذكرتم فيه فشكروا تعريفکم وقصدکم ، وأنئنا على محبتکم وموذکتم ، وشكرواکم على وصولکم للقبذیق وعلى إظهار المحبة التي لا شك فيها فأنتم - علم الله - عندنا من أحبابنا الأوفياء ، وأصدقائنا الأصفياء ، وبسبب انه وصلنا التعريف ان دون الهنše والفرسان جازوا على توجھ وزیر مقامنا لجهة وادی آش ، ولأجل انه توجه سريعا ، ولم یصح عندنا من الاخبار شيء ب الصحيح ما عرفکم شيء ، فنريد منکم ان لا تزالوا تعرفونا بما یزيد عندکم ، وكذلك نحن نعرفکم بما یزيد عندنا ، وجميع حوائجکم عندنا مقضیة والله یعمل کرامتكم بتقواه .

كتب في (التاسع) عشر لربيع الاول عام خمسة وسبعين وثمانمائة صفحه .

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . ليعلم من يقف على هذا المكتوب الكريم أو يسمعه ، اننا عبد الله امير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا امير المسلمين ابي النصر ابن الامير المقدس ابي الحسن ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين ابي عبد الله ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين ابي الوليد بن نصر ايدنا الله بنصره .. وأمدنا بيسره ..

كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحبيب المشكور الاوفي دون ديقه هرندس دي قرطبة قندقبرة بن قندحسن اشر، صاحب بيانه، وقائد القلعة والفارس المكرم الزعيم الحبيب المشكور مرتين الهنشة ذي منت مبور صاحب القبديق ، والفارس المكرم الحبيب الزعيم المشكور يعيش بنينعش صاحب لك والبندين اكرمهم الله بتقواه صلح ثابت ، ومحبة صادقة ، ومودة خالصة ، منعقدة لأمد معلوم ، ولأجل أن هذه المحبة التي بين مقامنا وبين الفرسان المذكورين هي تزداد في كل يوم وفي كل حين ، ونحن نريد ان تزيد اكثر من ذلك ، وانا نجددها الان ، وان ندخل في الصلح والمحبة الفرسان المكرمين يعيش بنينعش صاحب لك والبندين وذون ديقه هرندس المرشكال بقشتالة . والوزير الكبير بقرطبة ، وذون مرتين قمندور استيه اولا القند ذي قبره ، فلأجل ذلك تعلمون ايها الفرسان المكرمون والاحباب المشكورون ذون ديقه هرندس ذي قرطبة قندقبره وبين قندحسن اشر وصاحب بيانه وقائد القلعة ، ومرتين الهنشة ذي منت مبور صاحب

القديق ، ويعيش بنيعيش صاحب لك ، والبندين وذون دياقه هرندس المرشكال بقتالية ، الوزير الكبير بقرطبة وذون مرتين قمندور استبة . اكرمم الله بتقواه ، وان مقامنا الكريم يعقد ويجدد معكم صلحاً صحيحاً ، ومحبة ثابتة خالصة لهذه من عشرة اعوام اعمجية متواالية يكون اولها اول يوم من شهر نينير الاعجمي مفتتح عام اثنين وسبعين واربعمائة والف لتاريخ المسيح ، ويكون تمامها آخر يوم من شهر دجنبر الاعجمي عام احد وثمانين واربعمائة والالف لتاريخ المسيح المذكور ، على ان تكون احباب احبابكم ، واعداء اعدائكم ، وان نعيينكم في جميع الامور التي تحتاجون اليها في وطنكم بقدر جهودنا على جميع اعدائكم من اي صنف كانوا ، للمرة التي تريدونها ، وفي الوقت الذي تعرفونا ب حاجتكم في الاعانة ، او توجهوا رسولكم في طلب ذلك ، نعيينكم بقدر جهودنا ، وكذلك نعرفكم ايها الفرسان المكرمون بجميع ما نعلمه او نتعرفه من سر او غيره مما لا يكمل لحرمتكم نعرفكم بذلك سريعاً . مع رسول صادق معروف لاجل ان يجعلوا خلاصاً في ارضكم قبل وقوع الفساد ، واذا نميز ضرراً لجهتكم نجتهد في تبعيده عنكم ، وان ميزنا فائدة او مصلحة لجهتكم نجتهد في تكريبيها لكم ؛ ونحفظ المودة والصحبة المنعقدة بيننا وبينكم في الاقوال والافعال ،

واعلموا أيها الفرسان المكرمون المذكورون أن أولادنا الامراء أسعدهم الله يحفظون لكم هذا الصلح وهذه المحبة والصحبة مثلما نحفظها نحن بخاصة مقامنا الكريم ، فانكم من أجل احبابنا الأوفياء ، وأصدقائنا الأصفياء ، ومن أهل رأينا الكبار ، فجانبكم عندنا محفوظ ، ومحبتكم صحبة ثابتة ، لا نشك في صدق محبتكم ولا في خلوص مودتكم ، ونحن نعاهدكم على صحة جميع ما ذكرنا لكم ونحلف لكم بالله الواحد الحق على أن كل ما ذكرنا لكم نوفي به ونحفظه ونحرزه بالقدر والوفاء في كل وقت من غير غدر ومن غير خداع . ولاجل أن يكون هذا العقد صحيحاً وثابتاً ، ختمناه بعلامتنا السعيدة الصادرة من يدنا الكريمة ، وجعلنا عليها طابعنا العزيز المعهود عن مقامنا الكريم . في أوائل رجب الفرد المبارك عام ستة وسبعين وثمانمائة عرف الله بحكمته . صح هذا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الامير المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أいで الله بننصره ، وأمده بيسره ، إلى الفارس المكرم الزعيم الحبيب المشكور الاوفي دون دياقه هرندس ذي قرطبة قند قبره بن قند حصن أشر صاحب بيانه وقائد القلعة أكرمه الله بتقواه وأسعده بهداه .

سلام يراجع سلامكم كثيراً أثيرة كتبنا اليكم من الحمراء العلية بغرنطة حرسها الله عن الخير والعافية ، والحمد لله والى هذا فاعلموا أيها الفارس المكرم والقند المرفع ، انه وصلنا كتابكم صحبة القائد جوان يناده ، واستوفينا ما ذكرتم فيه ، وأمرنا وزير مقامنا الكريم أسعده الله أن يتحدث معه ، ويقرر له قصد مقامنا العلي أعلاه الله حسبما يخبركم به ، وما ذكرتموه عن وجهتكم وسفركم لسلطان قشتالة صديقنا أكرمه الله بتقواه ، فإذا مصلحتكم في ذلك فتتوجهوا ان شاء (الله) بالسلامة ، واعلموا أيها القند المرفع أن حبيينا ولدكم المرشكال أكرمه الله بتقواه ، وأرضكم تكون منا بحال ، وما يعلمهم الا ما يرضيهم ، والذي وقع ما وقع الا بأسباب يقررها لكم المذكور ، ولا نشك ان فرساننا اخطأوا في بعض ما نظر ، ولكن محبتكم عندنا معلومة ، فلا تشکوا في ذلك ولا تعتقدوا

خلافه ، ويريد منكم ان توصوا اهل القلعة ان لا يخرجوا عن الواجب ، وكل
مالك من الحوائج نعمل فيها ما يرضيكم ، والله يعلم كرامتكم بتقواه .

كتب في الرابع والعشرين من الربيع الاول عام ثمانين وثمانمائة ، صبح هذا

Adresse au verso:

الفارس المكرم الزعيم الحبيب الاولى
دون دياقه هرندس ذي قربة قند قبره
بن قند حصن أشر صاحب بيانه وقائد القلعة
أكرمه الله بتقواه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من عبد الله
امير المسلمين علي الغالب بالله ، ابن مولانا أمير المسلمين ابي النصر ابن الامير
المقدس ابي الحسن ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن أمير المسلمين ابي عبد
الله ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن أمير المسلمين ابي الوليد بن نصر ، أيده
الله بنصره ، وأمده بيسره ، إلى الفارسین المكرمنین الزعیمنین المشکورین الوفین
الاحبین ذون دیاقه هرندس المرشکال بقشتاله ، ومرتین الهنشه ذی منت میور
صاحب القبديق أکرمهمما الله بتقواه ، ووفقهما بهداه ، سلام يراجع سلامکم کثیرا
أثیرا ، كتبناه اليکم من الحمراء العلية بغرنطة حرسها الله عن الخیر والعافیة ،
والحمد لله ، والی هذا فاعلموا أيها الفرسان المکرمون انه وصلنا كتابکم ،
واستوفينا ما ذکرتم فيه، فشكروا قصداکم ومحبتکم والامان الذي طلبتموه،
يعملکم کرامۃ لكم ، وقد أمرنا وزير مقامنا العلي أسعده الله بكتب لكم بالغا
حسبما يعلمکم ، فاعلموا هذا وكل ما لكم من الحاجات نعمل فيها ما يرضیکم ،
والله ي عمل کرامتكم بتقواه ، وكتب في الرابع عشر لجمادي الآخر عام ثمانين
وثمانمائة ، صبح هذا .

adresse au verso:

الفارسان المکرمان الزعیمان
ذوق دیاقه هرندس المرشکال ومرتین الهنشه
ذی منت میور صاحب القبديق أکرمهمما الله بتقواه

الفهرس

	تمهيد
٧	
١١	الفصل الأول : ذكربني سراج
١٧	الفصل الثاني : في ذكر مملكة غرناطة
٢٢	ذكر أجل قواعد الأندلس
٢٦	ذكر فتح الاندلس
٢٧	عبد الرحمن الداخل وبنو امية
٢٧	المنصور بن ابي عامر
٢٨	سقوط العامريين ومباعدة بنى امية
٣٢	بنو حمود الحسينيون
٣٣	بنو عباد اللخميون
٣٤	بنو ذي النون
٣٦	بنوهود
٣٦	بنو الافطس
٣٧	بنو صمادح
٣٧	بنو حيوس
٣٧	قادي الاسبانيول وتهيؤ ابن عباد للقتال
٣٩	دعوة ابن تاشفين للجهاد
٤١	واقعة الزلاقة الشهيرة
٤٥	ظهور الموحدين
٤٨	وقعة الأرك
٤٩	السلطان يعقوب بن المنصور
٤٩	وقعة العقاب
٥٠	دولة بنى مرین

٥٣	الفصل الثالث : في دولة بنى الااحمر
٥٤	بعد تقلص ظل الاسلام عن الاندلس
٥٧	المدجنون
٥٨	أسباب الفشل
٥٩	قصائد الاستغاثة
٦٠	سينية ابن الانبار القضاعي
٦٢	سقوط بلنسية وقرطبة
٦٥	سقوط لوشية والمرية واستردادهما
٦٥	سقوط مارذة وبطليوس ومرسية
٦٦	قصائد استغاثة أخرى
٦٦	دالية أبي جعفر الوقشي البلنسي
٦٧	قصيدة نادتك اندلس
٦٩	نونية أبي البقاء الرندي
٧١	سقوط شرق الاندلس
٧٢	صمود غرناطة
٧٥	محمد بن الااحمر وثورات المدجنين
٧٦	استصراخ بنى الااحمر للسلطان يعقوب
٧٩	مواقف السلطان يعقوب في الجهاد
٨١	قصيدة ابن الااحمر في الاستغاثة
٨٣	الجهاد الثاني لامير المسلمين
٨٤	خوف ابن الااحمر والفتنة
٨٥	ندم ابن الااحمر وعودته للحلف
٨٩	وفاة السلطان ومبایعه ولی عهده أبي يعقوب
٨٩	السلطان يعقوب وسقوط طريف
٩١	وفاة السلطان أبي يعقوب
٩٣	مواقف السلطان أبي الحسن المریني في الجهاد

٩٣	ظهور اساطيل الاسلام على اساطيل الافرنج
٩٤	اسباب سقوط طريف من جديد
٩٧	هزيمة الاسطول الاسلامي في بحر الزقاق
٩٩	ايات محمد الخامس من بنى الاحمر
١٠١	خبر لسان الدين بن الخطيب
١٠٧	زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب
١١٦	اضطهاد اسبانية لمسلمي الاندلس ويهودها
١١٧	خبر المدجنين
١١٩	عود الى ابن الاحمر
١٢٥	الفصل الرابع : في دول اسبانية المعاصرة لدولة بنى الاحمر
١٢٥	ملكة نافار
١٢٥	ملكة آراغون
١٢٧	ثورة مينورقة
١٢٨	الحرب بين قشتالة واراغون
١٢٩	ملكة قشتالة
١٣٣	خبر السيد LECID
١٣٣	وفاة فرديناند
١٣٤	الحرب الثانية بين قشتالة واراغون
١٤١	وحدة تاجي ليون وقشتالة
١٤٣	ملوك اسبانية الجائزون
١٤٦	الحرب من جديد بين قشتالة واراغون
١٤٨	الخلاف في قشتالة
١٥١	فرديناند ملك قشتالة وايزابيلا ملكة آراغون
١٦٠	الفصل الخامس : في ذكر مشيخة المرابطين والغزوة من الاسلام والنصرانية
١٦٣	عامر بن ادريس والأعياض
١٦٧	عثمان بن ابي العلاء شيخ الغزوة
١٦٨	

- ١٦٩ رئاسة الغزاة بعد عثمان بن أبي العلاء
 ١٧٠ سلطان الاندلس يياشر الغزو بنفسه
 ١٧١ لسان الدين بن الخطيب وامارة الغزاة
 ١٧٤ رسائل لسان الدين بن الخطيب
 ١٧٨ اورووبا تتجدد الاسپانيول
 ١٨١ الفصل السادس : في سقوط غرناطة
 ١٨١ عودة الى ذكربني الاحمر
 ١٨٢ السلطان علي ابن الاحمر وحروبه
 ١٨٣ حدود مملكة غرناطة وسكانها
 ١٨٦ زوجتا ابي الحسن والفتنة
 ١٨٧ نكبة الحامة
 ١٩١ الحرب على لوشة
 ١٩٢ انتقاض ابي عبد الله على أبيه السلطان
 ١٩٣ غزوات ابي الحسن في طريف
 ١٩٤ غزوات الامير ابو عبد الله
 ١٩٥ هزيمة مركيز قادس ورفاقه
 ١٩٩ ابو عبد الله يخنق في فتح لشانة ويؤسر
 ٢٠٠ عودة ابي الحسن الى غرناطة
 ٢٠١ اطلاق سراح ابي عبد الله وعوده الفتنة
 ٢٠٢ وقائع رندة والصخرة والحامة
 ٢٠٤ سقوط ايبلورا ونزول السلطان ابي الحسن لأخيه
 ٢٠٥ فردیناند يقصد مالقة وسقوط رندة
 ٢٠٦ الزغل يتصر على كبير قبره
 ٢٠٦ سقوط حصن قبيل
 ٢٠٧ سقوط قلعة زالعة
 ٢٠٧ الحرب بين الزغل وابن أخيه وقسمة المملكة

٢٠٨	سقوط لوشة
٢١٣	وصول خبر الاندلس الى المشرق
٢١٣	خوف فرديناند وسقوط بلش
٢١٦	حصار مالقة
٢١٧	حامد الزغيبي وجماعة الزغل يأبون الاستسلام
٢١٨	القتال وصمود مالقة
٢١٩	فرديناند يجدد طلب التسليم
٢١٩	القتال المريض من جديد
٢٢٠	تفشي الجوع في مالقة
٢٢٠	الزغل يسير جيشاً لنجددة مالقة
٢٢١	النجدات تترى الى مالقة والى فرديناند
٢٢٣	القتال الاخير وسقوط مالقة
٢٢٤	فرديناند يدخل مالقة ويتحول مسجدها الى كنيسة
٢٢٥	كرة أبي عبد الله الرغل
٢٢٦	غارات المسلمين
٢٢٧	حصار بسطة
٢٢٨	اهالي بسطة يتأنبون للقتال والحصار
٢٢٨	الحرب والقتال الشديد
٢٣٠	تراجع فرديناند وعزمته على الرحيل
٢٣١	فرديناند يعيد تنظيم جيشه
٢٣٣	الرغل يعجز عن امداد بسطة
٢٣٥	انذار سلطان مصر الى فرديناند
٢٣٧	فرديناند يرسل المؤرخ بطرة مارتيل بسفارة الى مصر
٢٤٣	سقوط بسطة صلحًا
٢٤٤	فرديناند يكرم القادة وتنصر الامير يحيى

- ٢٤٧ الزغل يدخل في طاعة الطاغية
 فرديناند يطلب إلى أبي عبد الله تسلیم غرناطة
- ٢٤٩ بوادر الحرب بين غرناطة وفرديناند
 موسى بن أبي غسان روح الجهاد
- ٢٥٠ موسى بن أبي غسان روح الجهاد
 الحرب
- ٢٥١ سقوط حصن رومة
- ٢٥٢ الزغل ينضم بجنوده إلى فرديناند
- ٢٥٣ تراجع فرديناند وقيام أبي عبد الله للجهاد
- ٢٥٤ سقوط حصن همان في يد أبي عبد الله
- ٢٥٥ سقوط حصن ماشينة وبليدة بيده أيضاً
- ٢٥٦ أبو عبد الله يفك بفتح شلوبانية ويدخلها
- ٢٥٧ فرديناند يخرج أهالي وادي آشن وبسطة والمرية
- ٢٥٨ الزغل يجوز إلى إفريقيا
- ٢٥٩ فرديناند يحاصر غرناطة من جديد
- ٢٦٠ وقائع الأمير موسى
- ٢٦١ المبارزات
- ٢٦٢ تسلل الإسبانيوں إلى غرناطة وانسحابهم منها
- ٢٦٣ الغرناطيون يهاجمون موكب إيزابيلا
- ٢٦٤ احتراق معسكر الإسبانيوں
- ٢٦٥ فرديناند يزحف نحو الأسوار
- ٢٦٦ الإسبانيوں يملكون بعض الأبراج
- ٢٦٧ مدافع غرناطة تجبر فرديناند على التراجع
- ٢٦٨ فرديناند يبني معسكراً من الحجر
- ٢٦٩ أبو عبد الله يتشاور بالتسليم ورفض موسى
- ٢٧٠ ارسال الوزير أبي القاسم يطلب الصلح

٢٧٣	شروط الصلح
٢٧٤	غضب موسى وما يقال عن نهايته
٢٨٠	فرديناند بيث اساطيله وجيشه لمنع المدد
٢٨٠	قيام مرابط آخر اسمه حامد بن زارة
٢٨١	ثورة غرناطة
٢٨٢	التسليم
٢٨٥	ابو عبد الله يقصد وادي برشانة
٢٨٦	دخول فرديناند غرناطة
٢٨٧	التسليم كما ورد في «نفح الطيب»
٢٩٠	السلطان ابو عبد الله ينقطع في وادي برشانة
٢٩١	ابو عبد الله يجوز لمدينة فاس ونهاية أمره
٢٩٥	الفصل السابع : حال مسلمي الاندلس فيها بعد ذهاب ملوكهم
٢٩٥	عهد الانتقام والابتلاء والاكراه
٢٩٥	اقفال المساجد واحراق الكتب
٢٩٦	الثورة الأولى وهزيمة الدون الوزرو
٢٩٦	ظهور المسلمين بالنصر
٢٩٧	اهالي الاندلس يساعدون قرصان البحر
٢٩٧	الثورة الثانية في البشرات
٢٩٨	الدولة الاسانية تقضي على الثورة
٢٩٩	الاسبانيون يخربون بيوتهم بأيديهم
٣٠٠	واشنطن أرفن يصف الثورة
٣٠٢	إنشاء ديوان جديد للتفتيش
٣٠٣	كلام المقربي في نهاية الاندلس
٣٠٧	خاتمة
٣١٥	وثائق تاريخية



طبع هذا الكتاب على نطايع
دار مكتبة آجيات للطباعة والنشر
بيروت - شارع شتنها
٢٣٩٣٠ - ص. ب

